١٧١

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الثالث والعشرون

طبع بمطبعة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

وناشر طبعه ـ محمد أمين عمران

صفر سنة ١٣٥١ هـ

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة ق

هي مكية

إلا آية : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » فمدنية

آياتها ٤٥ — نزلت بعد المرسلات

وهي في : اثبات النبوة والحشر

وذلك في مبحثين

الأوّل : فى النظر فى السموات والأرض ، وأخبار الأمم الماضية ، من أوّل السورة إلى قوله : « بل هم فى لبس من خلق جديد » .

المبحث الثانى : فى الكلام على الموت وسكرته ، وعلى الملائكة المراقبين حركات الانسان وسكناته ، وفى أحوال يوم القيامة ، من قوله : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه » إلى آخر السورة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

قٓ وَالْقُرْاٰنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ *
أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ
حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ
فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرٰى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهٖ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ *
رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهٖ بَلْدَةً مَيْتًا كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ
الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ
الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ * وَلَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهٖ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى
الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ
سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ *
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ
غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهًا اٰخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي
الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ
لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ *
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ *
هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ *
ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا
قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذٰلِكَ

لِذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ *

المبحث الأول فيه ثلاث مقامات

المقام الأوّل فى تفسير البسملة .

المقام الثانى فى معنى « ق » .

المقام الثالث فى تفسير الآيات من أوّل السورة إلى قوله « بل هم فى لبس من خلق جديد » .

المقام الأول فى تفسير البسملة

للرجة فى هذه السورة أدوار ثلاثة : دورالبـداية ، ودورأهمّ النشاط فى الأعمـال ، ودور النهاية ، وذلك كأدوارالانسان ، فهوشاب ، وكهل ، وهرم . وكأدوارقصة يوسف :

(١) فهو مع اخوته فى مشاكل الحسد ، والمنافسة ، والالقاء فى البئر ، ووقوعه فى شرك امرأة العزيز .

(٢) ثم فى حفظ مال الدولة المصرية والقيام بسياستها ، وإكرامه اخوته وأبويه .

(٣) ثم انتهى إلى الله وقال : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » :

***

(١) هكذ الحكماء الذين عرفوا الله بعقولهم كسقراط ، فأوّل حياته شك فى نظام العالم ، وفى خالقه ، وعموم علمه ، فى مقابلة حسد إخوة يوسف ورميه فى الجب الى آخر ماتقدم .

(٢) ثم انه عثرعلى رأى أنكساغورس ، فعرف شيئا من الألوهية ، ثم استكمل علمه .

(٣) ثم انتهى الى انقضاء حياته .

***

(١) وهكذا خاتم الأنبياء ، فهو فى مكة فى مشاكل ومجادلات ومخاصمات مع كفار قريش

(٢) وهو فى المدينة فاتح البلاد وناشر الاسلام .

(٣) ولما انتهى الأمر رجع الى ربه .

فهكذا هذه السورة ، فأوّلها انكار النبوّة والبعث ، وأوسطها الحثّ على النظر فى السماء وزينتها وبهجة بنائها ، وفى الأرض وجبالها الشامخات ، وزروعها النضرات ، ومطرها المدرار ، ونخلها الباسقات ، ودولها المالكات ، من عاد إلى أصحاب الأيكة وقوم تبع ، وما استحقوا من وعيد ومحاسبة ، ونهايتها تقريع

الانسان

الانسان على أعماله ، وأنه مسئول عن دخائل نفسه ، فى مجالس أنسه ، وعنـد اخوته ، وفى خلوته ، وأنه محوط بالكرام الكاتبين ، يحصون أعماله ، ويرقبون أقواله ، حتى اذا جاءت سكرته ، وحانت منيته ، حوسب على قول كل كامة ، وحوسب على كل عمل عمله ، وشهدت عليه الشهود ، وكشف له الغطاء ، ووقع الخصام ، واضطرب النظام ، وتعادى المحبون ، وافترق المجتمعون وغضب الرب غضبته ، فلأ جهنم بأهلها ، ورحم أعظم الرحمات بملء الجنـة بذوى الايمان والصلاح ، ذلك لأنه لايجعل المتقين كالفجار ، ولاالمؤمنين كالكفار ، ولواستوى الخبيث والطيب لكان خلق هـذه العوالم باطلا ، ولكان نظامه حائلا ، ولكن النظام معلوم ، ودوامه مصون .

وجه الرحمة هنا

وانما منى الانسان بهذه الوقائع ، واتصف بتلك المناقب والمثالب لأنه لايتسنى له الارتقاء الى الملأ الأعلى إلا بمعاناة الضدين ، ومقاساة الأمرين ، حتى اذا جاءت سكرة الموت كانت سكرة الطرب ، لاسكرة الجزع والهلع ، فبينما هو ينظر فى السماء كيف بنيت ، وفى الأرض كيف ازينت ، وفى الزروع كيف ابتهجت ، إذا به ارتفع الى عالم أجل ، وبهاء أكمل ، ومقام أرفع ، فمعاناة الضدين ، ومقاساة الأمرين ، سلالم يصعد الانسان عليها الى العلا ، وصفت سكرة الموت المكروهة ليحترس منها ، ويجعل حياته حياة صحو وعلم وعمل ، ليفارقها وهو مسرور ، لامختبط وهو مجبور . والى هنا تم الكلام على المقام الأول فى تفسير البسملة . كتب ليلة الأحد ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م .

المقام الثانى فى معنى : ق

قد تقدم الكلام فى ﴿آل عمران﴾ وفى غيرها من السور كالعنكبوت والروم ويس وص ومابينها ، ووضح فيها بعض الحكم والعجائب التى تضمنتها هـذه الحروف التى فى أوائل السور ، ولكن البحث هنا يكون خاصا بالحرف « ق » الذى فى أول هذه السورة . واعلم أن هذا يحتاج لمقال يتقدمه فأقول :

اعلم أن الله علم قبل أن ينزل القرآن أن أمة الاسلام ستجمع الأحمر والأبيض والأسود ، وأنه سيأتى عليها زمان يتناكرون وهم مسلمون ، و يتعادون وهم موحدون ، ويجهلون وهم مؤمنون ، ويذلون وهم متفرقون .

علم الله أننا سنكون على هـذه الحال فأنزل لنا من أعاجيب القرآن هاتين العجيبتين : الحجرات وق ، هاتان سورتان تضمنتا مابه معرفـة الأنفس ، ومابه معرفة الآفاق ، أما مابه معرفـة الأنفس ، أى أخلاقها وتهذيبها فهو مامر فى ﴿سورة الحجرات﴾ وأما مابه معرفة الآفاق فهو علم السموات والأرض والبحث فى عجائبهما وبدائعهما ، وحكمهما وغرائبهما ، فيصبح المسلم مهذب النفس ، عارفا بما يحيط به من العوالم .

علم الله أن المسلمين ستمر عليهم أجيال وقرون وهم لايعرفون من القرآن إلا الاحكام الشرعية ، يعيشون ويموتون وهم لايعقلون إلاهو ، وماهو إلا علم القضاء و بعض العبادات الظاهرة .

علم الله أن العالم بالأحكام الشرعية الذى يقبل المسلمون يده يواظب على شروط الصلاة ، ويواظب على طهارة ثوبه ، ونظافة مكانه ، والاتجاه للقبلة فى الصلاة ، وفى الوقت نفسه يطلق للسانه العنان ، ويغتاب الاخوان ، مستحلا ذلك لايبالى .

علم الله أننا نحن الآن سنترك أحكام الأنفس فنجهلها ولانعرف كيف نطهرها ، ولا كيف نحسن أخلاقها ،

ولا كيف نصقلها بالمعارف الحقة ، والعلوم المكتسبة ، التي تحيط بنا في الآفاق من نبات وحيوان ، وهواء وماء ، وكهرباء وبخار ، ومغناطيس ، ونجوم وسماء ، وأنوار ، فأنزل سورة ق ناظما تلك المباحث في عقدها لنتحلى بها بعد التخلي من الرذائل .

علم الله أن المسلمين سينامون جاهلين كسلا وغفلة آمادا وآمادا ، ويتبع الآخرون الأولين ، ولا ينظرون الى القرآن إلا نظرة البركة ، لا نظرة الحكمة والموعظة ، ويقولون : قد نظر فيه الأئمة فاستخرجوا لنا علم الفقه ، وهو كل شيء ، وما القرآن إلا بركة ، واذا ذكر آية في الاستدلال فانما نتبع من قبلنا ، ومالم يذكر في الفقه من الآيات فلا نظر لنا فيه إلا نظرا سطحيا تارة ، وتبركا تارة أخرى .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أننا سنجهل كيف نتعارف ، وأن أبناء العرب الذين تقاربت ديارهم ، واتحدت لغتهم وجنسهم ودينهم يجهل بعضهم بعضا ، فلا يتحدون بلغتهم ولا بدينهم ولا بجنسهم ولا بوطنهم الذي جمعهم وهم متجاورون فيه .

علم الله ذلك ، وعلم أن أمم أوروبا تتحد وجهة كل منها ، وأن الولايات المتحدة في أمريكا التي هي أمة جامعة لقوم من شتات الأمم لما علموا وعقلوا اتحدوا وطنا ولغة بالتعليم وان اختلفوا أجناسا وديانات ، فأما أمم الاسلام فلا اتحاد بينهم لأنهم لم يتعلموا ولم يدرس أبناء العرب تاريخ أسلافهم ، ولا منشأهم ، ولا أحوالهم الاجتماعية دراسة تشوقهم الى أصلهم القديم فيرجعوا مجدهم كما كان ويتحدوا ، وليس معنى هذا أنهم يكونون عذابا على الناس . كلا . بل ينظرون الى أمم الترك الذين اتحدوا معهم في الدين وفي الجوار ، وهكذا الفرس وأنهم أمم شرقية ويتحدون معهم ، وهكذا يتحدون مع جميع الأمم الاسلامية ، ويكونون عونا مع جميع الأمم ليعيشوا بسلام .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أنا سنكون هكذا في هذا الزمان خاملين نائمين ، فلا علوم ولا تهذيب ولا حكمة فنكون متفرقين ، وتدوسنا الفرنجة ، ونحن أذلاء بين أيديهم ، كل هذا بجهلنا وعلم الأمم ، فعلمهم هو الذي سلطهم ، وجهلنا هو الذي أذلنا ، فانظر ماذا قال الله لنتلافى هذا العيب . قال « لتعارفوا » في سورة الحجرات فالتعارف لن يكون إلا بعلم ، فان لم يكن علم ودرس فلا تعارف . إن التعارف لن يكون إلا بعلم ، فاذا لم تعلم أن زيدا أبوك لم تكرمه ، واذا لم تعلم أن خالدا من أقارب بك لم تحافظ عليه ، واذا لم يعلم المسلمون علم تاريخهم ولغتهم ، ومنشأ دولتهم ، وجغرافية بلادهم ، وظلم أوروبا لهم ، وموازنة هذا بما كان عليه آباؤهم .

اذا لم يفعلوا ذلك وغيره كدراسة الأرض التي يسكنونها ، ومعرفة خباياها في مصر واليمن وغيرها ، ويعرفوا معادنها وحاصلاتها وخيراتها وما أشبه ذلك ، اذا لم يعرفوا ذلك فكيف يتعارفون ؟ انهم اذا رأوا ذلا جامعا ، ولغة متحدة ، وأمما جامحة لاذلالهم ، وأرضا ذات خيرات يطمع العدو في الانتفاع بها ، هناك هناك تكون الحية ، حية الاسلام والمحافظة على الأوطان ، ومجاراة الزمان ، وحفظ الاخوان ، واذا لم يعرف العرب أمم الترك ، ولا الترك أمم العرب ، ولم يدرسوا الثمرة التي تنتج من اتحادهم فكيف يتحدون ؟ واذا لم يدرس هذان الشعبان أحوال الأمم الاسلامية فكيف يتحدون معها ؟ واذا لم يدرس هؤلاء المسلمون جميعا نظام الأمم في الارض كلها ولم يعرفوا أحوالها فكيف يتحدون معها على رقي الانسانية ؟ .

كل هذه المعاني داخلة في قوله تعالى : « لتعارفوا » ، بغير هذا لا يكون تعارف ، وبغير هذا لا يكون اتحاد ، وبغير هذا لا يكون سلام في الارض ، وبغير هذا لا يكون تمام قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » وبغير هذا لا يتم تماما واضحا قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

نحن إذن خلفاؤه ﷺ فلنكن رحمة للعالمين ، ولنقم بالأمر بعد أن نتعلم ونتربى ، فلا تسبقنا أمم الممالك

المتحدة فى التعليم ، والتهذيب ، والرقى ، ونظام المدارس ، ونظام السجون التى جعلوها للتهذيب لا للتعذيب .
وأقول أيضا : علم الله أن هـذا الداء سيحيط بالمسلمين و يشملهم جميعا ، فأى دواء أعدّه له ؟ الدواء « ق » ولعلك تقول : وهل هذه المعانى كلها فى « ق » ؟ وهل كلمة « ق » تفيدنا أن المسلمين يقتصرون على علم الفقه و يجهلون فى الغالب آداب النفوس ، و يشتت شملهم ، و يسبقهم غـيرهم ، وهكذا لم يصف بها الدواء ؟ أقول لك نعم : فاعلم أن ق أوّل حرف فى القرآن المذكور فى آخر سورة ق قال تعالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، كأن الله تعالى يقول : اذا نزلت بكم أيها المسلمون صاعقة التفريق ، وأصبح كل منكم كالغريق ، وتخبطتم فى دياجير الظلام ، وكنتم عبرة الأمم ، وسلوة الزمن ، وأنتم فرق متشاكسون ، وأفذاذ متفرّقون ، ونبذتم فهم القرآن ، فلأذكركم بالقرآن ، فارجعوا إليه ولا تسمعوا كلام بعض قدامى الفقهاء الذين ادّعوا أن الدين ماعرفوه ، وماسواه فلاحاجة إليه ، كذلك لاتصغوا لقول العباد ، ولا لقول الصوفية ، ولا لأقوال الأغنياء ، فان كلا منهم يعيب الآخرين ظنا منه أنه هو المخصوص بالكرامة ، وماعداه فهو فى جهالة ، لاتسمعوا لهؤلاء جميعا ، وادرسوا القرآن ، فقد جرّبتم صغار الصوفية ، وجرّبتم صغار الفقهاء ، وجرّبتم الأغنياء [1] وجرّبتم العباد [بتشديد الباء] والصالحين ، فقد استبدّ كل فريق بناحيته ، واستقلّ بأمره ، وجهل ماعند سواه ، فتفرّقت الأمم الاسلامية شذر مذر ، وأحاطت بهم الأمم من كل جانب ، وأذاقوهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، والوعيد قسمان : قسم يختص بهلاك الامم فى الحياة الدنيا ، وقسم يختص بعذاب يوم القيامة وكلاهما فى القرآن فلتقرءوه وعلى مقتضاه تدرسون جميع الكائنات
هذه المعانى كلها مخبوءة فى كلمة « ق » التى جاءت بين السورتين المختومتين بقوله « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » المشتملتين على مايصلح النفوس وعلى معرفة الآفاق ، وهذان الصنفان من العلوم داخلان تحت قوله تعالى « لتعارفوا » كما أوضحناه
ألا تعجب معى بعد هذا أن يقول بعض علماء التفسير : ان [ق] اسم من أسماء القرآن ، وهذا هو المعنى الذى أوضحناه لك الآن . انتهى تفسير كلمة « ق » والحمد لله رب العالمين .

المقام الثالث فى تفسير الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(ق * والقرآن المجيد) أى الشريف الكريم على الله ، الكثير الخير والبركة ، وجواب القسم لتبعثنّ (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) انكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته ، ومثله لا يكون إلا ناصحا لقومه ، خائفا عليهم من وقوع مكروه ، ومتى أظلهم مكروه وعلمه لزمه أن ينذرهم (فقال الكافرون هذا شىء عجيب) حكاية لتعجبهم ! يتعجبون من اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة (أئذا متنا وكنا ترابا) أى أنرجع اذا متنا وصرنا ترابا (ذلك رجع بعيد) أى بعيد عن الوهم والعادة والامكان ، قال تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أى ماتأكل من أجسادهم بعد موتهم ، انهم لما استبعدوا البعث ردّ الله عليهم بأن من لطف علمه حتى علم ماتنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا (وعندنا كتاب حفيظ) محفوظ من الشياطين ، ومن التغيير ، وهو اللوح المحفوظ ، وهو حافظ لما كتب فيه ، ثم انهم جاءوا بما هو أفظع مما قبله ، فاستحق الاضراب عنه ، فلذلك قال (بل كذبوا بالحق) أى النبوّة الثابتة بالمعجزات من أوّل وهلة بغير تفكر (لما

(١) هذه أقسام المغرورين المذكورة فى سورة [آل عمران] عند آية : « وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون » ملخصا من الإحياء للغزالى اهـ المؤلف

جاءهم فهم فى أمر مريج) مضطرب ، يقال مرج الخاتم فى الأصبع اذا اضطرب من سعته ، فيقولون تارة شاعر ومرة كاهن ، ومرة ساحر ، لا يثبتون على رأى (أفلم ينظروا) حين كفروا بالله و بالبعث (إلى السماء فوقهم) إلى آثار قدرة الله تعالى فى خلق العالم (كيف بنيناها) رفعناها بلا عمد (وزيناها) بالكواكب (ومالها من فروج) فتوق بأن خلقناها ملساء ، متلاصقة الطباق ، وهذا هو الرأى الحديث فى عالم السموات ، بل الرأى الحديث معجزة للقرآن ، و بيانه أن العلماء فى عصرنا الحاضر يقولون : إن هنا عالما لطيفا أرق من الهواء ، وألطف من كل ما نراه ، هو مبدأ كل شىء ، وأول كل شىء ، هو العالم المسمى بالأثير ، وهذا العالم لم يره الناس وانما عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فان من الكواكب ما لا يصل ضوؤه إلينا إلا فيما يزيد على ألف ألف سنة نورية ، ومعلوم أن نور الشمس [التى تبعد عنا مقدار سير القطار إليها لو أمكن نحو ثمانمائة وخمس وستين سنة] يصل إلينا فى مدة ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التى تحتاج بسير النور الى مليون سنة ونصف مليون سنة ، وانظر كيف يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شىء موجود ، والشىء الموجود هو الأثير ، فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره .

هذا هو السر فى قوله تعالى : « ومالها من فروج » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لانقطع سير النور إلينا ، ومعلوم أن آراء الجهلة فى كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى ، و بينهما فضاء ، كما يظن لأول وهلة فيما بيننا و بين السماء الدنيا ، فجاء القرآن على عكس ذلك تماما وقال لا فروج فى السماء ، و بعبارة أخرى لا خلاء فى العالم .

رأى القدماء

هكذا كان رأى بعض القدماء فى « اخوان الصفاء » إذ قالوا : « إن النور والظلمة إما أن يكونا جوهرين أو عرضين ، فان كانا جوهرين فليس فى العالم خلاء لأنه لا يخلو من نور وظلمة ، وان كانا عرضين فالعرض لابد له من جوهر يقوم به ، وان كان أحدهما عرضا والآخر جوهرا فهو معلوم من سابقيه ، فاذن العالم لا خلاء فيه كما ذكرناه فى ﴿ سورة البقرة ﴾ فانظر كيف كان نظر الحكماء قديما وحديثا هو عين ما جاء فى هذه الآية « ومالها من فروج » (والأرض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسى) جبالا ثوابت (وأنبتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) راجع الى ربه ، متفكر فى عجائب صنعه ، يقول الله : بنينا السماء وزيناها ، ومددنا الأرض ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، كل ذلك فعلناه لأجل تبصرة العبد المنيب وذكراه ، وهذا من حيث المعنى وان كانا فى الاعراب منتصبين بالفعل الأخير ، فان رفعت السماء فلذكراه ، وان زينتها بالكواكب والنور فليتبصر بما يراه ، وان بسطت الأرض وأرسيتها بالجبال فكذلك ، وان أنبت النبات زينة للأرض ، فليعتبر ويذكر بمرآه (ونزلنا من السماء ماء مباركا) كثير المنافع (فأنبتنا به جنات) أشجارا وثمارا (وحب الحصيد) وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالحنطة والشعير والأرز والعدس وغيرها (والنخل باسقات) طوالا أوحوامل ، يقال : أبسقت الشاة اذا حملت (لها طلع نضيد) الطلع كل ما يطلع من ثمر النخل ، والنضيد المنضود بعضه على بعض لكثرة الطلع وتراكمه ، أولكثرة ما فيه من الثمر (رزقا للعباد) أى أنبتناها رزقا للعباد كما جعلناها تبصرة وذكرى للمنيب منهم ، فالتبصرة للمفكرين والرزق لجميع الأحياء من الآدميين ، فهى ما كل الآكلين من نوع الانسان « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » فنحن نطعم عبادنا ونرزقهم ولكنا لا نجعل هذه البساتين والأشجار والثمار درسا معروفا ، وعلما مقروءا ، إلا للممتازين من نوع الانسان ، فالخواص للنبات دارسون ، والعامة والخاصة منها آكلون ، ولما كانت دراسة النباتات

الاستفادة

والاستفادة من علومهما لم يظهر له مثال أعقبه بذكر مثال يبين كيف يدرس فقال (وأحيينا به) بذلك الماء (بلدة ميتا) أرضا جدبة لانماء فيها (كذلك الخروج) أى كما حييت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم ، فالناس يتغذون وينمون ، ويتزوّجون ويلدون ، ويحيون ويموتون ، وهذه الأحوال كلها فى النبات فهو له حياة وغذاء ونمو وتوالد فموت ، ثم تيبس الأرض ، ثم تحيا بالنبات ، فليقس عليه حال الانسان فانه بعد موته يحيا ، وهذا برهان اقناعى ، ونظيره فى كلام سقراط ، يقول : « ان الانسان يحيا بعد الموت لأن كل ضد يتولدعنه ضده ، فالصحة بعد المرض ، والعزّ بعد الذل ، وهكذا مما لانهاية له ، فلتكن الحياة من الموت » فانظر كيف أتى الله بهذا القياس التمثيلى الذى يجعل للنفس ائتناسا بالموضوع وفهما فيه من النبات ليفتح للعقول مجال التبصرة بمئات من المسائل العلمية ، فتذكر فيما قدّمته فى (سورة الشعراء) وغيرها من أنواع النبات الكثيرة التى تفرّعت كلها من أصل واحد ، وكان تنوّعها كلها ظاهرا فى زهراتها ، فالزهرة تنوّعت أنواعا كثيرة لكل صنف من النبات شكل فى الزهرة خاص ، فاذا قرأت ذلك دخلت فى بحر لاساحل له من العلم والحكمة ، وعرفت سر البدائع الالهية ، وهناك ثم هناك تفهم قوله تعالى « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وهكذا مواضع أخرى من هذا التفسير ، ثم قال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّس وثمود وعاد وفرعون) أى فرعون وقومه (واخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كلّ كذب الرّسل) كل واحد أوقوم منهم الخ (فحقّ وعيد) فوجب وحلّ عليه وعيدى فلقسد يامحمد واتستعدّوا لنزول العذاب بأهل مكة ، وانظر أيها الذكىّ كيف كان ترتيب سور القرآن ، ان قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعادا وفرعون قد تقدّموا فى السور السابقة ، فانظر كيف ذكروا فى هذه السور بطريق اجمالى ، فهناك ذكرت القصص والتاريخ وهنا ليكون الاعتبار .

يقول الله : هاأنتم أولاء قرأتم قصص السابقين ، وأخبار الأوّلين فى السور المتقدمة ، فلأذكركم بأحوالهم فقد كذبوا فهلكوا .

يقول الله : أذكركم بالسماء وبالأرض والجبال والماء والنبات ، أذكركم بهذا كله ، وأذكركم بالأمم الخالية والأجيال البائدة ، كيف هلكوا وهم مكذبون ، وكيف نصرنا الأنبياء ، فليكن هكذا محمد وكل مصلح من أمته ، فهم منصورون وبضدها تتميز الاشياء .

يقول مؤلف هذا التفسير : إن ظنى بالله جميل أن يجعل هذا التفسير نافعا للأمة الاسلامية ، وأن يكون مساعدا على الانقلاب الفكرى فى العالم الاسلامى حتى يصبح المسلمون أمة حكمة وعلم « ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز » .

[تذكرة] هذه الجملة كتبتها حين تأليف الكتاب ، وهو الآن يطبع الطبعة الأولى ، ولقد صدق ظنى وأجيبت جميع مطالبى وانى أحمد الله فلقد تقدم فى المجلد السابق فى سورة الفتح أن الفكرة قد عمت مسلمى بلاد الصين والتركستان الصينية فضلا عن سائر بلاد الاسلام .

ثم قال تعالى (أفعيينا بالخلق الأوّل) أى أفعجزنا عن الابداء حتى نعجز عن الاعادة ، يقال عىّ بالأمر اذا لم يهتد لوجه عمله ، والهمزة للانكار (بل هم فى لبس من خلق جديد) يقول تعالى : هم لاينكرون قدرتنا على الخلق الأوّل ، بل هم فى خلط وشبهة ، قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم ، وذلك تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة . انتهى المبحث الأوّل من السورة .

المبحث الثانى

فى الكلام على الموت وسكرته ، وعلى الملائكة المراقبين حركات الانسان وسكناته ، وفى أحوال يوم القيامة

قال الله تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) ماتحدثه به نفسه ، وهو ما يخطر بالبال ،

والوسوسة الصوت الخفيّ ، ومنه وسواس الحلى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أى ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد ، فهذا مثل فى فرط القرب ، والوريد عرق فى باطن العنق ، والحبل العرق أى حبل هو الوريد ، فأجزاء الانسان وأبعاضه يحجب بعضها بعضا ، ولا يحجب عن علم الله شيء ، فهو بيان لكمال علم الله تعالى بالانسان ، أو يقال بالاختصار نحن أعلم به منه فيكون تجوّزا بقرب الذات لقرب العلم ، وقوله (إذ يتلقى المتلقيان) ظرف لقوله أقرب إليه ، يقول الله : نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقى ، أو يتلقن الحفيظان مايتلفظ به مع أننا أغنياء عن استحفاظ الملكين لشدة قربنا منه ، لكن هكذا كان نظامنا لالزام الحجة ، وقوله (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، أى مقاعد كجليس ، وقد حذف الأول لدلالة الثانى عليه كقوله :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله ☆ فانى وقيارٌ بها لغريب

وكقول الآخر

رمانى بأمر كنت منه ووالدى ☆ بريئا ومن أجل الطوىّ رمانى

أى كنت منه بريئا وكان والدى منه بريئا ، وقد يطلق الفعيل للواحد والمتعدد كقوله تعالى « والملائكة بعد ذلك ظهير » (مايلفظ من قول) مايرمى به من فيه (إلا لديه رقيب) ملك يرقب أعماله (عتيد) حاضر معه فيكتب مافيه ثواب أو عقاب ، وكل شيء حتى أنينه فى مرضه ، وفى الحديث : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فاذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » .

واعلم أن هذا الحديث هو الموافق لنظام هذا العالم ، ألاترى رعاك الله أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ، وانما خلقهم لتهذيبهم وتربيتهم ، وليس معنى التربية أن تكون كلها تعذيبا ، فكل ألم فهو لرقىّ النفس ، فاذا كان كاتب الحسنات أميرا على كاتب السيئات ، فلأن العالم المادّى الموجود من طبعه أن يكون نفعه أكثر من ضرّه ، وعلى هذا الناموس يكون خلقنا لغاية شريفة نافعة لنا ، والحسنات أصل والسيئات عارضة كما أن المنافع فى الطبيعة أصل والمضارّ عارضة ، النار خلقت لمنفعة ، والماء لمنفعة ، والهواء لمنفعة ، فاذا أحرق ثوب الناسك ، واغرق رب صبية لاعائل لهم ، وأصاب البرد عالما فانتهى بموته ، فهذا كله عارض ، والأصل فى هذه كلها المنافع ، هكذا نوع الانسان خلق للخير ولكن الشرّ عارض ، والحسنات لكن السيئات عارضة ، فقول النبوّة من منبع النظام الأصلى العام ، ثم ان الله لما ذكر كراستبعادهم البعث للجزاء ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك قريبا عند الموت وعند قيام الساعة ، ولذلك عبر بالماضى تنبيها على اقتراب ذلك فقال (وجاءت سكرة الموت بالحقّ) أى شدّته الذاهبة بالعقل ملتبسة بالحق : أى بحقيقة الأمر أو بالحكمة (ذلك) الموت أيها الانسان (ماكنت منه تحيد) وتهرب (ونفخ فى الصور) نفخة البعث (ذلك يوم الوعيد) أى ذلك اليوم الذى وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) كاتب السيئات سائق ، وكاتب الحسنات شهيد ، ويقال له (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك) أى الغطاء الحاجب لأمور المعاد كالغفلة والانهماك فى المحسوسات ، والالف بها ، وقصور النظر عليها (فبصرك اليوم حديد) نافذ لزوال المانع للابصار ، فكأن الغفلة غطاء غطى بها جسده كله ، أوغشاوة غطى بها عيناه فلايبصر شيئا ، فاذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها فيبصر مالم يبصره من الحق ، ويكون مبدأ ذلك عقب الموت (وقال قرينه) وقال الملك الموكل به (هذا مالدىّ عتيد) أى معدّ محضر : أى يقول الملك : هذا الذى وكلنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ، فلما قال قرينه ذلك ، قال الله للسائق والشهيد (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) معاند للحق (مناع للخير) كثير المنع للمال عن حقوقه

المفروضة

المفروضة ، وللاسلام أن يذاع و ينتشر كالوليد بن المغيرة لمانع بنى أخيه عنه (معتد) معتد (مريب) شاك فى الله وفى دينه (الذى جعل مع الله إلها آخر) بدل من كل كفار ، وقوله (فألقياه) تكرير للتأكيد (فى العذاب الشديد) فقال الكافر : يارب ان قرينى من الشياطين أطغانى (قال قرينه) أى الشيطان المقيض له (ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد) عن الحق لأنه هكذا استعداده ، وهكذا كان ديدنه وطبعه فسار على النهج الذى يناسب أخلاقه : أى فى ضلال بعيد طويل لايرجع عنه الى الحق ، وهذا كقوله تعالى : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » (قال) الله تعالى (لاتختصموا لدىّ) فى موقف الحساب إذ لافائدة فيه (وقد قدمت اليكم بالوعيد) وقد أوعدتكم بعذابى على الطغيان فى كتبى وعلى ألسنة رسلى فما تركت لكم حجة ، وقدّمت بمعنى تقدمت فعدى بالباء (مايبدّل القول لدىّ) أى بوقوع الخلف فيه فلاتطمعوا أن أبدّل قولى ووعيدى بادخال الكفار النار (وما أنا بظلام للعبيد) فلا أعذب عبدا بغير ذنب جناه ، وظلام إما بمعنى ذى ظلم ، وإما للمبالغة ، يقول الله : واذكر (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) مزيد مصدر كالمجيد أى هل من زيادة ، وهذا السؤال والجواب جىء بهما للتخييل والتصوير ، والمعنى أنها مع شدّة زفيرها وحدّتها لاتزال فى شغف بدخول العصاة فيها ، فهى كالنهم الذى لايشبع ، فكما أن الجنة لانهاية لمداها ، هكذا النار لانهاية لمداها ، و يقول ابن عباس رضى الله عنهما : سبقت كلمته لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فلما سيق أعداء الله إليها صارت لايلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شىء فتقول : ألست قد أقسمت لتملأنى ؟ فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت ؟ فتقول قط قط قد امتلأت وليس من مزيد . وروى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لاتزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش [وفى رواية] رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها الى بعض وتقول قط قط بعزتك ولايزال فى الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة » . ولأبى هريرة نحوه ، وزاد : « ولايظلم الله من خلقه أحدا » .

واعلم أن هذا القول يرجع الى النظام العام ، وهو أن الله تعالى خلق العالم للخير لا للشر ، وأن الشر عرض والخير أصلى ، فاذا سمعت أن الرب أسكت النار وقالت قط قط ، وانه خلق للجنة قوما يسكنون فى فضولها فذلك هو الذى يفهم من أعماله فى هذه الحياة ، فان الحياة طافحة بالخير فى هذا العالم مع نقصه ، فتراه لايدع حالا من الأحوال إلا أدخل فيها الحياة ، فالنبات يعيش فى الشمس ، وخلق للظل نباتا يعيش فيه ، ولم يذر البحر ولا البرّ من حيوان ولا نبات ، فلا ملوحة البحر ، ولابرودة الثلج ، ولا حرارة القيظ ، ولاغور البحر بمانعات من الحياة ، ومعنى هذا أن الرحمة فائضة ، وهذا دلالة على أن جنته التى هى الرحمة الكبرى أوسع من جهنم التى هى دار العذاب ، ومثل هذه الأحاديث لايدرك سرّها ولا المقصد منها إلا بدراسة علوم الحكمة ، وفهم نظام العالم ، وحكمه المدهشة ، واذ ذاك يدرك الناس ماذا يقصد النبىّ صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الأحاديث ، فأما تفسير الألفاظ فهو سهل متى عرفنا أن هذا تمثيل وهو ظاهر فى علم المعانى ولا حاجة الى التطويل (وأزلفت الجنة) قربت وأدنيت (للمتقين) الذين اتقوا الشرك حال كونها شيئا (غير بعيد) ويقال لهم (هذا ماتوعدون) هذا الذى وعدتم به فى الدنيا على ألسنة الأنبياء ، وقوله (لكل أوّاب) رجاع عن المعصية الى الطاعة بدل من المتقين باعادة الجار ، وقوله (حفيظ) أى حافظ لحدوده (من خشى الرحمن بالغيب) أى خاف الرحمن فأطاعه وان لم يره ، وفى الخلوة بحيث لايراه أحد (وجاء بقلب منيب) مخلص مقبل على طاعة الله يقال لهم (ادخلوها بسلام) سالمين من العذاب وزوال النعم ، أومسلما عليكم من الله والملائكة (ذلك يوم الخلود) فى الجنة إذ لاموت فيها ، والخلود هنا مقدّر كقوله تعالى « ادخلوها خالدين »

ثم ان الناس يسألون الله ما يشتهون فى الجنة فيعطون مايسألون ، ثم يزيد الله عباده فوق ما سألوا ، وذلك قوله تعالى (لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد) مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطرعلى قلب بشر ، ومن أجلها النظر الى وجه الله الكريم ، إذ يتجلى لهم الرب فى كل جمعة فى داركرامته ، فهذا من المزيد .
(وكم أهلكنا قبلهم) قبل قومك (من قرن هم أشد منهم بطشا) قوة كعاد وثمود وقوم تبع (فنقبوا فى البلاد) التنقيب التنقيرعن الأمر والبحث والطلب ، فهم ساروا وتقلبوا فى البلاد ، وسلكوا كل طريق ، وتصرفوا فيها ، وجالوا فى الأرض كل مجال حذرالموت (هل من محيص) أى هل لهم محيص من الله : أى فلم يجدوا لهم مهربا من أمر الله ، ولامفرا من الموت الذى يعقبه عذاب الله ، فهكذا أهل مكة ، لأن ماجاز على أحد المثلين جازعلى الآخر ، فهم أيضا تصرفوا ونقبوا فى البلاد ، فلامهرب لهم من عذاب الله إما بانزال العذاب عليهم كعاد وثمود ، واما أن يموتوا فيدخلوا النار .
ولما كان ماتقدم فى هذه السورة وماقبلها من أبدع الحكم والعلوم ، وهما مع اختصارهما قد جمعا تفصيلا آداب الأمم مع النبى ﷺ ومع أنفسهم ، وكيف يكون السلام بين الناس ، وكيف يكون الصلح ، وكيف يصان اللسان ، وكيف يتعارفون و يتعاملون و ينظرون فى خلق السموات والأرض ، وفى العجائب المدهشة ، بحيث ان هاتين السورتين اللتين فصل بينهما بلفظ [ق] الذى شرحناه لك قريبا يكفيان لرقى الأمة الاسلامية واسعادها متى رجعوا إليهما ، فيذهب التقاطع ، و يتعلم الجهال ، و يجتمع الشمل ، و ينتظم الجمع ، ويخيم الأمن فى ربوع الأمم الاسلامية ، لذلك قال الله تعالى (إن فى ذلك) الذى تقدم فى السورتين لأن الأولى للتخلية والثانية للتحلية (لذكرى) لتذكرة (لمن كان له قلب) أى قلب واع يتفكر فى حقائق الأشياء المذكورة فيه (أوألقى السمع) أى أصغى لاستماعه (وهوشهيد) حاضر بذهنه ليفهم معانيه ، ليس بساه ولا غافل ، وفى تنكير القلب اشعار بأن كل قلب لايتفكرولايتدبر كلاقلب ، ثم أعقبه بما يجول فيه القلب و يتفكر فقال (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ومامسنا من لغوب) إعياء وتعب فنحن قدملأناهما بالعجائب ولانزال نزيدها كل حين لأنا لايلحقنا التعب والاعياء ، فاقرءوا عجائبنا التى لانهاية لمداها ، واتجه قلوبكم اليها ولتلقوا فيما تسمعون من القول السمع وأنتم حاضرو الذهن فعجائبنا لاتتناهى ، واتكذبوا اليهود الذين قالوا [ان الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، فنحن لايمسنا لغوب ، وعجائبنا لاتقف عند حد] (فاصبر على مايقولون) على مايقوله المشركون من انكارهم البعث فانى خلقت العالم بلا إعياء ، فاذن أنا أقدر على بعثهم ثم أنتقم منهم (وسبح بحمد ربك) ونزهه عن العجز عن أى ممكن كان كالبعث حامدا له على ما أنعم عليك من اصابة الحق وغيرها من النعم الكثيرة التى لاتتناهى (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أى وقت الفجر ووقت الظهر والعصر (ومن الليل فسبحه) أى وسبحه بعض الليل (وأدبارالسجود) وأعقاب الصلاة ، ومعنى هذا أن يقول « سبحان الله والحمد لله » فى أحوال أربعة : وقت الفجر ، ووقت الظهر والعصر ، أوالعصر فقط ، وفى الليل ، وعقب الصلوات ، فيكون التسبيح على ظاهره ، وقيل : إن التسبيح نفس الصلاة ، فيكون صلاة الفجر ، وصلاة الظهر والعصر ، وصلاة المغرب والعشاء ، أوالتهجد ، والرابع النوافل بعدالصلوات ، وانماسميت هذه الصلوات تسبيحا تسمية بالجزء منها ، وهومافى الركوع والسجود من التسبيح ، فالتسبيح على الأول خارج الصلاة ، والتسبيح فى الثانى صلاة وتسبيح داخل فيها ، ولاجرم أن الحمد مذكورفى الفاتحة والتسبيح فى الركوع والسجود ، ومعنى « أدبار السجود » وقت انقضاء السجود كقولهم [آتيك خفوق النجم] وفى حديث البخارى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ أن يسبح فى أدبارالصلوات كلها يعنى قوله « وأدبار السجود »

السجود » . وفى حديث مسلم : تحديد التسبيح ٣٣ والحمد ٣٣ والتكبير ٣٣ وتمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وذلك كله دبر كل صلاة .
وعلى هذا يكون التسبيح أعمّ منه ومن الصلاة ، فالآية تشمل القسمين ، فليصل المؤمن الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وليصل النوافل التى هى وقت أدبار السجود ، وليصل بالليل ، وليسبح بعد الصلوات كل ذلك داخل فى الآية ، فكله تسبيح بالحمد ، وبهذا جمع بين الأقوال كلها (واستمع) يا محمد لما اخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفى ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به ، وماهو ذلك الخبر ؟ أنهم يخرجون من القبور (يوم ينادى المنادِ) وهو اسرافيل ، أو جبرائيل ، فيقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله أمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . يقول الله : يوم ينادى المناد (من مكان قريب) بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء ، ونظيره فى الدنيا أن الرزق والحياة والنور والنوم واليقظة ، كل هذه تأتى إلى أهل الأرض جميعا كأن مناديا يناديهم من قرب ، ويأمرهم بالنوم وبالحياة وبالاستيقاظ وبالأكل وبالشبع وما أشبه ذلك ، فهكذا يوم القيامة ، لأن الله مع كل نسمة خلقها ، فنداؤه قريب فى الدنيا وفى الآخرة ، وقوله (يوم يسمعون الصيحة) أى النفخة الثانية ، وهذا بدل من يوم ينادى المنادِ ، وقوله (بالحق) متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والجزاء (ذلك يوم الخروج) من القبور . قال الله تعالى تلخيصا لما تقدم كله من أول السورة الى هذه الآية (إنا نحن نحيي ونميت) أى نحيي فى الدنيا ونميت عند انقضاء الأجل (وإلينا المصير) فى الآخرة (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا) أى يوم تتصدع عنهم فتخرج الموتى من صدوعها حال كونهم مسرعين (ذلك حشر علينا يسير) هين ، وقوله يوم متعلق بقوله يسير وقدم للاختصاص (نحن أعلم بما يقولون) فيك وفينا ، وهذا تهديد لهم (وما أنت عليهم بجبار) بمسيطر أى ما أنت بمسلط عليهم ، انما أنت داع وباعث ، أوما أنت بوال عليهم تجبرهم على الايمان (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) كقوله « إنما انت منذر من يخشاها » إذ لا ينفع التذكير إلا فيه . انتهى التفسير اللفظى

فى هذه السورة ثلاث لطائف

الأولى فى عجائب السموات ، وهو قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » .
الثانية فى عجائب الأرض فى قوله تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .
الثالثة فى قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

اللطيفة الأولى : عجائب السموات

لقد أطنبت فى هذا التفسير فى السموات وعجائبها وغرائبها وحكمها وبدائعها ونظمها فى البقرة وفى آل عمران ، وفى الأنعام ، وفى سور كثيرة فلترجع إليها .

اللطيفة الثانية فى عجائب الأرض والنبات

لقد جاء فى سورة الأنعام والشعراء وغيرها بدائع النبات ورسم الزهرة ، وكيف كانت أنواع النبات التى تعد بالآلاف قد ظهر تنوّعها فى الزهرة وتقسيمها ناجم منها ، وكذلك فى كثير من السور ولكن لا بدّ من أن آخذ بيدك الساعة ، وأطوف معك فى الحدائق والجنات ، ذلك لأن السور السالفة قريبا لم نكثر فيها من الكلام

على العجائب النباتية ، فلتقم معى ، ولتطف حدائق الأرض ، ولتنظر أفانين الزهر ، وأعاجيب الثمر ، وأصناف الشجر ، والطرف الشائقة ، والنعم الواردة من المقام الأقدس ، والهدايا والتحف والمزايا ، ولست أقف بك مع طائفة الجامدين الذين لايقصدون إلا اللذات الجسمية التى لها حد محدود ، ومقدار موقوت ، بل أريد أن تكون من الذين قال الله فيهم : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وأن ترتقى عن الطوائف التى قال فيها : « رزقا للعباد » ، فلتكن تلك رزقك ، وليكن علمها نورا لقلبك ، فجسمك يتغذى بأثمارها ، وروحك تحظى بحكمها ، إن الأشجار والمزارع كتاب كتبه الله بيده ، خطه فى الأرض ورسمه وهندسه وزوّقه ، ورفع الأستار عن بعض القلوب ، وقال : ياعبادى انظروا جمالى الذى احتجب عنكم فهذه آثاره ، وعلى مقدار علمكم به يكون نظركم لوجهى يوم القيامة ، ألم أقل : « نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم بشرا كم اليوم » ولا نور إلا ما اكتسبه الفكر ، واقتبسه النظر من العوالم المشاهدة المسطورة ، والمصوّرة المنمقة المشروحة ، الشارحة للصدور .

إن الدراسة تكون لأربعة أشياء : للكتب السماوية ، وللمناظر الطبيعية ، وللكتب الحكمية ، التى اقتنصتها من العوالم العقول البشرية ، وللنفوس الانسانية .

هذه هى الصحائف الأربعة التى يدرسها الانسان ، فكتاب الطبيعة كتابى ، وكتاب نفوسكم كتابى ، وكتاب الدين كتابى ، وكتاب الفلسفة والحكمة اشراق من نورى على عبادى فهو كتابى ، وما كتب الفلاسفة ولا كتب الوحى والديانات إلا مرشدات لبحثكم العلمى فى العالم السماوى والأرضى ، وممهدات لكتاب النفس وكتاب الأفق ، وكل ماقرأتموه فى الطبيعة فانه مخزون فى صحائف قلوبكم ويكون نورا مبينا .

إن من نظر فى العجائب النباتية ، وفكر فى الغرائب الحكمية ازدادت بصيرته هدى ، وعقله حكمة ، وازداد أجنحة يطير بها إلى العلا ، إن للملائكة أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ، تلك أجنحة القدرة والعلم ، والعلم هو الأصل ، فليزدد الناس فكرا فى النبات وغيره تزدد عقولهم عددا كما ازداد الملائكة مددا ، إن النظر فى النبات ازدياد أجنحة للطيران الى عالم الأفلاك فوق السماك .

حديقة فيها ٢١ نوعا من الشجر ، وأفانين العبر ، مختلفة الثمر

النخل ، والرمان ، والنبق ، والجوز ، واللوز ، والتين ، والعنب ، والاجاص ، والمشمش ، والخوخ ، والأترج ، والنارنج ، والليمون ، والحبة الخضراء ، والفستق ، والسماق ، والصنوبر والبلوط ، والعفص ، والسرو ، والاهليلج

(١) — التمر الذى هو ثمر النخل

طويل الشكل ، مدحرج الخلقة ، مختلف الألوان ، على نواه قشرة رقيقة ، حريرية ، لينة اللمس ، صلبة النسج ، وعلى هذه النواة شحمة ثخينة ، عليها قشرة صلبة ملساء ، وعلى ظهر النواة نقرة ، وفى الجانب المقابل نقرة مستطيلة فيها حشو ليفى ، وعلى رأس الثمرة من خارج قمه ، عليها شظيات متفرقة متشبثة بالثمرة ، ومادة هذه الثمرة قبل النضج عفصة ، و بعد النضج حلوة لزجة ، فهذه خمسة عشر وصفا للتمرة .

(٢) — شجرة الرمان وثمرها

ثمر الرمان : شكله مستدير ، وخلقته كبيرة ، عليه قشرة كثيفة ليفية ثخينة ، مجوّفة من داخل ، واسعة ، فيها خزائن مقسومة ، فيها دعاص مقسمة ، عليها حبوب مرصعة ، أشكالها مخروطة ، فى جوف تلك الحبوب نواة خزفية ، رخوة ، فى داخلها لبة دسمة ، وفى خارج رأس الثمرة من خارج فتحة مستديرة ، فيها غشاوة ليفية ،

وعليها

وعليها شظيات ناتئة زبيرية ، وحولها شرفات قائمة مخروطة .

(٣) — النبق وثمره

ثمر النبق : مستدير ، أملس ، شحمته ثخينة ، فى جوفه نواة مستديرة ، حسن اللون ، خشن الملمس ، فى داخل النواة لبة دسمة .

(٤) — الجوز

ثمر الجوز : أشكاله مستديرة ، سفطية ، عليها قشرة ليفية ثخينة ، فى داخلها قشرة أخرى خزفية صلبة ، مجوّفة ، فيها خزائن مقسومة ، فيها لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة ، و بينها حجب ، منخرقة أقسامها ، مهندمة واذا فصلت هذه الثمرة انفصلت بنصفين كالسفطين .

(٥) — اللوز

ثمر اللوز : شكله مخروط ، سفطى عليه قشرة ليفية ، فى داخلها قشرة خزفية صلبة ، فيها ثقوب نافذة ، فيها فتائل ليفية ، فى داخل هذه القشرة لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة صلبة .

(٦) — التين

ثمره ليس له نوى ، عليه قشرة لحمية ، وشكله مخروط صنوبرى ، وفى أسفله ثقبة مستديرة ، فيها شظيات زبيرية ، وفى جوف هذه الثمرة حبوب صغار رخوة ، وطعم مادّته قبل النضج لبن أبيض غليظ حاد محرق ، و بعد النضج طعمه حلو .

(٧) — العنب

ثمره مختلف الأشكال : مستدير ومستطيل ومدحرج ومخروط ، ومختلف الألوان : أسود وأبيض وأحمر وأصفر وأغبر ، عليها قشور رقيقة صلبة ملساء ملتزقة بشحمتها ، وفى جوف شحمتها حبوب مختلفة الأشكال ، زيتونية ، قماعية ، مفردة ومزدوجة ، وثلاثة وأربعة ، خزفية وعظامية ، ومنها صلبة ، ومنها رخوة ، فى جوف تلك الحبوب لبة دسمة ، ومادّة شحمتها قبل النضج حامضة ، وقبل ذلك عفصة ، و بعد النضج حلوة .

(٨) — الاجاص (٩) — والمشمش (١٠) — والخوخ

أشكال أثمارها مخروطة ، أوصدفية ، عليها قشور رقيقة ملتزقة بشحمتها وهى غليظة ثخينة ، فى داخلها نواة خزفية ، أشكالها صدفية داخلها ملساء ، فيها لبة دسمة ، وألوان هذه الثمار مختلفة .

(١١) — الاترج (١٢) — والنارنج (١٣) — والليمون

أشكال أثمارها كروية ، أومستطيلة ، أومدحرجة ، وعليها قشور لحمية غليظة ، شحمتها حامضة ، وفى داخلها حب صغار ، على دعاص مرصعة شبه التلال ، مابين خللها لحة ، طعمها حامض ، وألوان قشرها حمر وخضر وصفر ، ومادّتها قبل النضج عفصة .

(١٤) — الحبة الخضراء (١٥) — الفستق (١٦) — السماق (١٧) حب الصنوبر

ثمارها ذات حبة صغيرة ، وفى داخلها نواة خزفية ، وفى جوفها لبة دسمة .

(١٨) — البلوط (١٩) العفص (٢٠) السرو — (٢١) — الاهليلج

ثمار هذه الأشجار لاتنضج . انتهى الكلام على هذه الحديقة وأشجارها ٢١ شجرة .

وهاك عشرين حكمة لتقيس عليها حكما أخرى فى الشجر والنبات :

(١) الحب : تنظر الحب اجزاءه مخلوقا فى أوعية تشبه الخرائط ، وتلك الخرائط على رؤوسها أمثال الأسنة لتمنع الطير أن يأكلها لتحفظ للانسان ، فكأن الحبوب فى حصون محصنة لتحفظ للانسان .

يرى الانسان سنابل القمح تتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويرى تلك السفا كالأسنة فوقها فالجاهل لايدرى والحكيم يعرف نعمة الله : « ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

(٢) الشجر وأصناف النبات مخلوقات لاقدرة لها على الحركات كما الحيوان ، فوقفت رابضة فى أماكنها ، وأخذت ترضع من الأرض كما يرضع ولد الحيوان ابن أمه ، وتجتذب الأغذية من الأرض ، وتلك الأغذية تقسم على الورق والأغصان والأزهار والأثمار ، كل يأخذ مايناسبه .

(٣) جذور النبات تمتد فى الأرض كما تمتد الأطناب ، فكما أن الخيام تمتد أطنابها من كل جانب لتثبت تلك الخيام فلا تسقط ولاتميل ، هكذا النبات عروقه منتشرة فى الأرض ، ممتدة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه ، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية ، لاسيما فى الرياح العاصفة ، إن حكمة الله سبقت فى النبات فامتدت عروقه الى الجهات كلها ليحفظ الشجر عند العواصف ، هكذا صنع الناس الخيام ، وجعلوا أطنابها ممتدة من سائر الجهات تقليدا لما رأوا فى الأشجار .

(٤) نسج الورق : انظر الى الورقة الواحدة كيف ترى فيها مايشبه العروق مبثوثة ، فنها الغلاظ الممتدة فى طولها وعرضها ، ومنها لدقاق المتخللة تلك الغلاظ ، المنسوجة نسجا دقيقا عجيبا ، ولو كان البشر هم الصانعون له لم يفرغوا من ورقة واحدة فى طول الأزمان ، وبالنظر اليها يرى أنها كجسم الانسان المنبثة فيه العروق الغلاظ ، ثم الدقاق ، ثم الشعرية الدقيقة جدا ، ثم ان العروق الغليظة تمسك الورقة بصلابتها وقوتها . انظر هذا المقام موضحا بالأشكال فى سورة يس عند قوله: سبحان الذى خلق الأزواج كلها الخ .

(٥) العجم والنوى : اعلم أن الله جعلنا مغرمين بكنز الذهب والفضة والأحجار الثمينة ، فترانا نخزنها ونصونها ، وهذا معروف عند العامة والخاصة ، فأما العامة فانهم يموتون ولايدرون حكمة غرامنا بتلك الجواهر ، وأما الخاصة فانهم يقولون : لننظر الى ماكنزه الله أمامنا ، إن الله حكيم ولايخزن شيئا إلا لحكمة ، فما الحكمة إذن فى وضع النواة فى باطن التمرة ، والعجم فى باطن الفاكهة ؟ اننا نكنز الأشياء ذات القيمة ولكن الله يكنز مالاقيمة له فى نظرنا ، كنز النواة ، والنواة لاثمن لها ، وربما طحناها وجعلناها علفا للابل ، وبعد التفكر العظيم يقولون : عجبا ! إن النواة أفضل ألف مرة من الماس والياقوت والمرجان ، ان النواة تستحق أن تخزن فى أعز خزائننا فى خزائط الجواهر الثمينة ، هذا هو السبب فى أن الله خزنها ، ان النواة أصل النخلة كما أن الحبة أصل نبات القمح ، فالله خزن النواة وحصنها ، وجعل جرم التمرة غطاء لها لأنها أصل النخلة وهكذا بقية النوى ، فاذا حافظ الله عليها وأكثر منها فذلك للمحافظة على حياتنا ، أما اذا وضعنا الدرة اليتيمة فى حرز فليس لها منفعة إلا فى التحلى بها ، والنواة منفعتها حياتنا وبقاؤنا ، وما به البقاء خير مما به التحلى ، إذ لاحلية إلا للأحياء ، جل الله إذ عرفنا قيمة هذه المخازن والخرائط والصناديق المقفلة .

(٦) الصلابة فى النواة : إن صلابتها ممسكة لرخاوة الثمار ورقتها ، فلو أن النواة لم تكن صلبة لسرى الفساد إليها قبل إدراكها .

(٧) قشرة الحب والنوى : خلق لكل منهما فى ظاهره قشرة ، فاذا سقطا فى التراب أوغيره لم يفسدا سريعا ، واذا ادخرا لوقت الزراعة بقيا محفوظين ، فصار قشرهما الخارج حافظا لما فى باطنهما ، فلذى فى باطنهما كالشىء النفيس الذى له صندوق يحفظه ، ولولا تلك القشرة على النواة والحبة لأسرع إليهما العطب ، ولم يصلحا لزرعهما مرة أخرى ، وكم من امرىء يأكل القمح والذرة وهو

لايدرى لم كانت هذه الصلابة ، ولوعلم الحقيقة لأدرك أن تلك الصلابة عليها مدار بقائنا وحياتنا ، وأن هذه القشرة أشرف من كل مايحفظ أجل الجواهر ، فباطن الحبة محفوظ أوّلا بغلافها و بسفائها ثم بصلابتها ، و باطن الثمرة محفوظ أوّلا بالكفرا وهو وعاء الطلع ، ثم بجرم الثمرة ، ثم بالصلابة .

(٨) نبات الحب والنوى متى وضع كل منهما فى الأرض وسقى خرج منه عرق فى الثرى ، وغصن فى الهواء ، وكلما ازداد غصنا ازداد عرقا تتقوّى به أصل الشجرة ، وينصرف الغذاء منه الى الغصن فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار ، ويصعد الماء فى جذرها إلى أعالى الشجرة .

(٩) تقسيم الغذاء على أجزاء الشجر والزرع تقسيما عادلا كما تقدم .

(١٠) خروج الأوراق قبل الأثمار : انظر الى الثمرة تجدها ضعيفة عند خروجها تستضرّ بحرّ الشمس و برد الهواء ، فخرجت الأوراق قبلها لصيانتها كما خلق النبات والحيوان قبل الانسان لحياته ومنفعته .

(١١) نظام الأوراق : إن الأوراق تكون ساترة للثمرة لحفظها من الحرّ والبرد ، ولكن الثمرة لاتزال فى احتياج الى الحرارة الشمسية لتنضجها ، لذلك ترى بين الأوراق مداخل وفروجا فى خللها لدخول الشمس والهواء التى لاغنى للثمرة عنها ، وكما جعلت الأهداب على العين مانعة الغبار ، مدخلة الضياء ، هكذا هنا منعت الأوراق الحرّ والبرد ، وأدخلت مايلزم من الهواء والحرارة . هذا هوالعلم الذى يرقى العقول . هذا هوالذى يقول الله فيه [ق] على ما فهمت من معناها . هذا هوالذى قال الله فيه : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » هذه هى الحكمة الشريفة ، والآيات المنيفة ، والعلوم العالية ، والجواهر الغالية ، ألا تعجب لكنوز مكشوفة مستورة ، وجواهر محجوبة منظورة ، وأسرار ظاهرة خافية و بدائع غالية ، رخيصة ، انظر كيف يجلس المسلم تحت الأشجار والأثمار ، والريح تعبث بالغصون والأوراق ، ولايدرى لم هذه الأوراق ؟ انظر لمسلم الزمان المستقبل كيف يفهم ماحجبه الله عن المسلم القديم ، يقرأ سطور الكائنات فى خلال الأوراق ، و يعجب من شمس تتخللها ، وهواء يداخلها ، ليعطى الثمرة حظها ، و يقرأ المسلم فى المستقبل : « وكل شئ عنده بمقدار » . أما أكثر المسلمين والفقهاء فيما مضى ، فقد كانوا عن الفهم محجوبين ، العلم أمامهم مكشوف ولكنهم لايفقهونه ، اقرأ قول الله تعالى : « أفلايتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فاذا أقفلت القلوب لم تفهم الحكم التى سمعتها فى حبّ الحصيد ، ولافى النخل الباسقات التى لها طلع نضيد .

(١٢) الثمرة فى غلافها : منذ أيام كنت مارّا أمام [كوبرى الملك الصالح] وأمامى نخلة قد انشقّ [كفراها] أى غلاف طلعها ، وانشقاقه كان من الجهة الغربية حيث تصيبه الشمس لأنه مكشوف من جهتها ، أما الذى فى جهة الشرق فلم ينشق ، ثم انى عجبت كيف كان انشقاقه تدريجيا شيئا فشيئا ، فأخذت أفكر فى ذلك العجب ، وأن الذى برز الى الشمس هوالذى قوى على تحمل الجوّ ، وأن الذى لايزال مستورا هو الذى لم يقو ، وكلما اشتدّ مستور ظهر للشمس والريح ، ومنذ يومين مررت فوجدت جميع طلع هذا الغلاف قد ظهر ، فأما غيره فانه لايزال بحاله لم يشقق لبعده عن ضوء الشمس .

(١٣) موازنة بين الثمار و بين الأجنة : كلاهما مادام لايقوى على الجوّ يبقى فى مكمنه ، فتى قوى

خرج منه .

(١٤) اعتبر ذلك فى أمم الأرض من حيث الدين والعلم ، يعلم الناس الدين ويحجبون عن الحكمة المخبوءة فيه كما ترى فى أمة الاسلام يقرءون الأحكام الشرعية فاذا قويت العقول والفطن أطلعهم الله على بدائع صنعته ، فهذا الذى نقوله الآن يفهمه أكثر الناس ، لكن لا يذوق الحكمة ويحس بها فى نفسه إلا من أصبحوا أشبه بالجنين وقد نزل من الرحم ، وبالثمرات وقد خرجت من الأكمام ، فأما من عقله لم يزل ناقصا فهو أشبه بالتمر فى الأكمام ، فليلزمه شيوخه بالعبادات ، وليمنعوه من هذه الآيات .

(١٥) حب الرمان المرصع المتقدم ذكره : ترى فى داخل الرمان كما تقدم شحما مركوما غليظ ، الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال فى ألوانه ، أوكالبناء الذى وسع أسفله للاستقرار عليه ، ورقق أعلاه حتى صار مرصوفا رصفا كأنه منضد بالأيدى ، ولا جرم أن الأيدى تعجز عن ذلك التدخل الذى نظم حبها فى الشحم المذكور ، وترى هناك أقساما كل قسم منها مقسوم بلطائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه ، لتحجب حبها حتى لا يلتقى بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية .

(١٦) غذاء الحب فى الرمان : لوأن الحب كان هو الحشو للرمان لا سواه ولم تكن هناك حواجز فمن أين يستمد الحب الغذاء ؟ فلذلك جعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء ، فلذلك ترى أصول الحب مركوزة فيه ، لماذا ؟ ليمدها الشحم بالغذاء ، وهناك عروق رقاق توصل للحب غذاءه ، والى حبة حبة غذاءها .

(١٧) فى حب الرمان أيضا الحلاوة فى المرارة : ترى الحب حلوا وهو مغروس فى أصول مرة شديدة المرارة قابضة ، وهناك لفائف لطيفة على الحب لتمسكه فلا يضطرب وتحفظه ، وحفظ جميع ذلك فى قشر غليظ واق تمام الوقاية .

(١٨) عود الرمانة : قد جعل متينا قويا حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية .

(١٩) البطيخ واليقطين والفقوس : عود هذه النباتات محتاج الى الماء أشد الاحتياج ، لأنه على الدوام يجتذب ماء كثيرا ، ولذلك نرى الفلاحين فى ضواحى مصر يسقون تلك النباتات كل يوم مرة ، لأنها تجتذب ماء كثيرا ليملأ ثمرها العظيم جدا ، فترى البطيخة مثلا كبيرة كالجرة العظيمة ، وربما كان فى الشجرة الواحدة كثير ، فكان العود دائما مشبعا بالماء ليوصله الى ثمره ، فكان أشبه بالقناة الرطبة ، فلن يستطيع أن يكون قائما ، لذلك انبسط على الأرض ، وترك ثمره على الأرض والأرض تحمله ، لأن هذا العود الطرى اللين لا يقدر على حمل نفسه فضلا عن حمل هذا الثمر العظيم .

(٢٠) البطيخ وما معه : لا تخلق إلا عند الحاجة إليها ، وفى الأزمنة المناسبة ، فلا يخلق فى الشتاء لأنه بالصيف أليق .

فهذه عشرون حكمة ذكرتها لك لتدرس رياض الجنات فى الدنيا ، وتنال رياض الجنات بدراسة هذه الرياض فى الآخرة ، والله هو الولى الحميد .

شذرات علمية فى النبات

(١) نبات يفيد و يستفيد : قال اللورد أفبرى فى كتابه [محاسن الطبيعة] : هناك أنواع الفطر [بضم الفاء والطاء] والكمأة التى تمو بين الأشجار ، وقد تكون على الجذوع أيضا ، وقد ترى القسم الظاهر من جذور الشجرة مغطى بطبقة من هذه النباتات المجهولة الفصائل حتى الآن ، هذا النبات قد كان يظن النباتيون أنه يضرّ الشجر ضررا كبيرا ، وقد عرفوا أخيرا أنه يمتص الغذاء بالجذور و يصيره عصيرا فى تلك النباتات ، و يتسرّب فى عروق الشجرة و يزيدها نماء ،

(٢) وصف الغابات فى البلاد الحارّة : قال اللورد المذكور : عجب ، عجب للغابات فى المناطق الحارّة ، ترى الشجرة ملتفة بالشجرة متعانقة الأغصان ، محبوكة منسوجة نسيج الثياب سدى ولحة ، فكأنها بساط عظيم ، ترفع بصرك فترى شبابيك من الأغصان المشتبكة المختلطة المتداخلة المتعانقة ، والأزهار تقبل الأزهار ، والأثمار تحيط بالأثمار ، والأوراق متلاصقات ، وربما وقفت بين جذوع عاريات لا جال فيها ، ثم ترفع بصرك فترى نفسك تحت قبة فى جوّ السماء ، خضراء ، بهجة تسرّ الناظرين ، قد حجبت نور الشمس وقت الظهيرة بذلك السقف المرفوع الزبرجدى البهج المنسوج البديع .

(٣) كيف خربت أقطار واسعة من سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وشمالى افريقية ، يقول اللورد المذكور : إن تلك الأقطار كانت أكثر سكانا ، وأعظم مدنا ، وأنعم عيشا ، و بلادها تدرّ لبنا وعسلا ، ثم تحوّلت إلى صحارى قاحلة ، وأراض جرداء خالية ، قال : إن الأمم انقرضت لما انقرضت أشجارها وغاباتها ، ولو أنهم حرصوا على غاباتهم لكانوا أشدّ حرصا على دوائهم ، يريد أن من أولع بالتخريب صار ذلك ديدنه ، فيؤول أمره إلى البوار . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ✲ مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

لقد أسلفت فى هذا التفسير فى مواطن كثيرة آراء القدماء والمحدثين فى عالم الملائكة ، وعالم الجنّ ، وسأذكر هنا مختصرا موجزا منه فأقول :

(١) لقد ترى أن الناس يختلفون فى أشكالهم وألوانهم وأخلاقهم ، حتى ان كل امرئ يكاد ينطق بما استكنّ فى نفسه ، وهيئة الانسان وسيماه تدل على مافى نفسه من المحاسن والمساوى كما شرحه العلامة ابن خلدون فى المقدمة

(٢) إن الأمم اليوم ومنها أمتنا المصرية قد عرفت أن خطوط ابهام اليد فى المرء لاتشتبه فيها بسواه ، فلذلك جعلوه علامة على صاحبها لاتختلط بسواه .

(٣) قد رأى الناس اليوم الآلة الحاكية وهى [الفونوغراف] فهو كصدى الصوت يحكى ماقيل بلاخلل وقد أمكن الناس اليوم أن يحفظوا الأصوات فى اسطوانة و يديرونها فتنطق بما نطق به الانسان و يتكرّر ذلك سنين وسنين ، قد زاد الانسان على ذلك ، فترى علماء النفس فى بلاد أمريكا عرفوا علما يسمى علم الأثر ، وملخصه كما تقدم موضحا فى ﴿سورة النساء﴾ أن بعض النفوس اذا غابت بتنويم مغناطيسى ، ثم أعطى لها أثر انسان أو حيوان أو جماد أو نحوه أخذت تلك النفس

تقص ماجرى لصاحب الأثر ، حتى ان أحد هؤلاء القادرين على ذلك ، المتعودين عليه اذا دخل فى حجرة ذكر كل مامرّ بها من خير وشرّ ، ووصف هيئات الذين عاشوا فيها وحسناتهم وسيئاتهم

(٤) قد علمت أن علم الأرواح انتشر ، ولقد قدمت لك آراء آلاف من العلماء قرّروا هذه الحقائق ، ولقـد مضى فى هذا التفسير أن اللورد [أوليفر لودج] قال فى محفل عام أيام الحرب الكبرى : « إن هناك عوالم أعقل منا تحيط بنا وتساعدنا ، والله نفسه يساعدنا » كل ذلك بالتجربة العلمية

(٥) أفلست ترى معى أن العلم الحديث كأنه إنما جاء ليعرف الناس دين الاسلام ، والافكيف يقول الله تعالى : إن هنا ملكين أحدهما على اليمين والآخر على الشمال ، ويقول : ان الانسان له قرين من الملائكة وقرين من الجنّ ، ويقول : لكل امرئ ملك يسوقه وملك يشهد عليه .

هذه أمور سمعية ليس للعـقل فيها مدخل ، ولكن العلم الحديث أثبت هذا كله ، أثبت ماهو أعجب ! أثبت أن الجماد الذى يحيط بنا يرسم فيه مايجول بخواطرنا فضلا عما نعمل أونتكلم به حتى قال أحد علماء النفس فى أمريكا كما تقدم فى هذا التفسير : « سيأتى قوم بعد ألفى سنة أوأكثر وبهذا العلم يمسكون بحجر مما كان حولنا ، ويقصون حسناتنا وسيئاتنا وآراءنا وأخلاقنا ، وما كنا نخشى أن نقوله بألسنتنا » .

ياعجبا كل العجب ! فاذا كان الجماد أصبح يخبرنا ويخبر غيرنا بما عملنا فكيف لانعرف ذلك الأرواح المجرّدة من المادّة ؟ المادّة أصبحت مخزنا لعلومنا فكيف بالأرواح المجرّدة التى أثبتها العلم الحديث .

اللهم إن دين الاسلام لايظهر إلا فى المستقبل ، أما القرون الماضية فلم يكن بعد الصدر الأوّل من العلم إلا القشور ، اللهـم انك أنزلت الاسلام ، وهاأنت ذا سبحانك تفهمنا قولك : « سنريهـم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فدين الاسلام الآن يظهر فى الأنفس ويظهر فى الآفاق ، ومانحن فيه الآن ظهوره فى الأنفس .

ففز بعلم تكن حيا به أبدا ✽ الناس موتى وأهل العلم أحياء

اللطائف العامة فى هذه السورة (١)

اللطيفة الأولى فى سرّ [ا ل م] فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » .

اللطيفة الثانية فى أسرار قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم » الخ . وفى هذه اللطيفة مبحثان ﴿ المبحث الأوّل ﴾ فى عجائب العين التى اختصت بنظر السماء ﴿ المبحث الثانى ﴾ فى عجائب نفس السماء ، وذلك بفهم آلة النظر والجسم المنظور .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع [المؤلف]

اللطيفة

اللطيفة الأولى

فى سرّ [ا ل م] فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج »

ما كدت أكتب هذا العنوان حتى حضر صديقى العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : إن غرامك بالعلويات والسفليات من الكواكب والزروع والشجر والجبل جعلك مغرما بالكلام فيها حتى ان أكثر هذا التفسير راجع الى هذه المعانى ، فهلا أقللت من هذه المعانى فى نحو هذه الآيات ؟ فقلت ياصاح : قد تعجلت ولم تستطع صبرا على ما أريد أن أقوله ، إن كتابتى فى هذه الليلة إحدى ليالى شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافقة ليلة الخميس ٣١ شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م ترجع إلى [ا ل م] فى قوله : « أفلم ينظروا » . فقال : وماهذه فى هذا المقام ؟ فقلت يا صاح : ان هذه بينها و بين [ا ل م] فى أوّل ﴿ سورة البقرة ﴾ صلة . فقال : وأىّ صلة بين البقرة وسورة ق وما فيها من الآيات ؟ فقلت صلة وثيقة عجيبة ، ان هنا سرّا كان مخبوءا والله أبرزه اليوم فى هذا التفسير ، وحرام علىّ أن أكتم عن الأمم الاسلامية ما وقع فى صدرى فى هذا المقام من عجائب القرآن . فقال : انك تصف أمرا عظيما فما هو ؟ قلت [ا ل م] من مفاتيح علوم القرآن . فقال : أرجو الايضاح ؟ فقلت : ابتدأ الله القرآن بالفاتحة ، وابتدأ الفاتحة بالبسملة ، فالبسملة أشبه بمقدمة للفاتحة ، و براعة استهلال ، والفاتحة كذلك بالنسبة للقرآن ، ولم يبق بعد براعة الاستهلال أو المقدمة وهى الفاتحة التى هى أم الكتاب إلا أن يبتدئ فى تفصيل ذلك الجمل ، فكان الابتداء برمز هو [ا ل م] وهى من الحروف التى فى أوّل السور ، وقد تقدّم الكلام عليها فى كل سورة على حدتها ، وأعمّ الكلام فيها ما جاء فى أوّل ﴿ سورة آل عمران ﴾ فقد ذكرت هناك آراء طوائف المتقدّمين الثلاثة ، وهى مايذكره أمثال ابن عباس رضى الله عنهما ، وأمثال ما يذكره بعض الصحابة والتابعين من مناسبات هذه الحروف من حيث أوصافها وأحوالها ، وانتظام أوضاعها [راجعه هناك] ومن حيث مناسباتها للعالم المحيط بنا الى آخر ماهنالك ، ومثل ماتبدّى لنا فى هذا الزمان من العجائب والبدائع ، مثل أن [ا ل م] فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ تذكر مسلمى زماننا بما قصه الله من حال اليهود فى زمن النبوّة ، وأنهم باتكالهم على شفاعة آبائهم وتخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ، أو تحديد أيامه فى جهنم قد أخلوا بشرائط الدين فذلوا وزال ملكهم واستولى المسلمون على ما يملكون ، فاذا عرف المسلمون أن [ا ل م] فى أوّل آل عمران قد أشارت بطرف خفىّ الى هذه المعانى ، ورأوا أن ذلك ايقاظ من الله لهم فى زماننا هذا ، يدعوهم ذلك الى الجدّ والتشمير فى العمل وأن من ظنّ أن الشفاعة التى أجمع عليها المسلمون يعقبها الكسل والتواكل وترك العمل كما كان اليهود فى زمن النبوّة فهو مغرور ، وأن الأمة الاسلامية التى تكون هذه حالها لامحالة آيلة إلى الاضمحلال والزوال .

أقول : اذا عرف المسلمون ذلك جدّوا حالا فى العلم والعمل وعدم التواكل كما هو الحاصل فعلا الآن ، وهذه المعانى هى التى ذكرتها فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ هى الموافقة لقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ولاجرم أن [ا ل م] من القرآن ، ولقد تدبرناها فألفيناها ناطقة بهذه المعانى ، وهذه المعانى سائغة ، وفيها من البلاغة مالا حدّ له ، والمعنى المأخوذ منها عظيم الأثر جليل النفع . فقال صاحبى : نعم هذا تقدم ولكن نحن الآن فى سورة [ق] و [ا ل م] فيها فى وسطها لا فى أوّلها . قلت : أيها الصديق لاتعجل ، ان المفتاح الذى جاء بعد الفاتحة قد فتح به أوّلا خزائن علوم الصبر على مكاره القتال . وعدم الفرار منه ، وعن الشهوات ، حتى يقدر الجندى على المصابرة فى الحرب ، فهما صبران : صبر على اصطلاء نار الحرب ، وصبر عن شهوات النفس ، وهذان لايتمّ نصر إلا بهما ، فالأوّل فى آية : « ألم تر الى الذين خرجوا من

ديارهم وهم ألوف » والثانى فى آية : «ألم تر إلى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى» فقد جاء فى هذه الآيات مسألة شرب الماء وأن من شرب منه قليلا أمكنه المصابرة فى القتال ، ومن شرب كثيرا كرّ راجعا مهزوما ، فالقليل من هؤلاء الصابرون فازوا فى الحرب على الكثيرمن الأعداء الشهوانيين الكافرين ، فهاتان خزانتان فتحتا بهذا المفتاح فى ﴿ سورة البقرة ﴾ : خزانة الصبر على مكاره نفس الحرب ، وعلى مكاره ترك الشهوة ، أى الشجاعة والعفة ، وباجتماعهما مع العلم يكون كمال الانسان ، والخزانة الثالثة جاء مفتاحها [ا ل م] فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ وهى ترك الأمانى والتعليل بالأباطيل كما ذكرناه ، بل يجب تجريد الشفاعة من المعانى المناقضة للنشاط والاقدام والمثابرة والا كان هذا الفهم مجتثا للدين من أساسه ، وكم من خزائن فى القرآن فتحت بهذا المفتاح مثل قوله تعالى : « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » وقوله تعالى : « أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » فههنا فى هاتين الآيتين جاء ذكر [ا ل م] وجعل مابعدها مذكرا لمن فوق الأرض بأحوال من هم تحتها فى قبورهم ، وأن الله قد ضرب الأمثال للأحياء فاذا لم يتعظوا أصابهم الله بذنوب الأموات الذين سكنوا ديارهم ، وهذا بعينه هو الذى حصل فى ديار الاسلام .

ياسبحان الله ، ويا عجبا يا ربنا ! ألم يسكن المسلمون أيام الدولة الأموية والعباسية ديار أمم الروم والفرس ، ألم يصب الله هذه الممالك بعدوى الفرس والروم ، فابتدأ معاوية رضى الله عنه بتقليد الروم فى أبهة الملك الظاهرى كما قدمناه ، واتسع ذلك النطاق فكانت الدول الاسلامية شديدة الاسراف ، واتبعوا سنن من قبلهم ، أليس هذا بعينه قوله تعالى : « أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم » وقوله تعالى : « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم » الخ .

ولاجرم أن المسلمين السابقين واللاحقين تبين لهم كيف فعل الله بدولتى فارس والروم الذين حلّ المسلمون بديارهم وسكنوها ورأوها فلم يعتبروا فحلّ بهم ما حلّ بمن قبلهم ، لأن الله بالمرصاد وعدل حكيم [اقرأ هذا المقام فى سورة الأحقاف عند آية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » ثم اقرأ تفسير سورة القتال والفتح ، ففى غضون ذلك ترى هذه العجائب من تاريخ الاسلام] فانك ترى أن الله طبع على قلوب هذه الأمم بحيث ترى الاسلوب فى النظام واحدا فى بغداد ودمشق وقرطبة ومصر قديما . كل ذلك يرجع للمفتاح الذى فى أول ﴿ سورة البقرة ﴾ الذى ذكره الله بعد الفاتحة .

هذه هى الخزانة الرابعة من خزائن العلم التى مفتاحها [ا ل م] ولنتجاوز ذكر الخزائن الأخرى التى يفتحها هذا المفتاح ، لأنك أيها الذكى يسهل عليك فتحها بعد ما اقتصرنا عليه مما بيناه ، ولنذكر الخزائن التى فى هذه السورة فى هذه الآية ، وهى خزائن علوم السموات والأرض ، إذ يلفت الله نظرنا نحن المسلمين إلى آيات الكواكب والأقمار والشموس والمجرات والسدم ، فهذا المفتاح الذى فتحت به خزائن العلوم فى سور كثيرة جىء به هنا لفتح العلوم . فقال : إن هذه العلوم مفتحة الأبواب ، وقد فصلت فى هذا التفسير كثيرا كما قلته فى أول سؤالى . فقلت نعم ولكنها لم تفتح خزائنها إلا فى هذا الزمان ، ولما فتحت عرفنا بعض أسرار [ا ل م] التى جاءت مفتاحا فى أوائل السور ، وهاهى هنا بها فتحت تلك العلوم .

فقال : إن التماس هذه المعانى من الحروف فيه تساهل ، وهل سبقك بهذه المعانى أحد ؟ أوليس هذا يعدّ تفسيرا بالرأى ؟ ثم ان تكرار الكلام على عجائب السموات والأرض يشعر المسلمين بأن المفسر يجب عليه أن يعرف علوم الفلك والطبيعة وغيرها من علوم عصرنا ولم يقل به أحد ، ألاترى أن صاحب الاتقان

ذكر

ذكر شروط المفسر وحصرها فى ١٥ علما وهى :

(١) اللغة .
(٢) والنحو .
(٣) والصرف .
(٤) والاشتقاق كاشتقاق [المسيح] هل هو من السياحة ، أو من المسح ؟ والمعنى يختلف تبعا للاشتقاق
(٥) والمعانى .
(٦) والبيان .
(٧) والبديع .
(٨) وعلم القراءات .
(٩) وأصول الدين .
(١٠) وأصول الفقه .
(١١) وأسباب النزول والقصص .
(١٢) والناسخ والمنسوخ .
(١٣) والفقه .
(١٤) والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم .
(١٥) وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم الخ .

قال ثم قال : فهذه هى العلوم التى أوجبها العلماء على المفسر . فلما أتم سؤاله قلت له : أما قولك : ان هذه المعانى لم يسبقنى بها أحد ، وانى فسرت بالرأى ، وأن العلوم الكونية من العلوم التى تشترط فى المفسر فجوابه أن أقول :

اعلم أن فعل العاقل يكون مشابها لقوله ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم » فمن أصلح قوله صلح فعله ، وبين أدب النفس وأدب الدرس مناسبة ، والله الذى ليس كمثله شيء قال وفعل ، ونحن لم نعرف من قوله إلا الوحى ، وفعله هى هذه العجائب فى السموات والأرض ، نراه أبدع المجرّات والسدم والشموس والأرضين ، فأوّلا خلق الأثير ، ثم من الأثير خلق المجرّات والسدم ، ومن هاتين أخرج الشموس ، ومنها أبدع السيارات والأرضين ، ومن هذه أبدع الأشجار والزروع ، وعلى هذه ثمر الأزهار والأثمار ، فكل عالم من هذه العوالم زهر لما قبله ، فالزهر للشجر ، والشجر زهر الأرض ، والأرض والكواكب أزهار الشمس ، والشموس أزهار المجرّات ، والمجرّات أزهار الأثير ، والأثير صنع الله بلا مادّة .

هذا كله فى عوالم المادّة التى منها الانسان الذى هو من زهر الأرض ، فهذا الانسان أيضا له زهر وزهره هى الحكم التى تلقى على قلبه ، وقد اختص به دون سواه من العوالم ، ان عوالم الحيوان كذوات الفقرات من الطير والسمك ، وذوات الأربع ، وكالحشرات ، كل هذه زهرات فى الأرض ولكن الانسان أرقى ، ان كل حيوان فيها يعيش بغريزته ، والغريزة منحة من الله لا نصب فى تحصيلها ، ولكن الله يريد عالما أرقى من ذلك العالم يجب أن يتعلم الاستقلال فى عمله ورأيه ، وذلك بوقوعه بين متضادّين ، وهما الخير والشرّ ، فيربى ملكته ويحكم بعقله ولا يتكل على الغريزة ، لأن الله يريد عقولا مدبرة لها استقلال ، وهذه العقول لن يملكها إلا الانسان ، فهو يربى ليتعلم الاستقلال ، والاستقلال لا يكون إلا على هذا المنوال : نصب وجدّ فى الاختيار والأعمال ، واصدار أحكام فيما تشابه من الامور خيرها وشرّها ، ومتى كملت تلك العقول عرجت إلى ملأ أعلى والابقيت مع العوالم المنحطة ، فهذه العقول الانسانية لها زهر أيضا وهى الحكم التى يلقيها الله على

القلوب وهى الشرط الخامس عشر الذى ذكرته أنت من شروط المفسر، وقد جاء فى صفحة ١٨١ فى نفس كتاب [الاتقان] بعدماذكرته أنت من شروط المفسر مانصه : « علم الموهبة علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم » واليه الاشارة بحديث : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » .

قال ابن أبى الدنيا : « وعلوم القرآن ومايستنبط منه بحر لاساحل له » . قال : « فهذه العلوم التى هى كالآلة للمفسر لا يكون مفسرا إلا بها فمن فسر بدونها كان مفسرا بالرأى المنهى عنه ، واذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرا بالرأى المنهى عنه » . قال : « والصحابة والتابعون كان عندهم علوم الدين بالطبع لا بالاكتساب واستفادوا العلوم الأخرى من النبى صلىّ الله عليه وسلم » انتهى .

فانظر الى قوله «علوم القرآن ومايستنبط منه بحر لاساحل له » . أيها الأخ : نحن جئنا فى زمان فيه وجدنا أوائلنا قد محصوا هذه العلوم تمحيصا وسهلوا دراستها لنا ، فهذه القرون الطويلة بعد النبوّة لم تدع قولا لقائل ومهدت الطرق لنا ، وسهلت السبل لنا ، وأصبحنا حين نقرأ القرآن نجد أمامنا الأبواب مفتحة فى كتب أوائلنا فنجدهم قد استوفوا لنا تلك الشرائط وأكملوها فلا نصب اليوم فى تحصيلها ، انما النصب فى تحصيل العلوم الأخرى التى أشاروا لها بالموهبة والتى قالوا : ان علوم القرآن ومايستنبط منه بحر لاساحل له .

فهذا الذى نقوله نحن من أن [ا ل م] فى أوّل البقرة مفتاح ، وهذا المفتاح فتحت به خزائن وخزائن ومنها خزائن العلوم الكونية فى هذه السورة وفى غيرها ؛ فالعلوم العصرية تعين على علم الموهبة المذكور ، إذن ثبت أن كلام المتقدمين دخلت فيه هذه العلوم من حيث انها معينة على تلك الموهبة التى ذكروها ، فأما التفسير بالرأى والهوى فمثل تفسير الروافض : « مرج البحرين يلتقيان » انهما علىّ وفاطمة « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » يعنى الحسن والحسين . فأما نحن فالحمد لله قد راعينا هذه الشروط الخمسة عشر بفضل آبائنا العظماء ، ثم وجدنا أن أمتنا الاسلامية قد نامت نوما عميقا وتركت علوما وعلوما ، وألفينا هذا القرآن منسيا مجهولا ، مقروءا لفظا ، متروكا معنى ، وكل طائفة من طوائف المسلمين نامت عند أقوال شيوخها ، ثم تركت حبل الامور على غاربها ، فلم نجد بدّا من ايقاظها وبعث همم أبنائها ، ونحن اذا قلنا ان هذه الحروف التى فى أول السورة قد أشارت الى هذه المعانى التى أسلفناها فقد قلناه ونحن مطمئنون لما نقول ، ألا ترى رعاك الله أن هذه العلوم التى قلنا ان الحروف تشير لها كلها فروض كفايات ، إذن استخراج المعانى على هذا المنوال لم يكن موجبا بدعة ، ولا أمرا منافيا للدين ، بل هو من واجباته ، وفروض الكفايات نام عنها المسلمون قرونا وقرونا وناموا نوما عميقا ، فهذه الحروف فى أوائل السور يقرؤها المسلمون ويكتفون بقولهم « الله أعلم بمراده » مع أن الله قال : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فهذه من القرآن وقد تدبرها آباؤنا فقالوا : مافتح عليهم بحسب ماينفع زمانهم ، ونحن تدبرناها فألفيناها مفاتيح لهذه العلوم التى فى زماننا ولغيرها والا فلماذا نرى « أولم يروا » و « ألم تر الخ » كلها تحثّ على علوم نحن أجهل الناس بها ولا يعرفها إلا الفرنجة ، فما هذا التوبيخ فى القرآن على الترك والتقريع ؟ نرى علماء أوروبا يدرسون الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة ، ويستخرجون نتائجها لينتفعوا بها فى حياتهم ، أفليس هذا نفسه هو قوله تعالى فيما قدّمنا : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » وهو نفس قوله تعالى أيضا : « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم » أليس هذا حضا على دراسة آثار قدماء المصريين والفرس والروم وسبأ وجميع الأمم التى سكنا بلادها كما ندرس جميع النجوم والزروع ، أوليست هذه هى العلوم التى جهلها المسلمون جهلا فاضحا فصاروا هزءا بين الأمم وأذلاء ، وأىّ ذلّ أشدّ من هذا الذل ! نعيش ويدرسنا ويدرس آباءنا الفرنجة ، ونحن نعيش ولاندرس أنفسنا ، ولاندرس آباءنا إلاقليلا فضلا عن

الامم

الأمم التي سكنا ديارها فلانستخرج منها نتائج تنفعنا لنحترس مما وقعوا فيه ، ان ما كتبته في هذا التفسير من معاني هذه الحروف لا أزال أزداد به يقينا كلما طلعت شمس .

أيها الصديق : انظر إلى ما أقصه عليك من أنباء ملوك الاسلام السابقين ، واعجب كيف انتفعوا برموز الحروف المذكورة . وهاك ماجاء في الجزء الثالث من كتاب [تاريخ التمدن الاسلامى] صفحة ١٢ ومابعدها وهذا نصه :

« على أنهم لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وفهمه لوذكر الرجل حرفا أوكلمة انتبه السامع للآية كلها ، وكثيرا ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة الى آية يفهمها العارف بها ويعمل بها ، وقد تخفى على كثير ، ومما يحكى من هذا القبيل أن السلطان محمود الغزنوى الشهير بعث إلى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ، وينقش أسمه في سكة الذهب والفضة ، فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث إليه كتابا فيه تهديد ووعيد ، قال في جملته : [لوأردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت] فبعث إليه الخليفة كتابا مختوما ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفا ممدودة ، وفي وسطه لام ، وفي آخره ميم ، والصلاة ، والحمد لله ، فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستانى ، ففكر في ذلك وقال : عندى شرحه فقال : اذكر ولك ماتريد ، فقال : بعث إليهم السلطان يهددهم بالفيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه ألف ولام وميم إشارة إلى قوله تعالى : « ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » فارتاع السلطان محمود لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم ، وعاد الى أحسن الأحوال من الرضا والأدب [1] » اه

***

فانظر كيف انتفع الخليفة العباسى برسم الفيل مع ذكر [ا ل م] وكيف ارتاع السلطان محمود الغزنوى من هذا المعنى ، وترتب على ذلك حقن الدماء ، وحفظ البلاد ، في أعظم بقاع الأرض من سفك دماء مئات الألوف من الجيوش ، وتخريب الديار ، وحلول الدمار . ولقد تقدم مختصر هذا في سورة البقرة في الطبعة الثانية .

فهذا كله تم بمعونة [ا ل م] والسر في ذلك أن هذا الانسان المخلوق في المادة لاسعادة له إلا بالسعى ولذلك تجده لايحب إلا ماامنع عنه ، والمبذول مبتذل ، والعزيز مرغوب فيه ، هذا دأب هذا الانسان وهذا شأنه ، ومعانى الرموز محيرة مشتبهة ، فتى وصل الانسان إلى حلها سارع إلى العمل بها بفرح وسرور ، لأن تحصيل معانيها جاء بنصب وتعب ، وكل ماحصلناه بنصب وتعب أحببناه ، وهذا سر حياتنا في الدنيا ، هذه الحياة الدنيا جعلت لتدريبنا على تعقل الأشياء وعلى العمل فيها ، وهذا هوالذى يعرفنا مانزاوله فكرا وقولا وعملا ، وليس قول القائل للسلطان محمود الغزنوى : إن الظلم مرتعه وخيم كما حل بأصحاب الفيل كقول خليفة بغداد [ا ل م] فهذه حيرت العقول فلما اهتدى الى المعنى عمل الناس به ، واذا كنا نرى هذه الحروف الثلاثة في الحديث السابق كان هذا نتائج معانيها ، أفليس من أعاجيب القرآن أننا نرى المسلمين كانوا نائمين قرونا وقرونا وهم يقولون « الله أعلم بمراده » أو يلتمسون معانى جزئية علمية حتى اذاجاء وعد ربك بالفتوح على الأمم الاسلامية برزت هذه المعانى بعد اللتيا والتى ، فكتبناها لأنها تناسب زماننا ، وقد ضرب الله مثلا لأحوال المسلمين اليوم بما كان بين هذين الملكين وان كان ذلك أمرا جزئيا وههنا أمر كلى ، وليس مادار بين الملكين إلامجرد تنظير ومجرد تذكرة ، فذلك أشبه بقطرة وماهنا أشبه ببحر ، وكما تفطن القوم لمعنى الرمز في مخاطباتهم العادية ، فهكذا يتفطن المسلمون في أمرهم العظيم وهورقيهم وسعادتهم .

---

(١) من ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ — ترتيب الدول ٦٩

ان [ا ل م] فى سورة ق مفتاح فتحت به خزائن الذلك والطبيعة والعلوم المبنية عليها ، وهذا زمان الفتح لاغير ، لأن هذا الزمان هوالزمان الذى فيه ظهرت هذه العلوم والمسلمون فى حاجة اليها كما أن المسلمين فى بغداد فى حاجة الى هذا الرمز ، ففسره علماء السلطان محمود الغزنوى بما انتفع به المسلمون ، فتمت الدماء هكذا هنا تحفظ دول الاسلام بهذه المعانى المستخرجات فى هذا الزمان بعد نصب العلماء فيها أجيالا وأجيالا ، فزال الاشكال ، وحل العقال ، وارتقى الاسلام .

قلنا ان قول الله كفعله ، وللفعل ثمرات تقدم وصفها ، هكذا للقول زهرات وهذا شرحها ، هى هذه الحروف فى أوائل السور ، وحروف أوائل السور متميزات منيرات ، والزهرات رمز الثمرات ، فهذه الحروف رمز لثمرات هى علوم ومعارف قد أظل أوانها ، وأقبل ابانها ، وحان حينها ، ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان هذه الحروف دلالات على علوم هى سعادات أمم الاسلام فى هذه الأيام وفى مستقبل الزمان ، إن هذه العلوم والسعادات قد ظهر نموذجها فى هذا التفسير ، إن أمم الاسلام قد أخذت تخطو إلى العلا ، إن أمما وأمما فى زماننا وبعد مبارحتنا هذه الدار سيقرءونه ويأتون بعلوم وحكم لم يحن حينها ، وليس هذا الجيل بمستعد لها ، ولتعلمن نبأه بعد حين ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : لقد شفيت نفسى ، فقلت : الحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى فى سر [ا ل م] فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا » الخ ابتدأت فى كتابة هذا المقال قبل فجر هذا اليوم وهو آخر ديسمبر سنة ١٩٣١ وانتهيت من كتابته بعد صلاة الفجر الساعة السادسة إلا دقائق فالحمد لله على التمام .

اللطيفة الثانية

فى أسرار قوله تعالى : أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج
أى فى المبحث الأول من مبحثيها ، وهو مبحث عجائب العين التى اختصت بنظر السماء

هذا ما انشرح له صدرى قبيل الفجر ليلة الجمعة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣١ م — استيقظت قبيل الفجر فى ذلك التاريخ ، ونظرت إلى السماء ، ولحظت نفسى الكواكب التى كنت ألحظها فى الأعوام السابقة فى مثل هذه الأيام ، وهى الثريا والدبران والهقعة والهنعة ومايشبهها ، وقد تقدم الكلام عليها فى ﴿ سورة الصافات ﴾ فى أولها . وتقدم أيضا قبل ذلك فى سورة أخرى ، ولكن الذى توجه له نظرى فى تلك الليلة غير ذلك وهو أمران : كيف أنظر السماء ؟ وما نوع الرحمات التى أنعم الله بها على فى عينى حتى نظرت هذه السموات ، أخذ منى العجب كل مأخذ ، وأخذت أقول : ياليت شعرى سماء واسعة سعة لاندرى مداها ! هاهم أولاء بنو آدم فى الأرض يبحثون ، فهاهم أولاء لم يجدوا للسموات نهاية ، وقد وصلت نجومها إلى ٢ على يمينها ٢٤ صفرا ، وهذا عدد مدهش وعظيم ، هذه جنات تجلت للمفكرين فى الدنيا ، وانما الذى زاد دهشتى أن لى عينين تنظران هذه السماء ، والعين صغيرة عبارة عن كرة قدر الجوزة وهى مدمجة فيها صور وعجائب لاحد لها ، وباجتماعها أمكننى النظر ، عين صغيرة تجمع هذه العوالم كلها ، كيف بنيت عينى ؟ وماهى المناسبة بين عينى وبين الشمس والقمر والكواكب والأضواء فى أرضنا ؟ أنت عجيبة جدا أيتها العين ، لنترك الكلام على السموات الآن ، ولنشرع فى معرفة عيوننا حتى نعرف بذلك بعض ما أعطينا من الرحمات فى الأرض ونحن ذاهلون جاهلون ، ضعفاء أغبياء ، مبعدون عن الجمال والحكم والبدائع ، كل ذلك لمعرفة الرحمة فى أول هذه السورة التى جاء فيها الحض على النظر إلى هذه السموات .

مسامرة

مسامرة بينى وبين صديق العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير

بينما أنا أكتب هذا إذ حضرصديق العالم وقرأ ماتقدم فظهرعليه السرور والبهجة والنور ، وأخذ يظهر الاعجاب بهذا الموضوع ، ثم سكت قليلا وقال : انك الآن تريد البحث فى العين ، والبحث فى السموات حتى تفهم كيف ننظر وبعد ذلك تبحث فى عالم السموات . فقلت نعم . فقال : أليس هذا مكررا مع ماتقدم فى أول سورة ﴿آل عمران﴾ ومع ماتقدم فى ﴿سورة المؤمنون﴾ عند ذكرالسمع والبصرهناك ، ولقد شرحت العين فى ﴿سورة آل عمران﴾ شرحا بديعا جيلا لم أر له نظيرا ، وهناك وضعت رسمها ، وهكذا فعلت فى ﴿سورة المؤمنون﴾ ولكن الرسم فى هذه كان أوضح من الرسم فى الأولى التى أبديت فيها عجائب للعين بديعة تشرح الصدور وتسرّ الناظرين ، فأما السموات فانك شرحتها فى البقرة عند ذكرالسماء فى أوّل السورة وفى : « إن فى خلق السموات والأرض » فيها أيضا ، وفى أوّل ﴿آل عمران﴾ وفى ﴿سورة الأنعام﴾ فى أوّلها ، وفى آية ابراهيم : « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر » الخ وفى آية : « ان الله فالق الحب والنوى » وفى سورأخرى مثل ﴿سورة يونس﴾ فى أوّلها عند ذكرالسماء ، وفى أواخرها عند قوله تعالى : « فاليوم ننجيك ببدنك » فهناك تبدّت عجائب مثل صور البروج التى وجدت مرسومة على صندوق أحد الفراعنة ، وهى صور واضحة عجيبة وتبعها هناك صورة الهرم وعجائبه المدهشة ، وكيف كان للهرم نسبة عجيبة الى الشمس وبعدها عنا ومدارالأرض حولها فى السنة ، وكيف كان بين مساحات الهرم و بين المكاييل والموازين المصرية ومساحاتها نسب عجيبة . كل هذا تقدم وهكذا فى آخر الكهف وسورة الفرقان ويس وأوّل الصافات وهكذا فالكلام على العين وعلى السموات قد استوفيته فيما تقدم أفليس يكون الكلام هنا تكرارا ؟ فقلت : أنا أحمد الله إذ وفقنى أن أرى أمثالك من الفضلاء أهل العلم وأنا لا أزال حيا يقرءون هذا التفسير فى أثناء تأليفه وطبعه و يتعقبونه ويذكروننى بما نسيت .

ومما يشجعنى على السير فى هذا الموضوع الآن أن أجدك قد استوعبت أكثر ماكتبته وهو حاضر فى ذهنك ، ومن استوعب مامضى فقد استعدّ استعدادا تاما لما ألقيه الآن ، لأنى سأذكر فى العين مالم أذكره قبل الآن ، ومن فهم ماتقدم فهوجدير أن يفهم ما أكتبه الآن وهكذا ماسأكتبه فى السموات .

الله أكبر : إن حياتنا كلها جمال ولكن يظهر لى أننا أشبه بقوم حبسوا فى قصر ملك عظيم كريم ، وأمروا أن يغمضوا أعينهم ، لأنهم لونظروا جمال القصر لزال عنهم العناء ولأحسوا بفرح كأهل الجنة فى الجنة ، اننا الآن فى الأرض محبوسون ، وهذا الحبس به قلت سعادتنا ، ولكن الله عزّوجل يريد لشدّة رحمته بنا أن يفتح لنا باب السجن شيئافشيئا حتى نشاهد النورخارجه ، ولاأعرف بابا لهذا السجن إلا الدرس والعلم والنظر فى هذا الكون .

أيها الصديق : من نحن ؟ وماهذه الحياة ؟ وماهذه العناية العظيمة بنا ؟ لوأن شابا أحبّ فتاة وهومحبوس عنها ولكنه يعلم أن لها به عناية وعطفا لفرح بهذه العناية فرحا لاحدّ له ، و يصبح الحب غذاء له ، وسعادة لاحدّ لها ، ونحن الآن فى الأرض عمى عن أجسامنا وعقولنا ، لانفكر فى خلقها والأعمارقصيرة ، فكيف تمرّ هذه الأعمار ولانفتح هذا الكتاب الذى نعيش بين دفتيه ؟ وهوهذه الدنيا ، وأقرب شىء إلينا أجسامنا ومن عجائب أجسامنا عيوننا التى تنظر هذه السماء ، ومتى عرفنا العناية أحببنا من هذه أعماله ، وصارت دار الدنيا سعادة .

اننى أيها الذكى ليلة الجمعة الماضية لمانظرت إلى السماء أخذ هذا الفكر بمجامع عقلى ، وما كادت الشمس تطلع حتى فتحت كتاب « علوم للجميع » فى الجزء الثالث منه ، فرأيت فيه ما يأتى :

العين ومنفعتها

وقد كتب تحت هذا العنوان ماترجته : « ما أسهل على الانسان أن يستعمل آلة وهو يجهل تركيبها ، ولا يعلم أى شىء عن أجزائها مطلقا ، إن آلافا من السياح فى كل سنة يأخذون الصور فى الجبل والسهل ، وهم لا يعلمون أى شىء عن عجائب تلك الآلة التى بها يأخذون تلك الصور ، وبأى وسيلة تمكنت هذه الآلات العجيبة من احضار الصور البعيدة عنهم فجعلتها أمامهم .

وكم آلاف آلاف الملايين من الناس يستعملون عيونهم فى جميع الساعات التى هم فيها مستيقظون مدى حياتهم وهم مع ذلك لا يعلمون شيئا عن بناء تلك العين وهندستها ونظامها ، وبدائع طبقاتها الباهرة النافعة للناظرين ، ولكن اذا أخذ الانسان يبحث فى عجائب العين فما أسهل أن يفهمها ، وأن يدرس دراسة كافية حتى يفهم :

(١) كيف ركبت طبقات العين ؟ .
(٢) وكيف كانت طبقاتها تعمل متحدة بهيئة موسيقية منظمة عجيبة .
(٣) وكيف أمكننا بهذه الآلة المنظمة أن نعرف الصور ، والأحجام والمسافات وغيرها .

وههنا أخذ يضرب لذلك مثلا ، فقال : اذا أردنا أن نعرف الآلة المسماة [بالتلسكوب] فاننا لابدّ أن نفك تلك الآلة ونجعل كل جزء منها على حدته ، وندرس تلك الأجزاء ، ومتى انتهينا من دراستها كأنها عرفنا نفس [التلسكوب] هكذا فلنفعل فى العين ، فكما فصلنا ونظرنا ودرسنا أجزاء التلسكوب هكذا يجب أن نفصل أجزاء العين واحدا واحدا ، ومتى تابعنا البحث فيها بدقة ، ووالينا التجارب والموازنات فيها فاننا لاجرم نصل تماما إلى ماتوجهت نفوسنا الى فهمه وهو : كيف تركبت العين وما منفعتها ؟

ومن حسن الحظ لهذا الموضوع أن عين بقرة أونعجة أوذكريهما كافية لدراسة هذا الموضوع ، فاذا أرسلت إلى [القصاب] الجزار وطلبت منه زوجا من العيون أرسل لك ذلك بسهولة كما اتفق لى ، فتى حصلت على العين فأولا أزل ما عليها من اللحم المحيط بجوانبها واذن ترى بعينك أن العين كرة وفيها حبل أبيض خارج من خلفها ، وهذا الحبل يمتد فى داخل العين ، وقد كان قبل أن يقطع قويا متينا موصلا الدين بالمخ ، اننا نستطيع أن ندرس العين من غير قطعها بأن ننظر فى المرآة بها وندرس أجزاءها الظاهرة دراسة سطحية بمجرد النظر إلى المرآة :

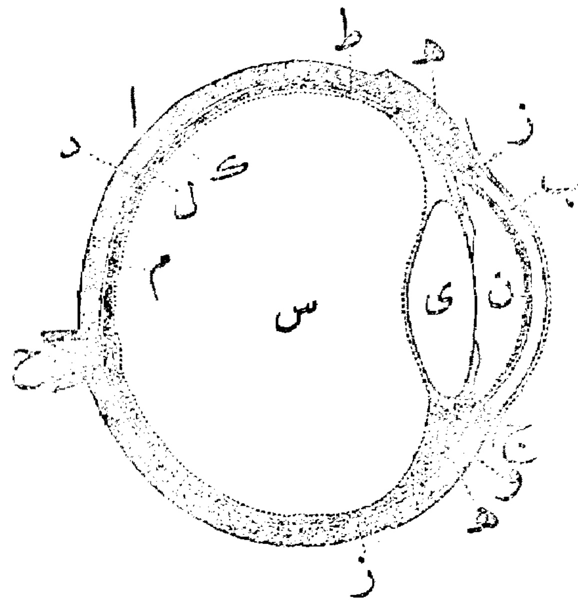
(١) فلننظر أولا الجزء المقدم الشفاف الكروى البارز المقبب ألا وهو [القرنية] .
(٢) إن هذه القرنية متصلة بالطبقة البيضاء المسماة بالصلبة ، وهى التى بها تحفظ كرة العين وتثبت فهى لها حفاظ يصونها .
(٣) وتحت هذه القرنية الشفافة يرى الانسان حلقة ذات لون وماهى هذه إذن ؟ هى القزحية أوالعنبية قد نسبت لقوس قزح من حيث ألوانه ، وللعنبة من حيث لونها كذلك .
(٤) وفى وسط هذه القزحية ترى [البؤبؤ] وهوانسان العين ، وهى فتحة يدخل منها الضوء فيصل إلى البلورية ويتجه إلى الشبكية كما ستراه مفصلا .
(٥) ههنا نستطيع أن نصنع فتحة لنمتحن بها داخل العين ، فلنأت إذن بآلة حادّة ونجعل فى عين البقرة مثلا فتحة ، ولانكاد القرنية تفتح حتى يظهرلنا حالا سائل مائى يسمونه بالفرنجية [كوريس هيومر] وبالعربية يسمونه [الرطوبة البيضية] وهوسائل أبيض .
(٦) فاذا اتسعت هذه الفتحة اتساعا كافيا فاضغط على كرة العين بلطف فانك ترى عضوا هوأجل

الاعضاء

الأعضاء فى العين ، وماهو إذن ؟ هوالعدسية المسماة البلورية والجليدية ، لأنها شفافة كالبلور وكالجليد وهى خالية من الشوائب مثلهما ، وهذه البلورية شفافة عند الصغار والشبان ، أما الرجل المسن فانها تكون أقرب إلى الصفرة ، وهذه الصفرة تحدث خللا فى نظر الكبير لا حاجة لتفصيله الآن لئلا نخرج عن المقام .

(٧) ثم أخذ المؤلف يصف المادّة الزجاجية التى تقع تحت البلورية التى تتصل بها من فوقها الرطوبة البيضية .

ووصف الشبكية ومن ورائها المشيمية التى تليها الصلبة التى تقدّم الكلام عليها ، وأنا لا أطيل الكلام فى هذا المقام ، لأنى أعرف أيها الأخ أنك تعلم تفصيل هذه الأجزاء مما تقدم فى هذا التفسير ، فلنجمل القول أوّلا برسم هذه الصورة التى رسمها المؤلف المسمى [وليم اكرويد] وهى هذه (انظر شكل ١)



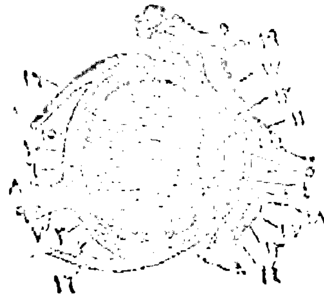
(شكل ١ ـ قطعة من العين الانسانية)

(١) ـ (ا) الصلبة .
(٢) ـ (ب) القرنية .
(٣) ـ (ج) الملتحمة .
(٤) ـ (د) غطاء المشيمة .
(٥) ـ (هـ) عضلات هدبية شعرية .
(٦) ـ (و) ابتداء الأهداب الشعرية .
(٧) ـ (ز) القزحية المسماة أيضا عنبية
(٨) ـ (ح) مبدأ العصب البصرى .
(٩) ـ (ط) محيط الشبكية .
(١٠) ـ (ى) الجليدية وتسمى البلورية .
(١١) ـ (ك) المشيمية
(١٢) ـ (ل) الشبكية .
(١٣) ـ (م) البقعة الصفراء فى الشبكية
(١٤) ـ (ن) الرطوبة البيضية
(١٥) ـ (س) الرطوبة الزجاجية .

. . .   .

فلما سمع صاحبى ذلك وظن أنى قد انتهيت من المقال ونظرهذه الصورة . قال : هذا حسن ولكننا الآن أوّلا لم نصل للمقصود وهو اتصال هذه العيون بالكواكب ، وكيف تمت الصلة بينهما ، وثانيا : اذا رسمت صورة العين التى تقدّمت فى سورة المؤمنون هنا فان القارئ بموازنة كل واحدة منها بالأخرى يفهم الحقائق حق

الفهم ، ثالثا : انك ذكرت أن المؤلف يقول : علينا أن ننظر عيون البقر والغنم ، ولاجرم أن المشاهدة بالعين أقوى أثرا من قراءة الكتب ، وقد جرت عادة الله ألا يجعل للقائلين قبولا عند سامعيهم ، ولا للمؤلفين عند قراء كتبهم إلا اذا كانوا هم موقنين بما يقولون ، وأي ايقان لكم أكثر من اطلاعكم بأنفسكم كما قال تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وهذه هي الشهادة بالحق التي ذكرها الله فقال : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » وأي شهادة بالحق أكثر من الاطلاع على نفس العين وتشريحها ، لاسيما أن المؤلف الذي ترجمت أنت كلامه قد فتح الباب أمامك ، وسهل الطريق لجهالها معبدة ، فما أسهل السير فيها على السارين ، وما أسهل عيون البقر والغنم للطالبين وللمؤلفين . فقلت أيها الذكي : أماقولك انا لم نصل للمقصود فهوحق وماذكرته الآن إنما هومقدمة ، وهاك صورة العين المرسومة في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ فيما تقدم في الجزء الحادي عشر من التفسير (انظر شكل ٢)



(شكل ٢)

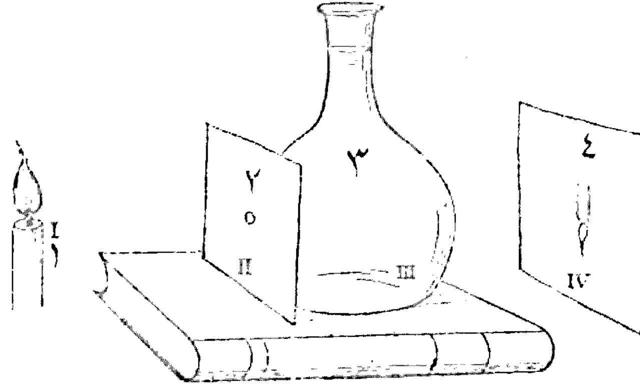
وأما ماذكرت من أنه يحسن بي أن أنظر بعيني هذا فقد تم هـذا اليوم صباحا ، وذلك أنني لما نظرت إلى السماء قبل فجر يوم الجمعة الفائتة ، وتاقت نفسي للمعرفة المفصلة قرأت ذلك الكتاب يوم السبت ، وفي هذا اليوم (الأحد ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية) توجهت إلى [السلخانة الأميرية] وهي قريبة من منزلنا ، وأخذت منها عيني بقرة ، وتوجهت بهما إلى المستشفى الرمدي بالجيزه ، وقابلني أحد الأطباء هناك ، وطلبت منهم تشريح العين ، إذ هم أدرى بذلك ، فشرحوها لي ، ونظرت كل هذه الأجزاء المذكورة المتقدمة ، وفوق ذلك أراني مدير المستشفى العين الصناعية وهي مكبرة جدا ، وشاهدت البلورية ومافوقها من الأوردة والشرايين والقزحية والبلورية ، وبقية الطبقات ، ورجعت وقت الظهر ، وهاأنا ذا الآن أكتب ما أيقنت به بعد المطالعة . فقال : الحمد لله إذ فعلت ذلك وهاأنا الآن جالس معك وأقر أن كثيرا من الشبان في هذا الزمان وفي المستقبل سيبحثون بأنفسهم في كل شيء كما بحثت أنت الآن ، وستصيرهذه ملكة راسخة في بلاد الاسلام فيبحثون كل شيء كما بحثت أنت الآن ، وتصير هذه أعظم اللذات للشيب وللشبان . فقلت : أنا بذلك من الموقنين .

جمال العين وبهجتها ، وعجائب اتقانها

ومافيها من الآلات البصرية ومنافعها

ثم قلت . أيها الأخ الذكي : هانحن أولاء فرغنا من تعداد الآلات البصرية في العين ، وقد عرفنا نظامها وتشريحها ، وأشهرها هذه الخمسة : القرنية الرطوبة ، البيضية ، البلورية ، الزجاجية ، الشبكية ، وهذه الآلات لايستطيع العقلاء فهمها فهما حقيقيا إلا بضرب أمثال مما يشاهدونه ، إن العلم ان لم يتصل بما يعرفه الناس كل يوم فلاثبات له ، وهذه الآلات البصرية يمثلها ما يأتي (انظر شكل ٣) في الصفحة التالية

شكل ٣



(شكل ٣ — تجربة تبين منفعة أجزاء معلومة من العين)

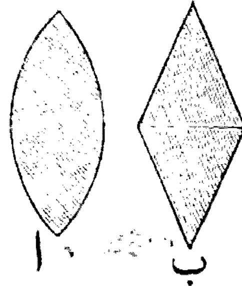
(١) المصباح (٢) لوح أبيض مثقوب (٣) زجاجة مملوءة ماء (٤) لوح أبيض غير مثقوب لقبول الصورة الواردة من نمرة (١) المخترقة ثقب نمرة (٢) الواصلة إلى الزجاجة المائية نمرة (٣) . ومن صفات هذه الزجاجة وأمثالها أن الضوء إذا اخترقها ولم يكن هناك نمرة (٢) قبلها ووصل إلى نمرة (٤) فانه لا يكون واضح الصورة (وهى مقلوبة طبعا) بل هى تكون أقرب الى الزرقة ، ولكن اللوحة المثقوبة نمرة (٢) لابدّ منها لاصلاح تلك الصورة

واذا تأمّلت هذه الآلات ألفيت نمرة (٢) تمثل القزحية ونمرة (٣) وهى الزجاجة المائية تمثل البلورية واللوح نمرة (٤) القابل للصورة يمثل الشبكية ، وعلى هذا ظهرت هنا قيمة القزحية لأنها فى علم البصر لها منفعة عظيمة فى بعض الصور إذ هى المساعدة لتمام الصورة على اللوحة .

وأنت من هذا أيها الأخ الذكى عرفت أن أهمّ الأدوات البصرية فى أعيننا إنما هى القزحية والبلورية والشبكية التى مثالها (١) اللوحة البيضاء المثقوبة (٢) والزجاجة المملوءة ماء ، واللوحة البيضاء القابلة التى لاثقب فيها ، هذه أهمّ تلك الأدوات .

الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام الزجاجة المملوءة ماء

إنما قدّمنا المثال المذكور لسهولته ، ولأنه فى متناول الجميع ، ذلك أن الزجاجة يعرفها العام والخاص ، وهى تمثل لنا البلورية التى فى أعيننا والتى رأيتها أمس حين تشريح عين البقرة فى مستشفى الجيزة ، ولكن العلم يعوزه ماهو أرقى من تلك الزجاجة ألا هى أجسام زجاجية مضلعة يسمى كل منها بالمنشور (انظر شكل ٤)



(شكل ٤)

(ا) قطعة من بلورتين محدبتين .

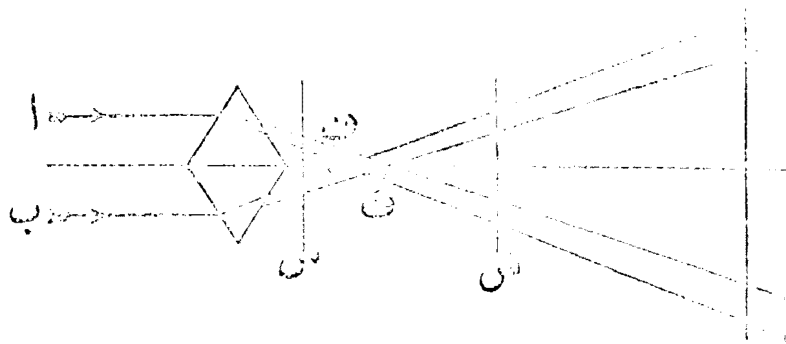
(ب) جزء من منشورين وضعت قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر

لقد بسطنا الكلام على القزحية وما يشبهها ، وأنها ذات نفع عظيم فى إكمال الصورة التى مرّت فى الزجاجة المائية ، فلنبحث الآن فى منفعتها اذا مرّ النور من منشور بلورى مثل (ب) التى رسمناها لنفهم

بها (ا) وهى البلورية المحدبة ، و بيانه أن البلورية فى العين ثخينة من وسطها ، رقيقة عند طرفيها ، وهذه الصفة تجعلها مشبهة منشورين معا ، فلوأننا ضممنا بلورتين ثم قسمناهما قسمين لرأينا أحد القسمين المذكورين من مجموع البلورتين يشبه مافى صورة (ا) شكل ٤ وهذه الصورة ليست مخالفة لصورة (ب) التى فيها قد وضع المنشوران معا قاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، ولاجرم أن النور وهومار بالمضلعات المنشورية تجتمع أصوله السبعة فتصير لونا أبيض ، وهكذا يفعل الضوء فى صورة (ا) لأنها تماثل صورة (ب) فههنا تشابهت البلورية والمنشور فى توحيد أجزاء الضوء اذا مر منهما .

تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة اذا مرّ فى المنشور

إنك أيها الذكى تعرف من دراسة العلوم ، أومما تقدم فى كتابنا هذا أن الضوء اذا مرّ فى منشور فانه يحال إلى أصوله السبعة وهى : الأحمر ، والبرتقالى ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلى ، والبنفسجى . ومن عادة الأزرق أن يميل ميلا كثيرا ، وللأحمر ميل أقلّ كثيرا (انظر شكل ٥)



(شكل ٥ — ميل الضوء)

انظر إلى نقطتى (ا) و (ب) المضيئتين المشبهتين قلمى رصاص رقيقين فى (شكل ٥) وقد مرّ هذا الضوء فى المنشورين المرسومين أمامك ، وقاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، فتأمّل فى سيرالضوء أيها الاخ فانك ترى الأشعة الزرقاء أسرعت فاجتمعت عند حرف (ف) فأما الأشعة الحمراء فانها اجتمعت بعد ذلك عند حرف (فَ) .

واذا نحن وضعنا بلورتين معا كما وصفنا فاننا نرى سير الضوء فيهما كسير الضوء فى المنشورين الموضوعة قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر .

حال الضوء فى وسط الحقل الضوئى وفى أطرافه

وههنا نلاحظ أن الضوء الجارى فى هذين المنشورين المتلاصقين منضمة أجزاؤه ، متحدة فى وسطه ، فيكون لونا أبيض ، فأما فى الجانبين فان الأمر يخالف ذلك على خط مستقيم ، كيف لا ونحن نرى النورعند حرف (س) التى قبل البؤرة الضوئية التى اجتمع فيها الضوء يميل الى الحمرة والبرتقالية ، ولكننا نراه بعد مفارقة البؤرة الضوئية يميل إلى الزرقة عند حرف (سَ) .

هذه صفة الضوء فى المنشورين المذكورين اللذين ذكرناهما لنقرّب بهما فهم البلورية التى فى أعيننا ، والتى وجدنا أنها أشبه بقطعة من بلورتين متحدتين معا كما تقدّم ، وهاتان البلورتان المتحدتان معا تشبهان المنشورين المتصلين كما تقدّم ، ولقد وجد العلماء أن سير الضوء فى البلورتين الموصوفتين بما ذكر يشبه تمام المشابهة سيره فى المنشورين المذكورين .

فائدة القزحية

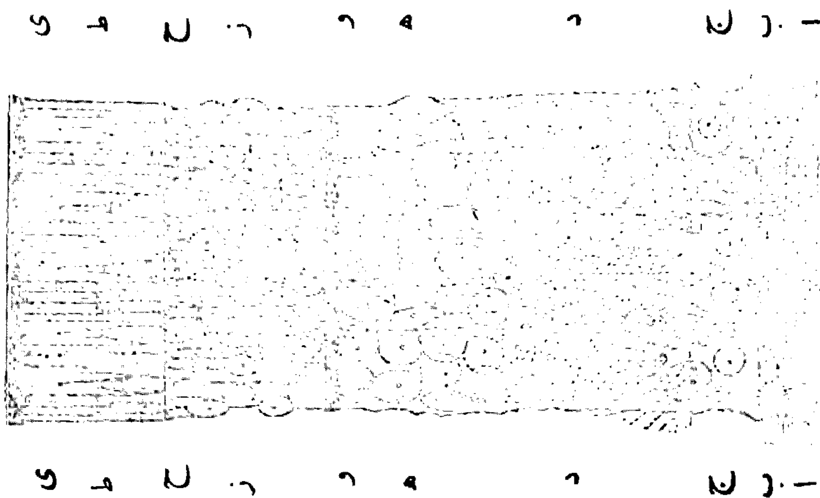
هاأنت ذا أيها الأخ الذكى عرفت أن الضوء فى وسط الحقل الضوئى أبيض ، وفى حافة هذا الحقل يكون أزرق أوأحمر برتقاليا ، ولاجرم أن ذلك نقص يعوق النظر ، ولقد احتال علماء الضوء فوضعوا ستارة حلقية فى الآلة البصرية [التلسكوب] فمنعت هـذا العائق ، ولقد حقق كثيرمن العلماء بمباحثهم أن القزحية التى فى أعيننا تعمل عمل هذه الستارة التى تشبه الحلقة ، فلها الفضـل فى حفظ الصورة الضوئيـة من ميل بعض أجزاء الضوء الأبيض كالزرقة والحمرة فيما تقدم عند مروره بالبلورية المسماة بالجليدية أيضا والعدسية ، إذن ظهر أن للقزحية فائدتين : إحداهما أنها تفعل فعل اللوح المثقوب فى أنها تجعل الصورة واضحة على اللوحة التى تقبـل الصورة ، وثانيتهما أنها اذا مرّ الضوء من منشورين أو بلورتين فانها تحفظ هذا الضوء من ميل بعض عناصره إلى الجوانب .

وظائف القزحية والبلورية والشبكية

فههنا استبان أن وظيفة القزحية أن تحفظ الصورة واضحة لاخلل فيها ، ووظيفة البلورية أنها ترسلها إلى ماوراءها فترسم على الشبكية ، ووظيفة الشبكية أنها تصدرها إلى الدماغ فيراها الانسان والحيوان ، ولقدفصلنا القول فى القزحية والبلورية فلنفض الكلام على الشبكية فنقول :

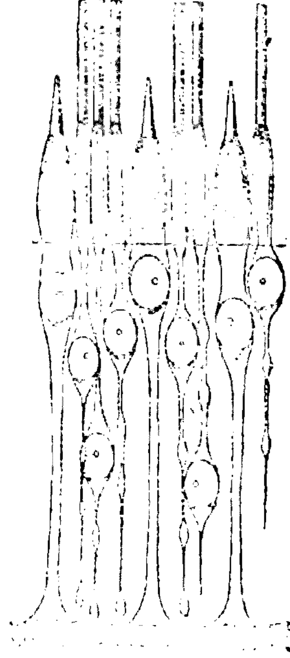
إن الشبكية عضو شفاف يختلف فى ثخنه من جزء من ٨٠ إلى جزء من ١٦٠ من البوصة الواحدة وهومبطن للسطح الداخـل من محيط كرة العـين كما رأيته فيماتقدم ، وكما رأيته أما فى العين الحقيقية ، وفى صورتها المجسمة كما تقدم .

إن أى بقعة رقيقة من بقع الشبكية ماعدا مركزها الذى يسمى البقعة الصفراء ، وكذلك مدخل العصب البصرى كلاهما اذا نظر بالمكرسكوب فانه يبين لنا هذا الهيكل الذى تراه فى هذه الصورة (انظرشكل ٦)



(شكل ٦ ــ شبكية العين الانسانية)

فأنت ترى أن هـذا الجسم من حرف (ب) الى حرف (ح) أجزاء عصبية مجتمعة بما يسمونه [النسيج الحافظ] وماوراء حرف (ح) المذكور هو بقية الشبكية المشتمل على الأغشية العصبية ذات الشكل الذي يشبه بعضه [العود] و بعضه يشبه [القصبة] وهذا الأخير أشبه بورق قصب السكر (انظر شكل ٧)



(شكل ٧ ــ العيدان والقصب بهيئة مكبرة ، فههنا ثلاث قصبات تتخلل ستة عيدان)

(ا) سطح الشبكية عند اتصاله بالمادّة الزجاجية .

(ب) امتداد ألياف العصب البصرى

(ج) ذرّات ذات اجتماع بشكل دوائر ونحوها

(د) طبقات ذرّية وألياف عصبية

(ه) ذرّات مجتمعات تشبه الحب والنوى

(و) طبقات متدخلة وألياف عصبية حاملات مايشبه الحب فى الداخل

(ز) ههنا مايشبه الحب فى الطبقات الخارجة

(ح) سطح جعل حدّا لما تحته ومقاما يحمل العيدان والقصبات و به ينتهى النسيج المحكم تحته

(ط) العصبات والقصبات

(ى) سطح وضع حدا للمشيمة فوقه .

إن العصب البصرى وهو داخل فى كرة العين تتفرّع منه أغشية فى جميع الجهات به تتكوّن الطبقة الأمامية عند حرف (ب) فى شكل ٥ المشتمل على الشبكية وهى بلاريب مرتبطة بالعصىّ والقصب من خلف . هذا ماعنّ لى أيها الصديق فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين

هنالك قال صديقى العالم : ما هذه العجائب والبدائع ؟ أهذا كله لأجل أن نبصر الأشياء حولنا ؟ فقلت نعم . قال عجب عجاب ! انك قد فتحت لى باب الكلام بهذه المباحث ، فاسمح لى بذلك . فقلت : سل ماتشاء . فقال : هل الجزء الذى يقابل الضوء من الشبكية هو الذى يتأثر به فينقله إلى المخ . فقلت له : إن الكلام فى هذا يحتاج إلى إيضاح ، إن العصى والقصبات المرسومات فيما تقدم هنّ القائمات بأمر الاحساس ، ولاجرم

أنهن

أنهن فى آخر الشبكية من خلفها ، فهناك يقوم بهن الاحساس بالضوء بعد أن مرّ فى تلك الأوساط الشفافة الموضوعة قبل الشبكية فى طريق النور . فقال : لقد ذكرت فى هذا الموضوع ما كتبته أنت فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ إذ رسمت العين والأذن هناك وشرحتهما ، وذكرت للعين نحو ١٤ حكمة ، وللأذن نحو ٢٦ حكمة ، ونقلت عن [اللورد أفبرى] فى كتابه [مسرات الحياة] ما يأتى :

« إن فى الجسم الانسانى أكثر من مائتى عظم ، ولكل منها شكل مخصوص بها ، ولولا حسن صنعها لعاقت حركاتنا التى نأتيها كل يوم [يقول مؤلف هذا التفسير : وسيرد عليك قريبا هندسة الأعضاء وقياسها العجيب منقولا عن آبائنا حكماء الاسلام] » .

ثم قال : « وفيه ٥٠٠ عضلة كل منها تتغذى بشبكة الأوردة والعروق تدبرها أعصاب كثيرة ، والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض فى السنة ثلاثين مليون مرة ، فاذا توقف عن الخفقان قضى الأمر وانقطعت الحياة ، ولو تأملنا فى أدوات الحس كالعين مثلا بما فيها من قرنية ، وعدسية ، وطبقات مائية ، وزجاجية تنتهى فى الشبكية لتولانا العجب ، فان هذه الشبكية التى لا تزيد عن ثخن الورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين مخروط ، ونحو ثلاثين مليون اسطوانة ، وأعجب من هذا كله الدماغ فقد حسب أحد الفسيولوجيين أن المادّة السنجابية التى فى تلافيق الدماغ نحو ستمائة مليون خلية تتألف كل منها من ألوف من الدقائق الظاهرة ، وكل دقيقة تتكوّن من ملايين الجواهر » . وقد قال قبل ذلك : « لقد نحيا السنين الطوال ولا نكاد نشعر أن لنا جسما » انتهى

فهل ثلاثة الملايين من نوع الأشكال المخروطة والثلاثون مليونا من الاسطوانات كلها من هذا القبيل ؟ فقلت نعم وربى ، فالأشكال المخروطة يراد بها هنا القصبات ، والأشكال الاسطوانية هى المعبر عنها هنا بالعصى . فقال : إذن هذه المخاريط ، وهذه الاسطوانات كلها لأجل احساسنا . قلت نعم . فقال : ولماذا هذا كله ؟ قلت لأن النور من عالم الحس وأمره سهل ، ولكن وصول صوره إلى نفوسنا التى ليست من المادّة فى شيء يعوزه آلات لها خواص فوق عقولنا ، وهذه الآلات هى الاسطوانات والمخاريط اللاتى تعدّ بعشرات الملايين ، نحن هنا فى مقام الجمال والبهجة .

إن أكثر هذا النوع الانسانى يعيشون ويموتون ولا هم يذكرون ، وكم من رجل يدرس علم الضوء وعلم التشريح وهو غافل عن هذه العجائب التى يقرؤها ولا لذة لها فى نفسه لأنه مجبور على الدرس ، مقهور على التحصيل ، والله عزّ وجل لم يرفع أمة بعد ضعتها إلا بأناس يختارهم هو ، يخلقون فى الأمم ، وهم الذين يعشقون هذا الجمال الذى يتضاءل فى جنبه كل جمال ، فهؤلاء يؤثرون فى أممهم لأن القلوب تحس بالقلوب وان طال المدى ومضت عصور ودهور ، وأى أمة خلت من هؤلاء العشاق لهذا الجمال فهى لا محالة مريضة مرضا لا يزيله إلا ظهور حكماء عشاق لهذا الجمال ، فهؤلاء اذا اطلعوا على هذه الحكم يدهشون من كوكب بيننا وبينه آلاف السنين وضوؤه يصل إلى عيوننا ، وهذه العيون لما خلقت وضعت على مقتضى نواميس الضوء المرسل من أبعاد شاسعة ، وهذا الضوء يمرّ فى أوساط لكل وسط منزلة خاصة ، فمنها ما يحفظ الصورة التى يحملها الضوء ، ومنها ما يجمع الضوء ، ومنها ما ترسم الصورة عليه ويوصلها إلى ما خلفها .

إن الانسان اذا نظر إلى هذه الشبكية يدهشه أمرها ، فما هذه الطبقات فى تلك المسافة الضيقة ؟ فهل سمك الحدقة يتخلله تلك الملايين ومئات الملايين ؟ إن ذلك أمر عجب !

علم الله أن المسلمين سينامون نوما عميقا ، وهم يجهلون رحمته الواسعة لغفلة أكثرهم عن العلوم ، فأنزل بسم الله الرحمن الرحيم تقرأ فى الصلوات ، وفى الغدوات والروحات ، وفى مبدأ الأكل والملبس ، وكل أمر ذى بال ، إذن ذكر الرحمة ملازم للمسلم فى جميع أحواله ، أليس هذا معناه ادرسوا الرحمة أيها المسلمون

« أفلايتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وهذه آية من القرآن ، فأين التدبر إذن ؟ إن العين وعجائبها وعجائب الضوء من الرحمة العامة التي غفل عنها أكثر الناس في الأرض ، وكل من درسها وتعمق فيها فانه في هذه الدنيا قد نال السعادة الحقيقية ، وأى سعادة لهذا الانسان أعظم من الاطلاع على الحقائق ، إن الحقائق وفهمها هي السعادة الحقيقية لهذا النوع الانساني ولكن أكثر الناس لايعلمون ولايسعدون .

ومن أعجب العجب أن الاطلاع على هذا الجمال بدراسة العلوم سعادة للنفس فما نكتبه في هذا التفسير وغيره يرقى الناس في هذه الحياة الدنيا ، إذن فهم الرحمة في هذه العجائب مسعد للنفس في الدنيا والآخرة ومرقٍّ للمدنية في هذه الحياة .

الله أكبر : أنا أقول سيكون في بلاد الاسلام كثيرون من هؤلاء العشاق ، لأن الله أذن بذلك اليوم ، وهؤلاء هم الذين يملؤن بلاد الله علما ، ويكونون رحمة لجميع الأمم بعد أن يرقوا أمم الاسلام ، لهذا أنزل الله « بسم الله الرحمن الرحيم » وكررت في كل مقام في جميع الأحوال .

تأثير الضوء في النبات والحيوان والجماد

فقال صاحبي : أتذكر أن في ﴿سورة يس﴾ كلاما حسنا على الضوء وتأثيره ، وهناك الصور الشمسية للورق ، وفي كل ورقة حجرات تمدّ بالآلاف ؟ فقلت نعم اننا ذكرنا هناك أن مقادير غازحض الكربونيك في الجوّ قليلة ، فهي بالنسبة إلى الهواء كنسبة واحد إلى ألف ألف ، والفحم الصافي في الجوّ ١٣٨ ألف ألف ألف طن تقريبا ، والنبات بتعرّضه للهواء يمتص غاز حض الكربونيك من الجوّ بمساعدة الأوراق ، ولن يتم ذلك إلا بمساعدة الشمس ، إذن الشمس لها أثر في أعيننا نهتدى به في أعمالنا وطرقنا ، وفي النبات باحداثها في معامل الأوراق تفاعلا به يكمل النبات ويعيش الحيوان والانسان ، وهذا الموضوع قد تعرّض له مؤلف كتاب [علوم للجميع] وقد أوضحناه الآن ايضاحا أتمّ ، وذكر أن المستشفيات أماكنها المعرّضات للشمس أكثر تكون أقرب الى صحة المرضى من غيرها . فقال : الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات . وبهذا تمّ الكلام على تركيب العين ومعرفة أجزائها ليعرف المسلمون ماهوالنظرالمذكور في آية : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » وهوالمبحث الأوّل من اللطيفة الثانية

المبحث الثاني من اللطيفة الثانية

في عجائب السماء والكواكب

وإذ فرغنا من الكلام على العين فلنبحث الآن في نجوم السماء وشموسها ومجرّاتها وسدامها فنقول ومن الله التوفيق :

الكلام على السماء

قلت لك أيها الأخ الذكي فيما تقدم ان هذا العالم مملوء جمالا ، وهذا الجمال مخبوء عنا ، وهوحاضرلدينا هذه عيوننا كيف نرى تركيبها في غاية العجب ، بل هوكالسحر ، فما هذه الشبكية التي تبلغ عشر طبقات ، واذا كان غلظها لايزيد على جزء من ستة أجزاء من المليم فكيف تنقسم إلى عشرطبقات ؟ وكيف يكون في الطبقة الواحدة (٣) ملايين مخروط و (٣٠) مليون عمود ، والأعمدة والمخاريط تقدم تصويرهاموضحة في صورة مرسومة آنفا لايضاح الأعمدة والأساطين تجدثلاثة مخاريط تتخلل ست أساطين موضحة باهرة جميلة . فياليت شعرى كيف تكون الطبقات الباقية من الشبكية فكم فيها من أشكال ، واذا ضربنا عشرة في

(٣٣) مليون يكون عندنا (٣٣٠) مليونا كلها فى الشبكية والشبكية طبقة واحدة يحيط بها مجموع طبقات فتكون (٣٣٠) أخرى لطبقة واحدة من المخ وبصير الطبقتان نحو (٦٦٠) مليونا ، وليس هذا الحساب مدققا بل هو تقريبى ، وعلى هذا بقية الطبقات ، والعين الثانية كذلك فيكون عندنا ملايين تعد بالآلاف اذا فرض أنها مثلها فى تعداد أشكالها ، واذا فكرنا فيما هو أعظم من ذلك وهو الدماغ وأخذنا جزءا صغيرا منه ، وهو المادة السنجابية فاننا نراها (٦٠٠) مليون خلية ، والمادة السنجابية بالنسبة للدماغ ضئيلة فكيف يكون جميع الدماغ ؟ وكيف يكون عدد خلاياه ، إن هذه العجائب العلمية المتقدمة فى النظر تلفت عقولنا للمنظورات السماوية والكواكب ، ونحن إذا أردنا الكلام على السموات فاننا لاندرى فى أى باب نكتب وهذا العلم له شعب كثيرة ، وخيرما نختاره اليوم أن نذكر سعة السموات وكثرة نجومها حتى نوازن مابين كثرة الكواكب وكثرة الأشكال العجيبة من أعين الحيوان والانسان :

(١) فنحن لانقف فى هذا المقام على بعد القمر عن الأرض .

(٢) وانه ٢٣٨٨١٧ ميلا

(٣) ولا على عطارد الذى يتم دورته المحورية فى ٢٤ ساعة و ٨ دقائق .

(٤) ولا على الزهرة التى لايزيد يومها عن ٢٣ ساعة ونيف .

(٥) ولا على المريخ الذى ظهر للعلماء أن الثلج فى قطبيه لايذوب إلا ببطء ويؤكد الاستاذ [بكريخ] أن ترع المريخ حقيقية لاخداع فيها وله غيوم تسير حوله ، ومن رأيه أيضا أن النبات فى المريخ مؤكد الآن ، وكذلك بعض الحيوان ، وقد كان الرأى السائد أولا أن فى المريخ سكانا ثم تغير الرأى فقالوا لاسكان فيه ، ثم رجعوا الآن وقالوا فيه سكان ، وقاسوا طول بعض انهر فيه فوجدوه بلغ (١٢٠٠) ميل والعرض (٥٠٠) ميل ويسير بسرعة ١٤ ميلا فى الساعة . ولم يقتصر العلامة [بكريخ] على أن فيه نباتا وبعض الحيوان ، بل قال ان فيه عقلاء وهم يريدون مخاطبتنا

(٦) وهكذا المشترى وأقماره التسعة .

(٧) ولا نكتفى أيضا بمعرفة زحل وحلقاته الثلاث المتقدمة فى هذا التفسير وأقماره العشرة .

(٨) ولا بأورانوس وأقماره الأربعة .

(٩) ولا بنبتون الذى يدور حول محوره فى سبع ساعات وخمسين دقيقة .

(١٠) ولا بالسيار الجديد الذى كشف سنة ١٩٣٠ فى ١٣ مارس المسمى [بلوطو] .

(١١) واذا بحثنا فى نظام شمسنا الآن فانما نجعله توطئة لما بعده ، لأن ذلك شرحناه سابقا فى سور كثيرة إن الشمس نجم صغير جدا بين مئات الملايين من الشموس الكبيرة وهى فوق سطح المجرة وتبعد عنه (٥٠٠٠٠) خمسين ألف سنة نورية ، وليست مقيدة بذلك بل هى سائرة مع شموس أخرى بسرعة مليون ميل فى اليوم ، وآخر كشف لبعدها عن الأرض أنه ٩٢٠٨٣١٠٠٠ ميلا وحرارتها على سطحها (٧٤٠٠) درجة بمقياس سنتغراد ، وذلك سنة ١٩١٠ م وعلى سطح الشمس قد ترى كلف كثيرة كالتى رآها العلماء سنة ١٩٠٧ م ومجموع مساحتها (٨٠٠) مليون ميل مربع ، ثم ظهر مجموع آخر بعد ذلك مساحته ألفا مليون ميل مربع ، وكلما ظهرت هذه الكلف نقصت الحرارة على الأرض ، وهى من نتيجة ظهور كلف الشمس ، ان الشفق القطبى الشمالى يظهر إذ ذاك ويبهر ويقال : ان أحوال كلف الشمس انظاهرات على وجهها تشبه براكين ثائرة فتدفع منها موادّ مكهربة تنتشر فى الفضاء فيصل بعضها إلى الأرض ويسبب الشفق القطبى ، ومنه الذى ظهر فى أوروبا أبهر بشكل بديع حتى وصل إلى سوريا ورؤى رأى العين .

واذا ذكرنا نبذة عن الشمس فلننتقل إلى عوالم أخرى ونجوم جديدة ، إن أول نجم جديد عرفه الناس كان قبل الميلاد سنة ١٣٤ ق . م ثم ظهر من ذلك الزمن إلى الآن ١٩ نجما جديدا أى انها ظهرت أو خلقت بعد أن لم تكن .

ويقول الاستاذ شابلى فى جامعة [هرفرد] : إن النجم الصغير الذى اسمه [دورادس] تابع لغيوم مجلان بعده عنا (١٢٠) ألف سنة نورية ويلمع فوق لمعان شمسنا (٦٠٠) ألف مرة ، وظهر فى غيوم [مجلان] نجوم يفوق لمعانها لمعان شمسنا من (١٥٠٠٠) إلى (٦٠) ألف شمس .

يقول الدكتور (ديزن) فى خطبة تلاها فى المعهد العلمى بلندن : «إن من النجوم مابعده عنا (١٠٠) برسك والبرسك (٢٠٠,٠٠٠) مائتا ألف ضعف بعد الشمس عنا ، واشراقها يختلف أيضا فترى :

٢٤	نجما إشراق كل منها مثل			١٠٠	شمس
٣٤٠	»	»	»	٥٠	شمسا
١٣٥٠	»	»	»	٢٥	»
٤٨٤٠	»	»	»	١٠	شموس .
١٣٢٠٠	»	»	»		شمس واحدة .
٩٣٣٠٠	»	»	»		$\frac{1}{٣٢}$ شمس .

فنجم القطب من النوع الأول وبعده عنها أربعة ملايين بعد الشمس عن الأرض أى ٣٧٢٠ مليون مليون ميل ، وهناك نجوم أبعد من نجمة القطب وأشد إشراقا منها ، فترى هناك ٢٦٩ من النجوم الحمراء بعدها عنا (٢٠٠) مليون بعد الشمس عن الأرض والنجوم الصفراء منها مابعده عنا أقل من ٢٠ مليون بعد الشمس عن الأرض ، ومنها مابعده عنا أكثر من ١٠٠ مليون بعد الشمس عن الأرض .

شمس الشموس

لقد تقدم فى الجزء الأول فى هذا الكتاب فى أوله أن جميع الشموس فى مجرتنا تجرى حول شمس عظيمة ، وهذه الشمس تسمى [شمس الشموس] وهى العيوق [بتشديد الياء] التى تدور كواكب المجرة كلها حوله ، ويقولون : « إن جرمه أكبر من الشمس مليونين و٤٢٠ ألف مرة ، واشراقه أكبر منها ٤٩٧٠٠ مرة وبعده عنا ٤٨٩ سنة نورية .

ويقولون : ان جميع الشموس ومنها شمسنا تدور حوله ، وعدد هذه النجوم فى مجرتنا ٣٠ ألف مليون نجم أو شمس ، وقطر المجرة يقدر بنحو ٣٠٠ ألف سنة نورية ، وقطر السديم الذى فى المرآة المسلسلة يبلغ عشرين ألف سنة نورية ، وأخفى السدم يبعد عنا ١٠ مليون سنة نورية .

ومن أعجب العجب أن تظهر اليوم [سدم] جديدة ، فقد كشف [هنزل] أكثر من ألفى سديم فى ٩٠ صورة فوتوغرافية ، ووجد منها ٨٠٠ سديم ألمع من غيرها ، ومن هذه ٣٠ حلزونية ، وهناك سدم لولبية ومنها سديم المثلث ، وهذا السديم يبعد عنا ٨٠٠,٠٠٠ سنة نورية ، فهو أبعد جدا من المجرة ، ومجرتنا المذكورة يظن بعض علماء الفلك أنها سديم لولبى أيضا ، ولايراها هكذا إلا من كان بعيدا جدا ، وبعد سديم المرأة المسلسلة ٦٠٠,٠٠٠ سنة نورية ، وطول قطره ٢٠,٠٠٠ سنة نورية .

ويقول [هبر] : إن بعده ٩٥٠ ألف سنة نورية ، وهو أبعد سديم عرف إلى الآن . إن السدم على اختلاف أنواعها عبارة عن عوالم كعالم مجرتنا التى تحوى ٣٠ ألف مليون شمس كما تقدم ، وقد قلنا ان سديم المرأة المسلسلة فيما تقدم ان بعده فوق ٩٠٠ ألف سنة نورية ، وهناك فى جهة كوكبة [شعر برنيق]

والسنبلة

والسنبلة سدم بعدها عنا مليون سنة نورية ، وسرعة بعضها ٣٠٠ كيلومترا فى الثانية ، و بعضها ٦٠٠ كيلومترا فيها ، وقد ظهرت أبعاد مجموع من نجوم وسدم تبلغ ٢٨٢٢ للاستاذ شابلى اذ أبعدها كلها مليون سنة نورية ، فلو أن كوكبا منها فقد منذ ٩٠٠ ألف سنة فان نوره لايزال يجرى الى الأرض ، ويبقى بعدنا مائة ألف سنة ، وهذه عجائب فوق عقولنا ، ما أوسع هذا الكون ؟ ان النور يسير فى الثانية ١٨٦ ألف ميل ، واذا دار حول الارض لم يستغرق أكثر من سبع ثانية ، واذا دار حول هذا العالم احتاج الى مائة مليون سنة نورية . وأرضنا لو صغرت كالجوهر الفرد (كما قدمنا) وصغر العالم على مقتضاها لرأينا ألف مليون أرض منتشر حولها .

قدمنا أن فى مجرتنا (٣٠) ألف مليون شمس ، وكل شمس لها سياراتها وتوابعها كشمسنا ، وفى الفضاء مليونان من السدم ، وكل سديم أشبه بمجرتنا ، وفى الكون فضاء يفوق الفضاء الذى يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف ، و يقدر عدد السدم فيه إذ ذاك بما يبلغ ألفى مليون مليون سديم ، فاذا كان فى كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم فى الفضاء المنظور وغير المنظور نحو ٢ على يسارها ٢٤ صفرا ، أو ٢ مليون مليون مليون مليون كوكب ، أو ٢ ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف كوكب .

ولأقتصر على هذه الخلاصة الآن من علم السماء لتعرف أيها الأخ رحمة الله الواسعة ، واسعاده لنا ، واشراق نوره علينا .

الله أكبر : ما هى هذه السماء ؟ وما هى عينى التى تنظر السماء ؟ اللهم حار فكرنا فى جمالك ، ماهذه السماء ؟ وأى عالم تسير فيه الكواكب ؟

الله أكبر : انظر أيها الأخ الذكى فيما كتبناه فى ﴿ سورة الصافات ﴾ فى أولها ، واعجب من أن عالم الأثير الذى تجرى فيه هذه الكواكب المذكورة عالم لايحس ولايرى ولكنه وهو كالمعدوم أثقل من الحديد والرصاص والذهب أضعافا مضاعفة ، أى انه لو كان جرما لكان كذلك ، فارجع إليه هناك وادرسه ، فهذا الفضاء المملوء بالأثير الذى لاندرك وجوده أثقل من أثقل المواد الأرضية ، وهذا أمر عجيب غريب ، وهو مع غرابته تسبح فيه عوالم تبلغ اذا عرفت كلها ملايين الملايين ، وكل عالم منها يشابه مجرتنا التى تجمع ٣٠ ألف مليون شمس ، وهذه الأعداد مدهشة .

هذا هو الفضاء فوقنا ، وهذه عوالمه ، ألست أيها الذكى وأنا أدرس العين معك قد رأينا هناك ملايين من الأشكال فى طبقة واحدة من عشر طبقات من الشبكية ، وهناك طبقات أخرى ، والعين جزء صغير من أجسامنا فكيف تكون حال المخ ؟ وكيف تكون حال بقية الجسم كله ؟ أفلاترى معى أيها الذكى أن عيوننا تحوى من العوالم نحو عدد ماتحويه مجرتنا من الشموس ، وأن مخنا فى عظمته يشبه شمس الشموس فى عظمتها ، وأن جسمنا كله يشبه المجرات كلها والسدم كلها فى عدد كواكبها .

دهشنا يا ألله من عجائب عيوننا ، ومن عجائب أجسامنا ، ومن عجائب عوالمك الكثيرة ، وبهذا عرفنا بصيصا من قولك : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » .

إن فى هذه السورة : (١) الرحمة فى البسملة (٢) والنظر (٣) والسماء فى الآية ، ولمعرفة هذه الثلاث كتبنا هذه المقالة ، وسيدرس ذلك المسلمون بعدنا قرونا وقرونا ، وستفتح لهم أبواب وأبواب فى هذه الثلاث ، ولكنهم بعد آلاف السنين يخاطبهم الله قائلا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

أيها المسلمون : « ألسنة الخلق أقلام الحق » ، قد اشتهر فى كل مجلس ومقام مايقوله العامة والعلماء على حد سواء وهو : « القرآن لاتنتهى عجائبه ، ولا تنقضى غرائبه » : وفى الحديث : « إن أعلاه لمثمر ، وان

أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه » .

الله أكبر : هاهوذا باب العجائب قد فتح الآن ، فلجوه وادرسوا ، فتح على مصراعيه فاستبشروا بالسعادات والهناء والكمال .

تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات

سيقرأ هذا المقال فى تفسير الرحمة ، وتفسير : قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، فيقولون : اننا فى الرفع والاعتدال نقول : « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شيء بعد » ، ثم يقولون : « إن الحمد ليس مادّة تملأ بها السموات ، وانما الحمد ثناء بالجميل على من له جميل اختيارىّ ، وهذا الثناء لفظى لا ينبعث إلا عن امتلاء القلب بجميل أفعال الممدوح ، إذن الحمد لا يصح إلا بعد العلم بمزايا الممدوح ، والله أبرز لنا هذه العوالم وكلها بديعة ، فنحن نحمده عليها وليس يصح حمدنا عليها إلا بعلمنا بها ، والعلم إنما هو حضور صورة المعلوم فى نفس العالم ، وعلى مقدار استكمال العلم فى نفس الحامد يكون استكمال حبه للمحمود ، وهذا الحب يحرك اللسان بالثناء ، والجوارح بالأفعال ، فالمصلى يكون حمده على مقدار إحاطته بالعوالم ، فذكر المصلى للسموات والأرض ومابينهما ومابعدهما يراد علمها سواء أكان قليلا أم كثيرا والحمد على مقتضاه ، وكلما ازداد المصلى علما بهذا ازداد من ربه قربا .

هذا معنى ملء السموات والأرض إلى آخره ، لأن صفات الله ظهرت آثارها فى هذه العجائب ، وعبر عن إحاطتها بالعلم بلفظ الملء ، كأن المصلى العالم قد أدرك الأشياء فكأن علمه أحاط بها وملأها ، وكل امرىء يملأ العوالم ، هذا فى حال الرفع والاعتدال ، فأما فى حال السجود فان المصلى يقول : « سجد وجهى للذى خلقه وصوّره ، وشقّ سمعه و بصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » فههنا ذكر المصلى السمع والبصر والله يقول : « فاسجد واقترب » فههنا الاقتراب لأن الدقة فى صنع السمع والبصر كما قدمناه أحرى بأن تقرب العبد من ربه » والنظر للسماء فى حال الرفع أشبه بالمقدمة لذلك ، فالمسلم فى ذكره السموات كالمبتدى ، وفى ذكره السمع والبصر فى السجود كالمنتهى ، وهذا هو الحقّ الصراح ، ألاترى رعاك الله أن موضوع البصر الذى شرحناه فى هذا المقام يأخذ بلب العارف به ويرى فى نفسه شوقا وحبا وغراما ، ويكاد فؤاده يطير من الحب والبهجة والجمال ، ولكن ذلك لا يكون إلا لقليل من الأذكياء فى هذا النوع الانسانى ، بهذا يقترب الانسان من ربه اقترابا علميا مع الحب والبهجة .

هذا معنى قوله تعالى : « واسجد واقترب » فهاهوذا سبحانه ذكر السجود والاقتراب بعد ذكر السمع والبصر ، وتشريح السمع والبصر ، والوقوف على عجائبهما ، وهذا يذهل اللب فيكون الحب والقرب ، أما النظر إلى السماء فليس فيه هذه البدائع ، فليس المدار على عظمة الأجرام كأجرام الكواكب ، ولكن المدار على احكامها ودقتها كدقة حدقة العين التى تقدم شرحها .

الله أكبر : ان الآلات الدقيقة المعدنية الفلكية قد لا تساوى درهما أودراهم قبل صنعها وهى بعد الصنع قد تساوى مئات الجنيهات ، وهل هذا الثمن إلا لدقة صنعها ؟ ولما كان المدار على دقة الصنع والإحكام ، لا على عظم الأجرام حشرنا الله فى هذه الأرض وأمرنا ألا نطير منها الى عوالم أخرى ، يريد منا أن ندرس هذه الأرض وما حولها وهو يعلم أننا لن ندرسها إلا اذا احتجنا إلى مافيها ، وهل هناك حاجة أكبر من حياتنا نحن و بقائها فحكم علينا ان نغتذى منها هى ، وأحوجنا الى العمل لاستخراج كنوزها ، وكل هذا نتيجته ارتقاء نفوسنا ، كل هذا يفهم من أقوال المصلى فى صلاته إذ يشكر ربه على السمع والبصر بعد أن شكره على السموات والأرض ، ثم سمع الله يقول : « واسجد واقترب » ، اذن السجود به يكون الاقتراب ، لماذا ؟

لأنه

لأنه درس أدق الأعضاء ، فأما دراسة العوالم كلها اجمالا فانما هو تشويق للباحث الجزئية .

اللهم إنا نحمدك جدا كثيرا على نعمك ، ونشكرك على آلائك ، نحمدك على العلم ، ونشكرك على الفهم ، ومن أجل النعم أن دين الاسلام ممتزج بمصالح الدنيا بحيث ان أجل العبادات وأشرف الأعمال ما كانت وجهته المنفعة العامة للأمة ، فهاهي ذه مسألة العين وطبقاتها وابداعها وجمالها كيف كانت دراستها من أسباب حبك ، والاستغراق فى بهجة جمالك ، والهيام بالحكمة ، والازدياد من العلم ، وكيف كان المصلى فى رفعه ، وفى سجوده فى أقواله يجمع مابين مبادئ العلوم فى الأول ونهاياتها فى الثانى ، وكيف كانت اقواله فى الرفع منطبقة على الدراسة العامة فى المدارس الثانوية فى جميع مدارس العالم ، لأن تلك الدراسة يراد بها الالمام بالعوالم المحيطة بنا بقدر الامكان ، ثم كيف كانت أقواله فى السجود فى حال اقترابه منك موافقة كل الموافقة للدراسة الخاصة التى بها يكون الانسان مستحوذا على علم خاص قد ملك ناصيته .

ومن أعجب العجب أن ما تقدم فى دراسة العين وما فيها من دقة الوضع وحسن الاتقان بصائر للناس وهدى ورحمة .

تسبيح المخلوقات

فهذا يفهمنا بصيصا من معنى قوله تعالى : « وان من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » ، ألم تر يارعاك الله إلى سواد القزحية ، وضبطه للنور فيما تقدم ، وحفظه للصورة التى حملها حتى تصل الى المخ ، فهذا السواد ينظر له كل امرئ على مقتضى ادراكه ، فأما العاشق فلا يهمه إلا أنه جمال ظاهرى فيكون إذ ذاك سببا للتناسل ودوام العيش فى الحياة ، وأما الطبيب فانه ينظر اليه من حيث الصحة والمرض ، وفى الحال الثانية يستعمل العقاقير ، فأما الحكماء فانهم أرقى منزلة ، وأرفع قدرا ، ألا ترى رعاك الله أنهم ينظرون نظرا عاما فيقولون : ان هذا السواد انما وضع هنا لحكم ، فيه حفظ الصورة وضبط الضوء ، وهذه تذكرنا بألوان الحيوان المذكورة فى ﴿ سورة المؤمنون ﴾ وفى ﴿ سورة الروم ﴾ وكيف نرى أن الجمل والأسد والنمر كانت ألوانها موافقات لبيئاتها ، وللرمال والجبال حولها ، وكيف كان سواد الفأر لكثرة أعدائه ، فلو كان بلون غيره لأظهره النور فصار طعمة للمفترسات ! ثم كيف نرى ذلك الطائر الأبيض فى أمريكا يظهر بذيله الطويل ليلا وهو غير خائف ولاوجل مما حوله من الفاتكات ، ذلك لأن له رائحة خبيثة يطلقها على كل من اقترب منه وآذاه ، كما يفعل الظربان من ذوات الأربع فى القفار ، ثم كيف نرى الزنبور ظاهرا برقشه ونقشه لايخاف عدوا ، ولايبالى بصروف الأيام ، ذلك لأن له حمة تفتك بالأعداء .

هذا كله مشروح شرحا وافيا فى ﴿ سورة المؤمنون ﴾ وفى ﴿سورة الروم﴾ مع الصور الشمسية فارجع إليه ، أليس هذا كله تنزيها لله عن العبث فى أفعاله ، وأنه لايضع لونا ولاشكلا ولاحجما إلا لحكمة ، ولم يلون العين ويجعل فى قزحيتها السواد مثلا ، ولم يجعل لها قرنية ولارطوبة بيضية ولاقزحية ولاانسان عين وهى الفتحة فى القزحية ، ولابلورية ، ولارطوبة زجاجية ، ولاشبكية ، ولامشيمية ، ولاصلبة إلا لحكمة خاصة ترجع للنظر .

فياليت شعرى هل للتسبيح معنى إلا هذا ؟ هذا تسبيح وهذا حمد ، أما الحمد فعلى هذه النعمة وهى نعمة العين ، وأما التسبيح والتنزيه فذلك أن هذه الأشكال وهذه الطبقات وهذه الألوان ظهر أنها كلها محكمة تفوق الوصف ، بهذا يفهم المسلمون قوله تعالى : «وان من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم» أوليس من العجب أن التعبير بلفظ الفقه وهو دقة الفهم يذكرنا بآية الأنعام إذ يقول : « فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم » .

ثم قال : « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » فجعل العلم فى جانب علم الفلك ، والفقه فى جانب الانسان وعلم التشريح ، إذن قوله تعالى : « ولكن لاتفقهون تسبيحهم » يشير إلى مافى الطبيعة من العجائب كطبقات العين وبدائعها المذكورة ، وقوله : « إنه كان حليما غفورا » ، فأما حلمه فهوظاهر ، فان الانسان منايحلم على الأطفال والجهال إذا أخطأوا وجهلوا ، ويرى الانسان طفله لا يعقل نعمه ولا يفهم مقدارها فيحلم الانسان عليه لقلة إدراكه ، وهذا هوالسبب فى قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا » فهكذا يعامل الله عباده ، فهو يعلم أنهم يجهلون جهلا فاضحا ما أعطاهم من النعم ، فاننا لانجد عالما ولا جاهلا فى نوع الانسان يدرك نعمة العين مثلا ، ولكنه يفهم مقدار الطعام عند من أكرمه به ، ويفهم العطايا المعتادة ويصبح محبا لمن أعطاه ، ولكنه قط لايتذكر نعمة العين ، بل هو يجهل تفصيلها ، إذن الله يعامل عباده لجهلهم بنعمه معاملة أحدنا ولده ومعاملة أشرافنا وأنبيائنا الفقراء والمساكين لأنهم لايعرفون نعم المحسنين لهم ، فهذا معنى كون الله « حليما » فى هذا المقام ، وأما الغفران فهو راجع لمن أعطاهم الله استعدادا للعلم والفهم فدرسوا هذه العلوم فعرفوا النعمة فأحبوا مسديها كما يحب الرجل العامى من أعطاه مالا ، أوكساه ثوبا ، والغفران هنا كالغفران فى أوّل سورة الفتح الذى جعل بابا للفتح بالعلم والمعرفة ، فالله حليم على عبده لجهله ، فاذا استعدّ للعلم وبه يعرف النعمة ويحب ربه يجعل الغفران مقدمة لذلك الفتوح والله هو الولىّ الحميد .

سرّ من أسرار حكم العين وسواد قزحيتها

سواد القزحية حفظ النور كما تحفظ الجسور ماء الأنهر ، وكما تحفظ القوّة الغضبية أشخاص الحيوان ، فهنا نور حفظه سواد القزحية فى العين ، وهنا ماء حفظه الجسور ، وهنا قوة شهوية فى الحيوان أحاطت بها قوّة غضبية لتحفظ بقاءها بمدافعة الفاتكات ، وهنا أمم تحفظها جيوشها من هجوم الأعداء ، إذن سواد العين ، وجسر النهر ، وغضب الحيوان ، وجيوش الدول ، كل هذه حافظات لما ينفع الناس من نور وماء وحياة فرد أوحياة أمة . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية فى آية : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » أى مبحثيها معا وهما مبحث العين وطبقاتها ، ومبحث السماء ونجومها ، وكل هذا قد لوحظ فى بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

فى هذه اللطيفة مقالتان

المقالة الأولى فى قوله تعالى : وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبى العالم وقال : لقد تقدم فى هذا التفسير مقالات كثيرة فى النبات ، ولكنى أريد اليوم الوقوف على ملخص علم النبات بحيث يكون كأنه حاضر أمامى . فقلت : أيها الأخ الذكىّ : إن هذه الأرض والعوالم حولها كثيرة كثرة لاضابط لها إلا العلم ، ولاجرم أن النباتات على الأرض مبعثرة مشتتة ولن يضبطها إلا الوحدة ، فقال مامعنى الوحدة هنا ؟ فقلت : إن عقول الناس فى هذه الأرض كلها مشغوفة بالوحدة لأن الوحدة هى التى تطمئن بها القلوب ، ألاترى أنهم يجعلون لكل منزل رب أسرة ، ولكل بلدة رئيسا ، ولكل امة ملكا ، أوأميرا ، أورئيس جمهورية ، كل ذلك للوحدة ، ونظير هذا فى العلوم فانهم

قسموها إلى مجموعات كل مجموعة سموها علما ، ثم قالوا : هذه العلوم كلها تسمى واحدا ، وهذا الواحد انقسم إلى علوم ، وكما يرجعون جميع الأعداد إلى الواحد ويرجعون العالم كله الى الوحدة فيقولون : الله خلق العالم أى بعد البحث والتمحيص ، فهناك تطمئن القلوب الحديثة التى درست هذا الوجود كله دراسة حقيقية ، أما العامة وصغار المتعلمين فهم من واد واحد يعيشون ويموتون وهم متحسرون على السعادة الحقيقية وهى الاطمئنان ووقوف النفس على الحقائق ، لاسعادة لأهل هذه الأرض إلا فى هذه المسألة التى هى مسألة المسائل فهكذا فيما نحن فيه وهو علم النبات ، وماعلم النبات إلا كجميع هذه العوالم ، نراها مبعثرة مشتتة : نهر ، بحر أرض ، جمل ، جبل ، خيش ، أكواخ ، سحب ، كواكب ، هواء ، ذئب ، أسد ، جمل ، حمار ، غزال مسك وهكذا أمور لايدرى الانسان أولها ولا آخرها ، فبالعلوم والحكمة تضبط هذه كلها ، كذلك علم النبات فانا نقول : أرز ، نخل ، حشائش ، عبل ، نخل ، صنوبر ، قمح ، وهكذا لاضابط ولاقانون فلاعلم ، وانما هى أمور مبعثرات هنا وهناك ، فاذا رجعناها للوحدة سعدنا وأحسسنا فى أنفسنا بسعادة علمية جزئية ، ومتى درسنا مجملات العلوم كلها ورجعناها لوحدتها سعدنا السعادة التى لانهاية لها فى نفس هذه الحياة سعادة معجلة محققة .

فقال صاحبى : والله لقد شوّقتنى إلى هذه الوحدة فى النبات التى بها تكون سعادتى . فقلت : إن جميع الكائنات الحية نباتية كانت أوحيوانية مركبة من وحدة أو وحدات صغيرة تسمى كل منها خلية ، وهذه صورتها (انظر شكل ٨ الآتى)

وأشرحها لك فأقول : « اذا تركب جسم النبات من خلية واحدة سمى « وحيد الخلية » أما اذا تركب من جملة خلايا فيقال له « عديد الخلايا » وتتركب مادته من جدار خارجى مادته كربوأيدراتية صلبة مرنة شفافة تسمى « السليولوز » وفى داخل الجدار مادة لزجة تسمى « البروتو بلازم » وهو الجزء المهم فى الخلية ، لأنه هو المادة الحية ، ولسنا نعرف بالضبط كنه الحياة ، غيرأن للمادة الحية المسماة « البروتو بلازم » صفات تميزها عن الأجسام الميتة منها :

أوّلا : ان للبروتو بلازم القدرة على هضم وتمثيل الغذاء [أى تحويله إلى مركبات بروتو بلازمية] .

ثانيا : انه يؤكسد الغذاء ويخرج الفضلات .

ثالثا : ان له القدرة على النموّ .

رابعا : ان له القدرة على الحركة .

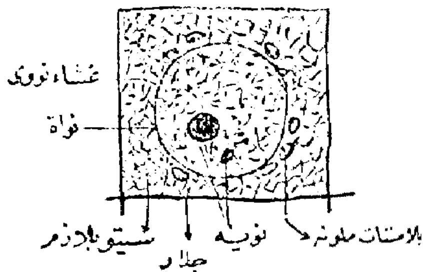
خامسا : انه يتأثر بالضوء والحرارة والرطوبة .

سادسا : ان له القوّة على التكاثر والتوالد .

وبروتو بلازم الخلية يشمل جسما برّاقا أكثركثافة منه يسمى « النواة » والمادة البروتو بلازمية التى حول النواة تسمى « السيتو بلازم » .

النواة

تتركب النواة من شبكة مكوّنة من قضبان صغيرة تسبح فى سائل يعرف « بالسائل النووى » ويحيط بالنواة من الخارج غشاء رقيق هو « الغشاء النووى » (انظر شكل ٨) وقد يوجد داخل النواة جسم كروى صغير يسمى «النوية » وقد تحتوى النواة على نوية واحدة أو أكثر .



(شكل ٨)

والنواة أهم جزء فى الخلية ، ويمكن الاستدلال على ذلك بقطع خلية إلى قسمين : يشمل الأول منهما نصف البروتو بلازم بما فيه النواة كلها ، ويكون الثانى خاليا من النواة ، أما القسم الأول فينمو ويستعيد ما نقص منه ، وأما الثانى فيموت بعد فترة من الزمن اهـ

فقال صاحبى : إذن هذه الخلية هى أصل كل حيوان وكل نبات ؟ فقلت نعم . فقال : يظهر لى أن هذه الخلية أشبه بمنزل فيه أسرة تسكنه لأنه محيطها والسيليلوز يحفظ مافى داخلها وهوالجزء المهم ، إذن هى كالجوزة ، أوكرأس الانسان لها عظام فى داخلها المخ ؟ قلت نعم نطقت بالصدق ، وأيضا فى الحيوان قوة يحافظ بها على نفسه تسمى غضبية ، وقوة بها يعيش وهى الشهوية ، فالأولى كالمسكن ، والثانية كالسكان ، إذن القاعدة واحدة فى هذا النظام العالمى ، وهذه الآراء هى مبدأ السعادة التى حدثتك عنها ، فاذا أمكننا ارجاع كل نبات إلى تلك الوحدة وأخذنا نفرع عنها فروعا تشمل كل نبات كان ذلك سعادة جزئية خاصة بالنبات . فقال : أريد التفصيل بعد هذا الاجمال ؟ فقلت : إن النباتات على قسمين : دنيئة ومرتقية ، فالدنيئة يكون انقسام الخلية فيها انقساما مباشرا ، والمرتقية يكون الانقسام فيها غير مباشر :

١ ـ الانقسام المباشر

تكون طريقة الانقسام فى خلايا بعض النباتات الدنيئة فى الغالب بسيطة ، فيحصل حز فى وسط النواة يمتد إلى باطنها شيئا فشيئا حتى تنقسم إلى قسمين : يتبع ذلك انقسام السيتوبلازم ، ويسمى هذا النوع بالانقسام المباشر .

٢ ـ الانقسام غير المباشر

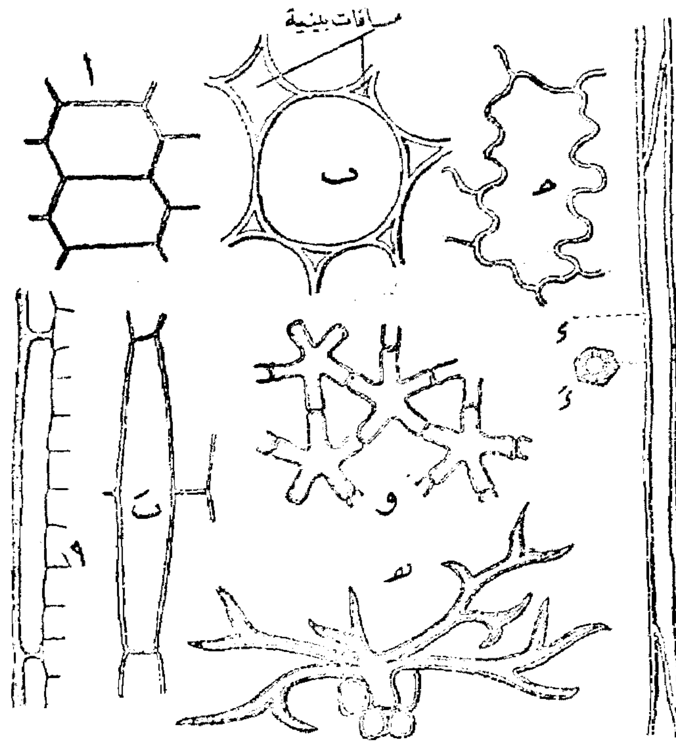
انقسام النواة فى الخلايا العادية للنباتات الراقية يكون أكثر تعقيدا منه فى الحالة السالفة (شكل ٩) فعند ماتأخذ النواة فى الانقسام تنفصل القضبان التى تتكون منها الشبكة النووية ، ثم ينشطر كل منها طوليا إلى شطرين متساويين ومتشابهين من كل الوجوه ، وينجذب كل من الشطرين إلى قطب الخلية المقابل له ، فتجتمع أنصاف القضبان فى قطب ، والأنصاف الأخرى فى القطب الآخر ، ثم تتحد أفراد كل مجموعة مكونة بذلك شبكة نووية جديدة ، وينشأ بعد ذلك تكون غشاء فى السيتوبلازم يفصل النواتين الجديدتين ، وتنقسم الخلية بهذه الطريقة إلى خليتين تكون نواتاهما متشابهتين فى صفاتهما وعدد قضبانهما ، وتسمى هذه الطريقة بالانقسام غير المباشر اهـ



(شكل ٩)

انقسام الخلية غير المباشر ١ ـ ٩ أدوار مختلفة فى الانقسام

ثم قلت : انظر أيها الصديق إلى الخلية الواحدة ، ألاتراها كمنزل تسكنه أسرة ، ثم انظر كيف صار هذا المسكن مساكن بطريقة تخالف طرائقنا فى بناء مدننا ، فنحن نبنى بيتا بجانب آخر ، أما هذه الخلية فانها تكبر وتنقسم بطريقتين مختلفتين . فقال : حسن ولكن أريد أن أعرف هل هذه الخلايا شكلها كلها واحد أم هى أشكال مختلفات ؟ فقلت : كما أن الناس اختلفت أشكالهم هكذا تختلف أشكال هذه الخلايا ، بل ان هنا أمرا عجبا ! ذلك أن هذه الخلايا تعمل عمل العقلاء من الناس ، فان العقلاء يجعلون الهواء يتخلل بيوتهم هكذا هذه الخلايا فهى مختلفة فى صورها كالناس محكمة نظام وضعها بحيث يتخللها الهواء (انظر شكل ١٠)



(شكل ١٠ — (ا) خلايا مرستيمية (ب بَ) خلايا برنشيمية (حـ حـَ) خلايا البشرة ويرى جدارها العلوى غليظا (د دَ) خلايا ليفية (هـ) خلية شعرية وبرية متفرعة ، (و) خلايا نجمية الشكل بينها مسافات بينية واسعة)

إن الخلايا البالغـة متعددة الأنواع ، مختلفة التركيب ، فما كان منها متساوى الأقطار كرويا أومستطيلا قليلا رقيق الجدران ، وبه فجوة وسطية سمى بالخلايا البرانشيمية ، وعندماتنموالخلايا البالغة تتفـكك أركانها ، ويتكوّن بينها وبين بعضها مسافات يتخللها الهواء تسـمى بالمسافات البينية (شـكل ١٠ — ب) وهى موزعة فى النبات بحيث يتمـكن الهواء من تخلل جميع أجزائه ، وقد تستعمل المسافات البينية لتخزين بعض منتجات الخلايا كما فى نبات الصنوبر .

ثم قلت : انظر للصنوبر والبرتقال والليمون مثـلا كيف فعلت مانفعله نحن فاننا نضع أمتعتنا فى الخلاء الذى فى داخل مساكننا ، والى الغاب كيف تحللت منه خلايا ليكون فيها هواء كما تفعل الحكومات إذ تهدم أبنية لتجعل فيها الشوارع .

فقال صاحبى : أما الآن فانى قد فهمت وحدة النبات فهما حقيقيا ، فأريد الآن أن أعرف أدنى النباتات وأعلاها . فقلت : أما أدنى النباتات فهى النباتات الدنيئة التى تتركب أجسامها من خليـة واحدة ، تقوم هذه الخلية بجميع الوظائف اللازمة كالامتصاص والتنفس والنموّ والحركة والتناسل ، أما فى النباتات الراقية فيتكوّن جسم النبات الواحد من عدد لايحصى من الخلايا ، ولـكى يقوم النبات بوظائفه خير قيام تتخصص مجاميع من خلاياه بأعمال خاصة ، وتسمى كل مجموعة بالنسيج ، وعلى ذلك يكون النسيج عبارة عن مجموعة من الخلايا المتشابهة فى الأصل ، وغالبا فى الشكل تقوم بعمل متماثل ، وأنسجة النبات الحىّ تتعاون جميعا فى تأدية وظائفه الحيوية ، ولايمكن للنسيج الواحد منها أن يستقلّ بذاته ولوفصل عن باقى الأنسجة لماتت خلاياه تدريجا .

ثم قلت : انظر ألدس تركيب النبات بقسميه كترتيب الجسم الانسانى العام . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت :

ألست ترى أن النباتات الدنيئة التي هي من خلية واحـدة وهي التي لاتراها بأعيننا التي تشبه في صغرها أدنى وأصغر الحيوانات الذرّية التي لاتراها أيضا قد أشبهت رجال البادية ، فان البدوي في خيمته هوكل شيء ، هو الذي له السلطة على منزله ، وهوالمدافع عنه ، وهوالحافظ له ، ويعيش مستقلا كأنه دولة واحدة ، أما النباتات الراقية فهي حنما أشبه بالأمة التي فيها جماعات كل جماعة لها عمل كرجال المالية والعسكرية والزراعة والتجارة والطب الخ ، وكما أن كل جماعة من هؤلاء في الجمعية الانسانية لاقيمة له مستقلا ، هكذا كل جماعة من جماعات الخلايا اذا استقل فان خلاياه تموت .

وسترى في سورة الواقعة عند آية : « انهم كانوا قبل ذلك مترفين الخ » أن الأمم كلما كانت أقرب إلى خط الاستواء كانت أكثر تعرّضا للأمراض ، وكلما بعدت عنه كانت أبعد عن تلك الأمراض ، وذلك أن الرطوبة والشمس بهما تنتشر الأمراض في الأوّل ، وعلى ذلك اذا لم تقم كل جماعة بما يخصها من حفظ البلاد كدرس حال الجوّ وحال الحشرات وأسبابها والوقاية منها فان الأمراض تكثر وتضعف الأمة كما يهلك النبات الراقي بكسل جماعات منه وضعفها .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أريد أن تشرح لي أوّلا النبات ذا الخلية الواحدة ، وبعد ذلك تشرح لي النبات المركب من خلايا كثيرة منه ؟ فقلت : أذكرك بما مرّ في سورة حم فصلت في الجلد التاسع عشر عند آية : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » فانك ترى هناك البكتريا وأنواعها مرسومة مختلفة الأشكال وبها الحياة وبها الموت ، فلولاها لم يكن نبات مما ننتفع به لأنها هي التي تفتت المواد الغذائية لتكون صالحة لأن يمتصها النبات ، ومنها تكون الجراثيم القتالة المهلكة لنوع الانسان ، ولكن منافع هذه الأنواع أكثر من ضرّها ، لذلك أبقاها الله في الأرض ، ومن النبات الدقيق الفطرى الذي هوخلية واحدة الخيرة ونحوها ، هذا هوالذي تقدم .

فنحن إذن لانعيده هنا فانه موضح هناك أي إيضاح . فقال نعم . فقلت : إذن نرجع إلى ما نحن فيه ونشرح تركيب ساق الشجرة ، فاذا كان النبات المركب من خلية واحدة قد تقدم شرحه فلنتمم الآن النبات المركب من خلايا ، ونبدأ بشرح ساقه سواء أكان النبات من ذوات الفلقتين أم من ذوات الفلقة الواحدة ، فذوات الفلقتين مثل : الكرنب ، والقنبيط ، والفجل ، واللفت ، والشليك ، والتفاح ، والكمثرى والمشمش ، والخوخ ، والكريز ، والبرقوق ، والورد ، والباذنجان ، والطماطم ، والتبغ ، والبطاطس ، والفلفل ، والسنط ، والقثاء ، واللبخ ، والمستحية ، والتمرهندى ، والخروب ، والسنامكي ، والفول البلدى ، والفول الرومى والفاصوليا ، والعدس ، والحلبة ، والحمص ، والفول السوداني ، واللوبيا ، والبسلة ، واللبلاب ، والترمس ، والبرسيم البلدى ، والبرسيم الحجازى ، والقطن ، والباميه ، والخبازى ، واللوف ، والحنظل . فهذه كلها من ذوات الفلقتين .

أما ذوات الفلقة الواحدة فذلك مثل : البصل ، والثوم ، والكرات البلدى ، والكرّات أبوشوشه ، والهليون ، والصبار ، والنخل والدوم ، وجوز الهند ، والقمح ، والأرز ، والذرة الشامية ، والذرة العويجة الرفيعة ، والشوفان ، والشيلم ، والدخن ، والدنيبه ، وقصب السكر ، والغاب .

فقال : هذا حسن ، قد عرفت ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين ، وكنت أودّ أن أعرف ذلك من قبل ولكن الحمد لله على نعمة العلم ، فأريد الآن أن تشرع في شرح ساق كل منهما لأنك شوّقتني إليه ، فانني أرى الفول والفاصوليا والعدس والحلبة والحمص مثلا وآكلها ، ولكن لا أعرف كيف يكون تركيب ساقها ، ومن العار أن يكون الجمال حاضرا أمامنا ونحن عنه غافلون كالعميان أمام الغادات الحسان ! فقلت : إن النبات ذا الفلقتين تكون أوّل طبقة منه يراها الانسان :

(١) مايسمى [كيوتين] وهى مادّة شفافة مرنة ، تمنع نفاذ الماء والهواء ، وبذلك تقى النبات تأثير الجفاف من زيادة بخر مائه الداخلى ، وقد يكون الكيوتين سميكا فى النباتات التى تعيش فى المناطق الجافة ورقيقا فى النباتات التى تعيش فى المناطق الرطبة ، هذه هى الطبقة الأولى . ثم قلت :

(٢) الطبقة الثانية : البشرة المركبة من طبقة سمكها خلية واحدة ، وهى خلايا متلاصقة حية ، وليست بينها مسافات .

(ا) وهذه البشرة قد يمتد منها شعر رفيع ، وكل شعرة من خلية أو خلايا ، وقد يفقد الشعر مافى داخله فيمتلئ بالضوء فيظهر كأنه أبيض ، وتارة تكون فيه مادّة لاذعة تحافظ على النبات مما يأكله ، فهى له وقاية حقيقية .

(ب) وفى هذه البشرة ثقوب ، وتسمى ثغورا ، وظيفتها أن يدخل منها الهواء ويخرج .

(٣) الطبقة الثالثة : القشرة وخلاياها رقيقة جدا ، بينها مسافات ، وتارة تكون خلاياها سداسية الشكل تقريبا .

(٤) الاسطوانة الوعائية ، ويليها كتل مثلثة الشكل ، مرتبة على شكل دائرة ، وهى قطاعات عرضية للحزم الوعائية .

(٥) الحزمة الوعائية :

(ا) وفى أعلاها حواجز تشبه الغربال تسمى الحاجز الغربالى ، وتسمى اللحاء .

(ب) وفى اسفلها من جهة مركز الساق قسم يعرف بالخشب أو الزيلم .

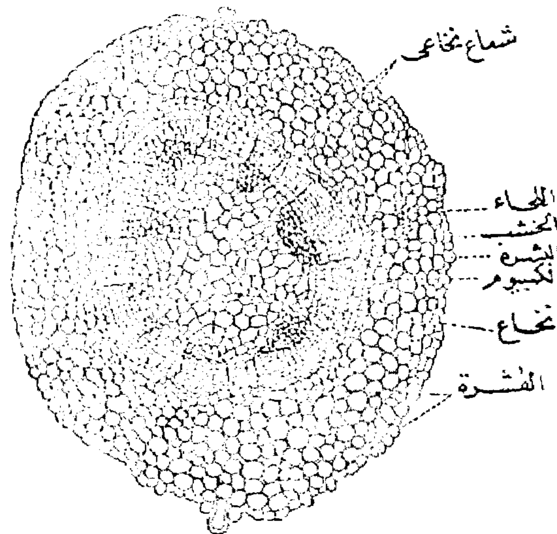
(ج) ويفصل اللحاء عن الخشب قسم يسمى [الكمبيوم] .

(د) وخارج اللحاء قد تكون هناك ألياف ، وهذه قد تتكون منها اسطوانة كاملة حول الحزم الوعائية .

(٦) النخاع .

(٧) أشعة نخاعية وهى تصل القشرة بالنخاع بواسطة خلايا تمرّ بين الحزم الوعائية .

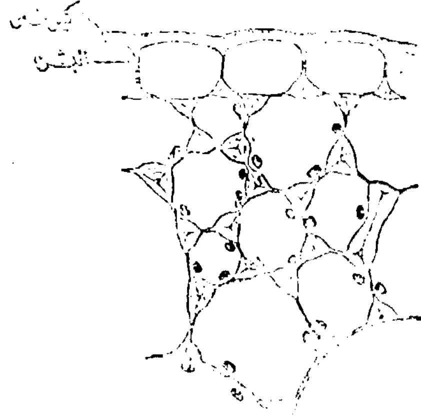
فقال صاحبى : هذا حسن ولكنى لم أفهم منه شيئا ، لأنها أقوال وتعريفات صامتة ، وهذه سبعة أحوال وقد دخل أحوال أخرى تبلغ نحوها فى العدد ، فأرجو إيضاح هذا بالأشكال . فقلت : (انظر شكل ١١)



(شكل ١١ ـ قطاع عرضى فى ساق حديثة)

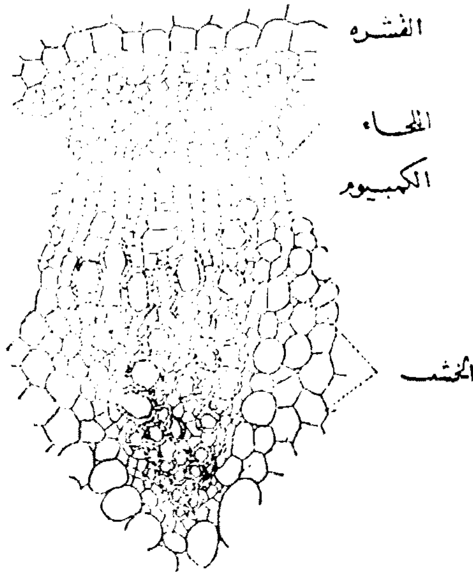
فهذه ظهر فيها : الشعاع النخاعى ، واللحاء ، والخشب ، والبشرة ، والكمبيوم ، والنخاع ، والقشرة .

فقال : ولكن أين [الكيوتين] ذلك الذى يحفظ للزرع مافيه من الماء إلى آخر ماتقدم . فقلت : انظر شكل ١٢ وهذه صورته



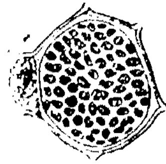
(شكل ١٢)

فقال : أنا مارأيت الحزم الوعائية ؟ فقلت : هاهى ذه (انظر شكل ١٣) :



(شكل ١٣ ـ قطاع عرضى فى حزمة وعائية صغيرة)

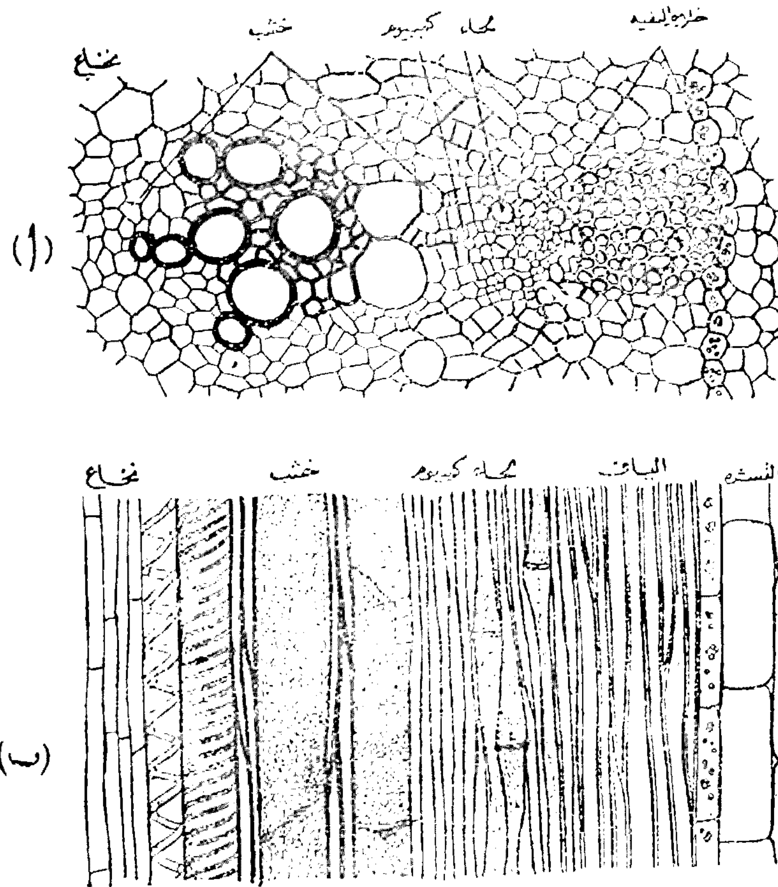
فقال : وأين الحاجز الغربالى ؟ فقلت هاهوذا (انظر شكل ١٤)



(شكل ١٤ ـ حاجز غربالى)

فقال : ولكن أين الخلايا الليفية ؟ فقلت (انظر شكل ١٥ فى الصفحة التالية)

شكل ١٠



(شكل ١٠)

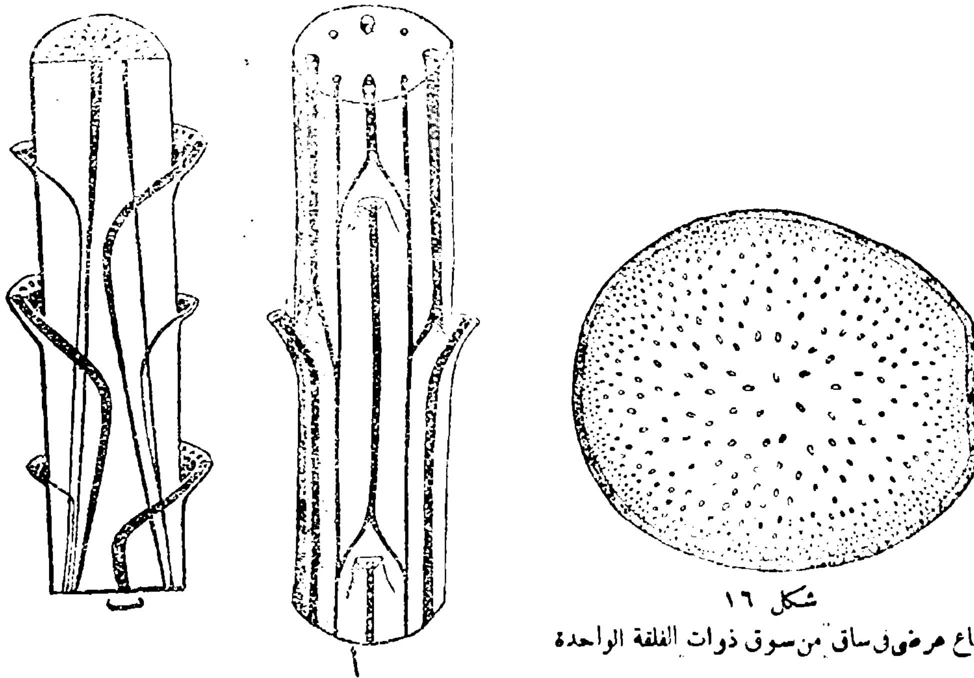
(ا) قطاع عرضى فى حزمة وعائية ، وترى الألياف بجوار اللحاء

(ب) قطاع طولى فى نفس الحزمة .

فقال : قد فهمت سوق النباتات ذات الفلقتين ، ولكنى أريد أن أمتحنها بنفسى فى الخارج . فقلت : من السهل الميسور مشاهدة الخيوط الليفية التى تمتد طولا فى ساق نبات رخو كالحلبة أو الملوخية بإزالة ما يحيط بها من الأنسجة الرخوة ، ويعرف مجموع تلك الألياف فى الساق بالاسطوانة الوعائية ، والخيط الواحد بالحزمة الوعائية ، وتقوم هذه الحزم الوعائية بتوزيع الأغذية المختلفة فى النبات ، ومن السهل أيضا مشاهدة الأنسجة الرخوة التى تحيط بالاسطوانة الوعائية من الداخل والخارج ، فالنسيج الذى فى داخل الاسطوانة ويشغل الجزء المركزى من الساق يسمى [النخاع] والذى يحيط بالاسطوانة من الخارج يسمى [القشرة] وتغلف الساق من الخارج بنسيج شفاف رقيق مكوّن من طبقة واحدة من الخلايا يعرف بالبشرة كما فى شكل ١١ المتقدم قريبا .

فقال : وكيف تكون هيئة النباتات ذى الفلقة الواحدة ؟ فقلت : الحزم الوعائية فى سوق ذوات الفلقتين مرتبة على شكل دائرة منتظمة ، أما فى سوق ذوات الفلقة الواحدة فانها كثيرة العدد مبعثرة بغير نظام واضح (انظر شكل ١٦ و ١٧ فى الصفحة التالية)

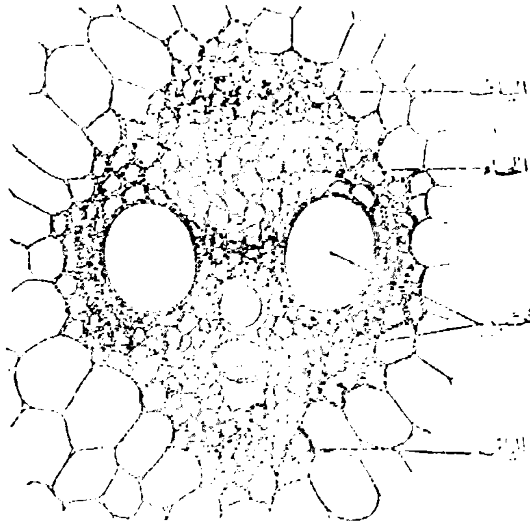
ولذلك لا يمكن تمييز مناطق القشرة والاسطوانة الوعائية والنخاع بوضوح فيها ، وزيادة على ذلك فان



شكل ١٦
قطاع عرضي في ساق من سوق ذوات الفلقة الواحدة

(شـكل ١٧)
(ا) يبين سير الحزم الوعائية في ساق ذوات الفلقتين .
(ب) يبين سير الحزم الوعائية في ساق ذي الفلقة الواحدة .

حزم سوق ذوات الفلقة الواحدة خالية من الكمبيوم (انظر شكل ١٨)



(شـكل ١٨ ـ قطاع عرضي في حزمة وعائية من ذوات الفلقة الواحدة)

فقال صاحبي : أريد أن أعرف الفرق بين نمو ساق النبات ذي الفلقة الواحدة وساق النبات ذي الفلقتين

فقلت : إن ساق النبات ذي الفلقتين يزداد في السمك عاما بعد عام إلا في بعض أحوال شاذة (انظر شكل ١٩) مثلا في شجر الجيز ، أو اللبخ أو السنط ، وكلها من ذوات الفلقتين ، يلاحظ أن أطراف الأفرع (أي أحدث أجزاء الساق سنا) رفيعة ، وأنها تأخذ في الغلظ كلما اقتربت من أسفل الساق (أي جزء الساق الأكبر سنا) ، أما في النخل وهو من ذوات الفلقة الواحـدة ، فيلاحظ أن غلظ الساق متساو تقريبا على طول النبات ، وذلك لعدم حصول زيادة في السمك .

شكل ١٩

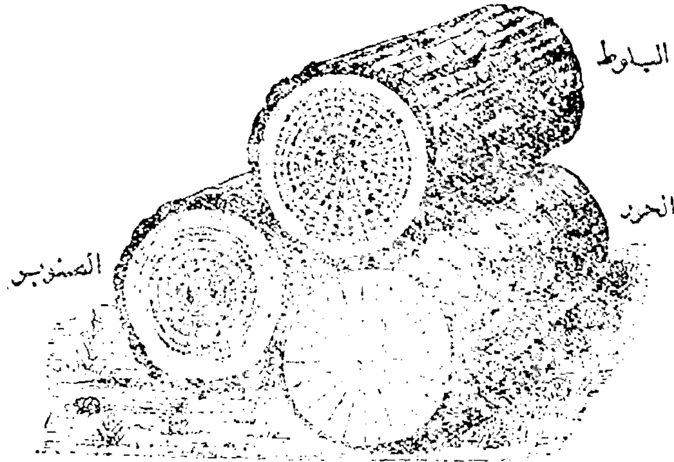
(شكل ١٩ ـ قطاع عرضى فى ساق عمرها ثلاث سنوات)

والزيادة فى السمك ترجع الى نشاط طبقة الكمبيوم التى فى حزم الساق بين الخشب واللحاء ، فتنقسم خلايا الكمبيوم مكوّنة خشبا فى الداخل (أى فى جهة النخاع) ولحاء من الخارج (أى فى جهة القشرة) وفى نفس الوقت تتحوّل خلايا الأشعة النخاعية التى توصل بين كمبيومى حزمتين متجاورتين إلى خلايا مرستيمية وتكون خشبا فى الداخل ولحاء من الخارج ، وتتصل بذلك حلقة الكمبيوم .

الحلقات السنوية شكل ١٩

الخلايا الخشبية التى تتكوّن فى الربيع تكون كبيرة الحجم ، رقيقة الجدر ، وذلك لأن النبات يحتاج فى فصل الربيع (أى فى فصل النشاط الذى يلى فصل السكون إلى مقدار وافر من العصارة لنموّ أوراقه وأزهاره الخ أما فى فصل الخريف فتكون خلايا الخشب صغيرة الحجم ضيقة غليظة الجدر ، وذلك لعدم احتياج النبات إلى مقدار كبير من العصارة فى ذلك الوقت بعد أن يكون قد أتمّ نموّه السنوىّ وبدأ يستعدّ لطور السكون .
وفى الربيع التالى تتكوّن الخلايا الخشبية الواسعة مرّة أخرى ، ولذلك يلاحظ فى القطاع العرضى للساق المسنة حلقات ناشئة من وجود خلايا خشبية صغيرة مجاورة لخلايا خشبية كبيرة (شكل ١٩) وكل حلقة من هذه الحلقات تدل على مقدار نموّ سنة كاملة ، ولذلك تسمى بالحلقات السنوية ، ويمكن تقدير عمر الساق اذا عمل فيها قطاع عرضى وعدت حلقاته السنوية شكل ١٩ ثم ٢٠ فى الصفحة التالية

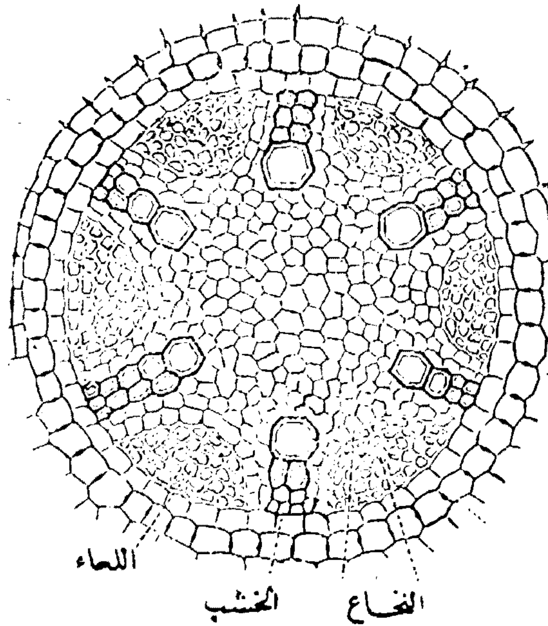




(شكل ٢٠)
شكل الخشب فى أشجار مختلفة . لاحظ الحلقات السنوية والقلف

وتشاهد الحلقات السنوية فى سوق النباتات التى تتساقط أوراقها فى أواخر الخريف ، وخصوصا فى البلاد التى فيها فارق عظيم بين درجتى حرارتها فى الصيف وفى الشتاء ، أما فى الأشجار المستديمة الاخضرار فمن الصعب تمييز هذه الحلقات ، وذلك لأن النمو يستمر طول السنة تقريبا .

فقال صاحبى : كفى ماتقدم فى ذوات الفلقة وذوات الفلقتين إجمالا ، ولكنى أريد أن أعرف شيئا قليلا عن تركيب الجذر ؟ فقلت : إن الجذور يطول الكلام عليها ، ولكن أذكر منه أمرا واحدا ، وهى المنطقة الدائمة فيه (انظر شكل ٢١)



(شكل ٢١ ـ قطاع عرضى فى الإسطوانة الوعائية لجذر)

فقال

فقال : أنا الآن اكتفيت بما تقدم فى تشريح النبات ، فأرجو أن أعرف أقسام المملكة النباتية .

فقلت : هى أربعة تعرف كل منها بالمجموعة النباتية وهى :

(١) مجموعة النباتات الثالوسية .

(٢) مجموعة النباتات الحزازية .

(٣) مجموعة النباتات المرخسية .

(٤) مجموعة النباتات البذرية .

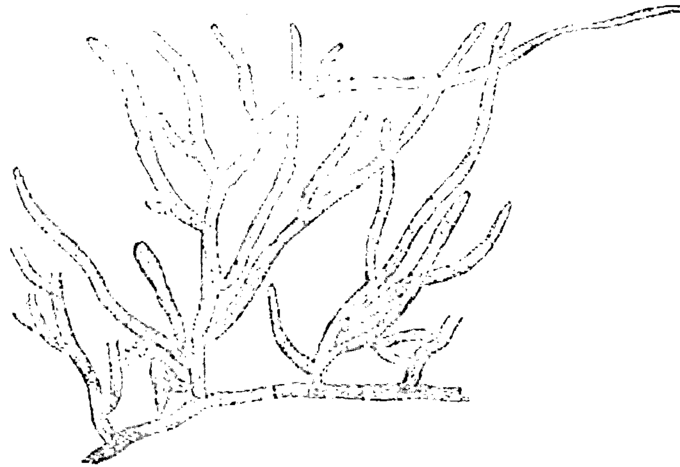
ثم قلت : أما النباتات الثالوسية فهى التى تقدمت فى سورة فصلت ، وقد عرفت آنفا ملخص ماهناك فان فيها البكتريا والفطر [بضم الفاء والطاء] والطحالب ، وهذه كلها واضحات هناك فارجع إليها ، فانك تعرف أكثر مما هو حاضر فى ذهنك ، وهناك صور جلية توضح الموضوع . فقال : أريد معرفة النباتات الحزازية . فقلت (انظر شكل ٢٢ و٢٣ و ٢٤) وهاك صورها :



شكل ٢٢ نبات حزازى منبسط



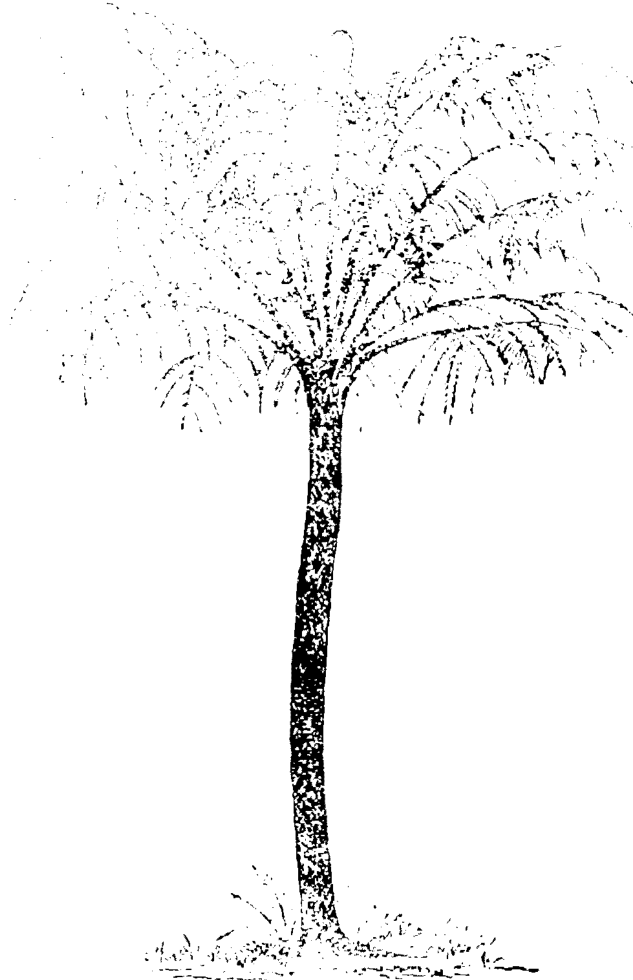
شكل ٢٣ نبات حزازى قائم



(شكل ٢٤ ــ الخيط الأولى وعليه برعم)

فقال : وما مثال النباتات المرخسية ؟ فقلت انظر شكلى ٢٥ و ٢٦ فى الصفحة التالية





(شكل ٢٥ ـ أحد النباتات المرخسية الشجرية)



(شكل ٢٦)

فقال

فقال لم يبق إلا الكلام على النباتات البذرية . فقلت : الكلام عليها يطول ولكن نختصره هنا فنقول : تعتبر النباتات البذرية أرقى المجاميع النباتية ، وتمتاز نباتاتها بتكوين البذور من البويضات التي تكون في أعضاء خاصة تعرف بالأزهار ، وتنقسم النباتات البذرية إلى قسمين رئيسين : —

(١) النباتات المعراة البذور : وهى التى تكون بويضاتها معرّضة للخارج ، ولا تحاط بغلاف خاص (مبيض) كالصنوبر والسرو ، ونباتات هذا القسم فى الغالب خشبية ، وكانت عظيمة الانتشار فى العصور الجيولوجية الغابرة ، غير أنها أخذت فى النقص والاضمحلال بعد نشوء النباتات المغطاة البذور .

(٢) النباتات المغطاة البذور : وهى التى تحاط بويضاتها بغلاف خاص مقفل كالصندوق يسمى المبيض . وهذا القسم من النباتات البذرية له أهمية اقتصادية كبيرة ، إذ أن معظم نباتات المحاصيل تابع له .

وتنقسم النباتات المغطاة البذور إلى : —

(١) النباتات ذوات الفلقة الواحدة .

(٢) النباتات ذوات الفلقتين .

وتختلف نباتات هذين القسمين من عدّة وجوه ، والجدول الآتى يبين أهمّ مواضع الاختلاف :

موازنة بين النباتات ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين

	ذوات الفلقتين	ذوات الفلقة الواحدة
(١)	لأجنتها فلقتان .	لأجنتها فلقة واحدة .
(٢)	الحزم الوعائية تحتوى على كمبيوم بين الخشب واللحاء ، وهى مرتبة على شكل دائرة فى الساق .	الحزم الوعائية لاتحتوى على كمبيوم بين الخشب واللحاء ، وهى مبعثرة بدون نظام خاص فى الساق .
(٣)	تزداد سوقها فى السمك عاما بعد عام .	لاتزداد سوقها فى السمك إلا فى أحوال نادرة وبطريقة تختلف عما فى ذوات الفلقتين .
(٤)	عروق الأوراق متفرّعة على شكل شبكة .	العروق عادة متوازية ، وفى النادر شبكية .
(٥)	أجزاء الزهرة ثنائية أو رباعية أو خماسية .	أجزاء الزهرة ثلاثية أو مكرّرات ثلاثة .

والى هنا تمّ الكلام على المقالة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

المقالة الثانية فى قوله تعالى : تبصرة

اللهم إنا نحمدك على توفيقك ، وإلهامك ، وإسعادك ، وإمدادك ، هانحن أولاء يارباه عرفنا إبداعك فى نباتك :

(١) فانك أبدعت فى تركيبه بحيث جعلت فى كل ساق مجموعات من النسيج الخلوى ، ولكل مجموعة منها عمل خاص ، فهى إذن أشبه بهيئة دولة لكل طائفة منها عمل ، وليس فى عملك معطل : « وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين » .

(٢) ونراك أبدعت البشرة (انظر شكل ١١) بحيث جعلت خلاياها متلاصقة تمام التلاصق : وجعلت مايلى الهواء أغلظ مما سواه لتقدر على تحمل مايحيط بها .

(٣) وجعلت الكيوتين لمنع الماء من البخر .
(٤) وجعلته سميكا فى البلاد الحارّة رقيقا فى غيرها .
(٥) واذا كانت هذه البشرة قد أعدّت لمنع دخول ماهوخارج عنها لحفظ النبات ، والنبات لايصبر عن الهواء الخارجى ، فقد قضت الحكمة أن تكون فيها ثقوب ليدخل منها الهواء لحياة النبات .
(٦) ثم كيف كانت نفس هذه البشرة مزروعة بشعر يخرج منهافيحفظ بكثرته ما فى باطن النبات من الماء ، و يمنع تأثير الضوء الخارجى ، فالشعر إذن ذومنفعتين داخلة وخارجة .
(٧) ولما كانت البشرة وشعرها لاتكفى لمنع الحيوان قضت الحكمة أن يكون فى الشعرمادّة يكرهها الحيوان فيحفظ النبات .
(٨) ياليت شعرى : ما هذه الكتل المثلثة المرتبة على هيئة دائرة فى الحزم الوعائية (شكل ١١) وما هذا التنظيم الجميل ؟ .
(٩) ثم ماهذا الخشب (شكل ١٥) الذى ينقل العصارة من الجذور إلى الأوراق وغيرها ، إذن هو فى النبات قائم مقام القطار فى سكة الحديد ، أوالمراكب الشراعية لنقل الميره .
(١٠) ثم ماهذه الغرابيل (شكل ١٤) التى تنقل ما تمّ نضجه فى الأوراق كالمادّة السكرية ونحوها إلى أجزاء النباتات الأخرى ، فهذه الغرابيل أشبه بالخدم يقدّمون الطعام إلى ساداتهم .
(١١) ثم ماهذه الألياف ؟ وماهذا المسمى [الكمبيوم] الذى يتحوّل تارة إلى لحاء وتارة إلى خشب (شكل ١٥) فيزداد الساق غلظا ، إذن هوأشبه بمقوّم لما نرفع عليه بيوتنا ، فهو مقوّ للساق ، والساق يرتفع عليه البنيان .
(١٢) ثم ماهذه الحلقات السنوية (شكل ١٩) و (شكل ٢٠) .
(١٣) ثم ماهذه الخلايا التى جعلت مخازن لنحو السكروالنشاء والزيت .
(١٤) عناية جليلة وأمر بديع ، وهنا نسائل أنفسنا : ماهذه الأعمال كلها ، وماهذه البدائع ، أعراس والله وأفراح ، وزينة منصوبة ، جلّ الله الذى غشى على عقولنا فلم نعرف هذه الزينة البديعة ، شمس تضىء ونورها يمتدّ على الأرض ، وبه حياة النبات ، ولكن النبات اذا أحسّ بشدّة ضوئها ظهرله شعركشعرالانسان ، وذلك الشعر يحميه من شدّة ضوئها كمايساعد البشرة فى حفظ الماء فى داخل النبات من البخر .

هذه أعمال عجيبة وجميلة ، لم كانت هذه كلها ، إنما كانت لأجل حياتنا نحن فى الأرض ، ربع مليون من أنواع النبات ، وكلها ذات أفراح وأعراس وجمال وبهجة ، وكلها لأجلنا نحن ، ثم اننا نرى فى أنفسنا من العجائب والبدائع أضعاف مارأينا فى النبات ، والا فما هذه القرنية فى العين [انظر هذا المقام مفصلا فى سورة آل عمران وفيما تقدّم فى هذه السورة قريبا فهى أكثر تفصيلا : تلك القرنية الشفافة ، ومن تحتها العنكبوتية والقزحية ، وانسان العين فى وسطها ، ثم ماهذه البلورية ، وهى المسماة أيضا عدسية وجليدية أيضا ، ثم ماهذه الرطوبة البيضية فى أوّل العين ، والرطوبة الزجاجية التى بعدالعدسية ، ثم ماهذه الشبكية والمشيمية والصلبة ، تلك الطبقات والرطوبات المنتظمات اللاتى أدهشن العلماء بنظامهنّ الدقيق ، واذا كنا نرى النبات قد حفظت الشعرات النابتات على البشرة ما فيه من ماء ، ومنعت عنه مايزيد من الضوء ، وهكذا نرى فى البشرة ثغورا مدخلات فى النبات الهواء ، فهكذا رأينا أهداب العين حفظتها من دخول الغبار وان أباحت دخول الضوء ، وساعد على ذلك شعر الحواجب .

سبحانك اللهم و بحمدك ، أنت القدّوس ، تقدّست أن تفعل بلا حكمة ، صنعت هذه النباتات كلها ، وجعلتها

وجعلتها قوادم لنا ، وأودعت فينا حكما لا حدّ لها كلها للمحافظة على حياتنا ، إذن حياتنا أمر عظيم ، وكيف لا يكون عظيما ، وهذه العين كما سبق قد كملت أوصاف وضعها ، وقد رأيت بالرسم أن الشبكية مع أنها لا يزيد ثخنها عن الورقة مقسمة عشر طبقات ، وفي آخرهن اسطوانات ومخروطات تعدّ بالملايين كلهن جعلن لأجل ابصارنا ، هذا كله لحياتنا نحن .

الله أكبر : حياتنا لا قيمة لها والله إلا بأن نعلم هذه العجائب ، وهذه هي التبصرة المذكورة في الآية ، فبدراسة هذه العجائب تقوى عقولنا وتكون لنا بصائر ، وتمرّن على النظام والحكمة ، وتتسع قوانا وتنفع أممنا ، هذه هي التبصرة ، ولهذا المعنى نجد هذه العلوم تدرس اليوم في أوروبا وأمريكا واليابان ، لماذا ؟ لتعطيهم التبصرة فلذلك ارتقوا في الحياة ، إن الانسان عند مشاهدة هذه الحكم يكون مطلعا على أعمال معلم المعلمين والمدرّسين في الأرض ، بل الانسان إذ ذاك يشهد الملكوت بنفسه .

رجال أوروبا وقوّاد شعوب أمريكا كلهم يدرسون أمثال هذا بهيئة أوسع ، وهذا عين قوله تعالى : « تبصرة » والانسان بدون تبصرة لا قيمة لحياته . ذلك أن هذه النباتات ونحوها الموزعات على الأرض لم تخلق لأجل الطعام واللباس والدواء فحسب ، وإنما هذه المذكورات مغريات بالدراسة ، والدراسة توسع العقول وهو المقصود ، وهذا معنى التبصرة ، فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه العلوم جميعها في المدارس الثانوية كما تدرس في جميع الأمم حولنا لنفهم قوله تعالى : « تبصرة » . فأفّ لمن مات وهو بهذه العجائب جهول ، وأفّ لأمم الاسلام بعدنا اذا هم أهملوا ما ذكرناه . وأقول وأنا واثق مما أقول : ان أمم الاسلام بعدنا خير أمة أخرجت للناس ، وسيكون رقيّ الانسانية على يديهم ، وهذا الكتاب من مقدّمات نهضتهم ، والله هو الوليّ الحميد .

المقالة الثالثة في قوله تعالى : وذكرى لكل عبد منيب

عرفنا اجمال علم النبات ، وعرفنا كيف كان تبصرة فلم يبق إلا أن نفهم معنى الذكرى ، درسنا النبات ، وعرفنا عجائبه ، وازدادت بصائرنا فصارت عقولنا راجحة لأنها مرنت على ما رأته من الحكمة ، فهي لا محالة تكون حكيمة في أقوالها وأفعالها ، ولكن نفوسنا الشريفة العالية بعد هذا كله تقول : لكل مخلوق نتيجة وما نتيجتي أنا ؟ ، والاجابة على ذلك أن نتائج أرواحنا أنها تتذكر : أي تتذكر عالمها الذي أخرجت منه ، إن المادّة جميعها نقط ضوئية أصلها كهارب ، والكهارب نواتج من موجات في بحر الأثير ، وهذه الأضواء صارت موادّ نراها مختلفة الأشكال وهي غليظة ، ولكن أرواحنا أرق منها ، فهي جاءت من عوالم أرق ، فهذه الدروس تذكرها بعالمها ، وهو عالم الجمال والحكمة .

ايضاح هذا المقام

اللهم إنك أنت الملهم المعلم خلقتنا وخلقت فينا برحمتك آلاما تسوقنا إلى الغذاء والكساء والدواء ، ثم خلقت حولنا ٢٥٠ ألف نبات وأبدعتها ، وقلت لنا : « هاؤم اقرءوا كتابيه » فقرأناه فوجدنا عجبا ! وجدنا أننا نعمل لازالة هذه الآلام ، وفي أثناء ذلك نجد عندنا أمرا عجيبا ! وهي لذات نحسّ بها في نفوسنا من الدراسة ، وهذه اللذات نوع آخر شريف نحسّ به عقولنا كما نحسّ بالطعام معدتنا ، نرى الناس ما داموا أحياء لا يسعدون إلا بصور تدخل عقولهم فتفرحهم ، وهكذا جميع المدارس والديانات والعلوم الرياضية والطبيعية والروايات والشعر والنثر ، ومحادثات الاخوان ، وقراءة الجرائد والأخبار ، ولن نرى أحدا في الأرض يشبع من دخول الصور عقله كل لحظة ، لأن التفكر لا يقف لحظة ، ولا معنى للفكر إلا بصور ذهنية ، وكما تنوّع

النبات فكان منه مايمتد على الأرض ، ومنه مايوضع فوق عروش ، ومنه شجر ، ومنه نجم : أى لاساق له وهو أنواع شتى ، وكل منها له غرض فى حياتنا ، هكذا الصور الذهنيـة ، فالسمع أعدّ لمدارس العالم كلها وللروايات والمحادثات ، والبصر أعدّ لصور العوالم كلها ، وأمامه كل نبات ، وكل حيوان ، وبحر وبرّ ، فهذه كلها ترسل صورها والبصر يتقبلها ويرسلها للنفس فتغتذى بها ، النفس لاتفتأ تقبل كل صورة أرضية وسماوية من منظار العين ، وكل صورة مصدرها منطق اللسان وحركات الهواء والأمواج والموسيقى ، وتقبـل الروائح من الأنف وأنواع اللذات من حاسة اللمس والذوق ، إذن هنا صور لاحدّ لها غذاء لأرواحنا ونحن لانعلم أنها غذاء لنا ، أولا لأنها كثيرة جـدا فغفلنا عنها كما غفلنا عن الهواء المحيط بنا ومنفعته ، وثانيا لأنها لايصحب غيبتها آلام كآلام الجوع والعطش بغيبة الطعام والشراب بل يكون الشوق بدل الألم ولاحياة للانسان بدونها بل هى ملازمة له ماد ام حيا ، إذن الناس يظنون خطأ أن غذاءهم الوحيد إنما هو الطعام ، وفاتهم أن عقولهم تتوارد عليها الصور دائما ، فغذاؤها دائم لامقطوع ولاممنوع ماداموا فى الحياة وهو ألزم لهم من الطعام ، وهذه الحال أشبه بضرب مثل للذات الناس فى عالم الأرواح ، لأن الروح لاغذاء لها أفضـل من العلم والحـكمة اذا كانت من الأشراف العظماء ، غاية الأمر أن الصور هناك لاسخافة فيها كسخافة الصور العقلية لذوى النفوس الضعيفة فى الأرض فهم يشمتون بالأعداء فيظنون أنهـم سعداء بهذه الشماتة وهم غافلون ، فهذا غذاؤهم كما تتغذى الفيران والحشرات بالقاذورات .

أما الأرواح الشريفة العالية بعد الموت فانها تتوارد عليها صور جليلة علمية ، وهذا الذى نراه فى عجائب العين نوع منها ، فهذه كما أنها غذاء لعقول شريفة هنا هكذا تـكون تغذيتها أعظم للروح اذا خلصت من الجسم ويشير إليه ماورد فى الأخبار أنهم يلهمون التسبيح كما نلهم نحن النفس ، وماهو التسبيح ؟ هو التنزيه والله منزه عن النقص فى أفعاله فتـكون أفعاله كاملة ، وهذا هو الكمال والحـكمة ، هذا الذى تقدّم فى النبات ونحوه نموذج لحـكمة الله تعالى ، وهذه الحـكمة هى التى بها تنزه الله عن النقص فى فعـله ، وهذه اللذة العلمية يحسّ بها الناس الآن فى الدنيا ، بل يرونها أعظم اللذات ، فهى هى حقائق التسبيح ، فالتسبيح اللفظى عنوان عليه والا فلامعنى لحقيقة التسبيح إلا بأمثال ما ذكرناه والله يقول : « سبح لله مافى السموات ومافى الأرض » الخ ويقول : « يسبح لله مافى السموات والأرض » الخ .

التسبيح والتحميد والتكبير

جاء فى الحديث : « ان الجنـة طيبة التربة عذبة الماء وغراسها سبحان الله والحمد لله والله أكبر » وجاء فى القرآن : « وان من شىء إلا يسبح بحمده ولـكن لاتفقهون تسبيحهم » والمسلم يسبح فى كل ركوع وسجود ، ووراء الصلوات ، وقبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، وقبل النوم يسبح ويحمد ويكبر ٣٣ مرة بعد الصلاة ، فهذا التسبيح والتحميد والتـكبير غراس الجنة ، ونسمع علماءنا رحمهم الله يقولون : « إن كما يفعل تسبيح المخلوقات باللفظ ونحن لانسمع » ويقول آخرون . كلا . بل هو تسبيح بلسان الحال .

واعلم أن الناس ماداموا على شاطئ بحر المعرفة فانهم يختلفون كما يختلف الصيادون وهم على شاطئ نهر أو بركة فى كثرة الأسماك وقلتها بحسب استعداد كل منهم والعلامات التى يراها ، فاسمع الحقائق الواضحة ودع القشور ، هذا التفسير فيه من كل فاكهة من فواكه العلم زوجان ، فاعجب لما ذكرتك به آنفا كيف نرى هدب العين وشعرات الورق تمنع شدة الضوء عن العين وعن النبات ، وكيف تـكون مادة [الـكيوتين] حافظة للماء فى داخل النبات كما يحفظ لون القزحية الصور الداخلة فى العـين من التشويش كما رأيتـه مبرهنا

عليـه فى أوّل هذه السورة فى تفسير البسملة مع آية « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

وههنا حكمة ومعها آلاف الحكم مرّت وستمرّ فى هذا الكتاب ، ألست أيها الذكىّ تحسّ فى نفسك متى طاب الوقت ، وصفا الزمان ، وخلوت من المشاغل الشاغلة لك أنك أسعد من على الأرض لأنك كأنك فى حضرة الجمال والحكمة ، ألست ترى فى نفسك بهجة لم يحلم بها إلا أمثالك فى ذلك الجمال والحكمة ، وعلى ذلك تكون حياة الحكيم المعجب بهذا الجمال فى الدنيا حياة فوق كل حياة ، والناس فى الأرض جميعا تبع لهذه الطائفة الممتازة بصفاء البصيرة والحكمة ، إن العين وطبقاتها ، والنبات وعجائبه ، وكل نظام منظور ومسموع يحدّثنا حديثا حقا ويقول : أنتم شهدتم الحكمة ، وشهدتم النظام ، وهـذا الحديث الذى نشعر به هو سرّ التسبيح ، لأن العقل حالا يشهد شهادة عيان أن العالم فى غاية النظام ، وإذن منظمه حكيم ، وهذا النظام المحكم نتج عن نعم لا حدّ لها ، وهذا هو الحمد بعينه ، فالتسبيح والتحميد متلازمان ، وهذا هو السرّ فى قوله تعالى : « وسبح بحمد ربك » إذ لا معنى لتنزيه عن النقص إلا بالكمال ، فالله منزه عن النقص فى أفعاله ، وذلك بالحكمة فى النظام ، والحكمة فى النظام نجم عنها نعم كثيرة ، وهى التى تستوجب الحمد ، ومع هذا كله فهذه النعم وهذه الحكم كلها شىء يسير بالنسبة لصانع العالم ، فإذن يقال : الله أكبر : هذا هو السر فى طلب التسبيح والتحميد والتكبير فى كل آن فى الدين الاسلامى ، إذن هذه بذور بذرت فى بلاد الاسلام كما أن الله عزّ وجل أودع فى نباتات البرية وغيرها بذورا ، وأمر الرياح أن تحركها فجرت هنا وهناك ، ونبتت فى أماكن شتى لمنفعة كل حيوان ، ولكن رجال الطب الذين يعرفون قيمة هذه الحشائش أندر من الكبريت الأحمر ، ونظيرهم هنا فى التسبيح والتحميد رجال الحكمة الدارسون العلوم الذين سيكثرون بعد ظهور أمثال هذا التفسير ، ولكنهم قوام هذه الأمة ، وهم هم الذين عرفوا سرّ التسبيح والتحميد ، وهم الذين يفهمون سرّ الحديث الشريف : « وأن الجنة غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ويقولون ان الجنة للجهلاء وصغار العلماء تكون قريبة من الجنات الحسية ، وهؤلاء يكتفون بظواهر التسبيح وهو العبادة بتكرار اللفظ فى المناسبات المتقدّمة ، والعامة لهم درجات عند ربهم ونعمة وهم بها فرحون .

أما أكابر الأمة فهم هم الذين شهدوا هذا النظام ، وأصبحوا فى نعمة لا حدّ لها ، مبدؤها فى الدنيا و بعد الموت مباشرة يحسون بما لا حدّ له من النعيم لأن أرواحهم تفرّغت لما كانوا يعشقون فى الدنيا ، إذن التسبيح اللفظى فى الحقيقة أشبه بمقدّمة للتسبيح الحقيقى الذى يفقهه الحكماء فى الاسلام .

اعتراض على المؤلف وجوابه

فلما اطلع على هذا صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . قال : ماذا تقول فى الشيخ الدباغ ؟ فقلت : لقد نقلت عنه فى التفسير كثيرا ، وهو رجل مفتوح عليه فقال انه يخالفك فانه يقول انه كان فى بداية أن فتح عليه يستحم فى ماء فسمع أصواتا لا حصر لها تسبح الله ، فخرج يجرى من فوره ، وسمع أصوات الأحجار بلغات مختلفات ، وسمع حجرا منها له أصوات مختلفات فى التسبيح ، ثم بحث عنه فعرف أنه معجون من أحجار كثيرة .

فهذا دليل على أن تسبيح المخلوقات لفظى . فقلت : أوّلا نحن لا ندرى هل هـذا القول المنسوب له ورد عنه أم لا ؟ وان كان فى نفس الكتاب . ثانيا أنه سمع ذلك وهو فى أوّل أن فتح عليه ، وما هـذه الأصوات المختلفات بالتسبيح إلا كتسبيحنا نحن ، وما تسبيحنا إلا ألفاظ تدل على معان ، وامتلاء عقولنا بالمعانى المفصلة

هوالمطلوب كما أن تسبيح هذه العوالم يقصد منه ماوراءه وهوأنها تعرف هذه المعانى على التسليم بأنها تعقل ، وما تسبيح هذه المخلوقات أمام المفتوح عليهم إلا خوارق للعادات ، وخوارق العادات غير مقصودة لحكماء الأمم الاسلامية وعقلائها ، والقرآن صرّح بأنه لا مدار عليها ، فرجع الأمر إلى أن المسبحين بعد أن كانوا عددا معلوما وهم بنوآدم أصبحوا أعدادا لانهاية لها ، واذا كان تسبيح المسلمين العقلاء أنفسهم لاقيمة له إلا بمدلوله ومدلوله هى هـذه العلوم التى ندرس بعضها فى هذا التفسير ، فاذن التسبيح الحقيق لكل عاقل من ملك وانس وجنّ إنما هوماشرحنا بعضه فى هذا الكتاب ، إذن التسبيح اللفظى إنما هو نموذج والتسبيح الحقيق هوالمقصود ، فاذا سمعنا الله يقول : « سبح لله مافى السموات ومافى الأرض » واذا سمعناه يقول : « يسبح له مافى السموات والأرض وهوالعزيزالحكيم » عرفنا أن هذا هومعناه ، فأما عقلاء بنى آدم فان تسبيحهم اللفظى مقدمة لهذا التسبيح ؟ فليسبح المسلمون فى جميع الأوقات ، فهذا عبادة فى حدّ ذاته ، وأكابرهم يصلون للحقائق وينفعون بها اخوانهم فى الدنيا والدين ، كما أن نبات الأرض غذاء لكل حيوان ، وبنوآدم له زارعون ، وعلماء النبات فى نوع الانسان كحكماء الاسلام فى أمة الاسلام .

فقال صاحبي : هذا حسن ولكن أليس الكلام على التسبيح والتحميد كان الأليق به آخر ﴿ سورة الطور ﴾ عندقوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم » الآية ، أوأوّل ﴿ سورة الحديد ﴾ : « سبح لله الخ » فقلت نعم ان هذه المعانى كلها خطرت لى وأنا أشاهد المزارع خارج القاهرة وكانت مقرونة بهاتين الآيتين اللتين ذكرتهما ، ولكنى بعد ذلك حين قدّمت هذه السورة للطبعة وجدت أن الآية فى هذه السورة يعوزها الكلام على النبات ، ووجدت المناسبة تامّة فجعلتها فى هذا المقام لهذه المناسبة . فقال : وهنا سؤال آخر ، وهو : هل آية « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » يعوزها هذا كله ؟ قلت نعم وأكثر منه . فقال : ولكن المتقدّمون لم يطيلوا فى مثل هذا كما أطلت أنت . فقلت : قد أطالوا أكثر مما أطلت أنا . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن آباءنا كانوا يحكمون الأمم فاحتاجوا إلى العلوم التى بها يضبطون تلك الأمم فكان علم الفقه إذ نبغ أمثال امامنا الشافعى وأبى حنيفة ومالك وابن حنبل وزيد وأئمة الشيعة رضى الله عنهم أجمعين فعلموا ملوكهم ، وأقاموا الدين بالقسط ، ولم يدعوا العامّة يتخبطون فى ديجور الظلام ، بل سهلوا لهم أحكام الأفراد من صلاة وصوم وغيرها ، فهم رحمهم الله أفادوا وأجادوا فيما يحفظ كيان دولهم ، ويحفظ العبادات ، ونحن جئنا فى زمان وجدنا الأمم الاسلامية كثيرة ، والأحكام مدوّنة ، والعلماء كثيرون والحمد لله ، ووجدنا الأمم فى الأرض قد ارتقت مداركها ودرست هذه العلوم ، ووجدنا القرآن اهتمّ بها اهتماما عظيما ، فرأيت بل أيقنت أننى يجب علىّ أن أؤلف لهذه الأمم الاسلامية أعظم علوم الاسلام لكى نترك لعظماء الاسلام بعدنا الطريق ممهدة ، ليربوا هذا الشعب المسكين التربية التى لم تكن لتحدث فى الزمان الماضى لأن الأمم لم تكن مستعدّة لها ، والقرآن جاءنا بأمرين اثنين : أوّلهما نظام الأمم وحكمها وتهذيبها ، وثانيهما تربية العقول تربية راقية علمية حكمية ، ولما كانت الفرس والروم أيام النبوّة قد اختلت دولهم ، وورث المسلمون أرضهم وديارهم ، ونساءهم وأموالهم ألهم علماءهم وأئمتهم أن يعينوا ملوكهم بتلك الأحكام ، ويعينون المحكومين بما يجب عليهم فى أحوالهم الخاصة فنفعوا عباد الله ، ثم دالت دولهم ، وأصبحنا اليوم نرى أمما وأمما وعلوما وعلما ، فلنفعل نحن فى هذه العلوم لتربية الأفراد والأمم مافعله آباؤنا فى تلك الأحكام ﴿ وبعبارة أصرح ﴾ اذا رأينا آيات الطلاق المعدودات ، وآيات الدين وغيرها تؤلف لها كتب تعدّ بالآلاف عند الطوائف المختلفة ، وذلك كان واجبا فى ذلك الزمان ، فهكذا نحن فى زماننا نفعل ما فعله آباؤنا فى زماننا بعد أن أتموا ماعليهم ، واذا سمعنا الشافعى رضى الله عنه يستخرج من آية : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » نحو ربع الأحكام الشرعية وهو القياس ،

و يقول

ويقول انها توجب علينا القياس ، واذا رأينا آية الوضوء تستنفد جهد العلماء فى التأليف وتشغلهم شغلا عظيما فأولى ثم أولى منها آية « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .
إن الوضوء شرط للصلاة ، والصلاة للتسبيح والتحميد ، والتسبيح والتحميد نتيجتهما هذه المعارف ، والعلوم والمعارف هى المخبوءات فى نحو هذه الآية ، وأنا واثق جدّ واثق ، بل كأنى أشاهد أمامى أمم الاسلام فى أقرب زمن وفيما بعد إلى ماشاء الله ، وهم يدرسون كل علم ، ويرون أن ماكتبه الآن ان هو إلا مذكرات لمايدرسون ، ومقدمات لما يعلمون ، ونور لماهم به مستبصرون ، والله من ورائهم محيط . والله بكل شيء عليم ، وفوق كل ذى علم عليم ، والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الثلاثاء ٦ اكتوبر سنة ١٩٣١ م

جمال العلم وبهجة الحكمة

ها نحن أولاء درسنا أعيننا وعجائبها ، والسماء وسعتها وكواكبها ، فاذا كانت أعيننا لاحدّ لعجائبها ، وهى مركبة فى أجسامنا المشتقة من أرضنا فكيف تكون عجائب أرضنا ؟ هى بالأولى لاحدّ لها ، ونذكر منها قلا من جلّ بعد ما كتبناه فيما سبق فى هذا التفسير مثل ما جاء فى تفسير قوله تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب » وغيرها ، فنشرح وادى الموت وغور الشيطان والجليد الخ :

(١) أما وادى الموت فهو فى الجنوب الشرقى من أمريكا ، ومادخله أحد إلا مات لشدّة حرارته ، فلا يعيش فيه نبات ولا حيوان ، ولكن فيه كنوز عجيبة ، وماهى هذه الكنوز ؟ هى [البورق] وقد كشفه رجل اسمه [هارون ونترس] كان يسكن بعيدا عن ذلك الوادى بمئات الأميال ، فذكر له رجل أنه اذا مزج البورق بمادّة كماوية معلومة اشتعل بلهب أزرق ، فتذ كراسبا أبيض فى طرف ذلك الوادى ، فسار هو وزوجته ٢٠٠ ميل ، وابتاعا بعض ذلك من الأمريكيين الحر ، وامتحن ذلك الراسب الأبيض ، فوجد لهبه أزرق ، فطار فرحا ، وباع هذا الكشف بخمسة آلاف جنيه ، ولقد وجدوا فى ذلك الوادى مناجم كثيرة للبورق ، ولكن الصعوبة فى نقله ، لأنه يميت من يدخله ، وقد مدّوا لوادى الموت سكة حديدية ، وأنشئت قرية للعمال فى نفس الوادى ، وفيها بناء طوله ٨١٦ قدما ولهم فيه ٢٠٠ غرفة للنوم ، فيه جميع مايلزم للراحة ، وغرفة للمائدة تسع ٢٠٠ نفس ، والآجر الذى بنى به ذلك البناء قليل التوصيل للحرارة ، واذا كانت درجة الحرارة فى الظل هناك تبلغ ١٢٠ درجة فهى فى غرف النوم لم تزد عن ٨٩ درجة ، لأنهم يبرّدون هواء البناء بجعله يمرّ فى رشاش الماء ، ويستخرجون من ذلك الوادى كل سنة ١٢٠ ألف طن من البورق ، وهى تساوى نصف مليون جنيه ، واذا بيعت فى بلاد الانجليز فانها تساوى ستة ملايين وستمائة ألف جنيه ، هذا ماجاء فى كتاب العلم والعمران ، وهل لك أيها الأخ الذكىّ أن تتذكر ماتقدّم فى ﴿سورة ابراهيم﴾ إذ ذكرت لك هناك «البحر الميت» وأن ثروته أكبر من ثروة جميع المسلمين الآن فى الأرض ، وقد جهلها المسلمون وعرفها الفرنجة وهم يستخرجونها ، وهاهو ذا وادى الموت الذى لايصلح للحياة ظهر أنه كنز عظيم ، وهذا هو قوله تعالى : «والأرض فرشناها فنعم الماهدون» وقوله تعالى هنا «والأرض مددناها الخ» نعم الله ممدوح على تمهيد هذه الأرض ، فالمعادن الجيلة النافعة يجعل استخراجها صعبا ، والمزارع يجعلها فى غاية السهولة ، وما أشبه إدراك الحقائق التى يجهلها أكثر الناس إلا بالبحر الميت فى فلسطين ووادى الموت فى أمريكا ، كلاهما يعرفه الناس فى حال جهالتهم ولكنهم ينظرون إليه بالسخرية والاستهزاء ، فاذا جاء أهل العلم استخرجوا مايشاءون من الكنوز ،

هكذا أعيننا وأجسامنا والكواكب حولنا ، يراها العالم والجاهل على حدّ سواء ، فالجاهل يحقر البحث فى هذه العجائب والعالم هوالذى يعرف قيمتها ويصرف نفيس عمره فى المعرفة كما تجشمت انكلترا مشاق الحرب فى الحرب العظمى ، وبلغت مآربها فى البحر الميت ، وكما صرفت الشركة الأمريكية آلاف آلاف الجنيهات فى استخراج كنوز وادى الموت وهوالبورق الكثير هناك .

أيها الذكى : اصرف عمرك كله فى استخراج حقائق العوالم فأنت سعيد بذلك الاستخراج وقوم بعدك سيقلدونك فى ذلك ، وآخرون يستخرجون منافع الأرض كالتى فى وادى الموت والتى فى البحر الميت ، فهذه كنوز أقلّ من كنوز العلم ، ونفس مانكتبه الآن وأمثاله كما يحث الناس على الأعلى يحثهم على الأدنى ، ولكل من الناس درجة فى عمله والله هوالولىّ الحميد .

(٢) [غورالشيطان] : أما غورالشيطان فهو غور فى أرض صخرية بولاية [اريزونا] من ولايات أمريكا حيث الارتفاع (٦٠٠٠) قدم عن سطح البحر وهوكبير مستدير ، قطره نحو ١٣٠٠ متر وعمقه ١٧٥ مترا ، وهذا الغور انما حصل بسبب جرم سماوى مزّق ما وقع عليه من الطبقات الصخرية وأحدث هذا العمق الواسع ، وكانت سرعته تزيد على سرعة رصاص البنادق ٥٠ ضعفا ، فكسر الصخورالصلبة وسحق الهشة ، فانتثرت الكسر والسحيق حول الغور فى أرض مساحتها ٧٥ ميلا مربعا ، ولقد زحزح طبقات الصخور المجاورة فارتفعت من جهة وانخفضت من جهة أخرى ، وحول هذا الغور حجارة نيزكية ومغناطيسية ، وكلها فيها الحديد والنيكل والبلاتين والاريديوم ونحوها من المعادن الثمينة ، ولقد تألفت شركة منذ عشرين سنة لحفر بئر يصل إلى الجسم النيزكى الذى أحدث هذا الغور ، وقد صرفت الشركة أكثر من مائة ألف جنيه ، وأوصلت البئر إلى ١٤٠٠ قدما ، وهناك أصابت جسما أشدّ صلابة من الفولاذ ، لاتفعل فيه القنابل وترتدّ عنه ارتداد الحصى عن الصخر ، وهذا الجسم العجيب النيزكى الذى ترى هذه الشركة أنه كنز عظيم ، يقدّر قطره بنحو ٣٠٠ قدم ، ويقدّر ثقله بمليون طن ، وبعضهم يجعل قطره أربعة أمثال ماذكر ، ولما أصاب الأرض وغار فيها أخرج منها ماثقله أكثر من ٣٠٠ مليون طن وبعثرها حوله

(٣) الكلام على الجليد والفحم القطبى : إن العصرالجليدى الأخيرالذى أصاب الجانب الشمالى الغربى من أوروبا : أعنى ارلندا واسكتلندا وأسوج ونروج والبلطيك ، كان قبل التاريخ بين ٣٠ ألف سنة و ١٨ ألف سنة ، ودام الى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، إن القطب الجنوبى قد كشفت فيه طبقات فحمية سمكها كلها ١٥٠٠ قدم على الأقل ، ومن حيث العرض ٨٥ درجة على بعد ٥ درجات من القطب الجنوبى ، وبعض هذه الطبقات رقيق جدا ، ووجدت آثار الجذور فى الطين الذى وجد مع الفحم الحجرى ، وذلك دليل قاطع على أن تلك الأصقاع كانت حارّة وكانت الأشجار تغطيها عصورا متطاولة ، وذلك على مقتضى انتقال القطبين ، انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة فى آية : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى » الخ والحمد لله رب العالمين .

ههنا ثلاث جواهر

الجوهرة الأولى فى بهجة العلم فى قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .

الجوهرة الثانية فى قوله تعالى : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

الجوهرة الأولى

بهجة العلم فى قوله تعالى : وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

سيأتى فى ﴿سورة الذاريات﴾ الكلام على الذكور والأناث من النبات ، وأن علماء النبات حاروا فى تقسيمه ، فإن قسموه بواسطة مايرون من شجرات وشجيرات وأنجم ، وهى الزروع المعروفة التى لاساق لها فان ذلك التقسيم لايفيد وكيف يفيد إلا بتحديد الاقسام تحديدا تاما ، وان قسموه بواسطة أنه نبات سنوى وغير سنوى كما سيأتى ، فهذا غير كاف ، لأن البرسيم مثلا وحده بعضه سنوى و بعضه غير سنوى ، فاذن قد التجأوا أخيرا إلى دراسة الزهرة والحب والفاكهة فانتظمت الأقسام حينئذ ، ورأوا أيضا أن من الأزهار ما يكون ذكرانها على شجرة و إناثها على شجرة أخرى كما سيأتى إيضاحه هناك ، وذلك كشجر النخل ، فاذا كان بين النخلة والاخرى مسافة بعيدة ، فان الهواء يحمل الطلع من الذكر إلى الأنثى ، والانسان لاعلم له بهذا « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

حكاية

جاء فى كتاب [الآيات البينات ، فى علم النبات] للاستاذ أحمد أفندى قدرى مانصه : « إن التلقيح فى النباتات ذات المسكنين يمكن حصوله من بعد عظيم ، وهناك عدة أمثلة نافعة لبيان هذه الظاهرة فكان منذ زمن طويل يستنبت شجرتان من الفستق الأنثى ، وكانت كل شجرة منهما تحمل كل سنة أزهارا ولايتحصل منهما ثمار أصلا ، فتعجب المعلم [جوسيو] لما رأى أن هاتين الشجرتين قد انعقدت ثمارهما ونضجت على ماينبغى فى سنة من السنين ، ومن ذلك الوقت خطر بباله أنه لابدّ أن يكون ببار يز أوفى أكنافها شجرة فستق ذكر حاملة لأزهار ، فشرع فى البحث عن ذلك ، فعرف أن شجرة فستق ذكر أزهرت أوّل مرّة فى جنينة تربية النباتات الكائنة بقرب [لوكسامبور] فأتى الطلع المحمول بالهواء من فوق أبنية جزء من باريز ولقح نبات الاناث ، وهناك نبات يسمى [السنيريا سپرالس] أى الحلزونى الذى هو نبات ذومسكنين (من الفصيلة البشنينية) ينبت بمقدار عظيم فى الترع وفى القنوات ، ففى هذا النبات ظاهرة عجيبة جدا فى زمن تلقيحه ، وهى أن يكون النبات موضوعا فى قاع الماء أى قاطنا فيه تماما ، وذكوره وإناثه تنبت مخالطا بعضها ببعض ، فالأزهار الاناث المحمولة على ذنيبات زهرية طولها قدمان أوثلاثة تقريبا ، وملتفة على هيئة حلزون تأتى على سطح الماء لكى تبتسم ، وأما الأزهار الذكور فكل جملة منها تكون موضوعة فى لفافة غشائية وهى محمولة على ذنيب زهرى قصير جدا ، فاذا أتى زمن التلقيح تنفتح وتمزق اللفافة القرطاسية ، وتنفصل من حاملها الزهرى العام ، وتأتى على سطح الماء فتبتسم وتلقح الأزهار الاناث ، و بعد زمن يسير تنزل هذه الأزهار الاناث تحت الماء ، ثانيا بالتفاف الذنيبات الزهرية الحلزونية التى تحملها ، وفيه تصل ثمارها إلى نضجها التام » انتهى

أقول : وهذا من أعجب العجب ! ان هاتين العجيبتين تفتح لنا أبواب علوم كثيرة ، كيف لا وهذه شجرة الفستق كانت لاتثمر وهى أنثى ، ولكن لما ظهرت شجرة فستق ذكر جاء لها الطلع منها فأثمرت ، إن هذه الدنيا جميلة وبديعة ، أليس هذا من أعجب الابداع ، يلقح النبات من نبات آخر والناس لايعلمون ، وكيف يكون البشنين نابتا فى برك بلادنا ونحن ننظر إليه نظرة جاهلة لأنه ينبت فى البرك ولكنا نراه يضحك وهيئة أزهاره جميلة ، وهل كان يدور بخلدنا ونحن نلهو ونلعب فى حال طفولتنا أن هذه الزهرة الضاحكة المستبشرة هى الأنثى ، وأن الذكران قد انتبذوا مكانا قصيا فى قاع البركة ، وانهم وقت الالقاح هم بدورهم سيخرجون

من أجدائهم سراعا وهم فرحون مستبشرون ، فيجدون هؤلاء العانسات واقفات منتظرات قدومهم فيحصل الالقاح في أمن وأمان ، ولم يبق لهؤلاء الذكران من فائدة ، أما الاناث فانهن ينزلن إلى قاع البركة ، وهناك يتم نمو الثمرات « فتبارك الله أحسن الخالقين » . « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » فلنتذكر في أمر السياسة ونقول :

إن الله الذي خلق النبات هو نفسه الذي خلق الأمم ، ولقد يخيل لي الآن أن في الشرق عقولا وتلك العقول كانت مغطاة في قاع بركة هذه الدنيا كما ان ذكران البشنين كانت ملتفة بأغشية في قاع بركة الماء وهاهوذا اليوم أقبل الزمان الذي فيه تظهر تلك العقول من أغشيتها وتاتي على العالم دروسا كما ظهرت ذكور البشنين في وقت الالقاح وفعلت ما خلقت له وتم الالقاح .

إن للشرق لصولة فوق صولة الغرب ، ومن هذه العجائب نفهم قوله تعالى : « لكل أجل كتاب » ، وقوله : « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير » . وقوله : « وكل شيء عنده بمقدار » .

واذا كان لقاح البشنين بمقدار فهكذا لقاح عقول الشرقيين له زمان لا بد منه ، وهل اللقاح غير التعليم ؟ الله أكبر ان من أنواع اللقاح في الشرق الكتب والجرائد المنتشرة اليوم ومنها هذا التفسير ، إن لقاح العقول الشرقية اليوم حاصل ، والشرق يغلي كما تغلي القدور : « وربك يخلق ما يشاء ويختار وهو اللطيف الخبير » انتهى يوم الأربعاء أول يونيو سنة ١٩٣٢ م

الجوهرة الثانية

في قوله تعالى : تبصرة وذكرى لكل عبد منيب

رباه : جل فعلك ، وحسن قولك ، كم تتفيأ ظلال الأشجار ، ونجلس في الحقول ، ونأكل من الفاكهة والحب مالذ وطاب ، نعيش ونموت ونحن غافلون عن الجمال ، وعن الحكمة ، وعن عجائب الابداع ، كم من ورق تحيط به أوبار ونحن ننظرها ولاندري ماحكمتها ، تشرق الشمس وتغرب ، ويطلع القمر ويأفل ، ونحن نشاهد تلك الأوراق الكاسيات بتلك الأوبار ، ولاندري لماذا كانت هذه الأوبار والأشعار ، نظرت في كتاب [جمال الطبيعة] للورد أفبري صفحة ١٠٩ فألفيته شرح هذا الموضوع شرحا واضحا ، فاستبان به أن الوبر أعدته العناية الإلهية ، إما ليقي النبات من شر هاجم من خارج النبات ، واما ليكون حافظا لما في النبات من قوة حيوية بها بقاؤه ونظام حياته ، فأما أول الأمرين فذلك :

(١) ان من النبات ما تعترضه الحيوانات السائمة فتقطع عليه حياته فيكون ذلك الوبر وقاية له .

(٢) ومنه ماتهاجمه الحشرات فيكون ذلك الوبر حصنا حصينا .

(٣) ومنه ماتحيط به الرطوبة فتكاد تهلكه لولا ذلك الوبر الكاسي للاوراق .

(٤) ومنه ماتلح عليه حرارة الشمس فيكون ظل تلك الأوبار حافظا النبات من البوار كما يحفظ جسم الانسان من الحر بالملابس : « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون »

ولو علم المسلم أن نعمة الملابس ليست خاصة به ، بل هناك ملابس تحفظ النبات من الهلاك ليكون نعمة له أيضا ومتاعا لخر صعقا ولدهش من تلك العناية التي تحير الألباب . هذا هو الأمر الأول .

أما الأمر الثاني فذلك أن من النبات ماينبت في الصحراء فتلح عليه الشمس فيتطاير منه البخار ، فما الذي يحفظ حياة النبات إذن اذا خرج بالحاح الشمس بقية الرطوبة في ذلك النبات ؟ أعد الله تلك الأنابيب

الشعرية

الشعرية الوبرية ، فهى المانعات من ذلك البخر فيعيش ذلك النبات . هذه نبذة من معنى قوله تعالى هنا « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .
أيها المسلمون : لاحياة إلا حياة العلماء ، والجاهلون جميعا موتى ، فليكن الانسان عالما أومتعلما أومستمعا أومحبا كما فى الحديث ، وليحذر أن يكون كارها للعلم فذلك من الأخسرين ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على الجوهرة الثانية .

الجوهرة الثالثة

فى قوله تعالى : مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

لقد تقدم الكلام على هذه الآية فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ وقد ذكرنا هناك عشرا من آفات اللسان من [إحياء علوم الدين] للغزالى رحمه الله ، وكذلك بعض غوائل الأعمال القلبية من كتابنا [جوهر التقوى] وأرجأنا بقية مافى الاحياء ومافى كتاب [جوهر التقوى] إلى هذا المقام هنا فى سورة ق فلنبدأ بالكلام على مافى الاحياء فنقول :

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهذا محرّم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ » ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالاشارة والايماء ، واذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة ، قالت عائشة رضى الله عنها : [(١)] حاكيت إنسانا فقال لى النبىّ ﷺ والله ما أحب أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا ، وقال ابن عباس فى قوله تعالى : « ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها » : ان الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك ، وهذا اشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر ، وعن عبدالله بن زمعة [(٢)] أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال علامَ يضحك أحدكم مما يفعل ، وقال ﷺ [(٣)] « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلمّ هلمّ فيجىء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم فيجىء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى ان الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلايأتيه » .
وقال معاذ بن جبل [(٤)] قال النبىّ ﷺ : « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » وكل هذا

---

(١) حديث عائشة : حكيت انسانا فقال لى النبى ﷺ مايسرّنى أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا أبوداود والترمذى وصححه .
(٢) حديث عبد الله بن زمعة : وعظهم فى الضحك من الضرطة وقال علامَ يضحك أحدكم ممايفعل متفق عليه .
(٣) حديث : ان المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلمّ هلمّ فيجىء بكربه وغمه فاذا جاء أغلق دونه . الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث الحسن مرسلا ورويناه فى ثمانيات النجيب من رواية أبى هدبة أحد الهالكين عن أنس .
(٤) حديث معاذ بن جبل : من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله ، الترمذى دون قوله قد

يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغارا له ، وعليه نبه قوله تعالى : « عسى أن يكونوا خيرا منهم » أى لا تستحقره استصغارا فلعله خير منك ، وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح ، وقد سبق ما يذم منه وما يمدح ، وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه اذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله اذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته اذا كان قصيرا ، أو ناقصا لعيب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهى عنها . انتهى الكلام على الآفة الحادية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهو منهى عنه لما فيه من الايذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء ، قال النبى ﷺ [1] اذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة ، وقال [2] مطلقا (كذا) الحديث بينكم أمانة ، وقال الحسن : ان من الخيانة أن تحدث بسر أخيك ، ويروى أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثا فقال لأبيه يا أبت ان أمير المؤمنين أسر إلى حديثا وما أراه يطوى عنك ما بسطه الى غيرك قال فلا تحدثنى به فان من كتم سره كان الخيار اليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه ، قال فقلت يا أبت وان هذا ليدخل بين الرجل و بين ابنه فقال لا والله يا بنى ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر ، قال فأتيت معاوية فأخبرته ، فقال يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ فافشاء السر خيانة ، وهو حرام اذا كان فيه اضرار ولؤم إن لم يكن فيه اضرار وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر فى كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الاعادة . انتهى الكلام على الآفة الثانية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فان اللسان سباق الى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا ، وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال ﷺ [3] « العدة عطية » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « الوأى مثل الدين أو أفضل » والوأى الوعد ، وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسماعيل عليه السلام فى كتابه العزيز فقال : « انه كان صادق الوعد » قيل انه وعد انسانا فى موضع فلم يرجع إليه ذلك الانسان بل نسى فبقى اسماعيل اثنين وعشرين يوما فى انتظاره ، ولما حضرت عبد الله بن عمر

تاب منه وقال حسن غريب وليس اسناده بمتصل قال الترمذى قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه .

(١) حديث : اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهى أمانة ، أبو داود والترمذى وحسنه من حديث جابر

(٢) حديث : الحديث بينكم أمانة ابن أبى الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا .

(٣) حديث : العدة عطية الطبرانى فى الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا .

(٤) حديث : الوأى مثل الدين أو أفضل ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية أبى طيعة مرسلا ، وقال : الوأى يعنى الوعد ، ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على بسند ضعيف .

الوفاة

الوفاة قال انه كان خطب الى ابنتى رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق أشهدكم أنى زوجته ابنتى [١] . وعن عبدالله بن أبى الخنساء قال : بايعت النبى ﷺ قبل أن يبعث و بقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد ، فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال يافتى لقدشققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك ، وقيل لابراهيم : الرجل يواعد الرجل الميعاد فلايجىء ؟ قال ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التى تجىء ، وكان رسول الله ﷺ [٢] اذا وعد وعدا قال عسى وكان ابن مسعود لايعد وعدا إلا و يقول ان شاء الله وهوالأولى ، ثم اذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد فلابد من الوفاء إلا أن يتعذر فان كان عند الوعد عازما على أن لا يفى فهذا هو النفاق ، وقال أبوهريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم [٣] « ثلاث من كن فيه فهومنافق وان صام وصلى وزعم أنه مسلم : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان » . وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « أربع من كن فيه كان منافقا ، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » وهـذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أوترك الوفاء من غير عذر ، فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وان جرى عليه ماهو صورة النفاق ، ولكن ينبغى أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته ، ولاينبغى أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] كان وعد أباالهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين و بقى واحد فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألاترى أثر الرحى بيدى فذكر موعده لأبى الهيثم فجعل يقول كيف بموعدى لأبى الهيثم ؟ فآثره به على فاطمة لما كان قد سبق بموعده له مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة [٦] ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس ، فقال : ان لى عندك موعدا يارسول الله قال صدقت فاحتكم ماشئت ، فقال أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها قال هى لك وقال احتكمت يسيرا ولصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه

---

(١) حديث عبد الله بن أبى الخنساء : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال يابنى قدشققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك ، رواه أبوداود ، واختلف فى اسناده ، وقال ابن مهدى : ماأظن ابراهيم بن طهمان إلاأخطأ فيه .

(٢) حديث : كان اذا وعد وعدا قال عسى ، لم أجد له أصلا .

(٣) حديث أبى هريرة : ثلاث من كن فيه فهومنافق الحديث وفيه اذا وعد أخلف متفق عليه وقد تقدم .

(٤) حديث عبد الله ابن عمرو : أربع من كن فيه كان منافقا الحديث متفق عليه

(٥) حديث : كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين و بقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه الحديث وفيه فجعل يقول كيف بموعدى لأبى الهيثم فآثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبى الهيثم فى آداب الأكل وهى عند الترمذى من حديث أبى هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة .

(٦) حديث : انه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال ان لى عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ماشئت الحديث ، وفيه لصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك الحديث ابن حبان والحاكم فى المستدرك من حديث أبى موسى مع اختلاف ، قال الحاكم صحيح الاسناد وفيه نظر .

السلام فقالت حكمى أن تردّنى شابة وأدخل معك الجنة ؛ قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلا فقيل أشح من صاحب الثمانين والراعى ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفى نيته أن يفى » وفى لفظ آخر : « اذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة عشرة ؛ والحمد لله رب العالمين .

الآفة الرابعة عشرة : الكذب فى القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب ، قال اسماعيل بن واسط : سمعت أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال [2] قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أوّل ثم بكى وقال : إياكم والكذب فانه مع الفجور وهما فى النار ، وقال أبوأمامة [3] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الكذب باب من أبواب النفاق » . وقال الحسن : « كان يقال : ان من النفاق اختلاف السرّ والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وأن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب » وقال عليه السلام [4] : « كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثا هولك به مصدّق وأنت له به كاذب » ، وقال ابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم [5] « لايزال العبد يكذب و يتحرّى الكذب حتى يكتب عندالله كذابا » [6] ومرّ رسول الله ﷺ برجلين يتبايعان شاة و يتحالفان يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا و يقول الآخر : والله لا أزيدك على كذا وكذا فمرّ بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة ، وقال عليه الصلاة و السلام [7] « الكذب ينقص الرزق » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث : ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفى ، وفى لفظ آخر : اذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلاإثم عليه ، أبوداود والترمذى وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثانى إلا أنهما قالا فلم يف .

(٢) حديث أبى بكر الصدّيق : قام فينا رسول الله ﷺ مقامى هذا عام أوّل ثم بكى وقال إياكم والكذب الحديث ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية اسماعيل بن أوسط عن أبى بكر ، وانما هوأوسط بن اسماعيل بن أوسط واسناده حسن .

(٣) حديث أبى أمامة : ان الكذب باب من أبواب النفاق ، ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجيهى ضعيف جدا ، و يغنى عنه قوله ﷺ : ثلاث من كنّ فيه فهومنافق وحديث أربع من كنّ فيه كان منافقا قال فى كل منهما واذا حدث كذب وهما فى الصحيحين وقد تقدما فى الآفة التى قبلها

(٤) حديث : كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثا هولك به مصدّق وأنت له كاذب ، البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبوداود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدى ورواه أحمد والطبرانى من حديث النواس بن سمعان بإسناد جيد

(٥) حديث ابن مسعود : لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، متفق عليه

(٦) حديث : مرّ برجلين يتبايعان شاة و يتحالفان الحديث وفيه فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة أبوالفتح الأزدى فى كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمى ، وهكذا رويناه فى أمالى ابن سمعون ، وناسخ ذكره البخارى هكذا فى التاريخ ، وقال أبوحاتم هوعبد الله بن ناسخ .

(٧) حديث : الكذب ينقص الرزق ، أبوالشيخ فى طبقات الأصبهانيين من حديث أبى هريرة ورويناه

«ان»

(١) « إن التجار هم الفجار فقيل يارسول الله أليس قد أحلّ الله البيع قال نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويحدثون فيكذبون . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « ثلاثة نفر لايكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر و والمسبل إزاره ، وقال ﷺ (٣) « ماحلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه إلى يوم القيامة » وقال أبوذرّ الغفارى (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يحبهم الله : رجل كان فى فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أوظعن ، ورجل كان معه قوم فى سفر أوسرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل ، وثلاثة يشنؤهم الله : التاجر ، أوالبياع الحلاف ، والفقير المختال ، والبخيل المنان . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » . وقال ﷺ (٦) رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيدالقائم كاوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فاذا مده رجع الآخر كما كان فقلت للذى أقامنى ماهذا ؟ فقال هذا رجل كذاب يعذب فى قبره إلى يوم القيامة ، وعن عبد الله بن جراد قال (٧) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله : هل يزنى المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قلت يانبيّ الله هل يكذب المؤمن ؟ قال لا ، ثم أتبعها ﷺ بقول الله تعالى : إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله ، وقال أبوسعيد الخدريّ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) يدعو فيقول فى دعائه : اللهم طهر قلبى من النفاق ،

كذلك فى مشيخة القاضى أبى بكر واسناده ضعيف .

(١) حديث : ان التجار هم الفجار الحديث ، وفيه ويحدثون فيكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد والبيهقى من حديث عبد الرحمن بن شبل .

(٢) حديث : ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمسبل إزاره ، مسلم من حديث أبى ذرّ .

(٣) حديث : ماحلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه الى يوم القيامة الترمذى والحاكم وصحح اسناده من حديث عبدالله بن أنيس .

(٤) حديث أبى ذر : ثلاثة يحبهم الله الحديث ، وفيه ثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أوالبائع الحلاف أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولايعرف حاله ورواه هو والنسائى بلفظ آخر باسناد جيد ، وللنسائى من حديث أبى هريرة أربعة يبغضهم الله : البياع الحلاف الحديث واسناده جيد .

(٥) حديث : ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له ، أبوداود والترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

(٦) حديث : رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كاوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس الحديث : البخارى من حديث سمرة بن جندب فى حديث : طويل .

(٧) حديث عبد الله بن جراد أنه سأل النبيّ ﷺ هل يزنى المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قال هل يكذب ؟ قال لا ، الحديث ابن عبد البرّ فى التمهيد بسند ضعيف ، ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصرا على الكذب ، وجعل السائل أباالدرداء .

(٨) حديث أبى سعيد : اللهم طهر قلبى من النفاق ، وفرجى من الزنا ، ولسانى من الكذب ، هكذا وقع

وفرجي من الزنا ، ولساني من الكذب . وقال صلى الله عليه وسلم [١] ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر . وقال عبد الله بن عامر [٢] جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبيّ صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : ياعبدالله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا ، فقال : أما انك لولم تفعلي لكتبت عليك كذبة . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] لو أفاء الله عليّ نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا ، وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا [٤] ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ثم قعد وقال ألا وقول الزور . وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] : « إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به . وقال أنس [٦] قال النبيّ ﷺ « تقبلوا إليّ بست أتقبل لكم بالجنة فقالوا وماهن ؟ قال اذا حدّث أحدكم فلا يكذب ، واذا وعد فلا يخلف ، واذا ائتمن فلا يخن ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم . وقال صلى الله عليه وسلم [٧] إن للشيطان كحلا ولعوقا ونشوقا : أما لعوقه فالكذب ، وأما نشوقه فالغضب ، وأما كحله فالنوم . وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال [٨] : قام فينا رسول الله ﷺ كقيامي هذا فيكم فقال : أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف و يشهد ولم يستشهد . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم [٩] « من حدّث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » . وقال صلى الله عليه وسلم

في نسخ الاحياء عن ابن سعيد ، وانما هو عن أم معبد ، كذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله وفرجي من الزنا ، وزاد : وعملي من الرياء ، وعيني من الخيانة ، واسناده ضعيف .

(١) حديث : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم الحديث وفيه : والامام الكذاب ، مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث عبدالله بن عامر جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبيّ صغير فذهبت لألعب فقالت أمي ياعبد الله تعال أعطيك ، فقال وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا ، فقال : ان لم تفعلي كتبت عليك كذبة ، رواه أبوداود ، وفيه من لم يسم ، وقال الحاكم : إن عبد الله بن عامر ولد في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه ، قلت : وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات إلا أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة .

(٣) حديث : لو أفاء الله عليّ نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا رواه مسلم وتقدم في أخلاق النبوّة .

(٤) حديث : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الحديث ، وفيه ألا وقول الزور متفق عليه من حديث أبي بكرة

(٥) حديث ابن عمر : ان العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به ، الترمذي وقال حسن غريب

(٦) حديث أنس : تقبلوا اليّ بست أتقبل لكم بالجنة اذا حدّث أحدكم فلا يكذب ، الحديث الحاكم في المستدرك والخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائي ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الاسناد

(٧) حديث : ان للشيطان كحلا ولعوقا الحديث الطبراني وابونعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٨) حديث : خطب عمر بالجابية الحديث وفيه ثم يفشو الكذب الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر

(٩) حديث : من حدّث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين ، مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب .

« من

(١) « من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عزوجل وهوعليه غضبان » . وروى عن النبي ﷺ (٢) أنه ردّ شهادة رجل فى كذبة كذبها وقال ﷺ (٣) « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب » . وقالت عائشة رضى الله عنها (٤) : ما كان من خلق أشدّ على أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلى من صدره حتى يعلم انه قد أحدث توبة لله عزّوجل منها . وقال موسى عليه السلام : يارب أىّ عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزنى فرجه . وقال لقمان لابنه : يابنىّ إياك والكذب فانه شهىّ كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . وقال عليه السلام فى مدح الصدق (٥) : أربع اذا كنّ فيك فلايضرّك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، وحفظ الأمانة ، وحسن الخلق ، وعفة طعمة . وقال أبو بكر رضى الله عنه (٦) فى خطبة بعد وفاة رسول الله ﷺ قام فينا رسول الله ﷺ مثل مقامى هذا عام أوّل ثم بكى وقال عليكم بالصدق فانه مع البرّ وهما فى الجنة . وقال معاذ قال لى ﷺ (٧) أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وبذل السلام ، وخفض الجناح .

[وأما الآثار] فقد قال علىّ رضى الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب ، وشرّ الندامة ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت علىّ إزارى . وقال عمر رضى الله عنه : أحبكم إلينا مالم نركم أحسنكم اسما ، فاذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقا ، فاذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبى شبيب قال : جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف ان أنا كتبته زينت الكتاب ، وكنت قد كذبت عزمت على تركه فعزمت من جانب البيت « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . وقال الشعبى : ما أدرى أيهما أبعد

---

(١) حديث : من حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : انه ردّ شهادة رجل فى كذبة كذبها ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلا ، وموسى روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل .

(٣) حديث : كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب ، ابن أبى شيبة فى المصنف من حديث أبى أمامة ورواه ابن عدى فى مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبى وقاص وابن عمر أيضا وأبى أمامة أيضا ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفا والموقوف أشبه بالصواب ، قاله الدارقطنى فى العلل .

(٤) حديث : ما كان من خلق الله شىء أشدّ عند أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينحل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبى مليكة أوغيره ، وقد رواه أبوالشيخ فى الطبقات فقال ابن أبى مليكة ولم يشك وهوصحيح .

(٥) حديث : أربع اذا كنّ فيك فلايضرك مافاتك من الدنيا : صدق الحديث ، الحديث الحاكم والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة .

(٦) حديث أبى بكر : عليكم بالصدق فانه مع البرّ وهما فى الجنة ، ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة ، وقد تقدّم بعضه فى أوّل هذا النوع .

(٧) حديث معاذ : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث أبونعيم فى الحلية وقد تقدّم .

غورا فى النار الكذاب أوالبخيل ؟ وقال ابن السماك : ما أرانى أوجر على ترك الكذب لأنى انما أدعه أنفة . وقيل لخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة ؟ قال نعم . وقال مالك بن دينار : قرأت فى بعض الكتب : مامن خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله ، فان كان صادقا صدق ، وان كان كاذبا قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان فى القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه . وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك فى شيء ، فقال له كذبت ، فقال عمر والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

بيان ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ماهو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه ، وربما كان واجبا . قال ميمون بن مهران : الكذب فى بعض المواطن خير من الصدق ، أرأيت لو أن رجلا سعى خلف انسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فانتهى اليك فقال أرأيت فلانا ؟ ما كنت قائلا ؟ ألست تقول لم أره وماتصدق به ، وهذا الكذب واجب .

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام وان أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ان كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب ان كان المقصود واجبا ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة ، فهما كان فى الصدق سفك دم امرىء مسلم قداختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ، ومهما كان لايتم مقصود الحرب أو اصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه إلا بكذب فالكذب مباح إلا أنه ينبغى أن يحترز منه ما أمكن ، لأنه اذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى مايستغنى عنه والى مالايقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما فى الأصل إلا لضرورة ، والذى يدل على الاستثناء ماروى عن أم كلثوم قالت [1] ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شيء من الكذب إلا فى ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الاصلاح ، والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها . وقالت أيضا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أونمى خيرا » . وقالت أسماء بنت يزيد [3] قال رسول الله ﷺ « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما » وروى عن أبى كاهل [4] قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبى ﷺ كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان ؟ فقد سمعته يحسن عليك الثناء ، ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلكت نفسى وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبى ﷺ فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس

(١) حديث أم كلثوم : ماسمعته يرخص فى شيء من الكذب إلا فى ثلاث ، مسلم وقدتقدم .

(٢) حديث أم كلثوم أيضا : ليس بكذاب من أصلح بين الناس ، الحديث متفق عليه وقد تقدم والذى قبله عند مسلم بعض هذا .

(٣) حديث أسماء بنت يزيد : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما أحمد بزيادة فيه ، وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه .

(٤) حديث أبى كاهل : وقع بين رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام الحديث وفيه : ياأبا كاهل أصلح بين الناس ، رواه الطبرانى ولم يصح .

أى

أى ولو بالـكذب . وقال عطاء بن يسار [١] قال رجل للنبيّ صـلى الله عليه وسلم : أكذب على أهلى ؟ قال لاخير فى الـكذب ، قال أعدها وأقول لها ؟ قال لاجناح عليك . وروى أن ابن أبى عذرة الدؤلى وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتى يتزوّج بهنّ ، فطارت له فى الناس من ذلك أحدوثة يكرهها فلما علم بذلك أخذ بيد عبدالله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته : أنشدك بالله هل تبغضينى ؟ قالت لاتنشدنى ، قال فإنى أنشدك الله ، قالت نعم ، فقال لابن الأرقم أتسمع ؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه ، فقال : إنكم لتحدّثون أنى أظلم النساء وأخلعهنّ فاسأل ابن الأرقم فسأله فأخبره فأرسل الى امرأة ابن أبى عذرة فجاءت هى وعمتها ، فقال : أنت التى تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؟ فقالت : إنى أوّل من تاب وراجع أمر الله تعالى انه ناشدنى فتحرجت أن أكذب أفأكذب يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم فاكذبى ، فان كانت إحداكنّ لاتحبّ أحدنا فلاتحدّثه بذلك ، فان أقلّ البيوت الذى يبنى على الحب ولـكن الناس يتعاشرون بالاسلام والأحساب وعن النواس [٢] بن سمعان الـكلابى قال قال رسول الله ﷺ « مالى أراكم تتهافتون فى الـكذب تهافت الفراش فى النار ، كل الـكذب يكتب على ابن آدم لامحالة إلا أن يكذب الرجل فى الحرب فان الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها » . وقال ثوبان « الـكذب كله إثم إلا مانفع به مسلما ، أودفع عنه ضررا » ، وقال علىّ رضى الله عنه : إذا حدّثتكم عن النبيّ صـلى الله عليه وسلم فلأن أخرّ من السماء أحبّ الىّ من أن أكذب عليـه ، واذا حدّثتكم فيما بينى و بينكم فالحرب خدعة » فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ماعداها اذا ارتبط به مقصود صحيح له أولغيره . أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم و يسأله عن ماله فله أن ينـكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه و بين الله تعالى ارتـكبها فله أن ينـكر ذلك فيقول مازنيت وماسرقت ، وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « من ارتـكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله » وذلك أن اظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما ، وعرضه بلسانه وان كان كاذبا . وأما عرض غيره فبأن يسأل عن سرّ أخيه فله أن ينـكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرّات من نسائه بأن يظهر لـكل واحدة أنها أحبّ إليه ، وان كانت امرأته لاتطاوعه إلا بوعد لايقدر عليه فيعدها فى الحال تطييبا لقلبها ، أو يعتذر الى انسان وكان لايطيب قلبه إلابانـكار ذنب وزيادة تودّد فلابأس به ، ولـكن الحدّ فيه أن الـكذب محذور ، ولوصدق فى هذه المواضع تولد منه محذور فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحذور الذى يحصـل بالصـدق أشدّ وقعا فى الشرع من الـكذب فله الـكذب ، وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردّد فيهما ، وعنـد ذلك

(١) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبيّ صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى ؟ قال لاخير فى الـكذب قال أعدها وأقول لها ؟ قال لاجناح عليك ، ابن عبد البرّ فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا ، وهو فى الموطأ عن صفوان بن سليم معضلا من غير ذكر عطاء بن يسار

(٢) حديث النوّاس بن سمعان : مالى أراكم تتهافتون فى الـكذب تهافت الفراش فى النار كل الـكذب مكتوب ، الحديث أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق بلفظ تتبايعون إلى قوله فى النار دون مابعده فرواه الطبرانى وفيهما شهر بن حوشب .

(٣) حديث : من ارتـكب شيئا من هـذه القاذورات فليستتر بستر الله ، الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ : اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها ، فمن ألمّ بشىء منها فليستتر بستر الله ، وإسناده حسن .

الميل إلى الصدق أولى ، لأن الكذب يباح لضرورة أوحاجة مهمة ، فان شك فى كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغى أن يحترز الانسان من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له ، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما اذا تعلق بغرض غيره فلاتجوز المسامحة لحق الغير والاضرار به ، وأ كثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم ، ثم هو لزيادات المال والجاه ، ولأمور ليس فواتها محذورا ، حتى ان المرأة لتحكى عن زوجها ماتفتخر به ، وتكذب لأجل مراغمة الضرات ، وذلك حرام ، وقالت أسماء [(١)] : سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن لى ضرة ، وانى أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضارها بذلك فهل علىّ شيء فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور ، وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] من تطعم بما لايطعم ، أوقال لى وليس له أوأعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبى زور يوم القيامة . ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لايتحققه وروايته الحديث الذى لايثبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لاأدرى وهذا حرام . ومما يلتحق بالنساء الصبيان ، فان الصبى اذا كان لايرغب فى المكتب إلابوعد أو وعيد ، أوتخويف كاذب كان ذلك مباحا ، نعم روينا فى الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أبيح بقصد الاصلاح ، ويتطرق إليه غرور كبير فانه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه ، وانما يتعلل ظاهرا بالاصلاح ، فلهذا يكتب ، وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هو أهم فى الشرع من الصدق أم لا ؟ وذلك غامض جدا ، والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لايجوز تركه كما لوأدى إلى سفك دم ، أوارتكاب معصية كيف كان ، وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث فى فضائل الأعمال ، وفى التشديد فى المعاصى ، وزعموا أن القصد منه صحيح ، وهو خطأ محض إذقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] : « من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وهذا لايرتكب إلالضرورة ولاضرورة إذ فى الصدق مندوحة عن الكذب ، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها ، وقول القائل : إن ذلك قد تكرر على الأسماع ، وسقط وقعه ، وماهو جديد فوقعه أعظم ، فهذا هوس ، إذ ليس هذا من الأغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى ، ويؤدى فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة ، فلايقاوم خير هذا شره أصلا ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لايقاومها شيء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب . قال عمر رضى الله عنه : أما فى المعاريض مايكفى الرجل عن الكذب ، وروى ذلك عن ابن عباس وغيره ، وانما أرادوا بذلك اذا اضطر الانسان الى الكذب ، فأما اذا لم تكن حاجة وضرورة فلايجوز التعريض ولاالتصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون .

---

(١) حديث أسماء : قالت امرأة إن لى ضرة وانى أتكثر من زوجي بما لم يفعل ، الحديث متفق عليه ، وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق .

(٢) حديث : من تطعم بما لايطعم ، وقال لى وليس له ، وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة ، لم أجده بهذا اللفظ .

(٣) حديث : من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، متفق عليه من طرق ، وقد تقدم فى العلم .

ومثال

ومثال التعريض ماروى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض ، وقال مارفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا مارفعني الله . وقال ابراهيم : اذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب : فقل ان الله تعالى ليعلم ماقلت من ذلك من شيء : فيكون قوله ماحرف نفي عند المستمع وعنده للابهام ، وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ماجئت به مما يأتي به العمال الى أهاهم ، وما كان قد أتاها بشيء : فقال كان عندي ضاغط . قالت كنت أمينا عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر رضي الله عنه فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذا ، وقال بعثت معك ضاغطا . قال لم أجد ما أعتذر به اليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئا : فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا يعني رقيبا ، وأراد به الله تعالى ، وكان النخعي لايقول لابنته أشترى لك سكرا بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا فانه ربما لايتفق له ذلك ، وكان ابراهيم اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو فى الدار قال للجارية قولي له اطلبه فى المسجد ولا تقولى ليس ههنا كيلا يكون كذبا ، وكان الشعبي اذا طلب فى المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية ضعي الأصبع فيها وقولى ليس ههنا ، وهذا كله فى موضع الحاجة . فأما فى غير موضع الحاجة فلا لأن هذا تفهيم للكذب ، وان لم يكن اللفظ كذبا فهومكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة . قال دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلي ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين ، فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا . فقال لى أبى يابني اتق الكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأن فيه تقريرا لهم على ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا عرض باطل لافائدة فيه ، نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح . كقوله ﷺ : « (١) لايدخل الجنة عجوز » ، وقوله للأخرى : « الذى فى عين زوجك بياض » ، وللأخرى : « نحملك على ولد البعير » : وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نعيمان الأنصارى مع عثمان فى قصة الضرير . إذ قال له أنه نعيمان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمق بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت فى تزويجك فان كان فيه ضرر يؤدي الى إيذاء قلب فهو حرام ، وان لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال ﷺ : « (٢) لايكمل للمرء الايمان حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه » ، وأما قوله عليه السلام « (٣) ان الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها فى النار أبعد من الثريا » أراد به مافيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح ، ومن الكذب الذى لايوجب الفسق ماجرت به العادة فى المبالغة ، كقوله طلبتك كذا وكذا مرة : وقلت لك كذا مائة مرة فانه لايريد به تفهيم المرات بعددها . بل تفهيم المبالغة فان لم يكن طلبه إلا

(١) حديث : لايدخل الجنة عجوز ، وحديث : فى عين زوجك بياض ، وحديث : نحملك على ولد البعير تقدمت الثلاثة فى الآفة العاشرة .

(٢) حديث : لايستكمل المؤمن ايمانه حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب من حديث أبى مليكة الذمارى وقال فيه نظر ، وللشيخين من حديث أنس : لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه وللدارقطنى فى المؤتلف والمختلف من حديث أبى هريرة : لايؤمن عبد الايمان كله حتى يترك الكذب فى مزاحه ، قال أحمد بن حنبل منكر .

(٣) حديث : ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا ، تقدم فى الآفة الثالثة .

مرة واحدة كان كاذبا ، وان كان طلبه مرات لا يعتاد مثله في الكثرة لا يأثم ، وان لم تبلغ مائة و بينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ، ومما يعتاد الكذب فيه و يتساهل به أن يقال : كل الطعام فيقول لا أشتهيه ، وذلك منهي عنه وهو حرام ، وان لم يكن فيه غرض صحيح . قال مجاهد [١] قالت أسماء بنت عميس : « كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ ، ومعي نسوة . قالت فوالله ماوجدنا عنده قرى إلا قدحا من لبن . فشرب ثم ناوله عائشة . قالت فاستحيت الجارية . فقلت لا تردي يد رسول الله ﷺ خذي منه . قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولي صواحبك فقلن لانشتهيه . فقال لاتجمعن جوعا وكذبا . قالت فقلت يارسول الله : ان قالت إحدانا لشيء تشتهيه لاأشتهيه أيعد ذلك كذبا ؟ قال إن الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة » ، وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب . قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه . فيقال له لو مسحت عينيك . فيقول وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك . فأقول لا أفعل ، وهذه مراقبة أهل الورع ، ومن تركه انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره فيكذب ولا يشعر . وعن خوات التيمي . قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه . فقالت كيف أنت يا بني فجلس الربيع . وقال أرضعتيه ؟ قالت لا . قال ماعليك لو قلت ياابن أخي فصدقت ، ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام : ان من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد ان الله يعلم لما لا يعلم وربما يكذب في حكاية المنام ، والاثم فيه عظيم . إذ قال عليه السلام « [٢] ان من أعظم الفرية أن يدعى الرجل الى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام مالم ير أو يقول علي مالم أقل » ، وقال عليه السلام « [٣] من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، وليس بعاقد بينهما أبدا » .

الآفة الخامسة عشرة ، الغيبة والنظر فيها طويل

فلنذكر أولا مذمة الغيبة وماورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة . فقال تعالى : ـ ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ـ ، وقال عليه السلام « [٤] كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، والغيبة

---

(١) حديث : مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث : وفيه . قال لاتجمعن جوعا وكذبا ، ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير ، وله ونحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ، وهو الصواب فان أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة ، لكن في طبقات الاصبهانيين لأبي الشيخ من رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عميس زففنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه الحديث ، فاذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خيبر فلامانع من ذلك .

(٢) حديث : ان من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام مالم تريا أو يقول علي مالم أقل ، البخاري : من حديث واثلة بن الأسقع وله من حديث ابن عمر من أفرى الفرى أن يرى عينيه مالم تريا .

(٣) حديث : من كذب في حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، البخاري من حديث ابن عباس .

(٤) حديث : كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، مسلم من حديث أبي هريرة .

تتناول

تتناول العرض ، وقد جمع الله بينه و بين المال والدم . وقال أبو برزة . قال عليه السلام « (١) لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا ، وكونوا عباد الله إخوانا » ، وعن جابر وأبى سعيد « (٢) قالا . قال رسول الله ﷺ إياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا : فان الرجل قد يزنى و يتوب فيتوب الله سبحانه عليه ، وان صاحب الغيبة لايغفر له حتى يغفر له صاحبه » ، وقال أنس (٣) قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أسرى بى على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم . فقلت ياجبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم » ، وقال سليم بن جابر (٤) أتيت النبى عليه الصلاة والسلام . فقلت علمنى خيرا أنتفع به . فقال « لاتحقرن من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك فى إناء المستقى ، وأن تلقى أخاك ببشر حسن ، و إن أدبر فلاتغتابنه » ، وقال البراء (٥) خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق فى بيوتهن . فقال « يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه : لاتغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم : فانه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته » ، وقيل أوحى الله الى موسى عليه السلام « من مات تائبا من الغيبة : فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار » ، وقال أنس (٦) أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم . فقال « لايفطرن أحد حتى آذن له : فصام الناس حتى اذا أمسوا جعل الرجل يجىء . فيقول يارسول الله ظللت صائما فائذن لى لأفطر : فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل . فقال يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين ، وانهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا ، فأعرض عنه ﷺ فأعرض عنه ثم عاوده . فقال إنهما لم يصوما ، وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس اذهب فرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا : فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم فرجع الى النبى ﷺ فأخبره . فقال ، والذى نفسى بيده لو بقيتا فى بطونهما لأ كلتهما النار » ، وفى رواية أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك ، وقال يارسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا . فقال ﷺ (٧) ائتونى بهما فجاءتا

(١) حديث : أبى برزة لاتحاسدوا ولاتباغضوا ولايغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله اخوانا متفق عليه من حديث : أبى هريرة وأنس دون قوله ولايغتب بعضكم بعضا ، وقد تقدم فى آداب الصحبة .

(٢) حديث : جابر وأبى سعيد اياكم والغيبة . فان الغيبة أشد من الزنا ، الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت وابن حبان فى الضعفاء وابن مردويه فى التفسير

(٣) حديث : أنس مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم الحديث أبوداود مسندا ومرسلا ، والمسند أصح

(٤) حديث : سليم بن جابر أتيت رسول الله ﷺ فقلت علمنى خيرا ينفعنى الله به ، الحديث أحمد فى المسند وابن أبى الدنيا فى الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحد واذا أدبر فلايغتابه ، وفى اسنادهما ضعف

(٥) حديث : البراء يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لاتغتابوا المسلمين ، الحديث ابن أبى الدنيا هكذا ورواه أبوداود من حديث أبى برزة باسناد جيد

(٦) حديث أنس أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم وقال لايفطرن أحد حتى آذن له ، فصام الناس الحديث فى ذكر المرأتين اللتين اغتابتا فى صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم : ابن أبى الدنيا فى الصمت ، وابن مردويه فى التفسير من رواية يزيد الرقاشى عنه ، ويزيد ضعيف .

(٧) حديث المرأتين المذكورتين ، وقال فيه ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ماحرم

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لاحداهما قيئى فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال للأخرى قيئى فقاءت كذلك . فقال انهاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست احداهما الى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس ، وقال أنس [1] خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه . فقال : ان الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وأربى الربا عرض الرجل المسلم ، وقال جابر « [2] كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما . فقال إنهما يعذبان ، وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله ، فدعا بجريدة رطبة أوجريدتين فكسرهما ، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر . وقال أما أنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أومالم ييبسا » ؛ ولما رجم رسول الله ﷺ [3] ماعزا فى الزنا . قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر صلى الله عليه وسلم ، وهما معه بجيفة . فقال انهشا منها . فقالا يارسول الله ننهش جيفة . فقال ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ، ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبو هريرة « [4] من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب اليه لحمه فى الآخرة ، وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا فيأكله فيضجع ويكلح » ، وروى مرفوعا كذلك وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثا فترك ذلك فقالا لقد بقى فيه منه شىء وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس فحاك فى أنفسهما ماقالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة ، وأمرهما ان يقضيا الصيام ان كانا صائمين ، وعن مجاهد أنه قال فى ـ ويل لكل همزة لمزة ـ الهمزة الطعان فى الناس ، واللمزة الذى يأكل لحوم الناس ، وقال قتادة ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من الغيبة ، وثلث من النميمة ، وثلث من البول . وقال الحسن : والله للغيبة أسرع فى دين الرجل المؤمن من الأكلة فى الجسد . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ، ولكن فى الكف عن أعراض الناس ، وقال ابن عباس : اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة يبصر أحدكم القذى فى عين أخيه ولا يبصر الجذع فى عين نفسه ، وكان

الله عليهما الحديث أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ، ورواه أبو يعلى فى مسنده فاسقط منه ذكر الرجل المبهم

(١) حديث أنس خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه الحديث ، وفيه وأربى الربا عرض الرجل المسلم ، ابن أبى الدنيا بسند ضعيف

(٢) حديث : جابر كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أما انهما ليعذبان ومايعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو العباس الدغولى فى كتاب الآدب باسناد جيد ، وهو فى الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة وللطيالسى فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولأحمد والطبرانى من حديث أبى بكرة نحوه باسناد جيد .

(٣) حديث قوله للرجل الذى ، قال لصاحبه فى حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر بجيفة فقال انهشا منها ، الحديث أبوداود والنسائى من حديث أبى هريرة نحوه باسناد جيد .

(٤) حديث : أبى هريرة من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب اليه لحمه فى الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ، الحديث ابن مردويه فى التفسير مرفوعا وموقوفا ، وفيه محمد بن اسحاق رواه بالعنعنة .

الحسن

الحسن يقول : « ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الايمان حتى لاتعيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبـدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصـة نفسك ، وأحبّ العباد الى الله من كان هكذا » ، وقال مالك بن دينار مرّ عيسى عليه السـلام ومعه الحواريون بجيفة كلب . فقال الحواريون ماأنتن ريح هذا الكلب . فقال عليه الصلاة والسلام ماأشـد بياض أسنانه كأنه ﷺ نهاهم عن غيبة الكلب ، ونبههم على أنه لايذكر من شيء من خلق الله الا أحسنه ، وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر . فقال له إياك والغيبة فانها إدام كلاب الناس ، وقال عمر رضى الله عنه « عليكم بذكر الله تعالى فانه شفاء ، وإياكم وذكر الناس فانه داء » : نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حدّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص في بدنه أونسـبه أوفي خلقه أوفي فعله أوفي قوله أوفي دينه أوفي دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته ، أما البدن فـكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع مايتصوّر أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب فبأن تقول أبوه قبطي أوهندي أوفاسق أوخسيس أواسكاف أوزبال أوشيء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق فبأن تقول هو سيء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهوّر ومايجرى مجراه . وأما في أفعاله المتعلقـة بالدين فـكقولك هو سارق أوكذاب أوشارب خمر أوخائن أوظالم أومتهاون بالصلاة أوالزكاة أولايحسن الركوع أوالسجود أولايحترز من النجاسات أوليس بارا بوالديه أولايضع الزكاة موضعها أولايحسن قسمتها أولايحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لاعراض الناس . وأمافعله المتعلق بالدنيا فـكقولك انه قليل الأدب متهاون بالناس أولايرى لأحد على نفسه حقا أويرى لنفسه الحق على الناس أو انه كثير الـكلام كثير الأكل نئوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه . وأما في ثوبه فـكقولك إنه واسع الـكمّ طويل الذيل وسخ الثياب ، وقال قوم لاغيبة في الدين لأنه ذم ماذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز بدليـل ماروى أن رسول الله ﷺ [(١)] ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولـكنها تؤذى جيرانها بلسانها . فقال هي في النار [(٢)] وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة . فقال فما خيرها اذا فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم الى تعرف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولايحتاج اليه في غير مجلس الرسول ﷺ والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله ﷺ في حدّ الغيبة ، وكل هذا وان كان صادقا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه بدليل ماروى أن النبي ﷺ [(٣)] قال هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكرهه : قيل أرأيت ان كان في أخي ماأقوله ؟ قال ان كان فيـه ماتقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته . وقال معاذ بن جبل [(٤)] ذكر رجل عند رسول الله ﷺ

(١) حديث : ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها ، لـكن تؤذى جيرانها . فقال هي في النار ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث : ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة . قال فما خيرها اذا ، الخرائطي في مكارم الاخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن على مرسلا ورويناه في أمالي ابن شمعون هكذا .

(٣) حديث هل تدرون ماالغيبة ، قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكره الحديث ، مسلم من حديث أبي هريرة .

(٤) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا ماأعجزه ، الحديث الطبراني بسند ضعيف .

فقالوا ماأعجزه . فقال ﷺ اغتبتم أخاكم قالوا يارسول الله قلنا مافيه . قال ان قلتم ماليس فيه فقد بهتموه ، وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها [(١)] انها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة . فقالت انها قصيرة . فقال ﷺ اغتبتها . وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة : الغيبة ، والبهتان ، والافك ، وكل فى كتاب الله عز وجل : فالغيبة أن تقول مافيه ، والبهتان أن تقول ماليس فيه ، والافك أن تقول مابلغك ، وذكر ابن سيرين رجلا . فقال ذاك الرجل الأسود : ثم قال أستغفر الله انى أرانى قد اغتبته ، وذكر ابن سيرين ابراهيم النخعى فوضع يده على عينه ولم يقل الاعور . وقالت عائشة [(٢)] لايغتابن أحدكم أحدا فانى قلت لامرأة مرة وأنا عند النبى صلى الله عليه وسلم « ان هذه لطويلة الذيل . فقال لى : الفظى الفظى فلفظت مضغة لحم » .

بيان أن الغيبة لاتقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والاشارة والايماء والغمز والهمز والكناية والحركة وكل مايفهم المقصود فهوداخل فى الغيبة وهو حرام : فمن ذلك قول عائشة رضى الله عنها [(٣)] دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدى أنها قصيرة . فقال عليه السلام اغتبتها ، ومن ذلك المحاكاة كأن يمشى متعارجا أوكما يمشى فهو غيبة ، بل هو أشد من الغيبة لانه أعظم فى التصوير ، ولما رأى رسول الله ﷺ عائشة حاكت امرأة قال [(٤)] مايسرنى أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا ، وكذلك الغيبة بالكتابة فان القلم أحد اللسانين ، وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه فى الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شئ من الأعذار المحوجة الى ذكره كما سيأتى بيانه . وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة انما الغيبة التعرض لشخص معين إماحى وإماميت ، ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم أو بعض من رأيناه اذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا لأن المحذور تفهيمه دون مابه التفهيم فأما اذالم يفهم عينه جاز ، كان رسول الله ﷺ [(٥)] اذا كره من انسان شيئا قال مابال أقوام يفعلون كذا وكذا فكان لايعين ، وقولك بعض من قدم من السفر أو بعض من يدعى العلم ان كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهى غيبة وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فانهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ولايدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة

---

(١) حديث : عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت انها قصيرة فقال اغتبتها رواه أحمد وأصله عند أبى داود والترمذى وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة ، وكذا هو فى الصمت لابن أبى الدنيا ، والصواب عن أبى حذيفة كما عند أحمد وأبى داود والترمذى ، واسم أبى حذيفة سلمة بن صهيب .

(٢) حديث عائشة قلت لامرأة إن هذه لطويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم الفظى فلفظت بضعة من لحم ، ابن أبى الدنيا وابن مردويه فى التفسير وفى اسناده امرأة لاأعرفها .

(٣) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت بيدى أى قصيرة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها . ابن أبى الدنياوابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها ، وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات .

(٤) حديث : مايسرنى انى حكيت ولى كذا وكذا تقدم فى الآفة الحادية عشرة .

(٥) حديث : كان اذا كره من انسان شيئا قال مابال أقوام يفعلون كذا وكذا الحديث . أبو داود من حديث عائشة دون قوله ، وكان لايعينه ، ورجاله رجال الصحيح .

والرياء

والرياء وذلك مثل أن يذكر عنده انسان فيقول الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل فى طلب الحطام ، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء ، نسأل الله أن يعصمنا منها ، وانما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ، ما كان يقصر فى العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره فى ضمن ذلك و يمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه فيكون مغتابا ومرائيا ومزكيا نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش ، وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة ، ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل اذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فانه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ، و يضحك عليهم ، و يسخر منهم ، ومن ذلك أن يذكر عيب انسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصغى إليه و يعلم ما يقول فيذكر الله تعالى و يستعمل اسمه آلة له فى تحقيق خبثه وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول : ساءنى ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به ، نسأل الله أن يروّح نفسه فيكون كاذبا فى دعوى الاغتمام وفى اظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لأخفاه فى خلوته عقيب صلاته ولو كان يغتم به لاغتم أيضا باظهار ما يكرهه ، وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو فى كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على خبث ضميره ، وخفى قصده ، وهو لجهله لايدرى انه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال اذا جاهروا ، ومن ذلك الاصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب ، فانه انما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها ، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجب ماعلمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخير ، وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه فان كل ذلك تصديق للمغتاب ، والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب . قال ﷺ [(١)] : « المستمع أحد المغتابين » ، وقد روى عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما [(٢)] أن أحدهما قال لصاحبه ان فلانا لنؤم ثم انهما طلبا أدما من رسول الله ﷺ ليأكلا به الخبز فقال ﷺ قد ائتدمتما فقالا مانعلمه ، قال بلى انكما أكلتما من لحم أخيكما فانظر كيف جمعهما ، وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا ؟ . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما أقعص الرجل كما يقعص الكلب [(٣)] انهشا من هذه الجيفة ، فجمع بينهما ، فالمستمع لايخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه ان خاف وان قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه ، وان قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ولا يخرجه من الاثم مالم يكرهه بقلبه ، ولا يكفى فى ذلك أن يشير باليد أى اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه ، فان ذلك استحقار للمذكور ، بل ينبغى أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا . وقال صلى الله عليه وسلم [(٤)] « من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس

---

(١) حديث : المستمع أحد المغتابين ، الطبرانى من حديث ابن عمر : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة ، وهو ضعيف .

(٢) حديث : ان أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه : ان فلانا لنئوم ، ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد ائتدمتما ، فقالا مانعلم ، فقال بلى ماأكلتما من لحم صاحبكما ، أبو العباس الدغولى فى الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلا نحوه .

(٣) حديث : انهشا من هذه الميتة ، قاله للرجلين اللذين قال أحدهما أقعص الرجل كما يقعص الكلب ، تقدم قبل هذا باثنى عشر حديثا

(٤) حديث : من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ، الطبرانى من حديث سهل بن حنيف ، وفيه ابن لهيعة .

الخلائق» . وقال أبو الدرداء [1] قال رسول الله ﷺ : « من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة » ، وقال أيضا : [2] « من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار » ، وقد ورد فى نصرة المسلم فى الغيبة ، وفى فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها فى كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطيل باعادتها .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ، ولكن يجمعها أحد عشر سببا ، ثمانية منها تطرد فى حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة : أما الثمانية [فالأول] أن يشفى الغيظ ، وذلك اذا جرى سبب غضب به عليه فانه اذا هاج غضبه يشتفى بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع ان لم يكن ثم دين وازع ، وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقدا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوى ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة [الثانى] موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم اذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم ، أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة فى الصحبة ، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم اظهارا للمساهمة فى السراء والضراء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوى [الثالث] أن يستشعر من انسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه ، أو يقبح حاله عند محتشم ، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : ما من عادتى الكذب فانى أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت [الرابع] أن ينسب الى شىء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذى فعله وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذى فعل فلا ينسب غيره اليه أو يذكر غيره بانه كان مشاركا له فى الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه فى فعله [الخامس] ارادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك ، وكلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك [السادس] الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه واكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد ، وهو غير الغضب والحقد ، فان ذلك يستدعى جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن ، والرفيق الموافق [السابع] اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والعجب [الثامن] السخرية والاستهزاء استحقارا له فان ذلك قد يجرى فى الحضور ويجرى أيضا فى الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التى هى فى الخاصة فهى أغمضها وأدقها ، لأنها شرور خبأها الشيطان فى معرض

---

(١) حديث أبى الدرداء : من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة ، ابن أبى الدنيا فى الصمت ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو عند الطبرانى من وجه آخر بلفظ : ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة ، وفى رواية له : كان له حجابا من النار ، وكلاهما ضعيف .

(٢) حديث : من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار ، أحمد والطبرانى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر [الأول] أن تنبعث من الدين داعية التعجب فى انكار المنكر والخطأ فى الدين فيقول ما أعجب مارأيت من فلان فانه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه فى اظهار تعجبه فصار به مغتابا وآثما من حيث لايدرى . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهى قبيحة ! وكيف يجلس بين يدى فلان وهوجاهل [الثانى] الرحمة وهوأن يغتم بسبب مايبتلى به فيقول مسكين فلان قد غمنى أمره وما ابتلى به فيكون صادقا فى دعوى الاغتمام ، ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لايدرى ، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه [الثالث] الغضب لله تعالى فانه قد يغضب على منكر قارفه انسان اذا رآه أوسمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام ، فانهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب اذا كان لله تعالى كان عذرا فى ذكر الاسم وهوخطأ ، بل المرخص فى الغيبة حاجات مخصوصة لامندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتى ذكره . روى عن عامر بن واثلة [1] أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم ، فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إنى لأبغض هذا فى الله تعالى ، فقال أهل المجلس : لبئس ماقلت والله لننبئنه ، ثم قالوا يافلان لرجل منهم قم فأدركه وأخبره بما قال ، فأدركه رسولهم ، فأخبره ، فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ماقال ، وسأله أن يدعوه له . فدعاه وسأله ، فقال قد قلت ذلك ، فقال ﷺ لم تبغضه ؟ فقال أنا جاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال فاسأله يارسول الله هل رآنى أخرتها عن وقتها ، أوأسأت الوضوء لها ، أوالركوع أوالسجود فيها ؟ فسأله فقال لا ، فقال والله مارأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البر والفاجر ، قال فاسأله يارسول الله هل رآنى قط أفطرت فيه ، أونقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه فقال لا ، فقال : والله مارأيته يعطى سائلا ولامسكينا قط ولارأيته ينفق شيئا من ماله فى سبيل الله إلا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر ، قال فاسأله هل رآنى نقصت منها ، أوما كست فيها طالبها الذى يسألها ؟ فسأله فقال لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك .

بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل ، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها ، وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل ، أما على الجملة فهوأن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التى رويناها ، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة فانها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه فان لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه وهومع ذلك متعرض لمقت الله عزوجل ، ومشبه عنده بآكل الميتة ، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته ، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها

(۱) حديث عامر بن واثلة : أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : انى لأبغض هذا فى الله ، الحديث بطوله ، وفيه : فقال قم فلعله خيرمنك ، رواه أحمد باسناد صحيح .

الرجحان و يدخل بها النار ، وإنما أقلّ الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله ، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب . قال ﷺ (١) « ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد » . وروى أن رجلا قال للحسن : بلغنى أنك تغتابنى ؟ فقال مابلغ من قدرك عندى أنى أحكمك فى حسناتى ، فهما آمن العبد بما ورد من الأخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك ✽ و ينفعه أيضا أن يتدبر فى نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه ، وذكر قوله ﷺ (٢) : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ، ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحيى من أن يترك ذمّ نفسه و يذم غيره ، بل ينبغى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا ان كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره ، وان كان أمرا خلقيا فالذم له ذمّ للخالق ، فان من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم : ياقبيح لوجه ، قال ما كان خلق وجهى إلىّ فأحسنه . واذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ولايلوثنّ نفسه بأعظم العيوب فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه ، وهو من أعظم العيوب ✽ و ينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له ، فاذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لايرضى لغيره مالايرضاه لنفسه ، فهذه معالجات جلية ✽ أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة ، فان علاج العلة بقطع سببها ، وقد قدمنا الأسباب . أما الغضب فيعالجه بما سيأتى فى كتاب [آفات الغضب] وهو أن يقول : انى اذا أمضيت غضبى عليه فلعلّ الله تعالى يمضى غضبه علىّ بسبب الغيبة إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه ، واستخففت بزجره ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) « إن لجهنم بابا لايدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « من اتقى ربّه كلّ لسانه ولم يشف غيظه » . وقال ﷺ (٥) « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أىّ الحور شاء » . وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : « يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق » . وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك اذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لايوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء ، بل ينبغى أن تغضب لله أيضا على رفقائك اذا ذكروه بالسوء فانهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهى الغيبة . وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير فتعالجه بأن تعرف أن التعرّض لمقت الخالق أشدّ من التعرّض لمقت المخلوقين ، وأنت بالغيبة متعرّض لسخط الله يقينا ولا تدرى انك تتخلص من سخط الناس أم لا فتخلص نفسك فى الدنيا بالتوهم وتهلك فى الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذمّ الله تعالى نقدا وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان ✽ وأما عذرك كقولك ان أكلت الحرام ففلان يأكله ، وان قبلت مال السلطان ففلان يقبله ، فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لايجوز

---

(١) حديث : ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد ، لم أجد له أصلا .

(٢) حديث : طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) حديث : إن لجهنم بابا لايدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله ، البزار وابن أبى الدنيا وابن عدىّ والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٤) حديث : من اتقى ربه كلّ لسانه ولم يشف غيظه ، أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ، ورويناه فى الأربعين البلدانية للسلفى .

(٥) حديث : من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه ، الحديث أبوداود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

الاقتداء به فان من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك ، ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها الى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك ، وكنت كالشاة تنظر الى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل فهي أيضا تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر . وقالت المعزى أكيس مني وقد أهلكت نفسها ، فكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها ، وحالك مثل حالها ، ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك . فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله ، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك اذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئا . وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا ، وكنت في الدنيا معذبا بالحسد فما قنعت بذلك حتى أضفت اليه عذاب الآخرة فكنت خاسرا نفسك في الدنيا فصرت أيضا خاسرا في الآخرة لتجمع بين النكالين ، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت اليه حسناتك فاذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك وتنفعه إذ تنقل اليه حسناتك أو تنقل إليك سيآته ولا تنفعك ، وقد جمعت الى خبث الحسد جهل الحماقة ، وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل

وإذا أراد الله نشر فضيلة ✻ طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه اخزاء غيرك عند الناس بأخزاء نفسك عند الله تعالى ، وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيآت من استهزأت به وتساق الى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك ، ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك ، فانك سخرت به عند نفر قليل ، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ، ويسوقك تحت سيآته كما يساق الحمار الى النار مستهزئا بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك ، وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ، ولكن حسدك ابليس فأضلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك اليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبرا لاثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما وتنقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما إذ حبط أجرك ، ونقصت من حسناتك ، وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة ، وإنما الشيطان حبب اليك الغيبة ليحبط أجر غضبك ، وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالغيبة ، وأما التعجب اذا أخرجك الى الغيبة فتعجب من نفسك أنت كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا ، وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك . فاذا علاج جميع ذلك المعرفة فقط ، والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الايمان فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوى الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ، ولست أعنى به الا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضا معفو عنه ، ولكن المنهى عنه أن يظن ، والظن عبارة عما تركن اليه النفس ويميل اليه القلب . فقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من

الظن إن بعض الظن إثم » وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها الا علام الغيوب فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فانما الشيطان يلقيه اليك ، فينبغي أن تكذبه فانه أفسق الفساق ، وقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » فلا يجوز تصديق إبليس ، وان كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ، ولكن لا يجوز لك أن تصدق به حتى إن من استنكهه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها ، وما شربها أو حمل عليه قهرا فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال ﷺ «(١) إن الله حرم من المسلم دمه وماله ، وان يظن به ظن السوء» فلا يستباح ظن السوء الا بما يستباح به المال ، وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة ، فاذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك ، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر ، فان قلت فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث فنقول : أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده واكرامه والاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه ، وقد قال ﷺ «(٢) ثلاث في المؤمن ، وله منهن مخرج» فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه أي لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح . أما في القلب فبتغيره الى النفرة والكراهة ، وأما في الجوارح فبالعمل بموجبه ، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، ويلقي اليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك ، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته ، وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك الى تصديقه كنت معذورا لانك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن . فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد ، وتسيء بالآخر ، نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه فقد رد الشرع (٣) شهادة الأب العدل للولد للتهمة ، ورد شهادة العدو فلك عند ذلك أن تتوقف ، وان كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول في نفسك المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى وكان أمره محجوبا عني ، وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل . فان المغتاب فاسق ، وان كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق ، ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير فان ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي اليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء

(١) حديث : ان الله حرم من المسلم دمه وماله ، وأن يظن به ظن السوء : البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث : ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج : الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف

(٣) حديث : رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو : الترمذي من حديث عائشة ، وضعفه لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذي غمر لأخيه ، وفيه ولا ظنين في ولاء ولا قرابة ، ولأبي داود وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذي الغمر على أخيه

والمراعاة

والمراعاة ، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه فى السر ولايخدعنك الشيطان فيدعوك الى اغتيابه ، وإذا وعظته فلاتعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر اليك بعين التعظيم ، وتنظر اليه بعين الاستحقار ، وتترفع عليه بابداء الوعظ ، وليكن قصدك تخليصه من الاثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك اذا دخل عليك نقصان فى دينك ، و ينبغى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة فاذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته ، وأجر الاعانة له على دينه . ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فان القلب لايقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وهو أيضا منهى عنه . قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهى عنه فى آية واحدة ، ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل الى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له مالو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه ، وقد ذكرنا فى كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته .

بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة

اعلم أن المرخص فى ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح فى الشرع لايمكن التوصل اليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة ، وهى ستة أمور [الأول] التظلم فان من ذكر قاضيا بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا ان لم يكن مظلوما ، أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم إذ لايمكنه استيفاء حقه الا به . قال ﷺ « (١) إن لصاحب الحق مقالا » ، وقال عليه الصلاة والسلام « (٢) مطل الغنى ظلم » ، وقال عليه الصلاة والسلام « (٣) لى الواجد يحل عقوبته وعرضه » [الثانى] الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى الى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضى الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضى الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام فذهب الى أبى بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر اليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم ، وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب اليه « بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » الآية ، فتاب ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره ، وانما اباحة هذا بالقصد الصحيح فان لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما [الثالث] الاستفتاء : كما يقول للمفتى ظلمنى أبى أو زوجتى أو أخى فكيف طريقى فى الخلاص ، والأسلم التعريض بأن يقول ماقولك فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ، ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت (٤) للنبى ﷺ « إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى أفآخذ من غير علمه ؟ فقال خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها ﷺ إذ كان قصدها الاستفتاء [الرابع] تحذير المسلم من الشر ، فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لاغيره ، وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ،

---

(١) حديث : لصاحب الحق مقال : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث : مطل الغنى ظلم : متفق عليه من حديثه

(٣) حديث : لى الواجد يحل عرضه وعقوبته ، أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث الشريد باسناد صحيح

(٤) حديث : ان هندا قالت ان أباسفيان رجل شحيح : متفق عليه من حديث عائشة

ويلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك فان فى سكوتك ضرر المشترى ، وفى ذكرك ضرر العبد ، والمشترى أولى بمراعاة جانبه ، وكذلك المزكى اذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه ان علم مطعنا ، وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الامانة له أن يذكر مايعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة . فان علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله : لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية ، وان علم انه لاينزجر الا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به إذ قال رسول الله ﷺ «(١) أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس ، اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس» وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم : الامام الجائر ، والمبتدع ، والمجاهر بفسقه . [الخامس] أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرف عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول : روى أبو الزناد عن الأعرج وسلمان عن الأعمش وما يجرى مجراه ، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به ، نعم ان وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص [السادس] أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به فاذا ذكرت فيه مايتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «(٢) من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له» ، وقال عمر رضى الله عنه «ليس لفاجر حرمة» وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذ المستتر لابدّ من مراعاة حرمته ، وقال الصلت بن طريف . قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال لا ولا كرامة ، وقال الحسن : ثلاثة لا غيبة لهم : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن بفسقه ، والامام الجائر . فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفاخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ، نعم لو ذكره بغير مايتظاهر به أثم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج . فقال إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه ، وانك اذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشدّ عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على مافعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ، وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله إذ المرائى قد يستحل ليظهر من نفسه الورع ، وفى الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال ، وربما استدل فى ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «(٣) كفارة من اغتبته أن تستغفر له» ، وقال مجاهد «كفارة أكلك لحم أخيك

---

(١) حديث : أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس ، الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا فى الصمت

(٢) حديث : من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ، ابن عدى وأبو الشيخ فى كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدّم

(٣) حديث كفارة من اغتبته أن تستغفر له ، ابن أبى الدنيا فى الصمت والحارث بن أبى أسامة فى مسنده من

ان

أن تثنى عليه وتدعوله بخير » ، وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة . قال أن تمشى الى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت . فان شئت أخذت بحقك ، وان شئت عفوت ، وهذا هو الأصح وقول القائل العرض لا عوض له ، فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف أذقد وجب فى العرض حدّ القذف وتثبت المطالبة به بل فى الحديث الصحيح ماروى أنه ﷺ قال « [1] من كانت لأخيه عنده مظلمة فى عرض أومال فليستحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولادرهم انما يؤخذ من حسناته فان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته » وقالت عائشة رضى الله عنها لامرأة قالت لأخرى انها طويلة الذيل قد اغتبتيها فاستحليها ؛ فاذا لابد من الاستحلال ان قدر عليه فان كان غائبا أوميتا فينبغى أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات . فان قلت فالتحليل هل يجب ؟ فأقول : لا لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ فى الثناء عليه والتودّد اليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فان لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودّده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة فى القيامة ، وكان بعض السلف لايحلل . قال سعيد بن المسيب لاأحلل من ظلمنى ، وقال ابن سيرين إنى لم أحرمها عليه فأحلالها ان الله حرم الغيبة عليه ، وما كنت لأحلل ماحرم الله أبدا . فان قلت فمامعنى قول النبى ﷺ ينبغى أن يستحلها وتحليل ماحرمه الله تعالى غير ممكن . فنقول المراد به العفو عن المظلمة لاأن ينقلب الحرام حلالا ، وماقاله ابن سيرين حسن فى التحليل قبل الغيبة فانه لايجوز له أن يحلل لغيره الغيبة . فان قلت فمامعنى قول النبى ﷺ « [2] أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ، كان إذا خرج من بيته . قال : اللهم إنى قد تصدقت بعرضى على الناس » فكيف يتصدق بالعرض ، ومن تصدق به فهل يباح تناوله فان كان لاتنفذ صدقته فمامعنى الحث عليه . فنقول معناه انى لا أطلب مظلمة فى القيامة منه ولا أخاصمه والا فلا تصير الغيبة حلالا به ولا تسقط المظلمة عنه لأنه عفو قبل الوجوب الا أنه وعد وله العزم على الوفاء بأن لايخاصم . فان رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل . قال الحسن «اذاجثت الأمم بين يدى الله عز وجلّ يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم الا العافون عن الناس فى الدنيا» ، وقد قال الله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال النبى صلى الله عليه وسلم « [3] ياجبريل ماهذا العفو ، فقال « ان الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك » وروى عن الحسن أن رجلا قال له ان فلانا قد اغتابك فبعث اليه رطبا على طبق ، وقال قد بلغنى أنك أهديت الىّ من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فانى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

حديث أنس بسند ضعيف

(١) حديث من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أومال فليتحلله ، الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان اذاخرج من بيته قال اللهم انى تصدقت بعرضى على الناس ، البزار وابن السنى فى اليوم والليلة والعقيلى فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلا عندذكر أبى ضمضم فى الصحابة . قلت وانما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلى .

(٣) حديث نزول خذ العفو الآية فقال ياجبريل ماهذا فقال إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك ، تقدم فى رياضة النفس .

الآفة السادسة عشرة : النميمة

قال الله تعالى : « هماز مشاء بنميم » ثم قال « عتل بعد ذلك زنيم » . قال عبد الله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذى لا يكتم الحديث ، وأشار به الى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل : « عتل بعد ذلك زنيم » والزنيم هو الدعى ، وقال تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » قيل الهمزة النمام ، وقال تعالى : « حمالة الحطب » قيل انها كانت نمامة حمالة للحديث ، وقال تعالى « فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا » قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال ﷺ (١) « لا يدخل الجنة نمام » ، وفى حديث آخر « لا يدخل الجنة قتات » ، والقتات هو النمام . وقال أبو هريرة . قال رسول الله ﷺ (٢) « أحبكم الى الله أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وان أبغضكم الى الله المشاءون بالنميمة . المفرقون بين الاخوان . الملتمسون للبراء العثرات » ، وقال ﷺ (٣) « ألا أخبركم بشراركم . قالوا بلى ؟ قال المشاءون بالنميمة . المفسدون بين الأحبة الباغون للبراء العيب » . وقال أبو ذر (٤) قال رسول الله ﷺ « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة . وقال أبو الدرداء (٥) قال رسول الله ﷺ « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا : كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار » . وقال أبو هريرة (٦) قال رسول الله ﷺ « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » ويقال ان ثلث عذاب القبر من النميمة ، وعن ابن عمر عن النبى ﷺ (٧) « ان الله لما خلق الجنة قال

---

(١) حديث : لا يدخل الجنة نمام ، وفى حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة ، وقد تقدم .

(٢) حديث أبى هريرة وأحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا ، الطبرانى فى الأوسط والصغير ، وتقدم فى آداب الصحبة .

(٣) حديث : ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاءون بالنميمة : الحديث ، أحمد من حديث أبى مالك الأشعرى وقد تقدم .

(٤) حديث أبى ذر من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة ، ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى مكارم الأخلاق ، وفيه عبد الله بن ميمون فان يكن القداح فهو متروك الحديث .

(٥) حديث أبى الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار ، ابن أبى الدنيا موقوفا على أبى الدرداء ورواه الطبرانى بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم .

(٦) حديث أبى هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار ، أحمد وابن أبى الدنيا ، وفى رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبى الدنيا من الاسناد .

(٧) حديث ابن عمر ان الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى قالت سعد من دخلنى . قال الجبار وعزتى وجلالى لا يسكن فيك ثمانية . فذكرمنها ولا قتات ، وهو النمام لم أجده هكذا بتمامه . ولأحمد لا يدخل الجنة عاق لوالديه ولا ديوث ، وللنسائى من حديث عبد الله بن عمرو ولا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر ، وللشيخين من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قتات ، ولهما من حديث جبير بن مطعم : لا يدخل الجنة قاطع ، وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله

لها

لها تكلمي . فقالت سعد من دخلني . فقال الجبار جل جلاله ، وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس : لا يسكنك مدمن خمر ، ولا مصرّ على الزنا ، ولا قتات . وهو النمام ، ولا ديوث ، ولا شرطي ، ولا مخنث ولا قاطع رحم ، ولا الذي يقول عليّ عهد الله ان لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به » . وروى كعب الأحبار أن بني اسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا فأوحى الله تعالى اليه انى لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصرّ على النميمة . فقال موسى يارب من هو دلني عليه حتى أخرجه من بيننا قال ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما فتابوا جميعا فسقوا ، ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ فى سبع كلمات فلما قدم عليه . قال انى جئتك للذى آتاك الله تعالى من العلم أخبرنى عن السماء وما أثقل منها ، وعن الأرض وما أوسع منها ، وعن الصخر وما أقسى منه ، وعن النار وما أحرّ منها ، وعن الزمهرير وما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه ، وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البرىء أثقل من السموات والحق أوسع من الارض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحرّ من النار ، والحاجة الى القريب اذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام اذا بان أمره أذل من اليتيم

بيان حد النميمة ومايجب فى ردها

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق فى الاكثر على من ينمّ قول الغير الى المقول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالايماء وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا فى المقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه . بل كل ما رآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فينبغى أن يسكت عنه الامانى حكايته فائدة لمسلم أودفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له ، فأما اذا رآه يخفى مالا لنفسه فذكره فهو نميمة وافشاء للسر . فان كان ماينمّ به نقصا وعيبا فى المحكى عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة . فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكى عنه أو إظهار الحب للمحكى له أو التفرج بالحديث ، والخوض فى الفضول والباطل ، وكل من حملت اليه النميمة وقيل له ان فلانا قال فيك كذا أوفعل فى حقك كذا . أوهو يدبر فى إفساد أمرك أو فى ممالأة عدوك أو تقبيح حالك أو ما يجرى مجراه فعليه ستة أمور [الأوّل] أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » [الثانى] أن ينهاه عن ذلك و ينصح له و يقبح عليه فعله . قال الله تعالى : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » [الثالث] أن يبغضه فى الله تعالى فانه بغيض عند الله تعالى ، و يجب بغض من يبغضه الله تعالى [الرابع] أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى : «اجتنبوا كثيرا من الظن إنّ بعض الظنّ إثم» [الخامس] أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعا لقوله تعالى : « ولا تجسسوا » [السادس] أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ، ولا تحكى نميمته . فتقول فلان قد حكى لى كذا وكذا فتكون به نماما ومغتابا وتكون قد أتيت ما عنه نهيت ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر ان شئت نظرنا فى أمرك فان كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية « ان جاءكم فاسق بنبأ

الجنة قال لها تكلمي تزيني فتزينت . فقالت طوبى لمن دخلني ورضى عنه إلهي . فقال الله عز وجل : لا سكنك مخنث ولا نائحة

فتبينوا » وان كنت صادقا فأنت من أهل هـذه الآية « هماز مشاء بنميم » وإن شئت عفونا عنك . فقال العفو يا أمير المؤمنين لا أعود اليه أبدا ، وذكر أن حكيما من الحكماء زاره بعض اخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه . فقال له الحكيم : قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنايات : بغضت أخي الي ، وشغلت قلبي الفارغ ، واتهمت نفسك الأمينة ، وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهري فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغني أنك وقعت في وقلت كذا وكذا . فقال الرجل مافعلت ولاقلت . فقال سليمان ان الذي أخبرني صادق . فقال له الزهري لايكون النمام صادقا . فقال سليمان صدقت : ثم قال للرجل اذهب بسلام . وقال الحسن . « من نم إليك نم عليك » ، وهـذا اشارة الى أن النمام ينبغي أن يبغض ولايوثق بقوله ولا بصداقته ، وكيف لايبغض وهو لا ينفك عن الكذب ، والغيبة ، والغدر ، والخيانة ، والغل ، والحسد ، والنفاق ، والافساد بين الناس ، والخديعة ، وهو ممن يسعى في قطع ماأمر الله به أن يوصل و يفسدون في الأرض . وقال تعالى : « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس و يبغون في الأرض بغير الحق » ، والنمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم « [1] ان من شرار الناس ، من اتقاه الناس لشره » ، والنمام منهم ، وقال « [2] لايدخل الجنة قاطع : قيل وما القاطع ؟ قال . قاطع بين الناس ، وهو النمام . وقيل : قاطع الرحم » ، وروى عن علي رضي الله عنه أن رجلا سعى إليه برجل . فقال له ياهـذا نحن نسأل عما قلت . فان كنت صادقا مقتناك ، وان كنت كاذبا عاقبناك ، وان شئت أن نقيلك أقلناك . فقال أقلني ياأمير المؤمنين ، وقيل لمحمد بن كعب القرظي : أي خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال كثرة الكلام ، وافشاء السر ، وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميرا : بلغني أن فلانا أعلم الأمير أني ذكرته بسوء . قال قد كان ذلك . قال فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك . قال ماأحب أن أشتم نفسي بلساني ، وحسبي أني لم أصدقه فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال ، وذكرت السعاية عند بعض الصالحين ، فقال ماظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس الا منهم ، وقال مصعب بن الزبير . نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة ، والقبول اجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعي فلو كان صادقا في قوله لكان لئيما في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة ، والسعاية هي النميمة إلا أنها إذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية ، وقد قال ﷺ « [3] الساعي بالناس الى الناس لغير رشدة » يعني ليس بولد حلال ، ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام . وقال اني مكلمك ياأمير المؤمنين بكلام فاحتمله ، وان كرهته فان وراءه ماتحب ان قبلته . فقال قل : فقال ياأمير المؤمنين انه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم : خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ماائتمنك الله عليه ، ولاتصخ اليهم فيما استحفظك الله إياه : فانهم لن يألوا في الأمة خسفا ، وفي الأمانة تضييعا ، والاعراض قطعا وانتها كا أعلى قربهم البغي والنميمة ، وأجل وسائلهم الغيبة

(١) حديث : ان من شر الناس من اتقاه الناس لشره ، متفق عليه من حديث عائشة نحوه

(٢) حديث : لايدخل الجنة قاطع ، متفق عليه من حديث جبير بن مطعم

(٣) حديث : الساعي بالناس الى الناس لغير رشدة ، الحاكم من حديث أبي موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة أوفيه شيء منها ، وقال له أسانيد هـذا أمثلها ، قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية قال ، والحديث لاأصل له ، وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عطية ورواه الطبراني بلفظ لايسعى على الناس الاولد بغي والامن فيه عرق منه ، وزاد بين سهل و بين بلال بن أبي بردة أبا الوليد القرشي

والوقيعة

والوقيعة ، وأنت مسئول عما أجرموا ، وليسوا المسئولين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره ، وسعى رجل بزيادة الأعجم الى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل . وقال :

فأنت امرؤ ما ائتمنتك خاليا ❊ نخنت وأما قلت قولا بلا علم
فأنت من الأمر الذى كان بيننا ❊ بمنزلة بين الخيانة والاثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد أن الأسوارى مازال يذكرك فى قصصه بشر . فقال له عمرو ياهذا مارعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت الينا حديثه ولاأدّيت حقى حين أعلمتنى عن أخى ماأكره ، ولكن أعلمه ان الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ، ورفع بعض السعاة الى الصاحب بن عباد رقعة نبهه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقع على ظهرها : السعاية قبيحة وان كانت صحيحة ، فان كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح ، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا فى مستور ، ولولا أنك فى خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك فى مثلك . فتوقّ ياملعون العيب فان الله أعلم بالغيب ، الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعى لعنه الله . وقال لقمان لابنه يابنىّ أوصيك بخلال ان تمسكت بهن لم تزل سيدا ، إبسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك ، وآمنهم من قبول قول ساع أوسماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك ، وليكن اخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك ، وقال بعضهم : النميمة مبنية على الكذب ، والحسد ، والنفاق ، وهى أثافى الذل ، وقال بعضهم لوصح مانقله النمام اليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك . وعلى الجملة فشرّ النمام عظيم ينبغى أن يتوقى . قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا ، وقال للمشترى مافيه عيب إلا النميمة . قال قد رضيت فاشتراه فمكث الغلام أياما ثم قال لزوجة مولاه : ان سيدى لايحبك ، وهو يريد أن يتسرّى عليك فخذى الموسى واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك : ثم قال للزوج ان امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك ، فتناوم لها . فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله . فقام اليها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين فنسأل الله حسن التوفيق .

الآفة السابعة عشرة كلام ذى اللسانين

الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عين النفاق . قال عمار بن ياسر (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة» ، وقال أبو هريرة (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث » ، وفى لفظ آخر : « الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة لاينبغى لذى الوجهين أن يكون أمينا عند الله ، وقال مالك بن دينار قرأت فى التوراة بطلت الامانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى

---

(١) حديث عمار بن ياسر من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة ، البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبوداود بسند حسن

(٢) حديث أبى هريرة تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ، الحديث متفق عليه بلفظ تجد من شر الناس لفظ البخارى ، وهو عند ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف

يوم القيامة كل شفتين مختلفتين ، وقال ﷺ « (١) أبغض خليقة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون ، والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم فى صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم والذين اذا دعوا الى الله ورسوله كانوا بطاء ، واذا دعوا الى الشيطان وأمره كانوا سراعا » . وقال ابن مسعود لا يكونن أحدكم إمعة قالوا وما الامعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ريح ، واتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها ، وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تصل عليه . فقال يا أمير المؤمنين انه منهم . فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا . قال اللهم لا ولا أؤمن منها أحدا بعدك . فان قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول اذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين فان الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى الى حد الاخوة اذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء كما ذكرنا فى كتاب آداب الصحبة والأخوة ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط . فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وان لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك اذا وعد كل واحد منهما بان ينصره ، وكذلك اذا أثنى على كل واحد منهما فى معاداته ، وكذلك اذا أثنى على أحدهما وكان اذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين بل ينبغى أن يسكت أو يثنى على المحق من المتعاديين ويثنى عليه فى غيبته وفى حضوره وبين يدى عدوه . قيل لابن عمر رضى الله عنهما (٢) إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره ، فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه فلو استغنى عن الدخول ، ولكن اذا دخل يخاف ان لم يثن فهو نفاق لأنه الذى أحوج نفسه الى ذلك ، فان كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق ، وهذا معنى قوله ﷺ « (٣) حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » لأنه يحوج إلى الأمراء والى مراعاتهم ومراآتهم . فأما اذا ابتلى به لضرورة وخاف ان لم يثن فهو معذور . فان اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضى الله عنه « إنا لنكشر فى وجوه أقوام ، وان قلوبنا لتلعنهم » . وقالت عائشة رضى الله عنها « (٤) استأذن رجل على رسول الله ﷺ . فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ، ثم لما دخل ألان له القول . فلما خرج قلت يارسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول ، فقال ياعائشة ان شر الناس الذى يكرم اتقاء شره » ، ولكن هذا ورد فى الاقبال وفى الكشر والتبسم . فاما الثناء فهو كذب صراح ، ولا يجوز إلا لضرورة أو اكراه يباح الكذب بمثله كما ذكرناه فى آفة الكذب بل لا يجوز

---

(١) حديث أبغض خليقة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم فى صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم ، الحديث لم أقف له على أصل

(٢) حديث : قيل لابن عمر إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره . قال كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الطبرانى من طرق

(٣) حديث : حب الجاه والمال ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل ، أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف الا أنه قال حب الغناء . وقال العشب مكان البقل

(٤) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة الحديث ، وفيه إن شر الناس الذى يكرم اتقاء لشره ، متفق عليه ، وقد تقدم فى الآفة التى قبلها

الثناء

الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كل كلام باطل فان فعل ذلك فهو منافق بل ينبغى أن ينكر فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه .

الآفة الثامنة عشرة المدح

وهو منهى عنه فى بعض المواضع ، أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ست آفات : أربع فى المادح ، واثنتان فى الممدوح [فأما المادح : فالأولى] أنه قد يفرط فينتهى به الى الكذب . قال خالد بن معدان من مدح اماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤوس الاشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه [الثانية] انه قد يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع مايقوله فيصير به مرائيا منافقا [الثالثة] انه قد يقول مالا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه ، روى، [1] أن رجلا مدح رجلا عند النبى ﷺ . فقال له عليه السلام « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ماأفلح » ثم قال ان كان أحدكم لابد مادحا أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أزكى على الله أحدا حسيبه الله ان كان يرى أنه كذلك ، وهذه الآفة تتطرق الى المدح بالأوصاف المطلقة التى تعرف بالأدلة : كقوله انه متق وورع وزاهد وخير ومايجرى مجراه ، فأما اذا قال رأيته يصلى بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ، ومن ذلك قوله انه عدل رضا فان ذلك خفى ، فلا ينبغى أن يجزم القول فيه الا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل . فقال أسافرت معه . قال لا . قال أخالطته فى المبايعة والمعاملة ؟ قال لا . قال فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال لا . فقال والله الذى لا إله إلا هو لاأراك تعرفه [الرابعة] انه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله ﷺ « [2] ان الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق » . وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى فى أرضه ، والظالم الفاسق ينبغى أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح [وأما الممدوح : فيضره من وجهين] أحدهما . أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا ، وهما مهلكان . قال الحسن رضى الله عنه كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر . فقال رجل هذا سيد ربيعة فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة ، فقال مالى ولك ياأمير المؤمنين قال مالى ولك أما لقد سمعتها . قال سمعتها فمه . قال خشيت أن يخالط قلبك منها شىء فأحببت أن أطأطئ منك [الثانى] هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضى عن نفسه ، ومن أعجب بنفسه قل تشمره ، وانما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا ، فأما اذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ، ولهذا قال عليه السلام : قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ، وقال ﷺ [3] : « اذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا » وقال أيضا لمن مدح رجلا [4] « عقرت الرجل عقرك الله » . وقال مطرف

---

(١) حديث : ان رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك متفق عليه من حديث أبى بكرة بنحوه ، وهو فى الصمت لابن أبى الدنيا بلفظ المصنف

(٢) حديث : ان الله يغضب اذا مدح الفاسق ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث أنس ، وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ، ورواه أبو يعلى الموصلى وابن عدى : بلفظ اذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش . قال الذهبى فى الميزان منكر وقد تقدم فى آداب الكسب

(٣) حديث : اذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا ، ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا .

(٤) حديث : عقرت الرجل عقرك الله ، قاله لمن مدح رجلا ، لم أجد له أصلا .

« ماسمعت قط ثناء ولامدحة إلا تصاغرت إلىّ نفسى » . وقال زياد بن أبى مسلم : « ليس أحد يسمع ثناء عليه أومدحة إلا تراءى له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ؛ فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما ؛ أما ماذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ماذكره مطرف فذلك قلب الخواص » وقال ﷺ [١] « لومشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه » . وقال عمر رضى الله عنه : المدح هوالذبح ، وذلك لأن المذبوح هوالذى يفتر عن العمل ، والمدح يوجب الفتور ؛ أولأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح فلذلك شبهه به ، فان سلم المدح من هذه الآفات فى حق المادح والممدوح لم يكن به بأس ، بل ربما كان مندوبا إليه ، ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على الصحابة فقال [٢] : « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالم لرجح » . وقال فى عمر [٣] « لولم أبعث لبعثت ياعمر » ؛ وأى ثناء يزيد على هذا ! ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق و بصيرة ، وكانوا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا ، بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال ﷺ [٤] « أنا سيد ولد آدم ولافخر » أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم ، وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله و بالقرب من الله لابولد آدم وتقدمه عليهم كما أن المقبول عند الملك قبولا عظيما إنما يفتخر بقبوله إياه و به يفرح لابتقدمه على بعض رعاياه ، و بتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح و بين الحث عليه . قال صلى الله عليه وسلم [٥] وجبت لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد : إن لبنى آدم جلساء من الملائكة ، فاذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة ولك بمثله ، واذا ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحمد الله الذى ستر عورتك ، فهذه آفات المدح .

بيان ماعلى الممدوح

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ولاينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ، ويتأمل مافى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف من نفسه مالايعرفه المادح ولوانكشف له جميع أسراره ومايجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه ، وعليه أن يظهر كراهة المدح باذلال المادح . قال ﷺ [٦] : « احثوا التراب فى وجوه المادحين » . وقال سفيان بن عيينة :

(١) حديث : لومشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه ، لم أجده أيضا .

(٢) حديث : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين لرجح ، تقدم فى العلم .

(٣) حديث : لولم أبعث لبعثت ياعمر ، أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة ، وهومنكر ، والمعروف حديث عقبة بن عامر : « لوكان بعدى نبىّ لكان عمر بن الخطاب » . رواه الترمذى وحسنه .

(٤) حديث : أنا سيد ولد آدم ولافخر ، الترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرىّ والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد ، وله من حديث عبادة بن الصامت : « أنا سيد الناس يوم القيامة ولافخر » ولمسلم من حديث أبى هريرة : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .

(٥) حديث : وجبت ، قاله لما أثنوا على بعض الموتى ، متفق عليه من حديث أنس .

(٦) حديث : احثوا فى وجوه المداحين التراب ، مسلم من حديث المقداد .

لايضر

« لا يغرّ المدح من عرف نفسه » ، وأثنى على رجل من الصالحين فقال : اللهم ان هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى . وقال آخر لما أثنى عليه : اللهم ان عبدك هذا تقرّب إلىّ بمقتك ، وأنا أشهدك على مقته . وقال علىّ رضى الله عنه لما أثنى عليه : « اللهم اغفرلى مالا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى خيرا مما يظنون » . وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال « أتهلكنى وتهلك نفسك » . وأثنى رجل على علىّ كرّم الله وجهه فى وجهه ، وكان قد بلغه أنه يقع فيه ، فقال : أنا دون ماقلت ، وفوق مافى نفسك .

الآفة التاسعة عشرة

الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ فى أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر فى علم أوفصاحة لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله ، مثاله ماقال حذيفة : قال النبىّ ﷺ (١) : « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ماشاء الله ثم شئت » وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكا وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضى الله عنهما (٢) : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يكلمه فى بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم : أجعلتنى لله عديلا ؟ بل ماشاء الله وحده . وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٣) : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، فقال : قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » فكره رسول الله ﷺ قوله ومن يعصهما لأنه تسوية وجمع . وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك . ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك ، وأن يقول لولا الله ثم فلان ولا يقول لولا الله وفلان . وكره بعضهم أن يقال : اللهم اعتقنا من النار ، وكان يقول : العتق يكون بعد الورود ، وكانوا يستجيرون من النار ويتعوّذون من النار . وقال رجل : اللهم اجعلنى ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال حذيفة : إن الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين . وقال ابراهيم اذا قال الرجل للرجل ياحمار ياخنزير قيل له يوم القيامة حمارا رأيتنى خلقته خنزيرا رأيتنى خلقته . وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول لولاه لسرقنا الليلة ، وقال عمر رضى الله عنه (٤) قال رسول الله ﷺ ان الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ، قال عمر رضى الله عنه فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها . وقال ﷺ (٥) « لا تسموا العنب كرما انما الكرم الرجل المسلم » . وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : لا يقولن أحدكم عبدى ولا أمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ، وليقل غلامى وجاريتى ، وفتاى وفتاتى ، ولا يقول المملوك ربى ولا ربتى ، وليقل سيدى وسيدتى ، فكلكم عبيد الله ، والرب الله سبحانه وتعالى . وقال ﷺ (٦) : « لا تقولوا للفاسق سيدنا

---

(١) حديث حذيفة : لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت الحديث ، أبو داود والنسائى فى الكبرى بسند صحيح

(٢) حديث ابن عباس : جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فكلمه فى بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال : أجعلتنى لله عدلا ؟ قل ماشاء الله وحده ، النسائى فى الكبرى بإسناد حسن ، وابن ماجه .

(٣) حديث : خطب رجل عند النبى ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، الحديث مسلم من حديث عدى بن حاتم .

(٤) حديث عمر : ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، متفق عليه .

(٥) حديث : لا تسموا العنب كرما إنما الكرم الرجل المسلم ، متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٦) حديث : لا تقولوا للفاسق سيدنا ، الحديث أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح .

فانه ان يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم » . وقال ﷺ (١) : « من قال أنا برىء من الاسلام فان كان صادقا فهو كما قال ، وان كان كاذبا فلن يرجع الى الاسلام سالما » فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ولا يمكن حصره . ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم أنه اذا أطلق لسانه لم يسلم ، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم (٢) : « من صمت نجا » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهى على طريق المتكلم فان سكت سلم من الكل وان نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ، ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام ، فعساه يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر ، فان كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم ، فكن ممن سكت فسلم ، فالسلامة إحدى الغنيمتين .

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى ، وعن كلامه ، وعن الحروف ، وانها قديمة أو محدثة ، ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما فى القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس ، والفضول خفيف على القلب ، والعامى يفرح بالخوض فى العلم إذ الشيطان يخيل إليه انك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم فى العلم بما هو كفر وهو لا يدرى ، وكل كبيرة يرتكبها العامى فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والايمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة ، وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فانه بالاضافة اليه عامى ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) « ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » . وقال أنس (٤) : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه ، فصعد المنبر وقال سلونى ولا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل فقال يارسول الله من أبى ؟ فقال أبوك حذافة ، فقام إليه شابان أخوان فقالا يارسول الله من أبونا ؟ فقال أبوكما الذى تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال يارسول الله أفى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال لا بل فى النار ، فلما رأى الناس غضب رسول الله ﷺ أمسكوا ، فقام إليه عمر رضى الله عنه فقال : رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ، فقال : اجلس ياعمر رحمك الله ، انك ماعلمت لموفق ، وفى الحديث (٥) « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال » . وقال صلى

(١) حديث : من قال أنا برىء من الاسلام ، فان كان صادقا فهو كما قال ، الحديث النسائى وابن ماجه من حديث بريدة باسناد صحيح .

(٢) حديث : من صمت نجا . الترمذى وقد تقدم فى أول آفات اللسان .

(٣) حديث : ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ، الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث : سأل الناس رسول الله ﷺ يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال سلونى فلا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به ، الحديث متفق عليه مقتصرا على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر ، ولمسلم من حديث أبى موسى : فقام آخر فقال من أبى ؟ فقال أبوك سالم مولى شيبة .

(٥) حديث : النهى عن قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال ، متفق عليه من حديث المغيرة ابن شعبة .

الله

الله عليه وسلم (١) « يوشك الناس يتساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فاذا قالوا ذلك فقولوا « قل هو الله أحد ، الله الصمد » حتى تختموا السورة ، ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم . وقال جابر (٢) : « مانزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال » ، وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال : « فان اتبعتنى فلاتسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال : « لاتؤاخذنى بما نسيت ولاترهقنى من أمرى عسرا » فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا « قال هذا فراق بينى و بينك » وفارقه . فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهومن المثيرات للفتن ، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم فى حروف القرآن يضاهى حال من كتب الملك إليه كتابا ، ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشىء منها ، وضيع زمانه فى أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لامحالة ، فكذلك تضييع العامى حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهى قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى أعلم . انتهى ما أردته من كتاب [إحياء علوم الدين] للامام الغزالى ، والحمد لله رب العالمين .

***

ولنشرع الآن فى ذكر ما جاء فى كتابى [جوهرالتقوى] فقد جاء فيه فى صفحة ١٢٩ ومابعدها تحت العنوان الآتى مانصه :

الحسد

الحسد هوكراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه ، ومن تمنى مثل نعمة غيره فهو الغابط والمنافس ، وهوليس بحاسد :

أسبابه

(١) العداوة (٢) التعزز (٣) الكبر (٤) العجب (٥) الخوف من فوت المقاصد المحبوبة (٦) حب الرئاسة (٧) حب النفس و بخلها ، فيثورالحسد فى النفس على مقتضى الأسباب .

فمن كره امرأ ثقلت عليه نعمته ، وسرته بليته ، واستعذب شقاءه ، ومرت عليه حلاوته ، ومن لم تأن شرته دامت حسرته ، وكم من امرىء كانت نعمته الموهوبة وسعادته المستحدثة وسيلة للاستعلاء فيثورالحسد فى قلب قرينه ، و يأبى إلا التعزز عليه فلايخضع لاستطالته ، ولا يصغر لعظمته ، ومن كانت الكبرياء صفة نفسه لم يستطع أن يرى المتكبر عليهم يساوونه ، ولم يطق صبرا على نعمة لهم حدثت وسعادة أقبلت ، ليبقى عليهم ظاهرا ، وفوقهم قاهرا ، ذلك بسبب الكبر الذى فى نفسه وان لم يتعاظموا عليه . وكم من فتى أثارالحسد فى قلبه ، واشتعل نيرانه ، وألهب سعيره ، تعجبه من ترادف النعم على من يخالفونه ، واستغرابه من تتابع المواهب ، وتواصل المنح ، وتوارد اللطائف ، وقد يشفق من زوال محبوب يبتغيه ، أوفوات مطلوب يرتجيه ، اذا ذاق معارفه نعمة من بعدضراء مستهم ، فينافسونه على مطالبه ، و يزاحمونه فى سلوك سبيله ، كأرض يملكها أوعرس يبنى بها ، أودرجة يرقاها ، أونعمة يلقاها . ومن الناس من يحسد حبا للرياسة ، ومايخشاه من وهن سلطانه ، وانقضاض بنيانه ، وتفويت عزه واستقلاله ، وآخرون خبثت نفوسهم ، وضل سعيهم ، إذ يحسدون

---

(١) حديث : يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق ، الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

(٢) حديث جابر : مانزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال ، رواه البزار باسناد جيد .

الناس على ما آتاهم الله من فضله بلاسبب إلا مرض نفوسهم وشحها ، وسوء طويتهم ، يودّون أن لومنع الله الرحمة عن العباد لايطلبون الانفراد بها ، ولا السيادة على غيرهم ، ولكن أنفسهم ضيقة العطن ، عديمة الفطن ، قليلة الخير ، ميتة الأفئدة ، أولئك هم الحاسدون الضالون .

وكلما تضافرت الأسباب بالاجتماع فى المجالس ، والتجاور فى المنازل . والاشتراك فى الحرمة ، والاقتراب بالنسب أوالمصاهرة كان اضطرام نارالحسد أشد ، وامتداد لهيبها أسرع ، وازداد سعيرها ، وطغى شررها ، وغلت مراجلها ، فزاد احراقها لمواد المحبات ، و إبادتها للذات المودات ، وكانت الحياة حياة الأشرار إذ ذاك شرا و بيلا ، وعذابا أليما . قال ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال عليه السلام : « لاتحاسدوا ولاتقاطعوا ولاتباغضوا ولاتدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » . وقال أنس : « كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال النبى ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل وقاله فى اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبى ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ولزمه ثلاثة أيام فى بيته فلم يجده يصلى بالليل ، فاحتقر عمل الرجل ، فسأله ما الذى بلغ بك ؟ فقال هوماراًيت ، غيرأنى لاأجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولاحسدا على خيرأعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت هى التى بلغت بك وهى التى لانطيق . وقال ﷺ : « ثلاثة لاينجومنهن أحد : الظن ، والطيرة ، والحسد ، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك : اذا ظننت فلاتحقق ، واذا تطيرت فامض ، واذا حسدت فلاتبغ » . وقال الشاعر :

يا أحمد اقنع بالذى أوتيته ☆ ان كنت لاترضى لنفسك ذلها
واعلم بأن الله جل جلاله ☆ لم يخلق الدنيا لأجلك كلها

لاتسلط على قلبك نيران الحسد التى يثيرها أسبابها ، وتفكر فى مصائبه ورذائله ، وماينجم عنه من العذاب الأليم فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ومن ابتلى بالحسد والعياذ بالله كيفما كانت أسبابه تقطعت به الأسباب وأزرى به الكمد ، وتنغص عيشه ألاترى أن نعم الله مترادفة لاينقطع مددها ، ولاينفد خيرها ، ومن ذا أشقى ممن عد نعم الله شقاء عليه وجنته نار عذابه ، ودارشقائه ، فهل يمسك الله المطر خشية عليه ، أويمسك الكواكب لئلا ينقطع فؤاده . فالشمس والقمر والنجوم والجبال والأرض والأنهارمسخرات للعباد وهنائهم وراحتهم وسعادتهم ، فسبحانك اللهم أشقيت قلوبا بالرحمات ، إذ نسوا أنفسهم فتاهوا فى أودية الضلالات ، فعدوا نعم الله على الناس نقما ، وحسبوها لهم شقاء دائما ، فما أكثر نعم الله ، وما أدوم شقاءهم ، وقلت :

وفى القلب نيران وفى القلب جنة ☆ وما أكثر الآلام إلا من الفكر

وكفى الحاسد عذابا أنه معذب بنعيم غيره ، معاقب على الحسد بنفس الحسد ، فلذلك كان طول الحياة له شقاء وموته راحة له ، فكما يتمنى الحاسد زوال نعمة المحسودين يشفى غليل صدور محسوديه أن تطول حياته فيطول عذابه كما قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا ☆ حتى يروا فيك الذى يكمد
لازلت محسودا على نعمة ☆ فانما الكامل من يحسد



الثبات والعزيمه

الثبات المداومة على العمل ، والعزيمة من أحوال الارادة ؛ والثبات حال داعية لادامة العمل إلى النهاية . كم فى الناس من عامل ، وقلّ أولوالعزم ، ولم ينل الرغائب ، و يحظ بالمطالب ، إلا من صحح العزم ، وشمر عن ساعد الجد ، وامتطى العمل .

دراك المعالى فى اقتحام المخاوف ✲ ونيل الأمانى فى ارتقاء التنائف
وما نال مجدا من أدار عروسه ✲ وبانت تعاطيه سلاف المراشف

وقد قلت

إلى ذروة العلياء ياسائق الحرف ✲ فانى شممت اليوم منهاشذا العرف

وما جمع امرؤ أمره ، وجدّ فى طلب مايروم ، إلا خضعت له الآمال ، ودانت له المعالى ، وفاز بالسعادة والكمال ، وتأمل كيف مدح الله أولى العزم فقال : « فاصبر كما صبر أولوالعزم من الرسل » وقصّ عليه أنباءهم ، وكان قصارى أمرهم أنهم فازوا بالسعادة هم والتابعون ، وخسر أولئك الجاهلون .

الصبر

الصبر ثبات الباعث للخير والفضيلة فى مقابلة الباعث للشرّ والرذيلة ، وذلك أن الانسان يشارك الدواب فى الشهوة والغضب ، وليس للصبي ولا للمجنون ولا للبهائم من داع يدعو لقهر الشهوات ، ولا من رادع يردع عن اللذات ، الا إنما يظهر جهادهما ، و يبين التغاضى عنهما ، والتخلى من غائلتهما ، لمن عقل واستبصر وادّكر وتفكر ، ورأى سبيل الرشد فاتخذه سبيلا ، وسبيل الغيّ فلم يتخذه سبيلا .

و بذلك يمتاز العاقل من الانسان عن المجنون والصبي والحيوان ، فالحيوان أسير شهواته ، والعاقل من الانسان عليم بما يعقب الأسر من الاذلال ، ومايجرّ من الوبال ، وهنالك تبتدئ داعية المجاهدة ، وتتولد فى النفس حال تدعو للمقاومة والمناضلة ، فهذه الحال هى المسماة بالصبر الناجة من العلم والهداية الداعية لترك الضلال والغواية ، ألا وان العلم بغبة الشهوات وغائلة اللذات باعث لقيام حال النيات بالأنفس ، وتلك الحال تثمر الأعمال ، فالعلم شجرة ، والأحوال أغصانها ، والأعمال أثمارها .

أسماء الصبر

الصبر فى الأخلاق كالحديد فى الصناعات والملح فى الطعام ، فلاترى طاعة ، ولاخلقا حسنا إلا والصبر مفتاحه وعماده وقوامه ، ألاترى كيف شمل الأعمال البدنية ، والأحوال النفسية ؛ فن احتمل المرض والألم والجراح المصمية ، وقام بالأعمال الشريفة فى عبادة يقيمها ، أوزراعة يتقنها ، أوصناعة يحسنها ، أوتجارة يديرها ، أوادارة ينظمها ، فهو من الصابرين فى النوعين : الاحتمال والأعمال .

العفة

ومن زكى نفسه بالتباعد عن مقتضى شهوتى البطن والفرج فهوالعفيف حتى لايطيع داعى اللهو والزينة ، ولايتدانى من المحرّمات ، ومن تعالت نفسه عن الخضوع لنائبات الدهر سمى صابرا ، والافهوالجازع والهلوع ، برفع الصوت ، وضرب الخد ، وشق الجيب .

ضبط النفس والبطر والمرح

واذا لم تستفزه داعيات الغنى ، فهو الضابط لنفسه ، والا فهو البطر المرح .

الشجاع والجبان

وان قاوم الأقران فى ساحة الحرب والميدان ، فهو الشجاع والا فهو الجبان ، وان كظم غيظه ، ولزم السكينة عند اهتياج الغضب ، فهو الحليم والا فهو الأحمق السفيه .

كتم السرّ وافشاؤه

واذا أخفى الكلام لاقتضاء المقام فهو الكتوم للسرّ ، والا فهو المفشى للأسرار ، فان اطمأنت نفسه فلم تجزع على فضول العيش فهو الراضى ، والا فهو الحريص .

القناعة والشره

ومن اكتفى بالقليل فهو القنوع ، وضده الشره ، فأنت من هذا ترى أن الصبر ماترك بابا من الأخلاق إلا ولجه ، ولاخصلة إلاقرعها ، فهو جدير بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الايمان [هوالصبر] .

ولما كانت أحوال الانسان لاتخلومن مكروه يحتمله ، أومحبوب يشكرعليه ، روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « الايمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » ولما كان المصبور عليه إما شهوة واما غضبا ، كان الصوم صبرا عن شهوتى البطن والفرج ، لا الغضب ، ولذا ظهر سرّ قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر » فيكون الصوم ربع الايمان ، وقد يراد بالايمان مايشمل العلم والعمل ، ولاعمل إلا مع الصبر تركا أو فعلا ، فيكون الايمان راجعا ليقين وعمل على مقتضاه ، فلذلك قال ﷺ : « من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحبّ إلىّ من أن يأتينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف عليكم أن تفتح الدنيا عليكم بعدى فينكر بعضكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بثوابه ، ثم قرأ قوله تعالى : [ماعندكم ينفد وما عند الله باق] » .

وروى جابر أنه سئل ﷺ عن الايمان فقال : الصبر والسماحة . وقال صلى الله عليه وسلم : الصبر كنز من كنوز الجنة » . وعن عطاء عن ابن عباس قال : لما دخل رسول الله ﷺ قال أمؤمنون أنتم ؟ فسكتنا فقال عمر نعم يارسول الله ، قال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نشكرعلى الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة . وقال تعالى : « والصابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس » أى المصيبة والفقر والحرب .

الصبر واحد ، وانما اختلفت الأسماء لاختلاف المواطن كضوء الشمس يسطع على الأشجار والأزهار والثمار فاختلفت الألوان لتعدّد الأشكال ، واحذر أن تضلّ فى الألفاظ ، وارع المعانى ، واحذر شبهات الاصطلاحات الواردة .

الشجاعة

الشجاعة هى الاقدام على الأهوال مع الروية والتدبير ، ومن أقدم بلاروية أوأحجم وقد فاجأه العدوّ فليس بشجاع ، وانماهوفى الأولى متهوّر ، وفى الثانية جبان ضعيف . الشجاعة أحدالأركان الأربعة ومنزلتهامنها

منزلة

منزلة الجنود من الممالك ، والحصون من الأمصار ، ولكم تمدح شعراء الشرق والغرب بالشجاعة ، وحضوا عليها أممهم ، فالعظيم من لبس تاجها ، والوضيع من حرم فضيلتها ، وحيل بينه و بينها ، الرجل الضعيف القلب الجبان مهضوم الحق مقصوص الجناح ، لايقضون له حاجة ، ولا يسمعون له قولا ، الجبان أشبه شيء بالدجاجة يؤكل لحمه وهومهين ، والشجاع كالأسد ، يحترم ويحرم أكله ، وهومصون ، ومامن أمة فقدت شجاعتها ، واستسلمت ، ونامت على فراش الراحة الوثير إلا ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، و باءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم قوم مستضعفون ، ألم تر إلى عمرو بن كلثوم ، حين قالت هند أم عمرو ملك العرب لليلى بنت المهلهل ابن ربيعة أخي كليب وائل أم عمرو بن كلثوم ياليلى ناوليني الطبق كيف تحمس ابن كلثوم وقتله وقال فى معلقته :

أبا هند فلاتعجل علينا ✡ وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ✡ ونصدرهن حمرا قد روينا
بأى مشيئة عمرو بن هند ✡ نكون لقيلكم فيها قطينا

ومنها

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ✡ ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا ✡ ولكنا سنبدأ ظالمينا

افرط وغلاها فى القوة الغضبية ، وتجاوز الحد كزهير وعنترة فما سيأتى وهذا مذموم كالجبن . الجبن مذموم ، والتهور مذموم ، والشجاعة الوسط . وقال زهير :

ومن لايذد عن حوضه بسلاحه ✡ يهدم ومن لايظلم الناس يظلم

ثم انظر كيف قتل جساس البكرى كليبا التغلبي بناقة سعد جارهم ، وكيف طلب التغلبيون من البكريين قتل جساس قاتل سيدهم ، فأخذت مرة أبا جساس العزة بالاثم وأبى تسليم القاتل فكانت الحروب الشعواء والداهية الدهماء ، وتفانى الحيان بكر وتغلب .

هذه صفة شجاعة العرب الجاهلية الأولى إذ كانوا يحمون الذمار ، ويدفعون العار ، و يوقدون النار ، و يحفظون الجار ، تلك فضيلة وأى فضيلة ، ذلك شرف وأى شرف ، فخر وأى فخر ، ولكنه مصحوب بالجهل تابع لنزغات الشيطان ، ناصر للزور والبهتان ، فكانت الحاجة داعية إلى ما يقوم معوجها ، و يصلح فاسدها ، ولو تبصرت أحوال بلادنا اليوم لرأيت الحمية فيها جاهلية ، والنصر تابعا للعصبية ، لا للعدل فى القضية ، فترى الناس سكارى فى تشاجرهم وماهم بسكارى ولكن الجهل عظيم .

فنحن أحوج إلى عقل يقومنا ، وتمسك بالدين يرجعنا إلى الحق والصواب ، ألا تتعجب كيف جاء القرآن فوجه شجاعة العرب إلى الوجهة العامة والفضيلة الشريفة ، فقال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . وقال : « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » ولقد مدح الاعتدال فى القوة إذ قال : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ونفر من الظلم فقال : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

بذلك ذهبت تلك الحمية ، حمية الجاهلية الأولى ، الحمية المكانية الوقتية ، واستبدلت بأحسن منها وهى الشجاعة التي بها دوخوا المعمورة شرقا وغربا . وقد ذم الله رذيلة الجبن فقال : « وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا » . ما أشأم أيام الأمة الخائرة العزيمة الضعيفة القوى ، الميتة الصبر تضاحكها الأيام قليلا ، وهم على أرائك الراحة متكئون ، وتبسم لها ثغور الزهر على أشجار الحنظل فى ساحة العيش الهنى ، حتى اذا وقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وحكمت القنا

والقضب فى أعناق الرجال ، عبست الأيام بعد ابتسامها ، وذاقوا مرّ الحنظل فقطع أمعاءهم بعد أن راقهم منظره الزاهر ، وأظلهم ورقه الناضر ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين رضوا بالظلم واستناموا للخسف فأصبحوا فى ديارهم صاغرين .

ليست الشجاعة قاصرة على القتال والذب عن البلاد بالحرب . كلا . فليس يتم للناس عمل إلا بقوة القلب وتحمل المكروه فى قول الحق ، ومامن عالم إلا ابتلى بمن يشنؤه .

لن ينقضّ بنيان البدعة فتقام على أنقاضه قصور السنة إلا بقول الحقّ ولوكره الحاسدون ، ولن تموت الرذيلة ، وتحيا الفضيلة ، إلا اذا قاوم المصلحون تلك العقول الجامدة ، وهزموا صفوف تلك النفوس الخامدة . ولعمرك إن الشجاعة فى مقال الحق لأعلى منارا ، وأرفع شأنا ، وأشرف منالا من اقتحام الهيجاء ، والحرب قائمة ، والرماح مشرعة ، والسيوف مصلتة ، ألا ان العالم بقوله يصلح الألوف والألوف ، ولذلك كان الصدّيقون أعلى من الشهداء مقاما ، وأقرب إلى الأنبياء مجلسا .

الا أحدّثكم أيها الأذكياء بحديث السلف الصالح رضى الله عنهم ورضوا عنه ، إذ كانوا يصدعون بالحق وبه يعدلون كأبى بكر الصدّيق وطاوس اليمانى وسفيان الثورى وعطاء بن أبى رباح وأبى حازم وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم ، أولئك الذين هدى الله فقالوا الحقّ وصدقوا فى المقال ولم يخافوا لومة لائم ولم يخشوا إلا الله .

[روى] عن ضبة بن محصن العنزى قال : كان علينا أبوموسى الأشعرى أميرا بالبصرة ، فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه ، قال فغاظنى ذلك منه ، فقمت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إلى عمر يشكونى يقول : إن ضبة بن محصن العنزى يتعرض لى فى خطبتى ، فكتب إليه عمر أن أشخصه إلىّ قال فأشخصنى إليه ، فقدمت إليه ، فضربت عليه الباب ، فخرج إلىّ فقال من أنت ؟ فقلت أنا ضبة ، فقال لى : لامرحبا ولا أهلا ، قلت : أما المرحب فمن الله ، وأما الأهل فلا أهل لى ولامال ، فبماذا استحللت ياعمر اشخاصى من مصرى بلاذنب أذنبته ، ولاشيء أتيته ، فقال ما الذى شجر بينك وبين عاملى ، قال قلت الآن أخبرك به : انه كان اذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبيّ ﷺ ثم أنشأ يدعو لك ، فغاظنى ذلك منه ، فقمت إليه وقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إليك يشكونى ، قال : فاندفع عمر رضى الله عنه باكيا وهو يقول : أنت والله أوفق منه وأرشد ، فهل أنت غافر لى ذنبى يغفرالله لك قال : قلت غفرالله لك يا أمير المؤمنين ، قال : ثم اندفع باكيا وهو يقول : والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر ، فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه ؟ قلت نعم . قال : أما الليلة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فتبعه أبو بكر وجعل يمشى مرة أمامه ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن يساره ، فقال رسول الله ﷺ ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أفعالك ! فقال يارسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك ، قال فمشى رسول الله ﷺ ليلة على أطراف أصابعه حتى حفيت ، فلما رأى أبو بكر انها قد حفيت حمله على عاتقه ، وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله ثم قال : والذى بعثك بالحقّ لاتدخله حتى أدخله فان كان فيه شيء نزل بى قبلك قال فدخله فلم يرَ فيه شيئا فحمله وأدخله ، وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاع ، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، وجعلن يضربن أبا بكر فى قدمه ، وجعلت دموعه تنحدر على خدّيه من ألم مايجد ورسول الله

صلى

صلى الله عليه وسلم يقول له : يا أبا بكر لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله السكينة عليه والطمأنينة لأبى بكر ، فهذه ليلته .

وأما يومه فلما توفى رسول الله ﷺ ارتدت العرب ، فقال بعضهم : نصلى ولانزكى فأتيته لا آلو نصحا فقلت ياخليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم ، فقال لى : أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام ؟ فبماذا أتألفهم ، قبض رسول الله ﷺ فارتفع الوحى ، فوالله لومنعونى عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، قال فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر ، فهذا يومه .

ثم كتب إلى أبى موسى يلومه . أما طاوس اليمانى فانه كان من التابعين ، وكان من حديثه مع هشام ابن عبد الملك ، إذ أتى المدينة أن قال له هشام عظنى ، فقال : سمعت من أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه يقول : إن فى جهنم حيات كالقلال ، وعقارب كالبغال ، تلدغ كل أمير لايعدل فى رعيته .

وأما سفيان الثورى فقد كان من حديثه أنه لما دخل على أبى جعفر المنصور ، قال له أبو جعفر : ارفع إلينا حاجتك ، فقال : انما نزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعا فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأطأ المنصور رأسه .

وأما عطاء بن أبى رباح فانه لما دخل على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وأجلسه معه عليه ، قال ماحاجتك ؟ فقال ياأمير المؤمنين اتق الله فى حرم الله وحرم رسوله فتعهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فانك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فانهم حصن المسلمين وتفقد أمور المسلمين فانك وحدك المسئول عنهم .

وأما أبوحازم فانه لما سأله سليمان بن عبد الملك بقوله : أىّ الكلام أسمع ؟ أجابه : قول الحق عند من تخاف وترجو ، قال فأىّ المؤمنين أخسر ، قال : رجل خطا فى هوى أخيه وهوظالم فباع آخرته بدنياه .

وأما عمر بن عبد العزيز فانه كان يوما مع سليمان بن عبد الملك فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره فى مقدمة الرحل ، قال عمر : هذا صوت رحمته فكيف اذا سمعت صوت عذابه ! قيل ان عبدالملك ابن مروان خطب يوما بالكوفة فقام إليه رجل من آل سمعان فقال مهلا ياأمير المؤمنين اقض لصاحبى هذا بحقه ثم اخطب ، فقال وماذاك ؟ فقال ان الناس قالوا له مايخلص ظلامتك من عبد الملك إلا فلان فجئت به إليك لأنظر عدلك الذى كنت تعدنا به قبل أن تتولى هذه المظالم ، فطال بينه و بينه الكلام ، فقال له الرجل ياأمير المؤمنين : انكم تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتعظون ، أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فان قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غشّ نفسه ؟ وان قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعلام قلدنا كم أزمة أمورنا وحكمنا كم فى دمائنا وأموالنا ، أوماتعلمون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات ، وأبلغ فى العظات ، فان كانت الأمانة قد عجزت عن اقامة العدل فيها فخلوا سبيلها وأطلقوا عقالها يبتدرها أهلها الذين قاتلتموهم فى البلاد وشتتم شملهم بكل واد . أما والله لئن بقيت فى يديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة لتضمحلن حقوق الله وحقوق العباد ، فقال له : كيف ذلك ؟ فقال لأن من كلمكم فى حقه زجر ، ومن سكت عن حقه قهر ، فلاقوله مسموع ، ولاظلمه مرفوع ، ولامن جارعليه مردوع ، و بينك و بين رعيتك مقام تذوب فيه الجبال حيث ملكك هناك خامل ، وعزك زائل ، وناصرك خاذل ، والحاكم عليك عادل ، فأكبّ عبد الملك على وجهه يبكى ، ثم قال له فماحاجتك ؟ فقال عاملك بالسمارة ظلمنى ، وليله لهو ، ونهاره لغو ، ونظره زهو ، فكتب إليه باعطائه ظلامته ثم عزله .

قال الجاحظ فى كتاب [البيان والتبيين] حدّثنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن أن زيادا بعث الحكم بن عمرو على خراسان فأصاب مغنما ، فكتب إليه زياد : « ان أمير المؤمنين معاوية كتب إلىّ يأمرنى أن أصطفى له كل صفراء و بيضاء ، فاذا أتاك كتابى هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه واقسم ماسوى ذلك » .

فكتب إليه الحكم : « إنى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، ووالله لو أن السموات والأرض كانتا رتقا على عبد فاتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا والسلام » ثم أمر المنادى فنادى فى الناس أن اغدوا على غنائمكم فقسمها بينهم .

وانا نحمد من ضبة ومن بعده صدقهم ولكن لانشاد الناس مشادتهم ، قل الحق وتلطف ، لا تكن فظا فلكل مقام مقال ، وللكلام مواطن . ولقد جرّب الناس قديما القول فرأوا أنجعه فى العقول ألطفه ، وأنفعه فى النفوس أجله . قال تعالى لموسى وهرون عليهما السلام : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . وقال تعالى على لسان نبيه عليه السلام : « و إنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

فإياك أن تقلد كل ماتسمع ، بل اعرض كل شيء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتذكر قول الله تعالى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » .

واذا قرأت فى تاريخ اليونان أن سولون الحكيم قابل اكرسيوس فى مملكة ليديا وهو فى أبهته وسلطانه وعظمته متجملا بأفخر الثياب ، متحليا هو وأعوانه وأرباب دولته بأنواع الحلى الملكية ، والجواهر الغالية الثمينة ، فقال اكرسيوس لسولون : هل رأيت أحدا يلبس ملابسى ؟ فقال نعم الديوك الأهلية والبرية والطاووس ، فغضب ثم قال : هل رأيت أحدا أسعد منى ؟ فقال الملك طيلوس من أهل مدينة أثينا مات سعيدا قرير العين بنصرة وطنه ، ولقد حزن عليه سائر البلاد ، فهذا أسعد منك ، و يليه أخوان اسم أحدهما [كليو بيس] واسم الآخر [بيطون] ، كانا فاضلين صالحين ، أكرما أمهما الصالحة ، حتى انهما جرّا عربتها إلى المعبد ، فدعت لهما ، وأثنى الناس عليهما فماتا صالحين ، مرضيا عليهما من الله والناس ، وعند ذلك غضب اكرسيوس وظنّ أن سولون مجنون ، ثم عرف له فضله بعد حين إذ وضع على النار ليحرق فصرخ بقوله [سولون] فزحزح عن النار ، وسأله الملك عدوّه فأخبره بما جرى له مع سولون فانخلع قلبه وأطلقه .

واذا سمعت عن ذلك الحكيم الهندى [بيدبا] مؤلف كتاب [كليلة ودمنه] وقد دخل على ملك الهند وأغلظ له فى القول ، وقال : لقد ظلمت الرعية ، وأضعت ملك آبائك ، وخربت البلاد ، وأضعت العباد ، فحبسه ثم أطلقه ، وولاه الملك بعد حين ، فاعلم أن هؤلاء قالوا الحقّ ، ووطنوا أنفسهم على المكاره ، نفذ من النار ضوءها ، واعتدل فى قولك ، وتابعهم فى قول الحق ، واصلاح شأن الأمة ، واعدل عن الشتم ، فذلك خير وأحسن تأويلا ، واقرأ قوله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للانسان عدوّا مبينا » ، وقوله : « وقولوا للناس حسنا » وقوله : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولىّ حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » وقوله تعالى : « وليتلطف » .

واعلم أن الأطباء انما يضعون الدواء المرّ فى غلاف ليسهل تعاطيه ، فلنكن أطباء صالحين . واذا رأيت نفسك خائرة القوّة ، هيابة ، تفرّ من الظلام ، وتفزع من الأحلام ، فسلط على الجبن ضده ، وأيقظ النفس من خمولها وخمودها ، وحركها إلى الأنفة والشمم والاباء ، وعدم تحمل الضيم ، وافعل ما حكاه ابن مسكويه عن بعض المتفلسفين انه كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرّض لها ،

ويركب

ويركب البحر عند اضطرابه وهياجه ليعود نفسه الثبات فى المخاوف ويهيج منها القوة التى تسكن عند الحاجة الى حركتها ، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه .

ولقد كنت وأنا بالجامع الأزهر الشريف أقرأ هذا الكتاب ، فأخذت أعلم نفسى علم الشجاعة كما فى ابن مسكويه ، وما أحسن مدارس التعاليم ، فليكن لفضيلة الشجاعة التعليم العسكرى ، وبعض الأمم المتحضرة تعلم أبناءها عموما النظام العسكرى كما فى سويسرا ، ألا فلتفعل مصر ذلك كما أوضحنا فى كتابنا [نهضة الأمة وحياتها] الذى قصدت به نظام الأمة علما وسياسة وعملا .

فلعمرك إن الجبن سجن المترفين ، قيدهم بأغلال وصفدهم فى الأداهم ، ولعلكم قرأتم كتاب [السبق والرمى] فى علم الفقه والناس غافلون لايعلمون لم وضع هذا الباب ، وما أغفل المسلمين اليوم عن هذه الفضيلة ، فاذا لم توقظ الحكومات الناس فليقم الأفراد بتربية أبنائهم ليدلوهم على فطرهم الانسانية ، فذلك أبقى للامم وأحسن وأشجع للأفراد ، فاذا ماتت الشجاعة حل محلها الجبن ، واستولى الترف ، وحاق بالناس الهلاك : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أسئلة

(١) اذكر شجاعة العرب الجاهلية .
(٢) قارن مابين حال المصريين اليوم وحال العرب الجاهلية فى الشجاعة .
(٣) ماذا ترى فى الشجاعة الوقتية المكانية أهى نافعة للأمم ؟ .
(٤) وماذا يجب على مربى الأمة المصرية فى شجاعتهم ؟ .
(٥) قارن حال انتقال الأمة العربية من حمية الجاهلية بحال تربيتنا المصرية الآن .
(٦) ماقصة ضبة مع عمر بن الخطاب ، وماترى فى شجاعته الأدبية ؟ .
(٧) أعط فكرة عامة على الشجاعة الأدبية فى صدر الاسلام .
(٨) قارن ذلك بحالنا اليوم .
(٩) مادواء الجبن ؟ .
(١٠) هل تستنتج من الأبواب السابقة فى الكتاب أسباب الشجاعة وعلاجا آخر للجبن .
(١١) اذا قسا المعلم على التلاميذ فماذا تكون شجاعتهم ؟
(١٢) اذا قهرت الحكومة الأمة وقست عليها فماذا تكون حال الأمة ؟ .
(١٣) ماذا يجب على المعلمين وعلى الحكام حتى لايميتوا الشجاعة ؟ .

الكرم والبخل

من أدى من ماله واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به فهو الكريم ، ومن قصر فيما وجب عليه منهما فهو البخيل ، فمن شاح فى المحقرات وضايق فى الصغائر والهنات مع الخدم ، أو أطال فى مشاحنة عياله وأهله أو قريبه على نفقة وسم بالبخيل ، ولاقيد يحصر أقسام البخل وأوصاف البخلاء إلا العادة والعرف ، فلقد ينفق الرجل كثيرا ويشح بالقليل فيحسب بخيلا فانه قصر حيث ينبغى الايفاء ، ومنع حيث يجدر الاعطاء ، لا كرم إلا حيث يكون البذل محبوبا ، والعطاء مرغوبا ، والافتكار تكرم وتكلف ، سبب البخل غلبة الشهوات وطول الأمل ، ورحمة الولد ، وخوف الفقر ، وقلة الثقة بمجىء الرزق ، وعشق المال لذاته .

من غلبت عليه شهواته فليعلم أنها نار تلظى مهما أمدها بالوقود احتدم وطيسها ، وغلت مراجلها ، وارتفع لهبها ، وقالت هل من مزيد ، ومن طال أمله فليتذكر الاخوان والأقران الذين طمعوا كما طمع ، وجمعوا كما جمع ، ثم اختطفهم المنون ، وهم عن التذكرة معرضون ، ومن جمع المال للولد فليعلم أنه ان يكن من المؤدبين المتعلمين فقد عاش كما يحيا المجتهدون ، ولله فى خلقه شؤون ، وان كان ممن ارتطموا فى أوحال الشهوات ، وباعوا أنفسهم للموبقات ، وعكفوا على اللذات ، فالمال طامة كبرى ، وآفة عظمى ، ومجلبة لشقائه ، وزيادة فى بلائه .

ومن خاف الفقر وقلت ثقته بالله عز وجل فليكشف الغطاء عن عينه ، وليتفكر فى الحشرات والطيور والبهائم « وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » . ومن أصبح عاشقا للمال مغرما بجمعه كان كالشيخ الهرم الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، تحت أطباق الثرى حتى لايرى فلقد علم أنه لاينفعه فى حياته ، ولاينتفع به بعد مماته ، ومن ابتلى بهذا الداء فقلما يرجى علاجه . وقد قلت :

وما هذه الدنيا سوى البرق لامعا ☆ فهـذا به يلهو وذا رائد القطر

وماهذه الدنيا سوى الروض يانعا ☆ وأثمارها حسن الأحاديث والذكر

فمن كرمت نفسه ، وأنفق ماله ، انطلقت الألسنة بمدحه ، وتناقلت الركبان ثناءه ، وجنى ثمرات عمله ، كرتين فى الدنيا والآخرة كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فمن أنفق فلنفسه يرجع الثناء ، وله يكون الهناء ، ومن قتر فهو المحروم ، المبعد عن الله والناس . هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه . وتذكر ماخاطب به حاتم ماوية بنت عفزر :

أماوى ان المال غاد ورائح ☆ ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماوى انى لا أقول لسائل ☆ إذا جاء يوما حل فى مالى النكر

أماوى إما مانع فمبين ☆ وإما عطاء لاينهنهه الزجر

أماوى مايغنى الثراء عن الفتى ☆ اذا حشرجت يوما وضاق لها الصدر

أماوى ان يصبح صداى بقفرة ☆ من الأرض لا ماء لدى ولاخمر

ترى أن ما أنفقت لم يك ضرنى ☆ وأن يدى مما بخلت به صفر

لقد علم الأقوام لو أن حاتما ☆ أراد ثراء المال كان له وفر

النفوس الكريمة تريد أن تكون شموسا مشرقة وآنية فياضة ، فيجودون بالموجود من صدقة ، ويألمون لقلة ذات اليد حرصا على الكرم . قال الامام الشافعى :

يالهف قلبي على مال أفرقه ☆ على المقلين من أهل المروءات

إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى ☆ ماليس عندى لمن إحدى المصيبات

ومما يسر عند السمر ، ويحلو فى البدو والحضر ، مايروى أن أبا تمام دخل على ابراهيم بن شكلة وامتدحه بأبيات وكان عليلا فتقبلها وأمر حاجبه أن يبوئه مبوأ صدق ، ويعد له نزلا ومرحبا سهلا حتى يبل من مرضه ، فأوحشه طول المقام ، فكتب إليه يقول :

ان حراما قبول مدحتنا ☆ وترك مايرتجى من الصفد (١)

كما الدنانير والدراهم فى الـ ☆ بيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى ابراهيم قال لحاجبه : كم أقام بالباب ؟ قال شهرين ، قال أعطه ثلاثين ألفا وجئنى

(١) العطاء .

بدواه

بدواء ، فكتب إليه يقول :

أعجلتنا فأتاك عاجـل برّنا ☆ قـلا ولو أمهلتنا لم نقلل

نخذ القليل وكن كأنك لم تقل ☆ ونـكون نحن كأننا لم نفعل

أذلك خير أمن صار مثـلا فى الآخرين ، ونـكالا فى الغابرين ، كمثل أعرابى أقبـل يطلب رجلا و بين يديه تين فغطى التين بكسائه ، فجلس الأعرابى ، فقال له الرجل : هل تحسن شيئا من القرآن ؟ قال نعم ، فقرأ « والزيتون وطور سينين » . فقال : وأين التين ؟ قال هو تحت كسائك . انتهى ما أردته من كتابى « جوهر التقوى » و بهذا تمّ الكلام على اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد »

اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم التى لا نعمة تفضلها ، وأشكرك على جزيل مواهبك ، وجيل آلائك ، فلقد فتحت باب العلم فتحا مبينا ، وشرحت صـدرى لهذا التفسير ، وأصبح مافى كتابك من المعانى الغائبة عن الناس أشبه بالملموس باليد ، المنظور بالعين ، المسموع بالأذن ، فأنت يارب العلم والملهم ، وأنت رب العالمين . من ذا الذى كان يحتاج فى صـدره أن معانى هـذه الآية التى ذكرت فى أحوال الآخرة أصبحت كالشاهد المحسوس الذى تدل أوائله المشاهدة على أواخره الغائبـة ، إن هذه الآية قد ضمت فى فحواها جميع ماينتاب الناس فى الحياة الدنيا من الاذلال والآلام وهم لايشعرون :

(١) إن أوّل ما أيقظنى لمناها ما اتفق لى وأنا شابّ ، وقد جلست مع الفلاحين فى قريتنا ، وسمعتهم يذكرون رجلا انتابه مرض خاص لاأتذكره ، وكلما وضعوا البطيخ فى فمه فأكله اعترته حال شديدة فعطش فأعطوه غيره ، فخطرت لى هذه الآية حالا ، وقلت فى نفسى : هذه جهنم قد ظهرت فى معدات الانسان ، وفى حرصه وطمعه ، وجميع أحواله ، وهـذا الذى سمعته الليلة ماهو إلا اعلام من الله لى بتفسير هذه الآية ، إن إلحاح الشهوات والعطش المستمرّ على هـذا المريض هوعينه مايحسّ به الفقراء والأغنياء والعلماء والجهلاء والملوك والسوقة من الرغبات التى لاحدّ لها فى جميع أطوار الحياة ، إذن هـذه الدنيا مبادئ جهنمية غاية الأمر أنها خفية لم يتفطن لها الناس .

(٢) ولما دخلت مدرسة [دار العلوم] وكنت مرّة فى زمن العطلة الصيفية ، وقد توجهت إلى القاهرة فزرت حديقة الحيوانات بالجيزة يوما ثم رجعت قابلنى وأنا راجع عند الكوبرى رجل جمعتنى وإياه المصادفات فى المدة التى فتح فيها الكوبرى لمرور المراكب فقصّ علىّ قصصا ، قال : أنا كنت متعلما فى مدرسة الألسن التى أنشأها المرحوم محمد على باشا . ثم صرت موظفا ، وهناك أحوال خاصة ألزمتنى المنزل فأصبحت لا عمل لى فلزمت بنت الحان ، وصرت مدمنا ، ولى أصدقاء مدمنون مثلى ، ولكنى وقتا فوقتا أتذكر ما كنت أسمعه من الأساتذة : « إن شارب الخمر يصابون بأمراض تفتك بهم » وههنا تقوم حرب شعواء بين هذه الشهوة التى ملكت قيادى و بين العلم الذى لا أشكّ فى صـدقه القاطع بضرر الخمر ، وههنا العذاب الواصب الذى ماله من دافع ، فأنا دائما بين نارين : نار الخوف الدائم من حلول الأوصاب والأمراض ، ونار الشـهوة المحرقة المطلعة على فؤادى ، وطالما ذهبت إلى سيدنا الحسين ، وصليت فى مسجده ، وطلبت من الله أن يريحنى من هـذا المصاب ، فأتوب يومين ، فيرجع لى إخوان السوء ، فيلحون علىّ ، فأرجع كرة أخرى ، ولـكن هذه

المرّة قد تركت تعاطى الخمر (١٤) يوما ، فأنا فرح بهـذه النعمة ، وعـى الله أن يتوب علىّ إنه هو التوّاب الرحيم ، وهنالك أقفل الـكوبرى فررنا عليه وسلم علىّ وانصرف اهـ

ولاجرم أن هذه حال هذا الانسان كله فيما يحيط به ، غاية الأمر أن السكارى هم أوضح مثال لما علق بالناس من العادات ، وأحوالهم صورة ظاهرة واضحة لآيات كثيرة فى وصف أهل جهنم كقوله تعالى : « يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم » وقوله : « ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت » الآية ، وقوله : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيـدوا فيها وذوقوا عـذاب الحريق » . وقوله : « فان له جهنم لايموت فيها ولايحيى » ، وقوله : « وقالوا ياليتنا نردّ ولا نـكذب بآيات ربنا ونـكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لـكاذبون » وقوله : « كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » .

ومن أعجب العجب أن يذكر فى الاهرام حديث يشبه الحديث المتقدم يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠ و بين هذا الحديث والحديث الذى سقته لك الآن ٤٠ سنة ، والحديثان متشابهان غاية الأمر أن الحديث فى هذه السنة (١٣٥٠ هجرية) وهى سنة طبع هذه الأجزاء يدل دلالة واضحة على تقدم الفحشاء والمنكر فى بلادنا المصرية تقدما محسوسا ، فان الفتى الذى قابلنى عنـد الـكوبرى كان يبكى و يحزن لأجل الادمان على شرب الخمر ، وأقوى عامل أورث شيوع الخمر فى بلادنا اضـلال الاستعمار بين من أهل أوروبا لشباننا ، وبهم استأصل داء الجهالة والغواية ، والفقر والدين واستحكم وأفسد الطباع ، ونجح الاوروبيون نجاحا عظيما فى إفساد أبنائنا بسبب الامتيازات الأجنبية ، وأهل الرأى فى البلاد عاجزون عن تربية هذا الشعب ، وأكثر العقول منصرفة عن حقائق العلوم ، عاكفة على ظواهرها وعلى حفظ اللغات ، وذلك كله بفتنة الاستعمار التى لم تجد لها مرتعا خصيبا إلا فى بلادنا : و « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

واعلم أن هذا الشاب الذى قابلنى عند الـكوبرى هو وأمثاله مثل ساقه الله لتفسير هذه الآية ، وهذا المثل ليس خاصا بهذا الفتى ، بل الناس كلهم تحكمهم عادات وأخلاق لايجدون عنها محيصا كما قدّمت ذلك من قبل فها نحن أولاء نشاهد أنفسنا قد اعتـدنا على ملابس ومآكل ومشارب وأحوال اجتماعية لانجد منها مخرجا ونقول نفس مايقوله هذا الفتى سواء بسواء ، نحن نأكل الأطعمة الضارّة بالصحة ثم نذم هذه العادة التى ملـكتنا ، وهانحن أولاء نسمع بحديث الفيتامين المتقدّم المذكور فى [سورة ص] عند قوله تعالى : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » فنريد أن نحافظ على صحة أجسامنا ، وجمال عقولنا ، فنأكل الفواكه والخضر والحبوب ونحوذلك فنجد العادات التى ورثناها لنا بالمرصاد ، ونسمع علماء الطب يقولون لنا : « إن مقابلة الأجسام للشمس والهواء أوأكثرها تورث صحة وعافية ، وأن كثرة الملابس تحجب الأجسام عن الشمس والهواء وهما النعمة العظمى للصحة » فنجد العادات تقول لنا : لتبقوا محجوبين عن الشمس ، ولتـكونوا ضعافا خوفا من الفضيحة والعار ، ونرى المحرم بالحج قد لبس الملابس الخفيفة تعبـدا ، فنقول : هذا ديننا قد فتح لنا باب الصحة ، فمالنا لانلبس كما يلبس العرب فى البادية والمحرم بالحج ، فتقف عاداتنا سدّا حصينا بيننا و بين الصحة والعافية ، ونرى الأمم الاوروبية قد أخذت علوم آبائنا وانتفعت بها والقرآن يحضّ عليها ، والطيارات أحاطت بنا من كل جانب ونحن أبناء العرب ممزقون متفرّقون ، فالمصريون أمة ، وأهـل تونس أمة ، وأهل الجزائر أمة ، وأهل مراكش أمة ، وفى سورية أمم بفعل أهل أوروبا تفريقا لنا ، وفى العراق أمة ، وفى نجد ، وفى الحجاز أمة ، وفى اليمن أمة ، وكل هؤلاء متباعدون متفرّقون ، ومتى أراد عقلاؤهم الخروج من هذا التفرّق قابلتهم عاداتهم وأهواؤهم ، وما ورثوه من آبائهم فى القرون المتأخرة ، فاستمرّ التفريق ودخول الدخلاء بينهم

مما

مما لم تتصف به أمة غيرهم فى زماننا من الفرس والألمان والانجليز والأسبان وغيرهم ، ولكن هـذا التفسير وأمثاله سيكون من أسباب التغلب على العادات الموروثة ان شاء الله تعالى ، وستزول الآلام الشخصية والاجتماعية « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » والحمد لله رب العالمين .

جوهرة فى اعجاز القرآن من حيث بلاغته

حديث عجيب فى بلاغة آية : يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد

فى يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٣٢ قابلنى الأديب المصرى الاستاذ كامل كيلانى فحدثنى حديثا عجيبا كان أشار إليه قبيل ذلك بمدة قبيل تقديم هذه السورة إلى الطبع ، وهذا الحديث راجع إلى البلاغة التى ظهرت فى آية : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » فهاك حديثه :

قال : كنت مع الاستاذ [فنكل] وهو من أفاضل المستشرقين الأمريكيين ، وكانت بينى وبينه صلات أدبية وثيقة : وكان يأخذ برأيى فى ذكر المثاكل التى تقابله فى الأدب لما يعتقده فىَّ من الصراحة ، ففى ذات يوم همس فى أذنى متهيبا ، فقال : خبرنى عن رأيك بصراحتك المعروفة ؟ أممن يعتقدون اعجاز القرآن أنت ، أم لعلك تجارى جمهور المسلمين الذين يتلقون ذلك كابرا عن كابر ؛ وابتسم ابتسامة كل معانيها لا تخفى على أحد وهو يحسب أنه قد ألقى سهما لا سبيل إلى دفعه ، فابتسمت له كما ابتسم لى وقلت : لكى نحكم على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقلده فلنحاول ليظهر لنا أنحن قادرون أم عاجزون عن محاكاته وتقليده ، فلنجرب ان نعبر عن سعة جهنم فماذا نحن قائلون ؟ فأمسك بالقلم وأمسكت به ، فكتبنا نحو عشرين جملة متخيرة الأسلوب نعبر بها عن هذا المعنى أذكر منها :

(١) إن جهنم واسعة جدا .
(٢) إن جهنم لأوسع مما تظنون .
(٣) إن سعة جهنم لا يتصورها عقل انسان .
(٤) إن جهنم لتسع الدنيا كلها .
(٥) إن الجن والانس اذا دخلوا جهنم لتسعهم ولا تضيق بهم .
(٦) كل وصف فى سعة جهنم لا يصل إلى تقريب شىء من حقيقتها .
(٧) إن سعة جهنم لتصغر أمامها سعة السموات والأرض .
(٨) كل ما خطر ببالك فى سعة جهنم فانها لأرحب منه وأوسع .
(٩) سترون من سعة جهنم مالم تكونوا لتحلموا به أو تتصورروه .
(١٠) مهما حاولت أن تتخيل سعة جهنم فأنت مقصر ولن تصل إلى شىء من حقيقتها .
(١١) إن البلاغة المعجزة لتقصر وتعجز أشد العجز عن وصف سعة جهنم .
(١٢) إن سعة جهنم قد تخطت أحلام الحالمين وتصور المتصورين .
(١٣) متى أمسكت بالقلم وتصديت لوصف سعة جهنم أحسست بقصورك وعجزك .
(١٤) إن سعة جهنم لا يصفها وصف ، ولا يتخيلها وهم ، ولا تدور بحسبان .
(١٥) كل وصف لسعة جهنم إنما هو فضول وهذيان .

إلى آخر هذه الجمل التى لا أذكر إلا ما ذكرت لتقادم العهد وطول الزمان ، فقلت له مبتسما ابتسامة الظافر

الوائق : الآن تتجلى لك بلاغة القرآن وإعجازه بعد أن حاولنا جهدنا أن نحاكيه فى هذا المعنى ، فقال : هل أدّى القرآن هذا المعنى بأبلغ مما أدّيناه ؟ فقلت لقد كنا أطفالا فى تأديته ، فقال مدهوشا : وماذا قال ؟ قلت له : قال « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » ، فصفق أوكاد ، وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة المعجزة ، وقال لى : صدقت نعم صدقت ، وأنا أقر لك ذلك مغتبطا من كل قلبى (هذا لفظه) فقلت له : ليس عجيبا أن تذعن للحق وأنت أديب خبير بقيمة الأساليب ، وهذا المستشرق يجيد الانجليزية ، لأنها لغة بلاده فى أمريكا ، والألمانية لأنها اللغة التى درس بها الأدب ، والعبرية لأنها لغة الامومة ، والعربية لأنها اللغة التى وقف حياته على درس أدبها ، فهو رجل متخصص للأدب ، وقد جعل حياته وقفا عليه . انتهى الحديث .

هذا حديث الاستاذ [كامل كيلانى] ذلك الشاب الذى ظهر ببلادنا المصرية فى هذه السنين ، وله كتب منشورة نهج فيها منهجا حديثا .

موازنة بين الأدب فى هذا العصر اى سنة ١٩٣٢

وفى المدة الأولى أيام شبابى فى نحو سنة ١٨٨٧ م

ذلك أن مصر فى ذلك العهد كان فيها بعض الأدباء والشعراء ، وأنا كنت أتعلم إذ ذاك فى الجامع الأزهر ، ومن العجب أن السؤال الذى وجه إلى هذا الشاب الأديب وجهته إلى أستاذى العلامة الشيخ محمد النجدى ، وقد كنت أتلقى عليه الأدب بالطريقة القديمة إذ كنا نقرأ كتاب السعد للتفتازانى فى الأدب ، وكذلك الأشمونى فى النحو والصرف ، وانصرف زمن الشباب فى ذلك الأدب ، ونحن لانذوق منه شيئا ، ذلك أنى سألته خارج الدرس قائلا : ياسيدى أنت أعلم العلماء فيما أعلم بفن الأدب ، وأنا أعلم أنك مؤمن بأن القرآن حق وبأنه معجز فى فن البلاغة ، ولكن هل ذقت أنت نفس هذه البلاغة ، وأحسست من غير أن تتأثر بما تلقيته عن الأشياخ ؟ فأجابنى قائلا . كلا . ياشيخ طنطاوى : ألاترى أننا نضيع حصة كاملة فى إعراب بيت فى كتاب الاشمونى أو إجراء استعارة تصريحية أومكنية أو نحو ذلك ، وهل خرجنا من هذا السجن إلى جوّ البلاغة المضىء البهيج البديع ؟ . انتهى

عجبا يارباه : أمم الاسلام التى خلقت فيها هاهى ذه لما كنت أدرس الأدب وأنا شاب لم يكن ذلك الأدب إلا آثارا ، أمم تذهب وأمم تجىء والأدب يقرأ والغاية منه مجهولة والطريق وعرة .

اللهم لك الحمد والمنة ، ها أناذا الآن أرى الأحوال قد تغيرت ، والوجهة انتظمت ، والعقول استنارت ، هاهوذا الأديب المصرى مع الأديب الأمريكى يرجعان بالأدب إلى حقيقته ويوازنان بين القرآن وكلام الناس ، وكانت النتيجة أن القرآن بليغ .

أيها المسلمون : قد استبان من هذا الحديث أن التعاليم القديمة فى الأدب أخذت تمحى ، وهاهى ذه الأجيال القادمة يظهر لى كما قلت مرارا فى هذا التفسير مقبلون على أيام علم وحكمة وأدب وسعادة وارتقاء . أوليس من العجب أن يكون سؤالى لأستاذى رحمه الله تعالى فى شبابى معادا عينه فى مشيبى ، ثم تكون الآخرة خيرا من الأولى ، أوليس من المدهش هذا الانقلاب السريع فى أمة الاسلام ، إذن ما كنت أتوقعه لأمة الاسلام وذكرته كثيرا فى هذا التفسير آت لاريب فيه والحمد لله رب العالمين .

[تذكرة] فى سورة الفاتحة موازنة بين بلاغة سورة الفاتحة وفواتح السور وبين بلاغة فواتح المعلقات فارجع إليها إن شئت . وإلى هنا تم الكلام على سورة ق والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الذاريات

هى مكية

آياتها ٦٠ — نزلت بعد الأحقاف

(بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً * فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً * إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ *
يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْئَلُونَ أَيَّانَ
يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ *
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ءاخِذِينَ مَاءاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ *
كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ
لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَفِي الْأَرْضِ ءايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ *
وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ
تَنْطِقُونَ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً
قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ
تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ
فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ
الْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ *
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ
فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا ءايَةً لِلَّذِينَ
يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّى

بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ * وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ * فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى دلائل البعث من العلوم الطبيعية ، والعجائب النفسية ، وفى ذكر جزاء المتقين ، وأخبار الأمم المروية من أوّل السورة إلى « لعلكم تذكرون »

القسم الثالث فى تسلية النبيّ ﷺ ، وفى الفرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة المقاصد ، المحفوفة بالمخاطر ، من قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » إلى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

رباه لك الحمد على نعمة العلم وبهجة الحكمة وسعادة الكشف والايضاح ، رحمتك طلسم الوجود ولغز الحياة ، وأحجية الدنيا والدين ، حرنا يار بنا فى رحمتك ، رأيناها حاصلة بالضدّين : الخير والشرّ ، والضرّ والنفع أوليس من العجب أن نرى الجهال من نوع الانسان وأكثرهم جاهلون ، والدواب جميعا تسوقهم للعمل الشهوات وماهى الشهوات ؟ إن هى إلا مهاميز وسياط ونيران تلظى فى هذه الحياة تسوق الناس إلى أعمالهم ،

ينشط

ينشط العامل لعمله ، والتاجر لتجارته ، والسياسي لنظام دولته ، بم نشط هؤلاء ؟ لم يكن ذلك إلا لما يحسون فى أنفسهم من ألم الجوع وبوار التجارة وضياع المجد والخزى والعار أمام الأعداء والأهل والأصحاب .

سبحانك اللهم وبحمدك ، سبحانك ربنا ، إذن حسراتنا وأحزاننا وآمالنا ومسرّاتنا الوقتية وعداواتنا إن هى إلا محركات لهممنا ، سائقات لعزائمنا ، جعلتها يارب أسواطا بها تسوقنا كما نسوق نحن بهائمنا وأنعامنا بما لدينا من سياط وعصىّ وأدوات .

يركب أحدنا الحصان والحمار والفيل والجمل ، ويسوقه بما معه من السياط ، وإنما نفعل ذلك لما نعلمه من أن هذه الدواب لاتسير سيرا على مقتضى رغائبنا غالبا إلا اذا نظمنا سيرها بايقاظها بضرب السياط واعمال المهاميز ، نفعل ذلك ونحن نجهل أنك أنت تفعل معنا مانفعله نحن مع دوابنا ، الله أكبر : نحن فى عالم المادة والمادة هذا شأنها ، عالمنا مادى ، فالمادة كلها آلامه ، لذلك قضيت علينا وحكمت حكما عدلا أن يكون جوع وشبع ، وخير وشرّ ، وضرّ ونفع ، وحبيب وعدوّ . فان كان خير فرح الحبيب فأفرحنا ، وان كان شرّ شمت العدوّ فحركنا للعمل كما نسرّ بتعاطى الطعام ، وبمسرّات اجتماع الزوجين الذكر والأنثى ، والصحة والجمال ، ونحزن للفقر والمرض والذل والخضوع للأعداء ، فنجدّ للعمل حتى نستردّ ما كنا به فى بهجة وحبور ، هما ضدان اتخذتهما برحمتك سوطين يسوقاننا لأعمال الحياة ، أفليس من عجب أن تكون شماتة الأعداء أكبر مقوّم لنا ومرقّ فى الحياة من رضا الحبيب وغفلته أوتغافله عن عيوبنا ، إذن الضدان لابدّ منهما لرحمتنا حتى نحيا سعداء سعادة مّا . يشير لذلك قوله تعالى فى هذه السورة : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففرّوا إلى الله » .

اللهم إن أكثر نوع الانسان مسوقون بهذين السائقين وهم فى رحمتك بهما ، وهذا قوله فى سورة أخرى « قتل الانسان ما أكفره » وقوله : « ولكنّ أكثر الناس لايعلمون » . وهناك صنف من الناس ارتقى عن هذه الطوائف فكان عمله للخير المحض والسعادة المطلقة ، وهذه هى النفوس العالية التى تشرق على هذا النوع الانسانى آنا فآنا .

الله أكبر : هو الرحمن الرحيم ، الله أكبر : هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم ، والجبال والشجر والدواب خلقها برحمته هوابداعا ، وصقل الدنيا كلها بصقال الجمال ، وجعل فى العقول الانسانية من يكونون فى الأرض أشبه بتلك النجوم والشموس والأقمار ، يضيئون على الناس كما تضيء الكواكب والشمس والقمر على الأرض .

الله أكبر : ما أكثر غفلة نوع الانسان ، هذه الطائفة هم الذين قال الله فيهم : « وقليل من عبادى الشكور » ، ألاترى أن شكر النعمة أن يوجه الانسان جميع مواهبه إلى وجهتها ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ يكون مع الناس ومع ربه أشبه بالشمس والكواكب فى عموم النفع بلاطلب مكافأة ولا مجازاة ، وكما أن الشمس منقادة تسير على النظام الجيد الذى رسمه لها المبدع ، وتطيعه طاعة أشبه بطاعة المحب لمحبوبه طلبا لرضاه ، وسعيا لامتثال أوامره ، هكذا هذه الطائفة فى هذا النوع الانسانى نزلوا إلى الأرض لهذه الفضيلة ، شأنهم مع الناس شأن الأمهات مع أولادها ، وشأن الاستاذ الصادق مع تلاميذه النجباء والبلداء ، وشأن الشمس مع الأرض الطيبة والقفراء ، وهؤلاء الشاكرون من نوع الانسان هم الأنبياء والحكماء الذين يخلقون فى الأمم جيلا فجيلا ، هم فى الأرض مع الله أشبه بالكواكب فى إطاعة النظام ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ هم يرقون الأمم بما يحسون فى نفوسهم من حب لها ، وغرام برقيها واسعادها ، لايرقبون جزاء ولاشكورا ، ولن يتمّ لهم ذلك إلا بحبّ وهيام وغرام بمبدع الشموس والأقمار ، فهم عن الله يأخذون ، ولعباده يعطون ، والله يلهم النفوس

العاليــة وهم الملائكة أن تمدهــم من الأنوار التى استمدتها منــه تعالى ، فهؤلاء العلماء فى الأرض والنفوس الشريفة فى العالم الأعلى هم الذين يشهدون نظام السموات والأرض المذكور فى نظرات الخليل عليه السلام وإذن يشهدون الحكمة والجمال والبهجة فى العوالم ، هم المعطوفون على الملائكة فى آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

وستكثر هذه الطائفة فى ديار الإسلام بعد نشر هذا التفسير فى زماننا . وفى الملائكة المذكورين يقول الله فى هــذه السورة : « فالمقسمات أمرا » ، وفى تربية الناس ليستخرج منهم من هو مستعد للتلقى عن تلك النفوس العالية وإن كانوا قليلا يقول فيها أيضا : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحارهم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » . هــذه أوصاف العابدين ، ومن هؤلاء العابدين من تسمو نفوسهم إلى هذه الطائفة بما ركب فيهم من الاستعداد والقوى النفسية وهم المفكرون فأسمعهم ما بعد ذلك فقال : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

فلتنظر أيها الذكى فى نفسك فإن كان عملها للناس لغرض المكاسب كما هو دأب أكثر هذا النوع الإنسانى أو للشهوة ، أو اللذة ، أو العلو على الناس ، فأنت لا تزال فى الدرجات الدنيا من العبادة ، وإن كان عملها بسائق الحب كما تفعل الأم بولدها فأنت فى الذروة العليا ، ثم انظر فى آخر هذه السورة : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » فإن كانت هذه العبادة لأجل الجنة وما فيها فهى المرتبة الدنيا ، وإن كانت الأعمال والعبادات صادرة بحب خالص فإن السعادة والبهجة تعجل لأصحاب هذا العمل فى نفس الحياة الدنيا ، وهذه الطائفة من الآن سعداء ، دنياهم كآخرتهم ، يعبدون الله كأنهم يرونه ، ومن عبد الله كأنه يراه فهذا لا ينتظر جزاء بعد ذلك فقد نال مقصوده ، فكن أيها الحبيب ذلك العبد إن شاء الله .

هذا ما فتح الله به صباح يوم الثلاثاء ٢٩ شوّال سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق ٨ مارس سنة ١٩٣٢ م وكتبته وقت الضحى . وبهذا تم الكلام على القسم الأول فى تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثانى من السورة

فى دلائل البعث من العلوم الطبيعية ، والعجائب النفسية ، وفى ذكر جزاء المتقين ، وأخبار الأمم المروية من أول السورة إلى قوله تعالى : « لعلكم تذكرون »

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والذاريات ذروا) الرياح تذرو التراب وغــيره (فالحاملات وقرا) أى الرياح الحاملات للسحاب (فالجاريات يسرا) أى الرياح الجارية فى مهابها بسهولة (فالمقسمات أمرا) هى الرياح التى تقسم الأمطار بتصريف السحاب ، فالفاء هنا لترتيب الأفعال ، والذات واحدة وهى الرياح ، وجواب القسم قوله (إنما توعدون لصادق) فإن هبوب الرياح وذروها التراب ، وحملها السحاب ، وجريها فى الهواء بسهولة ، وتقسيمها الأمطار كل ذلك مخالف لناموس الجاذبيــة ، إن كل ما على الأرض منجذب لها واقع عليها ، ولكن هنا تصرّفت الرياح تصرّفا عجيبا ، وهــذا التصرّف تابع لسير الكواكب ، لأنها بجريها وبجرى الشمس تؤثر جميعها فى أرضنا وفى هوائها فيتم ما ذكر ، وهــذه الكواكب والشمس تجرى بنظام مقدّر محكم يدل على تدبير عقلى

و نظام

ونظام حكمى ، فاذن يكون ذرو التراب ، وحمل السحاب ، وجريه وتفريقه تابع لنظام سير الكواكب التابع لتدبير النفوس والعقول العالية ، وهم الملائكة المدبرون للعالم الأرضى ، فما ذرت الرياح التراب ، ولاحملت السحاب ، ولاقسمت المطر على البقاع إلا بالحركات الفلكية المنظمة بالعقول الملكية ، وهذا يجمع لك كلام المفسرين رحمهم الله ، فاذا سمعت بعضهم يقول : الذاريات الكواكب ، و بعضهم يقول الملائكة فاعلم أنهم جميعا لاخلاف بينهم لأن الأسباب والمسببات مرتبطات محكمات ، أعلاها سبب فى أدناها ، وليس من الحكمة أن يكون هذا النظام محكما من الأعلى الى الأسفل كما قال تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » ثم تكون نتيجة ذلك الفناء المطلق الذى يدل على أن لاحكمة فى خلق هـذا الانسان ، لذلك جعل الله تلك المذكورات مقسما بها ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ براهين على البعث إذ لولا البعث لكان هذا كله عبثا ، فالمدبرات لهذه العوالم لم تدبره ليفنى ، لذلك قال (إنما توعدون لصادق ، وان الدين لواقع) أى وان الجزاء لحاصل نفيا لفعل العبث من هـذه النظم المحكمة (والسماء ذات الحبك) ذات الطرائق جمع حبيكة كطريقة ، ❊ وطرائق السماء قسمان : محسوسة وهى مسير الكواكب ، ومعقولة وهى مسير العقول فى التفكير فيها للتوصل إلى العلوم والمعارف ، أوذات النجوم ، والنجوم تزين السماء كما تزين طرائق الوشى الثوب ، وتحسن شكله ومنظره ، يقال فى هذا أيضا حبيكة وحبك وحباك وحبك ككتاب وكتب ، يقسم الله بالسماء [ذات طرائق النجوم وطرائق العقول بالتفكر ، أوطرائق الوشى والزينة بنفس النجوم ، ومعلوم أن طرق النجوم ونفس النجوم كلها مرتبطات متعاضدات متحدات المقاصد والأغراض] (إنكم لفى قول مختلف) فى الرسول وفى القرآن ، وفى القيامة ، وفى أمر الدين كأن يقولوا : ان الرسول شاعر ، أوساحر ، أومجنون الخ واقد كانوا يتلقون الرجل فيقولون له : إياك وأن تسمع محمدا انه ساحر أوكاهن الخ فيصرفونه أى عن الايمان به ، ولذلك قال تعالى (يؤفك عنه من أفك) أى يصرف عن القول المختلف أى بسببه من صرف عن الايمان وهـذه الجملة صفة بعد صفة للقول (قتل الخراصون) الكذابون من أصحاب القول المختلف ، وهـذا دعاء بالقتل ولكنه جرى مجرى اللعن (الذين هـم فى غمرة) فى جهل يغمرهم (ساهون) غافلون عما أمروا به (يسألون أيان يوم الدين) أى فيقولون متى يوم الجزاء : أى وقوعه ، وجواب هذا السؤال أنه يقع ذلك (يوم هم على النار يفتنون) أى يحرقون حال كونهم مقولا لهم تبكيتا (ذوقوا فتنتكم) أى تقول لهم خزنة النار : ذوقوا عذابكم واحراقكم فى النار (هذا الذى كنتم به تستعجلون) أى هذا العذاب هو الذى كنتم به تستعجلون (إن المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهـم ربهم) قابلين لكل ما أعطاهـم من الثواب راضين به وآخذين (إنهم كانوا قبل ذلك) قبل دخول الجنة فى الدنيا (محسنين) قد أحسنوا أعمالهم ، وذكر منها هنا مايأتى : (كانوا قليلا من الليل مايهجعون) ينامون ومازائدة : أى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل ، أوهجوعا قليلا (وبالأسحار هم يستغفرون) فهؤلاء يحيون الليل متهجدين ، فاذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم ، والسحر السدس الأخير من الليل . و يقال انهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم اذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » كانوا قل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئا إما من أولها أومن وسطها . وقال أنس بن مالك : « كانوا يصلون بين المغرب والعشاء » أخرجه أبوداود (وفى أموالهم حق) نصيب يستوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله واشفاقا على الناس (للسائل والمحروم) للمستجدى والمتعفف الذى يظن غنيا فيحرم الصدقة (وفى الأرض آيات للموقنين) أى فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوان والنبات والعجائب (وفى أنفسكم) آيات (أفلا تبصرون) تنظرون نظر من يعتبر . وصف الله المحسنين بأنهم مجدون فى العبادة

البدنية ، واخراج المال لمستحقه ، وفيهما إشارة الى الزكاة والصيام والحج ؛ لأن الأول معلوم من الآية والثانى من نوع العبادة البدنية ، والثالث مركب من المال والبدن ولم يبق إلا الايمان والعلم فلذلك أتى بهذه الجمل وهى النظر فى الآفاق وفى الأنفس بأسلوب آخر كأنه كلام مستقل مع أن هذا من قبيل العلم والأول من قبيل العمل ، وكل متمم للآخر ، وانما فصل هذا لأنه مختص بطائفة راقية العقل تنبغ فيه ، فالأولون صالحون ، والآخرون هم الصديقون قال تعالى تتميما لمسائل العلم (وفى السماء رزقكم) أى أسباب رزقكم أو تقديره (وما توعدون) من الثواب ، ذلك لأن الجنة فوق العوالم السماوية ، أو يقال : إن الأعمال وثواب الأعمال مقدرات فى العالم الأعلى (فورب السماء والأرض إنه) أى ما توعدون (لحق) حقا (مثل ما أنكم تنطقون) أى مثل نطقكم ، فكما أنه لاشك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى أن لاتشكوا فى تحقق ذلك . ويمكن أن يقال انه أى الرزق ، وعليه ما يأتى :

[حكى الأصمعى] . قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود ، فقال من الرجل ؟ فقلت : من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ؟ قلت من موضع يتلى فيه كلام الله تعالى . قال اتل على ، فتلوت : « والذاريات ذروا » فلما بلغت : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » ، قال حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى . فلما حججت مع الرشيد ، وطفقت أطوف فاذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق ، فالتفت فاذا بالأعرابى قد نحل واصفر فسلم على واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح . وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا . قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت : فورب السماء والأرض إنه لحق ، فصاح وقال : ياسبحان الله ، من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف : لم يصدقوه بقوله حتى حلف قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه .

واعلم أن مثل هذه الحكاية لاتؤخذ بظاهرها ، وكم للأصمعى من حكايات من عنده . واعلم أن الله عزوجل هو الذى تكفل بالرزق وحده ، فأما زرع الأرض مثلا فليس إلا عملا قليلا جدا ، فما هو إلا وضع حب وانزال ماء وخدمة ، ولكن النمو والخلق وجميع الرزق حاصل بأسباب سماوية من حرارة تارة وبرودة أخرى وعمل عظيم فى الخلق والتصوير والتقدير والعجب العجاب ، فأى دخل للناس فى هذا ؟ هذا معناه إذا أرجع الضمير للرزق فافهم .

ولما فرغ من الدلائل العقلية ، والعبادات البدنية ، وما تقدمها شرع يقص القصص وابتدأ بقصة ضيف ابراهيم التى جاء فى آخرها : « وتركنا فيها آية » لمناسبة بينها وبين : « وفى الأرض آيات للموقنين » قال تعالى (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم) فى هذه الجملة تفخيم للحديث ، والضيف فى الأصل مصدر يطلق على الواحد والمتعدد ، وقوله (المكرمين) أى المكرمين عند الله تعالى وعند ابراهيم إذ خدمهم بنفسه وزوجته وكانوا اثنى عشر ملكا فى صورة الضيف حين أضافهم ابراهيم (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما (قال سلام) أى عليكم سلام ، والابتداء جملة فعلية ، والرد جملة اسمية تفيد الثبات والأولى للحدوث ، فالرد أوكد ، فهذه تحية أحسن من الابتداء . ثم قال أنتم (قوم منكرون) فعرفونى من أنتم (فراغ إلى أهله) فذهب إليهم فى خفية من ضيفانه ، وذلك لأن من أدب الضيافة أن يبادر رب الدار بالقرى خيفة أن يمنعه الضيف أو يطول انتظاره (فجاء بعجل سمين) لأنه كان عامة ماله البقر (فقربه إليهم) بأن وضعه بين أيديهم (قال ألا تأكلون) منه ، وذلك حث منه لهم على الأكل من العجل المشوى لأنه لايؤكل منه إلا بعد ذلك فلم يأكلوا من الطعام (فأوجس) فأضمر (منهم خيفة) خوفا فان من لم يأكل طعامك لايحفظ ذمامك ، وكان فى زمانه اذا أكل الرجل من طعام صاحبه أمنه كما هو حاصل اليوم عند طوائف من العرب ، فلما علموا خوف ابراهيم

(قالوا)

(قالوا لا تخف) منا يا ابراهيم إنا رسل ربك (وبشروه) من الله (بغلام) بولد (عليم) يبلغ ويعلم أونبيّ وهواسحق (فأقبلت امرأته) سارة (فى صرة) أى حال كونها فى صيحة وهى من الصرير (فصكت وجهها) فلطمت بأطراف الأصابع جبهتها كما يفعل المتعجب (وقالت) أنا (عجوز عقيم) فكيف ألد (قالوا كذلك) مثل ذلك الذى قلنا وأخبرنا به (قال ربك) فنحن نخبرك عن الله والله قادر على ماتستبعدينه (إنه هو الحكيم) فى فعله (العليم) فلايخفى عليه شىء . فلما علم أنهم ملائكة (قال فما خطبكم) أى فما شأنكم، وما طلبتكم، وفيم أرسلتم؟ (أيها المرسلون) أى أ إلى البشارة وحدها أرسلتم أم هناك أمر آخر؟ (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أى قوم لوط (لنرسل عليهم حجارة من طين) أى طين مطبوخ كما يطبخ الآجر حتى يصير فى الصلابة كالحجارة (مسوّمة) معلمة من السوم وهو العلامة، وعلامتها تدل على أنها ليست من أحجار الدنيا (عند ربك للمسرفين) أى المجاوزين الحدّ فى الفجور (فأخرجنا من كان فيها) فى قرى قوم لوط (من المؤمنين) ممن آمن بلوط (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) أى غير أهل بيت من المسلمين وهم لوط وابنتاه، وهم موصوفون بالاسلام والايمان (وتركنا فيها آية) علامة (للذين يخافون العذاب الأليم) فانهم المعتبرون بها وهى تلك الأحجار . ثم قال تعالى : (وفى موسى) وهو معطوف على : «وفى الأرض» (إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين) هى معجزاته كاليد والعصا (فتولى بركنه) أى فتولى بما كان يتقوّى به من جنوده، والركن اسم لما يركن إليه الشىء ويتقوّى به (وقال ساحر) أى هو ساحر (أومجنون) فكان ماظهر من الخوارق على يديه منسوب إلى الجنّ (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليمّ) فأغرقناهم فى البحر (وهو مليم) آت بما يلام عليه (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وانما كانت عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم (ماتذر من شىء أتت عليه) مرّت عليه (إلاجعلته كالرميم) كالرماد، من الرم وهو البلى والتفتت (وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) وفى آية أخرى : «تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام» فهذا هو الحين هنا (فعتوا عن أمر ربهم) فاستكبروا عن امتثاله (فأخذتهم الصاعقة) أى العذاب بعد الثلاث (وهم ينظرون) إليها فانها جاءتهم معاينة بالنهار (فما استطاعوا من قيام) وهو قوله فى آية أخرى : «فأصبحوا فى دارهم جاثمين» (وما كانوا منتصرين) ممتنعين منه (وقوم نوح) أى وأهلكنا قوم نوح (من قبل) من قبل هؤلاء المذكورين (إنهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان . ثم رجع إلى ذكر آيات الآفاق المذكورة من الأرض والسماء سابقا فقال (والسماء بنيناها بأيد) بقوّة، والأيد القوّة (وانا لموسعون) أى لموسعون مابين السماء والأرض، أو وانا لقادرون، من الوسع وهو الطاقة، والموسع القوىّ على الانفاق (والأرض فرشناها) بسطناها ومهدناها (فنعم الماهدون) نحن (ومن كل شىء) من الحيوان والنبات (خلقنا زوجين) ذكر وأنثى (لعلكم تذكرون) فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج لتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

القسم الثالث من السورة

فى تسلية النبىّ صلى الله عليه وسلم، وفى الفرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة المقاصد، المحفوفة بالمخاطر

قال تعالى (ففرّوا إلى الله) من الشرك، ومن طاعة الشيطان، ومن كل ماسواه (إنى لكم منه نذير مبين، ولاتجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين) مبين مايجب أن يحذر منه (كذلك) أى كما كذبك قومك وقالوا ساحر أومجنون كذلك (ما أتى الذين من قبلهم) أى من قبل كفار مكة فى الأمم الخالية (من رسول) يدعوهم إلى الايمان والطاعة (إلاقالوا ساحر أومجنون) قال الله تعالى (أتواصوا به) أى كأن الأوّلين

والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضا بهذا القول حتى قالوه جميعا (بل هم قوم طاغون) جمعهم على هذا القول طغيانهم (فتولّ عنهم) أى أعرض عنهم (فما أنت بملوم) أى لا لوم عليك فقد أدّيت الرسالة وما قصرت ، فلما نزلت هذه الآية حزن النبيّ ﷺ وظن أن الوحى انقطع وأن العذاب نازل فنزل (وذكر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين) فلما نزلت هذه الآية طابت نفوسهم ، والمعنى عظ بالقرآن فان الذكرى تنفع من علم الله من استعداده أنه يؤمن منهم (وماخلقت الجنّ والانس إلا ليعبدون) إلا أن آمرهم وأكلفهم : أى ماخلقت الجنّ والانس إلا لآمرهم أن يوحدونى ويعبدونى ، وهذا تفسير سيدنا علىّ كرّم الله وجهه ، وقراءة ابن عباس : [وماخلقت الجن والانس من المؤمنين إلا ليعبدون] . ويصح أن يراد الجميع من حيث انهم مستعدّون بفطرهم للتوحيد ، وانما منعهم عن ذلك الاستعداد ماحصل من الأبوين فانهم يهوّدان المولود وينصرانه ويمجسانه ، فالمقصود على هذا الرأى أنهم خلقوا على الفطرة فلاينافى أن العوارض أزاحتهم عن فطرهم : أى إلا ليكونوا مستعدّين بفطرهم ، وجعل ذلك غاية للمبالغة فى ذلك (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) ما أريد أن أصرفكم فى تحصيل رزق ، فاشتغلوا فيما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به ، فلست معكم كالسيد مع عبيده من الآدميين يعملون ليطعمون ، إن الأمر هنا بالعكس فانى أنا أرزقكم (إنّ الله هو الرزّاق) الذى يرزق عباده لا أنهم هم يسعون لرزقه (ذوالقوّة المتين) شديد القوّة ، واذا كان شديد القوّة فانه قادر أن يعذب الذين ظلموا (فانّ للذين ظلموا ذنوبا) أى فان للذين ظلموك من أهل مكة نصيبا من العذاب (مثل ذنوب أصحابهم) مثل نصيب نظائرهم من الأمم السالفة ، وقد كانت السقاة يقتسمون الماء بالدلاء ، والذنوب هو الدلو على شرط الامتلاء بالماء . وقال الزجاج : الذنوب فى اللغة النصيب (فلايستعجلون) بقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) من يوم القيامة ، أو يوم بدر وأمثاله فى الدنيا . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا ، إن ماتوعدون لصادق ، وان الدين لواقع . والسماء ذات الحبك » .

(٢) وفى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وماتوعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

(٣) وفى قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » .

(٤) وفى قوله تعالى : « فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون » .

اللطيفة الأولى والثانية

فى هاتين اللطيفتين مبحثان

المبحث الأوّل علمى ، والمبحث الثانى أدبى .

المبحث العلمي

لقد سبق لك فى [سورة ق] والحجرات أنهما قد جمعتا بين الأخلاق النفسية فى الحجرات ، والعلوم الطبيعية والفلكية فى [سورة ق] وأن لفظ ق قد جىء به فى وسط العلمين كالتذكرة لهما ، وقد بينا أن الأمم الاسلامية اليوم أحوج ما يكون إلى علوم الأنفس والآفاق ، وأن مافى السورتين المذكورتين نموذج لهما

وان

وأن رقيهم لا يكون إلا بها ، وأن أورو با المحيطة بنا من كل جانب نبغت فيهما ، وأن الله لم يذر وسيلة من وسائل الارشاد للفتنا إلى ذلك إلا جعلها فى هذا القرآن ، لعله أننا بعد القرون الطويلة سنقام على علم الفقه وتظن أنه كاف فى اسعادنا فى الدنيا والآخرة . كل هذا قد تقدم فى السورتين .

أفلا تنظر معى الآن كيف جعل هذه السورة كالمؤكدة لما تقدم فانه ابتدأها بذكر الرياح التى تذرو التراب وغيره ، وتحمل السحاب ، وتجرى بسهولة ، وتفرق المطر على الأقطار ، و بأن السماء ذات الحبائك ، وأنواع الوشى والزينة من كل نجم مشرق اللون ، باهر الجمال ، يزينها السماء بزينة باهرة (وقرئ كالبرق والنعم والجبل والسلك والابل والقفل) كل هـذا بنحو ذلك المعنى ، كأنه عز وجل يقول : هاأنا ذا ياعبادى قد أمرتكم أن تنظروا السماء ، وتعتبروا بالأرض فى [سورة ق] فماذا بعد تو بيخكم على التقاعد عن النظر وحثكم بقولى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » فماذا بعد ذلك إلا أن أجمل العجائب الأرضية ، والطرق السماوية ، وأنواع الزينة الكوكبية قسما أقسم به ، وهل بعد إعظام هذه العجائب مقال لقائل ؟ وهل بعد أن يحلف بها خالقكم من محيص عن النظر فيها والتفكر ؟ .

أقول : ياعجبا لأمة الاسلام ، يظنون أن ما يخاطب به الكافر قد نجوا منه ، يظنون أن الايمان الموروث عن الآباء كاف ، وأن تو بيخ الكافرين على التقصير فى العلم لايوجب تو بيخ المسلمين فيه ، وكأن المسلم يفهم أن الجهل مغتفر منه متى نطق بالشهادتين ، فقد قال الله تعالى فى حق الكافرين : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ولقد تقدم فى حديث عبد الله بن زياد مع عمر أنه رضى الله عنه خاف من هذه الآية ، وقال : لوشئت لملأت هذه الرحاب سبائك ورقاقا وصنابا ، ولكنى رأيت الله نعى على قوم فقال : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » فهاهوذا عمر خاف من هذه الآية مع أنها عملية وقد قيلت فى حق الكفار فما بالك بهذه الآيات التى فى هذه السورة المؤكدة لما قبلها ، قد ذكر الله العجائب الأرضية والعجائب السماوية على طريق القسم وأعاد ذكرهما فقال : « وفى الأرض آيات للموقنين » الى آخر السورة ، ثم ثلث ذكرهما فقال : « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » الخ .

هاهوذا الله يذكر السموات والأرض ثلاث مرات متفرقات فى هـذه السورة عناية بنا ولفت نظر ، وذكر النفس كما ذكر أخلاقها وتطهيرها فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ من أدناس الغيبة والسخرية وما أشبه ذلك وفى النفس آيات ثلاث أصليات لها فروع كثيرات ، إن النفس تعقل وتغضب وتشتهى ، فالشهوة بها حياة الأجسام ، والغضب به حفظ النظام ، و بالعقل التدبير والعلم والاحكام ، وكأنما النفس نهر له ثلاثة جداول ، أوقبيلة لها ثلاث بطون ، أوشجرة لها ثلاثة فروع ، أورجل فهو من جهة حداد ، ومن جهة نجار ، ومن جهة كاتب فله أسماء باعتبار صفاته كما ترى التفاحة حمراء ذات رائحة طيبة حلوة ، فهذه ثلاث صفات لشىء واحد ، فالنفس واحدة ولها الحواس الخمس تجلب لها أنواع الألوان والأشكال وأمثالها بالعين ، وأنواع الأصوات بالأذن ، وأنواع المشمومات بالأنف ، وأنواع الطعوم من حلو وحامض ، ومر ومز ، وحار وملح وماأشبه ذلك بالذوق ، وأنواع الملموسات من ثقل وخفة وحرارة و برودة ورطوبة و يبوسة وماأشبه ذلك بحاسة اللمس ، فهذه المعلومات التى عدها علماء المقولات ستا وثلاثين نوعا تستخرج من المحسوسات وتجتمع عند الحس المشترك ، وهناك تحفظ فى القوة المخيلة كما يجفف الناس الطين بالحرارة فتقلب اللبن وتجعله آجرا ، فكما أن الناس يوقدون على اللبن فيصير آجرا هكذا فى نفوسنا قوة تحفظ صور المحسوسات وتخزنها فيها يقال لها المخيلة ، فالحس المشترك يأخذ الصور من الحواس ويسلمها لتلك القوة فتتصرف فيها فى اليقظة وفى المنام وفى حال السكر والجنون ، فتفعل أفعالا غريبة فى الصور وتبرزها بأحوال مختلفات وتراكيب عجيبة يعرفها جميع الناس فى أنفسهم وعلماء

البلاغة والشعراء ومؤلفوالروايات ، ثم ان الناس كما يتخذون الآجر فى البناء هكذا النفس لها قوّة تقوم مقام البناء تسمى المفكرة وهى تتصرّف فى المعانى المأخوذة من الصور تصرّف البناء فى البناء بالاجادة و بضدها ، ثم ان هناك قوّة تدرك المعانى الجزئيــة تسمى الواهمة ، وهناك قوّة أخرى تحفظ تلك المعانى تسمى الحافظة فعندنا صور أتت بها الحواس والحس المشترك قبلها والخيلة خزنتها وتصرّفت فيها والمفكرة استخلصت المعانى وخزنتها فى العوالم العلوية الروحية ، والمعانى الجزئية تدركها الواهمة كعــداوة الذئب للشاة ، وخزانتها تسمى الحافظة . هذه هى القوى التى فى نفوسنا ، وقد أبدع علماء العصر الحاضر فى أمر النفس وجعلوا أن الدماغ مقسم أقساما كل قسم له جزء مخصوص من العلوم بحيث يكون الدماغ أشـبه بمناطق الأرض لـكل منطقة مزارع خاصـة بها ، فكما لا ينبت النخل فى البلاد الباردة ، ولا البندق فى البلاد الحارّة ، هكذا لا تـكون العلوم الرياضية فى مواضع العلوم الطبيعية فى الدماغ ، ولا تـكون مخازن العلوم فى الدماغ مستعدة لقبول علوم اللغات . هذا جزء يسير من عجائب النفس التى ذكرها الله إذ قال : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم » أى آيات ، فهذه بعض آيات الأنفس .

والمتأمّل لهــذه الآيات يجد فيها عجبا عجابا ! يقول الله : « والسماء ذات الحبك إنـكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك » كأنه يقول : أى عبادى : هاأنا ذا زينت السماء بالنجوم و بطرقها ، وجعلتها حبائك ترونها مزينة لها وأنتم ترون زينتها وحبكها ، وكلما كانت الزينة أكثر عددا وأبدع نظاما كان السرور بها أكثر ، وكانت الحـكمة فيها أعظم ، وقد قلت لـكم : إن فى هذه السماء ذات الزينة رزقـكم وماتوعدون ، فلم لاتوجهون نظركم إليها ؟ ولا تعوّلون فى بحثـكم عليها وعلى الأرض وآفاقها ، وكيف تـكون أنواع الزينة والأنوار فى السماء التى هى قبــلة الأنظار ، وأنتم تستمدّون منها جميع ماتعيشون به ، ثم تـكون سيركم مخالفة لنظامها ، فان طرقـكم ظلمانية ، وأعمالـكم شيطانية ، أفلا تنظرون السماء مشرقة وأنتم مظلمون ، طرقها هداية وطرقـكم ذات ضــلال ، أحاطت بكم السماء المزينة المرصــعة التى فيها رزقـكم وفيها الجنة ، فوعزّتى وجلالى لاتسكنون هناك إلا اذا كانت أعمالـكم مشاكلة لزينة السماء فـكيف تـكون السماء ذات حبك وأعمالكم ذات ظلمات ، فهل يستوى الأعمى والبصــير ، ألم أقل فى القرآن : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستـكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة » فأبواب السماء والجنة محالّ مشرقة بهجة لايدخلها إلا من تربوا تربية تناسب ذلك الجمال ، فـكيف تـكون السماء ذات حبك وزينة وجمال ونظام ، وأعمالـكم ذات ظلمات واختلاف واختلال ، وعزتى وجلالى لأحرّمنّ السماء والجنة على كل من لا يكونون على نسق ذلك الجمال . وقد تقدّم فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ إيضاح الـكلام فى أن الجنة فى السماء المناسب لقوله تعالى هنا « وفى السماء رزقـكم وماتوعدون » .

ياعجبا كيف أصبح المسلمون أبعد الناس عن عالم الجمال ، وقد تولوا عن النظر فى السموات والأرض ، اللهم انى أشهدك وأشهد العالم الاسلامى أن أحوال المسلمين اليوم ذات نقص محزنة ، وكيف لاتـكون نقصا ونحن الآن نجعــل كل همنا نقل أقوال الأئمة رضوان الله عليهم ، ونـكثر نقل الخلاف فى علم واحد وأصوله وهوالفقه ، وقد أعرضنا عن الذاريات ذروا الخ وعن السماء ذات الحبك ، وشغلنا أنفسنا بطرق وعلوم تغشى على عقولنا ، فلا ننظر الطرق السماوية ، والعلوم الحـكمية ، والبهجة الربانيــة ، إن للمسلمين طرفا من هذه الآية ، ان بعضــهم عن السماء محجوبون ، محجوبون بالتقاليد وبدراسة علم الفقه ، و بقول الشيوخ بأنها تـكفى للارتقاء يوم القيامة كأنهم ماقرءوا « والذاريات ذروا » ولاقرءوا « والسماء ذات الحبك » ولاقرءوا « والسماء بنيناها بأيد » .

فلينظر

فلينظر المسلمون فى العلوم ، وليعلموا أن أوان ما أقوله قد أقبل ، وتدهور الاسلام قد أدبر ، وسيظهر فى الاسلام جيل يكون نبراس الأمم فى العلم والحكمة ، والله هو الولىّ الحيد . انتهى المبحث العلمى فى هاتين اللطيفتين . وان أردت سرّ قوله تعالى : « ومن كلّ شيء خلقنا زوجين » فانظره فى أوائل [سورة الأنعام والشعراء] وهكذا تنظر عجائب النبات فى سور كثيرة أقربها [سورة ق] .

المبحث الأدبى

ههنا أخذ الله يقسم بعجائب المخلوقات ، وسيقول : [والطور وكتاب مسطور] الخ والنجم وقوله : « فلا أقسم بمواقع النجوم » فى [سورة الواقعة] وهكذا ، كل هذه ذكرها الله تعالى إعظاما لأمر الأنفس والآفاق ، وتذكيرا للمسلمين أن يتعلموها ، ثم ان العرب لم تكن تعرف القسم بهذا الأسلوب ، وسنوازن فى هذا المقال بين أسلوب العرب وأسلوب القرآن نقلا من كتابى [مذكرات آداب اللغة العربية] الذى ألفته لتلاميذ المدرسة الخديوية ، فهاك ماجاء فيه تحت العنوان الآتى : وهذا نصه .

أقسام العرب وأقسام القرآن

جرت عادة العرب أن يقسموا بلفظ أقسم كقوله :

فأقسم أن لو التقينا وأنتم ✡ لكان لكم يوم من الشرّ مظلم

وبلفظ يمين كقوله :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ✡ ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

وبلفظ العمر كقوله :

لعمرك ماأدرى وانى لأوجل ✡ على أينا تعدو المنية أوّل

وبلفظ يمينا قال زهير :

يمينا لنعم السيدان وجدتما ✡ على كل حال من سحيل ومبرم

ومن عجب مانرى من أقسام القرآن فتراه يقسم بما لم يقله عربى قط . قال : أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق . يقول أحلف بما ترون من ذلك النور المتوسط فلا هو غاية فى الاضاءة ، ولا هو حالك الظلام أرسلته الشمس بعد مغيبها ، وعكسته على السحب العالكة فى جهات المغارب المسماة بالشفق ، وبالليل وما جمع من كل مخلوق نائم ومتحرك وساكن ، وبالقمر اذا تمّ ضوؤه وتكامل نوره ، وبالجلة . يقول أقسم بأحوال الليل من أنواع الأنوار المختلفة ، وما أجنّ الليل من مخلوق فى الأرض . إنكم معاشر الانس ستنقلون من حال الى حال من هذه الحياة بالرقىّ فى المدنية ، أو أن تخلف دولة دولة ، وبالانتقال من الحياة إلى البرزخ ، إلى جنة أو إلى نار كما يكون الليل بألوانه الثلاثة على الأجسام وكأن القسم جاء تمهيدا للقضية المقسم بها وتشبيها لها وتنظيرا أو كشبه العلة لشبه المعلول فحركات الأفلاك تحدث الأنوار والظلمات وتحيط بالمخلوقات ، ومنها الانسان الذى قضى عليه بالتنقل فى الدنيا من حال الى حال تبعا لحركات الاجرام السماوية بتقدير العزيز العليم الذى دبرالخريف ، والربيع ، والشتاء ، والصيف والدهور والعصور ، فاختلفت الدول والممالك باختلاف الأحوال العلوية ، والحركات الفلكية : ثم يأتى بعد ذلك يوم الدين ، وحشر العالمين : فاما فى جنة وإما فى جحيم .

وقال : أقسم بالليل إذ يغطى كل شيء ، وبالنهار اذاظهر ، وبخلق الله الذكر والأنثى من انسان وحيوان

ونبات بالتزاوج والالقاح . ان أعمالكم مختلفات فأما من جاد بالمال واتقى عذاب ربه وصدّق بالحسنى فله اليسر يوم القيامة ، وأما من بخل بالمال وأعرض عن الله وكذب بالدين فسيكون فى عسر .
أقسم باختلاف الليل والنهار والذكور والأناث وجعله كالدليل على اختلاف مساعينا فى حياتنا وثمراتها بعد موتنا قال : « والليل إذا يغشى والنهار اذا تجلى وماخلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » وقال : « أقسم بما تبصرون ومالاتبصرون . إنه لقول رسول كريم ذى قوة عندالعرش مكين » فى هذا اقسام بكل ماذرأ الله مما يحس بالحواس من الجواهر والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والأفلاك والأنوار وكل مالا يبصر من القوى والعقول والنفوس والأرواح وما فوق ذلك من ملائكته ، والمقسم به أن القرآن كلام نزل به رسول كريم على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والرسول هو جبريل عليه السلام يقول فى القسم : ان المخلوقات قسمان : محسوسات ، ومعقولات ، وجبريل من آخر القسمين أفلا تؤمنون ، وليس من قول شاعر ولا كاهن مما ترون « وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون تنزيل من رب العالمين » .

وقال : « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر » أقسم بالفجر ، وبالليالى العشر ، الأولى من الشهور العربية لازدواج ظلامها بضيائها كما أن الفجر نوره مزدوج بظلامه ، وأقسم بالأعداد كلها أزواجها وأفرادها ، وماحوت من أسرار الارتماطيقى ، والخواص المدهشة العجيبة ، وبالليل إذا يسر مقبلا ومدبرا ، ان هذا القسم عجيب لم يسمعه العرب . ثم قال : « هل فى ذلك قسم لذى حجر » ثم أتبعه بقوله : « ألم تركيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد » الخ كأن المقسم به محذوف تقديره . ان الكافرين لامحالة هالكون : لأنا أتينا لهم فجر الحكمة ، ومبادئ العلم كأنها أوائل الشهر ، فان هلال الحكمة يبتدئ ضئيلا ، ثم يتسق ويتجلى ، وحسبنا أعمالهم شفعا ووترا ، ولم يؤمنوا ، فسنعذبهم مرتين : فى الدنيا بالخزى ، وفى الآخرة بالنار كما فعلنا بعاد وثمود وفرعون : « ألم تركيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد » .

إنذار من الله للأمم التى أضاء لها نور العلم فأشرقت على وجوههم الحكمة ان هم لم يقتبسوها ، ولم ينتفعوا بها أهلكهم كما أهلك الأمم البائدة كما حصل لأهل أمريكا الحمر الأصليين ، وكما فعل بمسلمى الأندلس إذ أراهم اتحاد الاسبان ، والاتحاد نور من الله فلم يتحدوا « فصب عليهم ربك سوط عذاب » وهكذا كل أمة ودولة أنذرها علماؤها ، وعلمها حكماؤها ، فتجاهلت الانذار ، وتغاضت عن الحكمة . ساء مصيرها ، وقطع دابرهم كدولة الرومان إذ عصوا حكماءهم فى أواخر عهدهم ، وإدبار سعدهم فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ، وتكالبت عليهم الأمم المتوحشة . فورثوا أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وعلومهم وقوانينهم . ان فى الفجر وليالى الشهر الأولى أضواء ضئيلة ستؤول للكمال باشراق الشمس وبتمام البدر فمن عطل اتمام نور فجر الحرية ، والحكمة ، وهلال العلم ، والمعرفة باء بظلام حالك ، وأضحى من الهالكين وهذا بطريق الاشارة والمفهوم بشارة الى الأمم التى ظهرت فيها مبادئ الحكمة وأوائل الحرية انها ستنال قسطها من الحكمة ، وحظها من الحرية . إذا هى سعت لاتمام الأنوار ، ولم تقف فى سبيل العلم كما يصير الفجر نهارا ، والهلال بدرا كاملا . انتهى ماأردته من كتابى مذكرات أداب اللغة العربية .

اللطيفة

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون

آخر هذه السورة مناسب لأوّلها ، وأوّلها مناسب لآخر السورة قبلها ، وآخر هـذه السورة يناسب أوّل سورة الطورالآتية بعد هذه ، لأنه أقسم أن عذاب ربك واقع وهومذكورهنا فى قوله : « وان للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلايستعجلون » . اه

اللطائف العامة فى هذه السورة (١)

(١) اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين » .

(٢) اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلاتبصرون » وما بعـدها من الآيات ، وهاتان اللطيفتان فى الآيات التى أوّلها « إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل مايهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حقّ للسائل والمحروم ، وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعـدون ، فورب السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون » .

(٣) اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ،

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون »

هذه آيات ثلاث متلاصقات ، متتابعات ، متصلات ، معطوفات ، وآخرها ذكر فيها الرزق ، فههنا علاقة بين عجائب الأرض وطبائع نفوسنا ورزقنا الذى مصـدره السماء فى هذه الدنيا والجنة التى وعدنا بها وهى فى السماء أيضا . نبات الأرض وحيوانها وجمادها ونفوسنا وأضواء الكواكب والشمس وأرزاقنا ، ثم الجنة التى وعدنا بها ، كل هذه بينها اتصال .

محاورات بينى و بين صديق العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير

اطلع على ما كتبته الآن وهوهـذا العنوان ، فقال : هذا عنوان ضخم ، وماذا أنت قائل الآن ؟ نعم العلاقة بين هـذه العوالم معقولة ، ولكن ما لرزقنا وماللجنة ؟ فقلت : سأوضح هذا المقام هنا حقّ الايضاح بعد ما أوضحته فى مواضع كثيرة بطرق مختلفة ، إن للأغذية المستخرجة من الأرض تأثيرا على نفوسنا فى أخلاقنا وعاداتنا وأحوالنا وصحتنا ومرضنا ، ثم ان أحوال نفوسنا وأخلاقها يتبعها نتيجتها وهو ارتقاء النفوس وصفاؤها فتكون الجنة فى الآخرة ، أو انخفاضها وانحطاطها وسوء فعلها فتكون جهنم ، فان زعم الناس أن علم الأخلاق يكفى وحده لتهذيب النفوس ، أوالعلوم الدينية ، فقد جهلوا جهلا بينا ، فالصحة من أهمّ عوامل السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهناك هناك يمكن التحلى بمكارم الأخلاق بواسطة الدين ، أو بواسطة التهذيب والتربية والنصائح الدينية ونحوذلك ، وأيضا المعارف والعلوم التى تورث اليقين المذكورفى هذه الآية ان تكون

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع
المؤلف

التوازن ، لأن ذلك كله يرفع درجة حرارته درجة من الدرجات المئوية ، أو أكثر من درجته فيحترق الدم ، وهذا الاحتراق يوجب ذلك الاتزان ، فاذا قصر الانسان فى ذلك أوجهله فلم يصنعه فان الحمى هى التى تفعل ذلك فان ارتفاع الحرارة بها يوجب احتراق الدم الذى يكون به ذلك الاتزان ، فاحتراق الدم فى الحمى وغيرها يكون بتلك المواد المخزونة فى الجسم والأخلاط المتراكمة ، إن الاستحمام بالشمس ومباشرتها للجسم يفعل ذلك فيجب المبادرة إلى ذلك والاكثار منه ، ومثل ذلك كثرة التمرينات العضلية ، أوالمشى ، أوكلاهما .

فقال صاحبي : عجب والله ! إذن الحمى والدمامل والأورام والقروح ليست أمراضا ؟ قلت . كلا . فقال : ههنا ظهر الحق ، انا أريد أن أقول لك الحق ، أنا كنت فيما مضى أسمعك تقول : ان المصائب ان هى إلا نعم واقرأ كثيرا مما تقدم ، ومع ذلك كنت غير موقن بها ، نعم عندى تصديق ولكن البراهين فى هذا المقال واضحة ، إن العلم اليوم وضح وظهر ، انه اليوم يقين .

يقول الله : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ويقول المسلم فى صيغة اسلامه مانصه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعاهده على الاسلام وأن تؤمن بالقدر خيره وشرّه من الله .

هذه الجملة يقولها المسلمون كلهم وهى فى القرآن ، يقول الله : « قل كلّ من عند الله » واذا كان الأمر كذلك فالله من عنده الخير والشرّ ، واللغة العربية لا تقول ان الحمد يكون على الشرّ ، بل يقولون ان الحمد هو الوصف بالجميل على الجميل الاختيارى على جهة التعظيم ، إذن الشرور لا حمد عليها لأنها ليست جميلا بل هى قبيحة ، والنبوّة تحثنا على الحمد على الخير والشرّ والله يقول : « ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة » ويقول المسلم فى صلاته : « فلك الحمد على ماقضيت » والقضاء جاء بالشرّ و بالخير ، فأحد شق القضاء لا يحمد عليه ، وهذه عقدة العقد ولغز الوجود ، فههنا أخذت هذه العقدة تنحل ، وألفينا الدمل والخرّاج والأورام والحمى كلها منقذات لا مهلكات ، واذا كانت هذه من نوع الشرور فيما يظهر لنا وقد ظهر أنها خيرات فالحمد عليها حتم ، إذن صدق الله وصدق رسوله فلك الحمد على ما قضيت ، لأنك اذا قضيت بما يؤلمنا فقد جعلته لمسرّتنا وسعادتنا ، فهكذا موتنا وبلاتنا فى الحياة الدنيا كلها نعم لا نقم ، هنالك قلت . له : الحمد لله الذى ألهمنا الحكمة وعلمنا الصواب وبهذا انتهى الفصل الأوّل فى تلخيص ما تقدم فى ﴿ سورة الفتح ﴾ مع زيادة عليه من نفس الكتاب السنوى الثانى للمجمع المصرى للثقافة العلمية .

الفصل الثانى فى علاقة أجسامنا بعوالم السموات والأرض

وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره ، والصحة والمرض الخ

ولأذكر لك ملخصا مما ألقاه مواطننا الدكتور [محمد شاهين باشا] وكيل الداخلية للشؤون الصحية عند طبع هذا الكتاب فى سنة ١٩٣١ فى المجمع المصرى للثقافة العلمية فى سنته الثانية ، وهذه من نعم الله عزّوجل علينا فى هذا الزمان الذى ظهرت فيه بعض الحقائق ، وظهر لنا أن هذه النفوس الانسانية قد ظلمها الناس فذلت بسبب الجهل بمقدار ماتتناوله من أرزاق السموات والأرض التى أنعم الله علينا بها ، إن محاضرته ألقاها فى ثمانية فصول :

(١) فى التعمير وأسبابه .

(٢) وفى هضبة الحياة والعوامل التى تعمل فيها ، والمراد بهضبة الحياة زمن الشباب و بعض مابعده .

(٣) وفى منحدر الحياة : أى فى آخر الكهولة وزمن الشيخوخة .

(٤) وفى أسباب الشيخوخة والموت .

(٥) ومنذرات الشيخوخة .

(٦) ثم الغدد التناسلية .

(٧) وتجديد الشباب .

(٨) ووسائل التجديد وإطالة العمر الخ .

وهذه الفصول الثمانية ليست تهمنا كلها لأننا فى تفسير هذه الآيات ، فليكن كلامنا حول محورها ، لأن الفصول الأولى فيها مباحث خاصة فى أمر الغذاء والشمس ، وهذه هى آيات السموات والأرض المحيطة بالجسم فنستفيد [فائدتين : الأولى] التفكر فى هذه العجائب النافعة لأجسامنا [الثانى] نفس الانتفاع بها فى حياتنا الدنيا ، فيكون قوله تعالى : « أفلا تبصرون » راجع للعلم وللعمل معا ، لأننا اذا أبصرنا آيات الله بعقولنا فذلك لايتم إلا اذا كانت أجسامنا سليمة معافاة ، وهذان الأمران فى هذا المقام :

(١) أولا : قد جاء فى هذه الخطبة أن الأطباء فى العالم الانسانى شرحوا جثث الشيوخ الذين ماتوا فاتضح لهم أن النادر منهم مات بسبب الشيخوخة ، وجمهورهم هم الذين ماتوا بأمراض كانت هى السبب المباشر لموتهم ، فعرفوا من ذلك أن هذا النوع الانسانى جاهل بالغذاء جد جاهل ، والحيوان أقرب منه إلى حفظ صحته بتعاطىماينفعه وترك مايضره .

(٢) ثانيا : ان الجسم البشرى يتم نموه فى سن (١٨) والسبب فى ذلك أن الجهاز العصبى معقد كل التعقيد فيطول زمان نموه فيعوق الجسم حتى يبلغ ١٨ وهناك يتم النمو ، هذا قوله [وقد تقدم أن نمو الانسان لايتم إلا فى (٢٥) سنة ، فهذان رأيان ، وانما نقلت لك الرأى الثانى لأنه تقدم فى هذا التفسير ، فربما تظن أن هذا خطأ فى النقل ولكن لاخطأ هما رأيان والرأى الذى يقول انه (١٨) سنة لم أعرفه إلا فى هذا المقام ، يقول : ولولا تعقد الجهاز العصبى لكان الانسان يتم نموه فى ٤ سنين ، ثم يموت فى سن (٢٠) . هذا قوله ، وأقول : وقد قرأنا فى الجرائد قريبا أن صبيا بلغ (٤) سنين فى تركيا فطلب أن يتزوج ، فهذا هوالذى عاش بجهاز عصبى أشبه بجهاز البهائم فتم نموه فى ٤ سنين . ثم قال : إن الانسان يجب أن يكون سن الكهولة له من (٧٠) إلى (٨٠) سنة وهنالك تبتدئ الشيخوخة وتنتهى فى سن (١٢٠) . يقول : وهذه السن أى سن (١٢٠) لايصل لها من الناس فى زماننا إلا القليل ، وأبان أن الناس فى زماننا تبتدئ أجسامهم فى الضعف من سن (٥٠) وأخذ يذكر السبب فى ذلك فقال فى صفحة ٥٠ ومابعدها من كتاب [الجمع المصرى] للثقافة العلمية مانصه :

« يتنازع الانسان فى سياحته الأرضية قوتان : القوة الحيوانية ، والقوة النفسانية ، وللقوة الأولى أكبر غلبة عليه فى الشطر الأول من عمره ، وهو شطر الفتوة والشباب وبدء دور الكهولة ، ثم يأخذ فى التغلب عليها تدريجيا كلما تقدم فى السن حتى يفوز عليها عند بلوغه الستين من عمره ، فاذا ماوصل الانسان إلى هذا الدور ، دور الرزانة والاتزان ، وتغلب بما كسبه من صروف الدهر وتجاربه على ما كان يتنازعه من متزاحم الأمانى والأحلام نضج عقله وأخذ يتفرغ إلى الاشتغال بالأعمال الجدية بحسب ماوهب من ملكة واستعداد ولكن المشاهد أن الانسان عند مايبلغ الستين تفتر همته ، وتخمد جذوة نشاطه ، مع ان هذه السن هى سن النضج والانتاج العقلى ، وسبب ذلك الافراط فى مختلف الشهوات فى الأدوار الأولى من الحياة ، والاهمال فى اتباع شتى القواعد الصحية ، ولذلك قل من يحتفظ بشىء من قوة جسمه فى سن الستين ، والغالبية العظمى تعمل على هدم بنيانها ، وتدفع بنفسها إلى الشيخوخة العاجلة ، وتسعى إلى تقصير الأجل ، وتقريب يوم

الرحيل من هذه الدنيا التي يرى الانسان على الدوام جدّ حريص على إطالة بقائه فيها بكل الوسائل الممكنة فيتخلف عن هذا التفريط الكثير من الأمراض التي يقع فريستها ، ويمتنع عليه الشفاء منها ، مع أنه بمجهود قليل يبذله الانسان فى سبيل العناية بصحته والاحتفاظ بجسمه يحيا معافى سليما ، وهذا المجهود ليس شيئا مذكورا فى جانب الجهود الكبيرة التى يضطر لبذلها فى التماس الشفاء من هذه الأمراض ، وهذه قد يشق بعضها وقد يستعصى البعض الآخر على العلاج مع أن النجاة من هذه الأمراض لا يكلفه سوى العناية باتباع أوّليات علم الصحة فى معيشته . ولقد كان الانسان منذ القدم شديد الحرص على الاستدفاء والاكتنان ، واجتناب البرد والهواء ، وفى سبيل حصوله على أوفر قسط من الدفء ، كان يغلق منافذ مسكنه ، ويكثر من التدثر والغطاء هربا مما رسخ فى اعتقاده من مضارّ الهواء ، وقد درج على ذلك أجيالا عديدة ، ولم يتمكن علماء الصحة من زحزحته عن هذا الظن الخاطئ إلا من عهد قريب ، إذ نجحوا فى إقناعه بمضار الاكتنان فى المساكن المغلقة وبفوائد المعيشة فى الهواء الطلق الخالص من الفساد والأدران كما يعيش الحيوان الذى ألهمته غريزته بأن الهواء من ضروريات الحياة . ويشتغل علماء الصحة الآن بمحاربة عادة ذميمة أخرى فى الانسان هى أشدّ ضررا بصحته من الانحباس فى المساكن المغلقة وهى عادة الافراط فى الغذاء ، لأن الانسان قد تعوّد (بحكم تغلب الحيوانية عليه) أن يرخى لنفسه العنان فى التلذذ بما تصل إليه يده من شهىّ الأطعمة والمأكولات فيتناول منها دائما أكثر من القدر الذى يستطيع جهاز الهضم أن يمثله ويستخلصه منها لتجديد قوى جسمه ، ومما يؤسف له أن جهل الانسان بأصول التغذية الصحيحة فاش بين جميع الناس على اختلاف طبقاتهم والافراط فى الغذاء هو منشأ كثير من أمراض الجهاز الهضمى التى تكون غالبا مستعصية الشفاء وتودى بحياة الانسان قبل الأوان ، وقد جاء فى الأحاديث الشريفة : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء » .

ويبدأ فى عصرنا هذا أن يدبّ الوهن إلى جسم الانسان بعد بلوغه سن الثلاثين ، ومتى وصل إلى سن الخمسين تبدأ حالة جسمه فى التردّد بين القوّة والضعف ، ويمكن الاستدلال بكل سهولة على شذوذ حالته بما يشاهد من ضخامة بطنه ، وقد اعتاد الناس أن ينظروا إلى السمن بعد سن الأربعين كأنه أمر طبيعىّ ، ولايهتمّ الواحد منهم بأن يزيد وزن جسمه فى هذه السن خمسة كيلوجرامات أوسبعة وهولايعلم أن زيادة وزن الجسم فى هذه السن هى من الامور الضارّة به ، وأن حصول الجسم على هذه الزيادة إنما هودليل على أن أجهزته قد كلفت ماهوفوق طاقتها وخصوصا الجهاز الهضمى ، ولذلك فلايستغرب إذا ضعفت هذه الأجهزة قبل الأوان ، ومع أن المادّة الشحمية التى يزدردها الجسم فوق حاجته تختزن فى الأنسجة التى تحت الجلد إلا أن الثابت أن بعضها يتسرّب إلى بعض الأعضاء الرئيسية والأعضاء الرئيسية والأعضاء المجاورة لها فيزداد وزنها ، وبعد ذلك تقلّ صلاحيتها لتأدية وظائفها ، ويمكن أن نقرّب للأذهان إدراك مقدار مايحدثه السمن من الضرر للجسم بذكر ماينشأ من ضرر لأحد خيول السباق اذا زيد ثقل رطلين مثلا فماذا عسى أن يكون تأثير زيادة سبعة كيلوجرامات فى أنسجة جسم انسان فى سن الخمسين ، فان هذه الزيادة قد تحول دون وصول هذا الانسان إلى مابعد السبعين ، وليس من شكّ فى أنه من أخصّ الأسباب التى تعجل وفاة الانسان هى إخطاء التغذية الشائعة بين الناس لاعتقادهم بأن الاكثار من الغذاء ينمى الجسم ويقوّيه ، والنتيجة المحتمة للافراط فى الغذاء هى انهاك قوى الجسم واضعافه والتعجيل بوفاة الانسان قبل الأوان .

ولايفوتنا أن نذكر أن الذين لاتبرز بطونهم بسبب الافراط فى الغذاء ، وتتشحم أحشاؤهم وأفخاذهم يصابون بداء الملوك ، أو بارتفاع الضغط الدموى ، أوالبول السكرى .

وبالاختصار

وبالاختصار فإن المفرطين فى الأكل يحملون أجسامهم أعباء ثقيلة ويسوقونها نحو التلف والدمار ، ويتبين من ذلك بأجلى وضوح أن الاعتدال فى الغذاء هو الطريق الأكيد المؤدى إلى التعمير الطويل ؛ وقد يتساءل البعض عن مدى هذا الاعتدال والجواب عن ذلك هو أنه يجب على الانسان أن يوازن بين مقدار ما يكسبه جسمه بواسطة الغذاء ، ومقدار ما يفقده بالحركة والعمل ، ويشمل هذا الواجب عناية الانسان بنوع ما يتناوله من الغذاء ومقداره ، ولو أننا وازنا بين تغذى الانسان وتغذى الحيوان لاتضح لنا أن الطريقة التى يسير عليها الانسان فى غذائه انما هى طريقة خاطئة ، وبما أن الانسان لايختلف تركيب جسمه فى شيء عن الحيوان والحيوان لا يتغذى إلا بالمواد الطازجة فكذلك الانسان فى حاجة قصوى إلى هذا النوع من الغذاء .

انظر إلى اللحم ، فمع انه أهم غذاء يحصل منه الانسان على المواد البروتينية وعلى الفيتامين لدرجة ما إلا انه يفقد ما به من الفيتامين بالطبخ ، وكذلك الخضر ، ونذكر بهذه المناسبة ذلك الخطأ الشائع بين معظم الناس : وهو انهم يخصون الحيوان بقصد أن يزيدوا من مقدار لحمه وشحمه ، وهذا خطأ فاحش لأن هذا الحيوان وان ازداد سمنه بالخصى فان اللحم تقل قيمته الغذائية ؛ ويصير أقل تغذية من لحوم الأسماك والطيور .
والسكر هو من الأغذية التى تؤذى الانسان اذا أفرط فيها لأن الخمائر التى تؤثر فى السكر وتمثله فى الجسم محدودة المقدار ، فاذا تناول مقدارا من السكر أكثر من مقدار الخمائر التى تؤثر فى تمثيله كانت نتيجة هذا الاكثار أن يصاب الانسان بعسر الهضم ، واذا أخذ فى قوام سوائل مركزة فانه يسبب تهيجا فى المعدة ويجعلها تكثر من افراز المواد المخاطية ، وقد ينشأ عنه نوع من البول السكرى الذى ربما انقلب إلى بول سكرى مستديم وهذا من أسباب قصر العمر بلا نزاع ، فمن ذلك يرى انه يجب على الانسان أن يعود إلى الغذاء الطبيعى وهو المركب من المواد غير المطبوخة .

ولابد لنا هنا من التكلم عن الأملاح التى هى من مقومات الجسم ، واذا كان دم الانسان لايختلف فى تركيبه عن تركيب ماء البحر ، ويشتمل على السكريات والمواد العضوية السابحة فيه ، فمن المحتم تجديد أملاح الجسم من وقت لآخر ، لأن سائلها يغمر جميع الأنسجة ، فأملاح الجير واليود والمغنسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والحديد ليست ضرورية فقط لحفظ الصحة بل هى ضرورية أيضا لحفظ الحياة وهى لاتوجد بمقدار واف فى غذائنا المطبوخ ، واليود مثلا نحصل عليه من المحيطات بما نأكله من أسماكها ونحصل عليه فى ملح الطعام ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن الانسان بجهله ينزع اليود من ملح الطعام بتكريره وتقديمه للطعام باسم ملح المائدة ، ونحصل على الكالسيوم من اللبن والخضر وبعض الفواكه ، وعلى الفوسفور من اللبن والبيض وبعض الحبوب كما نحصل على اليود أيضا من الخضر وزيت كبد الحوت ، ونحصل على القلويات من الخضر والفواكه ، وكل خضر تكثر فيها الأملاح يكون الفيتامين موجودا فيها بكمية وافرة ، ويمكننا نعتبر أن المواد الغذائية المستوفية للطبخ هى نوع من أنواع السموم ، وما دام الانسان مستمرا على التغذى بها فلاشك أنه سيبقى فريسة هذه السموم التى تهدم كيانه وتحول بينه وبين البقاء فى هذه الحياة المدة التى كان من حقه أن يقضيها فيها .

ووجوب تخلص الجسم من فضلات الغذاء لايقل أهمية عن اختيار أحسن أنواع الأغذية وأنسب مقادير منها والخطر الناشئ عن كسل الامعاء فى طرد فضلات الطعام لايقل عن الخطر الناجم عن التغيير الذى يطرأ على الدم ، لأن هذا التغيير غالبا ما يكون سبب مرض الشرايين ، فتصلبها مثلا ينشأ عن التهيج المزمن الذى يحصل بادئ ذى بدء فى النسيج المبطن لها ، وذلك نتيجة احتكاكها بالدم غير النقى فى أثناء مروره فيها ،

و يمكننا أن نجزم أيضا بأن الكسل الذى يصيب الامعاء ينجم غالبا عن السموم التى تحملها الموادّ التى توجد فى هذه القناة إذ معلوم أنه توجد بعض موادّ مهيجة للقناة المعوية كما توجد بعض موادّ أخرى مسكنة لها وكذلك توجد بعض الأغذية أوفضلاتها أحد الفعلين ، واذا كان الغذاء الذى نتناوله غير صالح ومنزوعا منه الموادّ الضرورية للجسم فيحق لنا القول بأن غذاء كهذا لايمكن أن ينبه عضلات الامعاء ، بل ربما كانت موادّه معطلة لها ، أومسببة لشلل فى حركتها ، ومن هنا نرى أن الأطعمة الخالية من الفيتامين ، أوالمركزة التى اعتاد الانسان أن يتناولها لاشك أن لها دخلا كبيرا فيما يصاب الامعاء به من كسل ، وكانا نعلم أن الأطعمة التى لاتترك فضلات كافية يتولد عنها إمساك ، وغنى عن الذكر أن الأغذية المطهية أوالمركزة الشائعة الاستعمال الآن تنقصها هذه الموادّ الضرورية وهى الفضلات ، وهذه الأطعمة المطبوخة تكون خالية أيضا من موادّ ضرورتها للانسان كضرورة الفيتامين ، وهذه الموادّ لاتوجد إلافى الأطعمة التى بحالتها الطبيعية ، وهذه الموادّ وان كانت تصعب الآن معرفتها إلا أن فعلها قد أصبح معروفا وهى موادّ مجرّد وجودها يوقظ النشاط فى بعض التفاعلات الكيمائية التى تحصل فى الجسم ، ولولا وجودها لما نشطت تلك التفاعلات . خذ مثلاثانى اكسيد الهدروجين فانه ينحل مع وجود مادّة غير قابلة للذوبان كفلزالفضة بينما الفضة لايحصل بها أى تغيير ، وكذلك خمائرالامعاء تنشط فى عملية تحليل الغذاء مع وجود موادّ كهذه فى الأطعمة بحالتها الطبيعية ، وقد تكون هى أهمّ عامل فى عملية الهضم ، و يستخلص من ذلك أن الانسان مع كونه أرقى مخلوق هو الحيوان الوحيد الذى لا يعرف كيف ينتقى غذاءه ، وكأنه قد فقد من هذه الناحية غريزة الابقاء على النوع ؛ وأكبر شاهد على ذلك استسلامه للتسمم المزمن الذى يصيبه من الغذية الخاطئة وهوقانع راض عن ذلك ، بينما هوفى الواقع يعرّض جسمه وعقله للتلف والهلاك بسبب شرهه وجهله وتكون النتيجة التى لابد منها أنه لايعيش بأىّ حال من الأحوال فى هذه الدنيا المدة التى هى حقّ من حقوقه كما عاش آباؤه الأوّلون .

ومما يجلب التلف للصحة مايتناوله الانسان من سموم مختلفة كادمان شرب الكحول وغيره من السموم مع أنه لوتوفر على العناية بنفسه وهوأ كمل مثال لأقصى ماوصل إليه الارتقاء فى أنواع الحياة لعاش متمتعا بالصحة الجيدة إلى أقصى مدة ممكنة ، ولاستقبل الموت بعدها ضاحكا مستبشرا ، لأن هذه سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، بل هذه هى النتيجة الفسيولوجية للحياة بحسب ماوصلت إليه معلوماتنا وان كان البحاث قد تمكنوا من استنبات الخلايا على مختلف أنواعها ولكنها الخلاية السليمة من العطب ، وكل هذا يزيد ماذهبنا إليه من أن الاستهانة بآلة الجسم المحكمة الصنع التى هيئت للقيام بكل عمل من عظائم الاعمال يؤدّى بها إلى الدمار ، والعناية بها تمكن كل انسان من حياة طويلة مقرونة بالعافية والرفاهية مع التفوّق فيما يباشره الانسان من الأعمال » .

هذا ما أردت نقله من كلامه بنصه ، وأزيد عليه ملخص ماذكره بعد ذلك ، فهو يقول فى صفحة ٦٥ من الكتاب المذكور مانصه :

(١) « إن [ميتشنكوف] يقول : إن التعمير ممكن بتدابير تتخذ لتطهير الامعاء . وقال : إن هذه النظرية لاتزال بعيدة لم يعترف بها العلماء . وقال : يجب اجتناب جميع الأطعمة الدسمة من كل نوع ، وخصوصا اللحم ، وعدم تناول الخمر . ثم قال : ويقول [ميتشنكوف] أيضا بأنه اذا وصل الانسان صحيحا إلى متوسط طول العمر الطبيعى ولم يصبه الانحلال الشيخوخى فانه يكتسب غريزة جديدة وهى غريزة الاستخفاف بالموت ، فيصبح الموت والحياة عنده سيان ، و يستقبل الموت كما يستقبل النوم العادى ، وقداتفق الكثيرون من البحاث على أن لكل نوع من الكائنات طولا طبيعيا

للعمر

للعمر ، لأن العمليات الفسيولوجية التي تجرى في أجسامها تعين عدد السنوات التي يصل إليها كل نوع من أنواع الكائنات » .

(۲) ثم أخذ يشرح في صفحة ٦٩ ومابعدها هذا المقام فقال : « أولا أن الناس لا يكادون يبلغون سن الخمسين حتى ينحدروا إلى الضعف فالموت ، ذلك لأنهم لايملكون زمام أنفسهم ، بل يتركونها فريسة للشهوات ، فلذات الشباب مقربات للشيب والهلاك والردى والموت ، فالانسان يصل إلى قمة الحياة في سن الثلاثين ، ثم بعد ١٥ سنة أونحوها ينحدر إلى أدنى ثانيا بخطئه وجهله ، واذا وصل إلى مابين ٥٠ و ٦٠ سنة تظهر على أسارير وجهه علامات الضعف وانهاك القوى من فعله هو وجهله ولذاته ، وكثرة أغذيته الخاطئة ، ويضعف سمعه وشمه ، وتيبس مفاصله ، ويزداد وزنه من خمس كيلوجرامات إلى ١٠ ويشكو الامساك ، ويشكو تمدد الأوردة في ساقه فيضعف » .

(۳) ثم أخذ في صفحة (۷۰) يذكر مايجب أن يكون عليه الغذاء . قال مانصه بالحرف في الكتاب الثاني للمجمع المصرى للثقافة العامة : « لا أحاول هنا أن أشرح وسائل التغذية في كل أدوار الحياة وانما أمر عليها لماما ، لأنه ليس من شك في أن لها دخلا كبيرا في حفظ الصحة ، وبالتالي في التعمير ، وأعيد هنا أنه يجب على الانسان أن يتناول موادّ الأطعمة بحالتها الطبيعية ، لأن الانسان في مبدأ خلقه لم يجد لحفظ حياته إلا الجذور والفواكه والأعشاب ومنتجات اللبن ، واذا أراد لحما كان يجده في الجراد ، ومن الراجح انه كان يأكله نيئا ، فلكي نتجنب أذى السموم التي تؤذى الامعاء الغلاظ ، وبالتالى تسمم الغدد الصماء يجب أن نتعلم هذا الدرس البسيط من الانسان الأول ألاوهو وجوب استعمال الموادّ الطبيعية غير المطبوخة في غذائنا وهي الخضر والفواكه ومنتجات اللبن ، وليس معنى الاقتصار في الغذاء على ماذكر بل نقصد بهذا أن يشمل غذاؤنا كمية وافرة من هذه الموادّ مع غيرها ، ولاشك أن الطعام المتوافرة فيه هذه الموادّ الطازجة يؤدّى إلى عدم تعرّض الشيوخ إلى أمراض عديدة كالتهاب المفاصل وعسر الهضم وارتفاع ضغط الدم والاكزيما . ولايخلو من الفائدة أن أذكر هنا بعض ملاحظات عما يجب تناوله من الأطعمة في الأوقات المختلفة من اليوم ، فطعام الافطار يجب أن لا يكون مثقلا بالأطعمة المتنوعة ، إذ من الواجب على الشخص أن يبدأ نهاره بغذاء خفيف ، لأن الصباح هو وقت اخراج مفرزات الجسم ، فلو أرهقنا أعضاء الهضم بالعمل في ذلك الوقت فان جزءا عظيما من نشاط الأعضاء (طاقتها) يقلّ ، وفي هذا ضرر بلاشك لأن الأنسجة تغمر بالسائل اللمفاوى أثناء النوم في العمل وتلقى إليه بفضلاتها ، وهذه الفضلات يتخلص منها في الساعات الأولى التي تعقب النوم ، ولذلك فان قاعدة تناول وجبة طعام خفيفة في الصباح ترتكز على أساس فسيولوجي ، ولهذا السبب كان الأرق مجلبا للنحافة ، وحبذا لوكان طعام افطارنا مماثلا لما كان يتناوله آباؤنا الأولون ، وهو لم يكن إلا فاكهة طازجة أوخضرا . وأما الوجبة الثانية فيلاحظ فيها أن تكون خفيفة أيضا ، لأنه ليس من الحكمة في شيء أن نثقل أعضاء الهضم بالعمل بعد فترة راحة فضلا عن أنه يعقب أكلة نصف النهار عادة بعض العمل سواء كان عقليا أوجسمانيا ، وذلك عند معظم الناس ، والا اضطر الانسان اذا أكل أكلة ثقيلة إلى غفوة بعدها وحبذا لوانتفع الناس بأكل الخضر باعتبارها من السلطة بدل طهيها ، وبذلك لاتفقد معظم مزاياها ومن المستحسن جدا أن يستعاض بالفاكهة الطازجة عن الحلوى المطبوخة بتاتا ، ولواتبع المبدأ الذى أشرت إليه في وجبة الظهر لأمكن كل انسان أن يقوم بعمله بعد هذه الأكلة بغير ملل أوفتور

أوشعور بثقل فى الدماغ ، أوميل للنوم ، وقبل أن أتكلم عن طعام العشاء أشير إلى عادة استحدثت فى بلادنا وهى عادة تناول أكلة خفيفة وقت العصر ، وهى المعروفة بأكلة الشاى ، وهذه الأكلة ضارّة من الوجهة الفسيولوجية ، ولا حاجة لها ألبتة ، لأن المعدة تحتاج إلى أربع أوخمس ساعات لهضم أكلة الظهر ، فاذا فرضنا أن أكلة الظهر تنتهى عند غير الموظفين حوالى الساعة الثانية ، وعند الموظفين حوالى الساعة الثالثة فلاشك أن الجهاز الهضمى يكون مشغولا فى الهضم حتى الساعة السابعة أوالثامنة ، فكيف يكون حال هذا الجهاز عندما يتناول أكلة أخرى حوالى الساعة الخامسة أوالسادسة لاشكّ أنه يصبح فى حال سيئة ، ولا يمكن أن يسمح بهذه الأكلة مهما قيل عن الشاى أوالقهوة من أنهما منبهان لذيذا الطعم . ولا يغيب عن البال مايؤخذ معهما من كعك وزبد وغيرهما وأما أكلة العشاء فلا بأس من احتوائها على نوع من اللحوم مع تناول مقدار قليل منه وعلى شيء من الخضر المطهى ، و يجب أن تحتوى كذلك على جانب من الفاكهة ، و يلاحظ أنه أحيانا ماينشأ عسر الهضم أوالأرق عن تناول فنجان القهوة الذى يؤخذ عادة بعد العشاء ، ولأنبه هنا إلى أن الأرق الذى يكون منشؤه مرضا معروفا أومشاغل ذهنية لاشك فى أن سببه عسر الهضم ، وعلاجه لا يكون بتعاطى المنوّمات ، أوالمخدّرات ، بل بفحص حالة الجهاز الهضمى وتنظيمها مع تناول دواء بسيط للمعدة . و يلاحظ أنى لم أذكر شيئا عن أنواع الفيتامين وفوائدها ، وقد تعمدت ذلك لأنى وجدت أن لاضرورة لذكر شيء عنها مادمت أحضّ على تناول الموادّ الغذائية بحالتها الطبيعية ، وهى المصدر الوحيد للفيتامين . ومن الأضرار البليغة التى تنجم عند متوسطى العمر ، أوالشيوخ من الافراط فى التغذية عجز الكبد عن القيام بتنقية الدم الذى يمرّ فيها فينشأ عن ذلك التسمم العام الذى تشاهد أعراضه عند المصابين بعسر الهضم بسبب الافراط فى التغذية فضلا عن التأثير السيئ الذى يحدث للكبد وللجسم عموما من تعفن وتخمر الغذاء الزائد عن الحاجة فى الجهاز الهضمى ، هذا علاوة على الاضطراب الذى يحدث فى الغدد الصماء ، و يظهر أثر ذلك جليا ، وخصوصا عند المرأة ، ولاسيما فى سنّ اليأس لأنها تكون قد فقدت الافراز الداخلى للمبيضين ، والمسألة لا تتعلق بما تطيقه المعدة ومانقدر عليه من العمل ، بل انها أيضا مسألة مايتيسر للأجهزة المخرجة قذفه من الجسم ، فلوفقد الجسم التوازن فى إجراء كل هذه العمليات لما أمكنه أن يقضى مدة طويلة فى الحياة وهوسليم ، ولتأثرت جميع الأجهزة الهامّة كالدورة الدموية والجهاز البولى ، ولا ينجو أى جهاز آخر حتى الجلد نفسه من الاختلال ، وقد عرف العلم حديثا بعض الخاصيات الطبيعية المهمة بعد أن درست بعناية ، ومنها تأثر الجلد بضوء الشمس ، وقد أصبح فنا خاصا يعرف بالمعالجة بالشمس وصار المعتقد الآن أن لضوء الشمس علاوة على وظيفة تنقية سوائل الجسم من الموادّ السامة خاصية تنبيه عملية الاستحالة الغذائية ، أوالميتابولزم بدرجة أنه يعيد نشاط الأنسجة المريضة إلى العمل الصحيح . وغنى عن البيان أن ضوء الشمس هو المطهر الطبيعى الذى يقتل الميكروبات بغير شك وهذه الخاصية تمتاز بها الأشعة التى فوق البنفسجية المنبعثة من طيف ضوء الشمس ، ولهذه الأشعة مزايا أخرى ، منها أنها تعين على تمثيل الموادّ الجيرية بمقادير وافرة فى الجسم كما أنه يستعاض بها عن عدم اتزان الغذاء نتيجة نقص الفيتامين فيه ، فيتضح من ذلك أن فعل هذه الأشعة متساو مع افرازات الغدد الصماء ومع الفيتامين ، هذا ولاشك فى أن ماتحدثه من صبغ الجلد انما هو ذو علاقة أكيدة بالغدد الصماء ، وخصوصا الغدد التى فوق الكلى والغدد النخامية . وقبل أن

نتنقل

ننتقل من موضوع الغذاء أجدنى فى غير حاجة إلى أن أتكلم عن الخمر وعن أثرها فى منع التعمير لأن هذه الأضرار أشهر من أن تذكر ، وجدير بى أن أشير بكلمة مجلى إلى باقى أجهزة الجسم ، وخير الطرق للمحافظة على سلامتها إذ لا يحتمل المقام الاطالة ، فأبدأ بالرئتين ولا نزاع فى أن خير ما يجدد قوتهما هو الهواء النقى ، وهو لهما بمثابة الحمام للانسان ، لأنه بالاجمال العامل الأقوى فى تجديد شباب كل عضو من أعضاء الجسم من المخ حتى الجلد . ومما يؤسف له أن كثيرا من مواطنينا الأعزاء لا يقدرون هذه الأداة الفعالة حق قدرها ويهملون الانتفاع بها مع أنها فى متناول الجميع هبة من الله تعالى بلا عوض . وأما الجهاز العصبي وجوهره المخ ، فهو للانسان بمثابة الطبقة الحاكمة من الشعب تدبر أموره ، فتدر عليه المنافع ، وتدرأ عنه الغوائل ، وأكبر أعداء هذا الجهاز اثنان وهما القلق والمشاغل الفكرية اذا تمكنتا منه كانت نتيجة ذلك الحتمية قصر العمر . أما الترياق الفسيولوجى لهذه الحالة فهو اجراء التمارين العضلية الشديدة لتجديد نشاط الأعصاب ومنع طاقتها من الفقدان دون الاستعاضة عما يفقد منها بقدر جديد من الطاقة ، ومادام جهازنا العصبي سليما نستطيع أن نتغلب على جميع الأمراض الجسمية والنفسية بقوة الارادة » اهـ

(٤) ثم أخذ يشرح فى صفحة ٨٠ ومابعدها [منحدر الحياة] فقال : « مهما عنى الانسان بصحته ومهما كان قويا متين البنية فلاشك انه يأتى عليه يوم يشعر فيه بأنه يهوى فى منحدر الحياة جثمانيا لأنه ليس من الضرورى أن تتناقص القوى العقلية كلما تقدم الانسان فى السن ، ويمكن تعليل بقاء القوى العقلية سليمة حتى سن متقدمة أوحتى نهاية الشيخوخة بأن المخ يستمر نشطا على حساب العضلات والمفاصل وباقى الأنسجة التى كلما تقدمت السن قل عملها ومايتبقى من نشاط فى جهاز الدورة الدموية تنصرف طاقته إلى العضو الأكثر احتياجا إليه ، وهو العضو الذى يستمر نشطا حتى آخر الحياة ألا وهو المخ ، وهناك تعليل آخر وهو انه بما أن المخ آخر مايتم نموه فى الجسم فطبعيا يكون آخر مايتأثر بالشيخوخة ، ولذلك نجد أن الأوعية الدموية التى تكون تامة النمو عند الولادة هى ضمن أجزاء الجسم التى تبدأ فى التأثر بالشيخوخة ، ولكن مع ذلك فالمخ يصله نصيبه من الدم كاملا بينما يكون قد قل نصيب أجزاء أخرى من الجسم ، وكلما استبق مجرى الدم فى حالة معقولة من القاوة كلما كانت قوى المخ لا تتأثر ، وعندئذ يأتى دور استحالة الأوعية المخية عادة متأخرا ، وهذه الاستحالة تنشأ عن تأثير السموم إما على جدر الأوعية أو على الدم كما سبقت الاشارة إلى ذلك . وليس معنى ذلك أن النشاط المخى لا يتأثر بدور الهبوط الجثمانى بل بالعكس ، فان هذا النشاط تتغير طبيعته ، ولو أن هذا التغير يتناول نوعه أكثر من مقداره (طاقته) فالانسان بمجرد مايجد نفسه فى المنحدر يأتى الخيالات ظاهريا ، ولو أنه يستبقى ما اعتبره المثل الأعلى من أفكاره وتفقد الشهوات والعواطف حدتها حتى ان يهرج مظاهرها كالغزل وروايات الحب لا توقظ شعوره كثيرا ، وكذلك لا تستهويه تلك الجاذبية العجيبة التى انفرد بها الجنس اللطيف ، ورغم ذلك يستبقى نشاطه الذهنى ، فأمام هذه الاعتبارات ، وتلقاء هذه الميزة التى اختص بها المخ من احتكار جزء من الدم له فى مؤخر الحياة أصبح على الانسان لزاما أن يستفيد من هذه الميزة فلا يترك قواه العقلية يعلوها الصدأ ، وعليه أن يستمر عاملا فى هذه الحياة لأن التجارب أثبتت أن الرجل الذى ينسحب من ميدان العمل مبكرا يموت مبكرا ، وهذا بعكس النظرية التى كانت سائدة بأن الاستعمال التام لأى عضو ينهكه ، ويسبب الاسراع فى استحالته ، ولكن قد لوحظ أن أغلبية سعاة البريد

يندر أن تصيبهم أمراض فى أطرافهم السفلى كما يندر أن يصاب الذين يشتغلون أشغالا عقلية بالتهاب سحائى ، ولكن هذا لا يمنع من أن الذين أسرفوا فى استعمال بعض أعضائهم يكونون عرضة لأن يجنوا عواقب سيئة نتيجة إسرافهم ، أما المخ فالغالب أنه لا يمكن أن يحل به الاجهاد لدرجة تسبب انحطاطه قبل الأوان ، وهذا بطبيعة الحال لا يصدق على العواطف ولكن يقصد به النشاط العادى ، لأن الانسان قد يدفع نفسه إلى التفكير لمدة طويلة ولكن يأتى وقت لا يتيسر له فيه أن يستمر فى التفكير ، فبينما يستمر المخ فى حاجته إلى نصيبه كاملا من الدم تكون حاجة معظم باقى أعضاء الجسم للدم قد قلت وهذا واضح فيما يتعلق بالعضلات والعظام والمفاصل ولكنه يحتاج إلى شيء من الايضاح فيما يتعلق بأعضاء الهضم ، وتعليله هو أنه بضمور العضلات تقل كفايتها للتصرف فى منتجات الهضم ، ولذلك وجب أن تخفض كمية المواد الغذائية التى تدخل الجهاز الهضمى ، وهذا يقلب معتقد أسلافنا رأسا على عقب من جهة تغذية الشيوخ لأنهم كانوا يعتقدون وجوب تغذية الشيوخ بسخاء ، وكانوا يظنون أن مثل ذلك كمثل الدعائم التى تقام لتوطيد الجسم الشائخ الهش الهيكل ، ولا شك أن هذا المبدأ كان أضر ما يكون بالشيوخ ، لأن الاعتدال فى الغذاء ليس لازما للشيوخ فحسب ، بل للناس فى كل الأعمار . ومما يشاهد أثناء الهبوط فى منحدر الحياة تساقط الأسنان ، وهذا أمر غير طبيعى ، وحدوث ذلك نتيجة لازمة للافراط فى أكل اللحوم والمواد السكرية وعدم العناية بالأسنان بعد هذا الافراط ، وهاهو السير اسحق نيوتن لم يفقد إلا سنا واحدة فى سن الخامسة والثمانين ، وكذلك ضعف الابصار ، وهو معظم الأحيان ينشأ عن تيبس العدسة ، ويبدأ مابين سن ٤٥ و ٥٠ سنة ، وضعف العضلة الهدبية ، وقد يصحب تأثر جهاز الابصار فى هذه الفترة من الحياة ظاهرة فقد حدة السمع ، حتى انه يندر وجود شخص يتمتع ببصر وسمع سليمين بعد سن الستين . وضعف السمع ينشأ عادة بسبب ضمور العصب السمعى وان كان تحصل أحيانا بأسباب أخرى كتثبيت عظم الركاب أو اصابة صماخ الأذن الظاهرة بالاكزيما القرسية ، أو تجمع الصملاخ به كما قد يصابون بطنين الأذن أو بسماع أصوات داخلية متعددة وهذا يسبب لهم مضايقة كبيرة ، وكذلك قد يشعرون فى هذا الدور بدوخة قد تكون بسبب مرض فى الأذن ، أو ورم فى المخيخ ، أو غير ذلك من الأمراض المخية ، أو أمراض العيون ، وقد أشرنا إلى الدوخة الوقتية التى يصاب بها الشيخ عند قيامه من الفراش ، وقلنا ان سببها ناشيء عن ضغط الدم الذى قد يرتفع بسبب انقباض الأوعية الدموية من تصلب الشرايين ، وكلما انحدر الانسان نحو نهاية العمر كلما ظهرت علامات ذلك على الجلد وملحقاته حيث يجف الجلد ويرق ويصير أملس وتظهر فيه تجعدات ، فيتغضن الوجه بسبب اختفاء النسيج المرن والنسيج العضلى ، وهذا يدل أيضا على أن الأوعية الشعرية تقل فى الحجم والعدد حيث تضمر بسبب عدم الاستعمال ، فتتأثر تغذية الجلد ، ويعقب ذلك اصفرار أو شحوب اللون ، وان كان يشاهد عند بعض الشيوخ نوع من التلون فى جلودهم ، ويظن البعض أن هذا انذار بمرض خبيث ، كما ان هذا التلون ربما يكون وسيلة للوقاية من بعض الأشعة التى فى طيف الشمس حتى انه اذا ظهر هذا التلون يكون ذلك دليلا على نقص فسيولوجى فى الانسان ، وهذا النقص خطر فى بلاد المنطقة الحارة ، وقد يفسر هذا النقص بعدم كفاية الغدد التى فوق الكلى ، أو الغدد النخامية ، وقد يكون النمش محاولة مبكرة لدبغ الجلد فيحل محل التلوين ، ويسبب هذا التلوين أيضا التعرض للشمس ، وقد

يستعاض

يستعاض عن عدم التلوين بنموّ الشعر غير الطبيعى ؛ لأن اللون فى جلد الانسان يقوم مقام الشعر فى القردة من حيث الوقاية ، ولذلك يتأثر الجلد كثيرا خصوصا فى زمن الشيخوخة فى الذين ليس عندهم استعداد لحدوث التلوّن فى جلودهم ، أولنموّ الشعر فيها بغزارة غير طبيعية » .

(٥) ثم أخذ فى صفحة ١٢٢ ومابعدها يشرح وسائل تجديد الشباب واطالة العمر ، فعوّل كثيرا على نظام الغذاء ، وقال : « قد ألمعنا فى كلماتنا السابقة إلى وسائل تجديد الشباب واطالة العمر ، وأتينا على بعضها ، وتحقيقا للغرض الذى حدا بى للعناية بهذا الموضوع أفرد هذا الفصل لجمع شتات هذه الوسائل . تنقسم الوسائل التى نحن بصددها إلى ثلاثة أقسام ، والقسم الأوّل يتعلق بالمحافظة على الصحة الشخصية منذ يوم أن يتنسم الانسان أوّل نسمة فى الحياة حتى سن الكهولة ، والقسم الثانى موضوعه طرق العناية بالكهولة فى أطوارها المتأخرة و بالشيخوخة ومنذراتها ، و يبحث القسم الثالث فى وسائط مداركة مضاعفات الشيخوخة ، وسنتوّج هذه المواضيع ببسط أثر المحافظة على الصحة العامة فى تجديد الشباب والتعمير — :

(١) فأما وسائل المحافظة على الصحة الشخصية حتى سن الكهولة فهى عديدة ، وقد قتلت بحثا ووضع فيها المختصر والمطوّل من المؤلفات ، وبحّ صوت رجال الصحة والاجتماع فى تلقين مبادءها للناس كافة فى قطرنا المحبوب أوفى غيره من الأقطار ، وقد أخذ الكثيرون من أفراد المجتمع فى اقتطاف ثمار هذا المجهود العظيم حتى أصبح كل بيت لايخلو من مبشر للصحة . ومما أذكره بالاعجاب أنه يغلب فى بلادنا أن يكون هذا المبشر من أبنائنا الشباب فتيانا وفتيات ، ولذلك سأذكر بعض المخالفات البارزة لسنن الطبيعة ، وألحقها بطرائق معالجتها فأقول : —

(١) يشمل هذا النوع من الوسائل ، وهو الذى له الفضل الأكبر فى إطالة العمر العناية بالصحة الشخصية من كل ناحية من نواحيها كالانتفاع بالهواء النقى ، وقضاء معظم الوقت فى الهواء الطلق والعناية بالثياب من حيث تناسبها مع الفصول ، والاهتمام بأمر الطعام والتغذية من حيث النوع والكمية ، والامتناع عن اعطاء الفرصة لأىّ سم كان من التسرّب إلى الجسم سواء كان من الداخل أوالخارج ، ومعنى ذلك العناية التامّة بالنظافة الشخصية ، فما أحكم الحديث الشريف القائل « النظافة من الايمان » لأنه جمع فأوعى ، ومن الوسائل الهامّة والموصلة إلى إطالة العمر بلانزاع الوقاية من الأمراض السريّة ، وكذلك العناية بالأسنان واللثة التى تتسرّب عن طريقها سموم جة بسبب العفونة التى تنشأ عن فضلات الطعام الراسبة عليها ، أوالمتخللة لها ، ولايفوتنا أن ننبه إلى فائدة الحركة سواء بالاستعانة بأى نوع من أنواع التمرينات الرياضية ، أوالصلاة ، أوالألعاب ، وكذلك نوجه الأنظار إلى مزية الرياضة العقلية امابالقراءة الصحية ، وهذه تتنافى كلية مع القصص المحشوة بسافل المعنى و بذىء العبارة ، أو بوسائل أخرى ، إذ من الرياضة العقلية أيضا بعض الألعاب التى تحتاج افكر أوروية ، وهذا بطبيعة الحال بغير افراط أواجهاد . ومن الامور البدهية حاجة الجسم والعقل إلى الراحة ، وأهمّ وسيلة لذلك هى النوم الهادئ ، والأهمّ من ذلك كله أن يكون للانسان عمل يقوم به يعود نفعه عليه وعلى بنى جنسه ، لأن البطالة من موارد التهلكة للجسم والعقل .

(٢) ومما يساعد كل المساعدة على إطالة العمر الاقلال من تناول الأطعمة المركزة أوالمطهية التى تعمل على هدم كيان الجسم ، وأن يعود الانسان إلى الأغذية الطبيعية التى هى أنسب الأغذية له

ولذلك أرى أنه جدير بى أن أذكر (بعد أن أجملت فيما سبق لى قوله) موضوع العناية بالغذاء والتغذية بشىء من التفصيل الذى يسعه المقام ، لأن اهمال هذا الأمر الحيوى عام بين كل الطبقات وعند جميع الأمم . إن فائدة مواد الغذاء التى تؤكل بحالتها الطبيعية تظهر جلاء فى تأثير باشيلس القولون العادى عليها ، لأن فعل هذا الباشيلس يتوقف على طبيعة المزرعة التى يتناول غذاءه منها فاذا زرع على بروتيين حيوانى كما يحصل فى حالة أمعاء الانسان فانه يحدث تعفنا ويصبح من ألد خصوم الانسان ، ولا يقتصر تأثيره على الأمعاء الغلاظ وحدها ، بل يؤثر أيضا تأثيرا شديدا فى الأحشاء المجاورة ، ويسبب لها أمراضا عدة مع انه اذا زرع هذا الباشيلس القولونى العادى فى مزرعة تحتوى على مواد نشوية أوخضرية فانه لايحدث تعفنا ويتحول إلى جرثومة تخمرية : أى ينقلب من خصم لدود إلى صديق نافع ، فتى عرفنا هذا أمكننا أن نحل معضلة كيفية توصيل المواد النشوية والخضرية من الفم حتى الأمعاء الغلاظ بدون أن تتأثر أقل تأثير بالعصارات المختلفة التى فى القناة الهضمية ، وأظن أن الجواب على ذلك قد أصبح جليا ، وهو أن تؤكل هذه المواد الغذائية بحالتها الطبيعية مغلفة بغلافها السليولوزى الذى لا تنفذه عصارات الهضم ، والذى يمكن هذه المواد من الوصول إلى مقر باشيلس القولون العادى ، ومعنى هذا أن الذين يعيشون على الأغذية الطبيعية لايشكون ألبتة من كسل الأمعاء ، وكما أدركنا حكمة ذلك فى الحيوان يجب أن ندرك حكمة الصوم الذى تصومه الحيوانات الدنيا ، فهو يحفظ التوازن بين دخل الجسم وخرجه ، وعندما يصاب الانسان بالبول السكرى يكون دخل جسمه أكثر من خرجه ، والصوم يعادل بين ذلك ، ولكن هناك أمرا مهما يجب الالتفات إليه عند ممارسة الصوم وهو التأكد قبل ذلك من عدم وجود فضلات فى الجزء الأسفل من الأمعاء الغلاظ حتى لا تمتص الأمعاء المذكورة هذه المواد أثناء الصوم ، ولذلك يجب أن يسبق الصوم بمسهل ، وهناك أمر آخر لايقل أهمية عن الأول وهو أن يكون الصوم صوما مطلقا بحيث لا يتعدى الشفتين إلا الماء ، لأن الانسان اذا تناول شيئا من الطعام كان ذلك محرضا له على طلب المزيد ، أما اذا اقتصر على الماء دون غيره ، فان شهوة الأكل تنعدم عنده ، ولاسيما اذا كان الصائم دائم الاشتغال أثناء الصوم عقلا وجسما ، لأن شهوة الطعام تقل بسرعة فى فى اليوم الثانى ، وفى اليوم الثالث تنعدم بتاتا . وقد قيل : انه يحسن بالصائم أن يلازم فراشه أثناء الصوم ، ولكن اذا كانت صحته جيدة فالأنسب أن يمارس عملا أثناءه أولى من ملازمة الفراش كالمرضى والضعاف العاجزين ، والأمر الثالث الواجب على الصائم الالتفات إليه هو أن يكتفى عند الافطار بوجبة صغيرة فى اليوم الثالث ، وبوجبتين أقل من هذه فى اليوم الرابع . والمتفق عليه أن صوم ثلاثة أيام كاف لاعادة التوازن . هذا والصوم يمارسه الحيوان غريزيا عند مرضه . وقديما قيل : « جوعوا تصحوا » . ومن ذلك يمكننا أن ندرك أهمية الصوم فى تصحيح الأبدان ، لأن غريزة كهذه ما كانت لتوجد فى الحيوان إلا ولها أساس فسيولوجى متين ، ونحن أولى بالانتفاع بها ، وقد دلت التجارب على أن فوائد الصوم لا تقتصر على تخليص الجسم من بعض أنواع التسمم المهددة لكيان الانسان بل هى توقظ فيه روح الهمة والنشاط ، وربما أن الصوم قد يحدث أحيانا نوعا من التسمم الحمضى : فينصح عادة للصائمين بتناول كمية وافرة من سائل قلوى أثناء الصوم كماء فيشى .

(٣) وتوجد وسيلة أخرى لحفظ التوازن بين دخل الجسم وخرجه ، وهى الاستحمام بالماء الدافىء

ويكون

و يكون مصحوبا بالتدليك ، أو بالمعالجة بالكهرباء ، لأن هذا الاستحمام سواء كان بالماء الساخن أو بالهواء الساخن ، أو بالبخار الساخن ، أو بالحرارة المشعة ، يكون من نتيجته رفع حرارة الجسم بحودرجة مئوية أو أكثر ، فينشأ عنها احتراق فى الدم كان لا يمكن الحصول عليه إلا باصابة حمية أو برياضة عضلية ، ولذلك كثيرا ما يقال ، ولعله قول حق : إن الانسان تتحسن صحته من إصابته بحمى عما كانت عليه قبلها ، ولا شك أن سبب ذلك هو الاحتراق الذى أحدثته الحمى فى المواد التى كانت مختزنة وغير محترقة فى الجسم ، ولذلك يجب الحث على الاستحمام بالشمس الذى يباشر الآن كثيرا ، وأظن أنه لم يحن الوقت بعد للحكم على قيمة الاستحمام بالأشعة فوق البنفسجية ولكن مما لا شك فيه أن الفوائد التى تجنى من التعرض لهذه الأشعة تنشأ عن ازدياد الاحتراق وتنبيه الاستحالة الغذائية (ميتابولزم) .

(٤) ولكن الوسيلة التى تفضل كل هذه الوسائل الصناعية هى الوسيلة الطبيعية وهى تنبيه الاستحالة الغذائية ، وحبذا لو أمكن الحصول على هذه الاستحالة بمقادير كافية بواسطة الرياضة العضلية التى لا تفضلها أية واسطة أخرى ، لأن فائدة هذه الرياضة بما تحدثه من التأثير الحسن على الجهازين العصبى والهضمى لا تعادلها فائدة أخرى من حفظ الصحة ، إذ ليس من شك فى أن الافراط فى الغذاء الغير صالح ، وعدم قيام الأشخاص الذين تضطرهم أعمالهم للجلوس بالقسط الكافى من الرياضة البدنية هما من أخص العوامل التى تجلب الأمراض المزمنة لهؤلاء الأشخاص ، وهى الأمراض التى تهدد حياتهم بالخطر . ويمكن لسكان المدن أن يمارسوا الرياضة البدنية فى منازلهم باستعمال الآلات الخاصة بها ، غير أن ممارسة هذه الرياضة فى الهواء الطلق أفضل بكثير ، وأحسن أنواع هذه الرياضة هى المشى ، ويمكن لكل انسان أن يمشى يوميا من أربعة إلى خمسة كيلومترات وأخص من يجب عليهم مباشرة هذه الرياضة هم الأشخاص الذين لا تتاح لهم الفرصة لعمل تمرينات رياضية منتظمة ، والعائق الوحيد الذى يمنع بعض الناس من ممارسة هذا التمرين الطبيعى هو أنهم لا يعرفون كيف يمارسونه فالمشى الصحى ليس الغرض منه مجرد جر الأرجل بل الغرض منه أن يمشى الانسان وقوامه منتصب وصدره مرفوع الى الأمام كما يفعل الجندى فى مشيه حتى تنقبض عضلات جدر بطنه والا ضاعت الفائدة المرجوة من المشى ، ويجب دائما على الانسان أن يمارس بعض التمارين التى تقوى عضلات البطن ، لأنها اذا استرخت نشأ عنها هبوط الأحشاء ، وهو من الأسباب الرئيسية لكسل الأمعاء ولأمراض أخرى ، وهذه التمارين يجب أن تمارس بانتظام كل صباح ، ومثلها فى ذلك مثل حمام الصباح وتسويك الأسنان .

(٥) ويحسن بنا أن نشير أيضا الى المشروبات الروحية التى لا نرى أى ضرورة لتعاطيها حتى ولو كان ذلك لايقاظ شهوة الطعام ، لأن تأثيرها فى هذه الحالة هو احداث تهيج فى المعدة ينشأ عنه ميل كاذب لتناول الطعام ، وهذا يؤدى إلى عسر الهضم وأمراض أخرى .

(ب) — وأما وسائل العناية بالكهولة فى أطوارها المتأخرة ، وبالشيخوخة ومنذراتها ، فقد أشرنا أيضا إلى الكثير منها فيما تقدم » . انتهى ما أردنا ذكره من كلامه .

وهنا أخذ يذكر الامساك وقصور الكلى عن القيام بوظيفتها ، وأخذ يذكر الجلد ووظيفته إلى أن قال : « وقد أشرنا فى فصل سابق إلى المعالجة بأشعة الشمس الطبيعية ، وأشعتها الصناعية ، وأكتفى بأن أذكر هنا بعض أخطار المعالجة بالشمس والطرق للوقاية منها ، وهذه الأخطار هى

ضربة الشمس (الرعن) والصهر والحرق ، ويحدث الأول بسبب الرفع الموضعى لدرجة حرارة المخ والجسم جميعه بينما ضربة الحرارة تحدث بسبب رفع حرارة الجسم فقط ، واذا ارتفعت حرارة المخ لدرجة عالية نشأت عن ذلك الوفاة ، ولهذا السبب وجب وقاية الرأس والعمود الفقرى من حرارة الشمس ، ويسبق ضربة الحرارة عادة خلل فى عملية إفراز العرق التى يتوقف عليها تنظيم حرارة الجسم ، ولاسيما فى البلاد الحارّة ، ويساعد على حدوث الرعن الاصابة بمرض آخر ، وتعالج هذه الحالة بالتعريق الصناعى ، وتحصل ضربة الحرارة فى الجوّ الجاف الذى لاريح فيه ، وكذلك فى الأماكن المرتفعة الحرارة ، وقد يتولد عن الاصابة بالحرق استعداد للحالتين السابقتين بما يحدث عند الانسان من ضعف المقاومة بسبب امتصاص متخلفات الأنسجة المحروقة ، أما معالجة الحروق الناشئة عن حرارة الشمس فلاتختلف عن الحروق الناشئة عن أسباب أخر ، وبعض الأشخاص لايطيقون المعالجة بالشمس كالصغار والمسنين والمصابين بأمراض عصوية مزمنة ، وأولئك الذين يطيقون المعالجة الشمسية يتمتعون بمناعة ممتازة من البرد والتهابات الجهاز التنفسى ، ولهذا السبب حبذا لوانتفع كل مواطنينا بالشمس الجليلة التى أنعم الله بها على بلادنا ، والتى لايوجد شك فى أنها لواستعملت بحذق لكانت من الأسباب العظيمة لتقوية بناء الجسم ولإطالة العمر . أما أهمية ضوء الشمس فهى فى حيازته لخاصية قتل الجراثيم ، وهو ماتقوم به الأشعة التى فوق البنفسجية الموجودة فى الطيف الشمسى ، هذا عدا عن فعلها فى تنشيط ميتابولزم الكالسيوم ، ولهذه الأشعة علاقة متينة بالفيتامين ومفرازات الغدد الصماء كما تكسب الدم خاصية اهلاك الجراثيم كما كشف عن ذلك الاستاذ [ليونارد هل] » .

(٦) ثم أخذ يشرح حمام الرئة فقال فى صفحة ١٣٣ مايأتى : « إن الرئة لاتقوم بوظيفة اخراج الحض الكربونيك فحسب بل هى عند الضرورة تخرج سواه ، ولذلك تشم رائحة الكحول فى زفير المخمور ، والطريقة الوحيدة لتطهير الرئة هى التنفس العميق ، أوالتنفس أثناء المرانة البدنية فى الهواء الطلق ، وبهذه الطريقة يجدّد شباب كل عضو من الأعضاء من المخ حتى الجلد » .

(٧) وهنا شرح أمراضا كثيرة لا داعى لذكرها ، ولنقتصر على مايفيدنا . قال فى صفحة ١٥٣ وما بعدها ما يأتى : « فالمحور الذى تدورحوله كل جهود رجال الصحة هوسعادة الانسان ، أوبالتالى إطالة عمره فى صحة وعافية لأنها والسعادة توءمان ، وبديهى أن السعادة ليست فى وفرة المال فحسب ، بل هى السلام وهدوء البال ، وأهمّ أركانها التمتع بالصحة ، ونعمة الصحة تدعم حياة الانسان اذا توافر له الغذاء الجيد النوع الكافى المقدار ، وما يقيه من الملبس والمسكن ونحوذلك ومتى رزق النسل الصحيح البنية ، وهذه هى المسائل الأربع الهامّة التى تبذل المصالح الصحية المختلفة فى أنحاء العالم كل جهودها لتوفيرها لبنى الانسان ، ولذلك كان من رأيى أن العناية بالصحة العامّة هى الوسيلة الأولى لاطالة العمر ، لأنه لاتوجد عقبة فى سبيل طول حياة الانسان اذا توفرت لديه كل هذه الوسائل . وكم كان يعيش الناس سعداء آمنين مطمئنين لوأتيح لكل منهم أن يحصل على نصيبه من الوسائل الآنفة الذكر ، وكيف كانت تكون حال الدنيا من الهناء اذا طالت أعمار بنيها إلى الحدّ الأقصى فى صحة ورخاء ، لاشك انهم كانوا يستهينون بالموت ، بل وينتظرونه كحادث طبيعى لابدّ من حلوله فى أوانه ، وحقا اننا اذا أدركنا هذه الغاية بلغنا منتهى مايتمنى الانسان فى الحياة ، ولايخفى أن طول الحياة فى هذه الحالة سيكون خيرواسطة لتقدّم الانسان ، وذلك لامكان

زيادة

زيادة الانتاج العلمى والأدبى والمادّى ، ولاسيما فى سنّ التعقل والرزانة ، والله المستعان على ما فيه خير الأمة والانسانية جمعاء » .

« أصبح التعمير أو إطالة العمر من الامور العلمية بعد أن كان من الأمانى والأحلام التى لا يرجى أن تحققها الأيام ، وقد وضعت له أسس وقواعد أملاها العلم وأيدها الاختبار ، وخصوصا علم الصحة العامة الذى تقدّم تقدما كبيرا فى السنين الأخيرة ، لأن التعمير من أهمّ ما يعنى به رجال الصحة فى كافة البلاد ، حتى انه بفضل جهودهم أصبح متوسط عمر الانسان فى العصر الحديث أطول منه فى العصور الغابرة فلقد زاد متوسط ما يعيشه الانسان فى الخمسين سنة الأخيرة نحو اثنتى عشرة سنة » انتهى ما أردته شرحا وتلخيصا ونقلا من كلام طبيبنا مواطننا [شاهين باشا] ولقد أجاد وأفاد ، وبان أن كلامه كله يرجع أهمه إلى الأغذية والأهوية والمشى والتمرينات العضلية .

ولاجرم أن الأغذية هى ما حولنا من المخلوقات ، وقد قال : « إن الشمس نافعة للصحة » فباجتماع التمرين العضلى مع ضوء الشمس على الجسم مع الأغذية الطازجة التى لا افراط فيها يعيش الانسان عيشا أهنأ وهو سعيد فى نفس هذه الحياة .

واعلم أن الاستحمام بالشمس تقدم فى ﴿ سورة يونس ﴾ عند آية : « هو الذى جعل الشمس ضياء » الخ وقد تقدّم الكلام على الأغذية ونحوها فى سور كثيرة ، فى سورة البقرة عند آية : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » وفى سورة الأعراف عند آية : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وفى أوّل الحجر عند الاشارة إلى آدم ، وفى سورة [طه] عند ذكر آدم أيضا ، وفى سورة الشعراء عند آية : « واذا مرضت فهو يشفين » وفى سورة [ص] عند آية آدم فى آخرها وعند ماقبلها فى قصة داود وفى سور أخرى .

اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا ، لأنك علمتنا مالم نكن نعلم ، وهديتنا الصراط المستقيم ، وأزلت عنا الحجب المانعات من سعادتنا وهنائنا فى نفس هذه الحياة الدنيا ، وأريتنا تفسير قولك فى كتابك العزيز : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون » فوجدنا هناك تآلفا واتحادا بين الخضر والفاكهة مما فى الأرض مع ضوء الشمس على صحة أجسامنا . والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين » ومابعدها . والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٣١ .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ومابعدها

كتب قبيل الفجر ليلة السبت ١١ ابريل سنة ١٩٣٢ م

تفسير : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » الداخلة فى قوله تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حقّ للسائل والمحروم ، وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فوربّ السماء والأرض انه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون »

كتبت هذا العنوان بحضور صديق العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير ، فقال : ماذا تريد من أمر النفس اليوم والتفسير مشحون بعجائبها ؟ فقلت : إن العجائب التى سأذكرها هنا لم يسبق لها نظير .

فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن فى النفس لحدائق و بساتين ، وجنات وعيونا ، و بهجة غفل عنها الناس . فقال : الناس أجمعون ؟ فقلت نعم أجمعون . فقال : إنى أخاف من اطلاق هذا القول ، ان علم النفس اليوم ارتقى ارتقاء مدهشا ودخـل فى تربية المدارس فى هذا القرن بهيئة عجيبة . فقلت : أنا سأبرهن لك فى هذا المقام على ما أقول وسأريك أوّلا حدائق النفس و بساتينها وأشجارها بهيئة تسرّ الناظرين ، ثم أقفى بتبيان أن هذه الحدائق انتفع الناس بظلها الظليل ، فتفيؤا ظلالها ، وعاشوا فى مناكبها ، وذلك فى علوم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات ، وأبين ذلك بالأمثلة الواضحة ، ثم أثلث بأن الأمم كلها وان استظلت بظل تلك البساتين فى العلوم والصناعات لم تجن الثمرات ولم تتناول القطوف الدانية من الغصون الوارفة فى تلك الأشجار الباسقة ، بل هـم لايزالون مفتونين بالظواهر ، مشغولين عن نفوسـهم ودراستها ، ولوأنهم كما درسوا نظام هذه الدنيا درسوا نفوسهم أيضا من حيث نظامهم لبنوا سياستهم فى الحياة الدنيا على نظام أقلّ مافيه انه يشبه نظام النحل أوالنمل أوالأرَضة ، ولـكنهم إلى الآن جهال مبعدون عن هذه السعادة فى أرضنا هذه وهم غافلون . فقال : والله ان هـذا الـكلام عليه مسحة الحق ، لقد شاقنى هـذا البيان أن أسمع منك فقلت انها فصول ثلاثة الفصل الأول منها فى الجذر والتربيع والمتوالية العـددية والهندسية والـكسر الدائر ونحوها . ثم قلت : انظر هذه الحديقة :

الجذر والتربيع

قواعد	ارتفاعات	أوتار	أعداد	رواسم
٣	٤	٥	١	و ٢
٥	١٢	١٣	٢	و ٣
٧	٢٤	٢٥	٣	و ٤
٩	٤٠	٤١	٤	و ٥
١١	٦٠	٦١	٥	و ٦
١٣	٨٤	٨٥	٦	و ٧

٤ من ١٢	١٢ من ٢٤	٢٤ من ٤٠	٤٠ من ٦٠	٦٠ من ٨٤
٨	١٢	١٦	٢٠	٢٤
٤	٤	٤	٤	٤

هذه فروق متساوية فى الارتفاعات

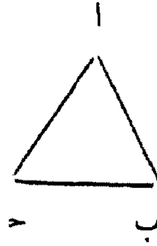
٥ من ١٣	١٣ من ٢٥	٢٥ من ٤١	٤١ من ٦١	٦١ من ٨٥
٨	١٢	١٦	٢٠	٢٤
٤	٤	٤	٤	٤

فروق متساوية فى الأوتار

هذه هى الحديقة الغناء . فقال : اللهم إنى أفهم فى رقعـة الشطرنج وأنواع الألعاب ولا أفهم فى هذه الحديقة شيئا . فقلت : أيها الصـديق : إن هذا الجدول كله يرجع لأمر يعرفه العالم والجاهل وهو ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ الخ ولـكن المعرفة السطحية جاهلة ، فانظر فى الجدول المرسوم تحت عنوان أعداد رواسم أليس هذا الجدول عبارة عن نفس هذه الأعداد ؟ قال نعم . فقلت : أتدرى ماذا حصل فيها ؟ قال لا . قلت ربعوا ١ و ٢ ثم طرحوا مربع الأوّل من مربع الثانى فـكان باقى الطرح ٣ ثم جمعوهما فـكان المجموع ٥ وضربوا ١ فى ٢ ثم ضربوا الحاصل فى ٢ فصار ٤ فالعمل إذن رجع إلى التربيع وطرحه وجمعه ، والى ضرب نفس الجذرين فى بعضهما ثم تضعيفهما . فقال : مامعنى جذر ؟ فقلت ٢ جذر و ٤ تربيع له ٣ جذر و ٩ تربيع له وهكذا . فقال فهمت . فقلت : إذن عـددنا ٣ و ٤ و ٥ قال نعم . قلت : وهـذه ناتجة من عددى ١ و ٢ قال حقا بسبب التربيع طرحا وجمعا ، والجذر ضربا وتضـعيفا . قلت : الحمد لله قد فهمتنى .

ثم

ثم قلت : هذا هو المثلث القائم الزاوية [ا ب ح] :



فخط (ا ح) ارتفاع ، وخط (ب ح) قاعدة ، وخط (ا ب) وتر ، فاذا كان خط (ب ح) (٣) في المثلث القائم الزاوية (ح) فان (ا ب) فيها يكون ٥ و (ا ح) يكون ٤

فانظر أيها الذكي ألست ترى أن مربع ٥ وهو ٢٥ يساوي مجموع المربعين وهما ١٦ و ٩ — قال حقا والله . قلت : أليست هذه هي النظرية المشهورة في الهندسة وهي مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين . فقال : أهي هذه ؟ قلت نعم هي هي التي كشفها [فيثاغورس] . فقال عجب ! أهذه البدائع كلها ترجع إلى ١ و ٢ فقط . فقلت نعم وغاية الأمر جعلناهما جذرا ورتبناهما تارة وضربناهما أخرى واستعملنا الطرح والجمع والضرب فخرج هذا كله . فقال هـذا حسن ، وحسن جدا ، واذا دمت في الافهام على هذا المنوال حتى استوفيت المسائل إلى أن تصل علم السياسة فان عقلاء الأمم يفهمونها وتحدث أثرا على مقدار طاقة نوع الانسان في هذه الأرض . فقلت : ثم انظر إلى عددي ٢ و ٣ في نفس هذا الصف وهو صف أعداد رواسم فلنجعلهما جذرا والمربعان ٤ و ٩ اذا جمعناهما كان المجموع ١٣ وبالطرح يكون الباقي ٥ وبضرب ٢ في ٣ وتضعيف الحاصل وهو ٦ يكون عندنا ١٢

فهذه هي أضلاع المثلث السابق مكبرا ، فان ١٣ وتر و ١٢ ارتفاع و ٥ قاعدة ، ولا جرم أن مربع ١٣ وهو ١٦٩ يساوي مجموع مربعي ١٢ و ٥ وهما ١٤٤ و ٢٥ . فقال بالله ما أبهج العلم وألذ الحكمة وأبدعها إذن بقية الأعداد هكذا : أي ٣ و ٤ ثم ٤ و ٥ ثم ٥ و ٦ . قلت نعم كلها على هذا النمط قواعد وارتفاعات وأوتارا بحيث يستمر الحساب إلى مالانهاية له من غير حصر .

ملاحظات

بالنظر في هذه الجداول نجد أن ترتيب المثلثات المذكورة على الأعداد البسيطة أنتج أولا أن الفرق بين القواعد عدد ٢ لأنها ٣ ٥ ٧ ٩ الخ — ثانيا : ان بين كل ارتفاع ومايليه نسبة وباقي طرح أحدهما من الآخر اذا قابلناه بباقي طرح مايليهما كان الفرق بين باقي الطرح ٤ مثلا ارتفاع ٤ نطرحه من ارتفاع ١٢ والباقي ٨ وارتفاع ١٢ نطرحه من ارتفاع ٢٤ فالباقي ١٢ وهكذا فاننا نجد الفرق بين كل باق ومايليه ٤ ، ومثل مافعلنا في الارتفاعات نفعل في الأوتار سواء بسواء ، فنفعل في ٥ و ١٣ و ٢٥ الخ مثل هذا فيكون الفرق أيضا ٤ وهذا هو العجب ، إذ نرى الأعداد البسيطة على ترتيبها تظهر منها هذه الأعاجيب ، نظام مقدس في القواعد لأن الفرق ٢ ونظام مدهش في الارتفاعات والأوتار ، لأننا نجد الفرق بينهن ١ وهذا أمر عجيب جدا ونظام غريب في بواقي طرح الارتفاعات والأوتار وهو ٤

مساواة مربع الوتر لمربعي الضلعين الآخرين

وذلك كله بدخول الجمع والطرح والضرب على مقتضى الأحوال . أليست أيها الصديق هذه هي الحديقة الغناء من ١ و ٢ و ٣ وهكذا . فهذه الأعداد البسيطة عند الجاهل لاقيمة لها ، فكما أنه لا يعقل نفسه لا يعقل

جمال هذه الأعداد ، بل هذه الأعداد جزء من النفس ، فالنفس الانسانية فى أوّل أمرها مبهمة غيرمفصلة ، ولكن كشف هذه الحقائق لها يجعلها مفصلة واضحة لأن إحساسها بعد ان كان امرا مجملا أخذ الحساب يفصله ، وأخذ يطالع فى نفسه هذه العجائب الناتجة من الأعداد البسيطة السهلة ، إن أمر الحساب عجب ! أمر الحساب عظيم ، انظر كيف يقول الله : « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر » ثم يقول : « هل فى ذلك قسم لذى حجر » ثم ذكر أمر الدول وخرابها ، ويقول فى آخر السورة : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » فأىّ مناسبة للشفع والوتر مع الفجر والليالى ؟ ثم مامناسبة هذه كلها للنفس ورضاها ودخولها الجنة .

هذه إشارات بعيدة الغور ستعرفها الانسانية فى المستقبل ، فان الحساب ونظامه لبنات جيلة بنى بها هيكل النفس فى أوّل أمرها أشبه بخلية الجسم فى أوّل أمره ، خلية الجسم واحدة تنقسم إلى ٢ وهذه تكون ٤ و ٨ و ١٦ و ٣٢ وهكذا ، فهذه متوالية هندسية كل الأجسام فيها سواء ، وعمدة حياة هذه العوالم كلها الحساب ، فالحساب الذى هو جزء مهمّ من نفوسنا هو الذى بنى عليه نظام أجسامنا وأجسام العالم كله ، فكما أن خلية الجسم الأولى صارت آلافا وآلافا من الخلايا ، ولكل خلية حياة خاصة ترجع إلى الجسم العام هكذا النفس الواحدة المشبهة الخلية تتسع بكل محسوس ومعقول ، فهذه المعلومات تزيدها اتساعا كما يزيد الجسم حجما بالأغذية ، والفرق بينهما أن الجسم يتجزأ والنفس لاتتجزأ ، فهى تعظم بهذه الصور الروحية وتزداد عظما روحيا لاجسميا ، ولو أن الأعداد وماماثلها من جميع العلوم ذهبت من النفس لأصبحت أشبه بالدودة الضعيفة

اذا تقرّر هذا نقول : إن الجداول المتقدّمة المنتظمة أمر ثابت فى نفسه مجرّد عن المادّة ، ولما كانت النفوس أقرب إليه دخل فى أمزجتها وصار جزءا منها لايتجزأ ، فجميع هذه الجداول وبدائع الحساب ثابتات كلها فى نفوسنا ، وهذه النفوس تكشف هذه الخبايا فيها بالدراسة فتزداد سعادة .

مثلا : فى هذا اليوم ١١ ابريل سنة ١٩٣١ م زار بلادنا المصرية [جراف زبلن] وهذا المنطاد مرّ فوق القاهرة ، ورأيته أمس آخر النهار يطوف بالعباسية ، وهو أشبه بالحوت فى البحر ، له لون فضى جيل ورأيته صباح اليوم قبيل كتابة هذا المقال ، ولفّ حول الحى الذى أنا فيه الآن (شارع زين العابدين) وكنت أمس واليوم أجد جميع سكان القاهرة رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا يقفون فوق السطوح فرحا بهذا الأمر العظيم المدهش ، لأنه أمر عجب ! ولم يروا مثله ، وأعوزه جهاد عظيم وعلم غزير حتى برز للوجود . إن هذا سرور للنفس ، ولاجرم أن خبايا النفس اذا ظهرت لكاشفها تكون أكبر سعادة لها .

إن فى الأعداد المستقرّة فى النفس الشفع والوتر المذكورين فى الآية ، أما الوتر فقد ظهرت أمثلة له فى قواعد الجداول المتقدمة ، وهنا يدهش الفيلسوف من قاعدة واحدة تكفل آلافا مؤلفة من المثلثات القائمات الزاوية المختلفات اختلافا تاما بحيث ان ما قلناه فى المثلث الأوّل ينطبق على كل مثلث بعده . ولنا أن نجعل الارتفاعات والأوتار السابقات فى الجدول المتقدّم رواسم هنا ، فكما اننا جعلنا ١ و ٢ و٣ الخ رواسم لتلك الجداول نجعل ماترتب على تلك الرواسم من الارتفاعات والأوتار قواعد فماذا يكون إذن ؟ يكون هذا الجدول فتكون القواعد كلها مربعات للقواعد المتقدّمة فى الجداول السابقة :

قواعد	ارتفاعات	أوتار	أعداد	رواسم	قواعد	ارتفاعات	أوتار	أعداد	رواسم
٩	٤٠	٤١	٤	و ٥	٨١	٣٣٨٠	٣٢٢٨١	٤٠	و ٤١
٢٥	٣١٢	٣١٣	١٢	و ١٣	١٢١	٧٣٢٠	٧٣٢١	٦٠	و ٦١
٤٩	١٢٠٠	١٢٠١	٢٤	و ٢٥	١٦٩	١٤٣٨٠	١٤٢٨١	٨٤	و ٨٥

فههنا

فههنا أصبحت القواعد أعدادا مربعات ، ولهم طرق أخرى يجعلون فيها القواعد كلها زوجية مثل هذه :

قاعدة	ارتفاع	وتر	عدد راسم
٦	٨	١٠	١ و٣

وهو يجرى على القاعدة عينها ، فلنكتف بهذا فى هـذا المقام . انتهى الكلام على الجذر والتربيع من الفصل الأوّل والحمد لله رب العالمين .

الكلام على المتوالية العددية والهندسية

المتوالية العددية مثل ١ و٣ و٥ و٧ و٩ و١١ الخ ، وهـذه متوالية عددية تصاعدية ، أو نقول هكذا ١١ ٩ ٧ ٥ ٣ ١ فهـذه متوالية عددية تنازلية ، والفرق بين كل عددين متواليين يسمونه أساسا للمتوالية وهو فى هذه ٢ ويكون ٤ فى الآتية ٢٦ ٢٢ ١٨ ١٤ ١٠ ٦ ٢ ولوأخذ ثلاثة أعداد (حدود) كان مجموع الطرفين ضعف الوسط كحدود ١٤ و١٠ و٦ من التنازلية فان ضعف ١٠ وهو الوسط ٢٠ ومجموع الطرفين وهما ١٤ و٦ يساوى ٢٠ وفى التصاعدية كذلك مثل ١٤ و١٨ و٢٢ فان ١٤ فى ٢٢ يساوى ١٨ فى ٢ فاذا أخذنا ٤ حدود كان مجموع الطرفين يساوى مجموع الوسطين وهو ظاهر .

الكلام على المتوالية الهندسية

هى مثل ٣ و٦ و١٢ و٢٤ و٤٨ و٩٦ وهذه تصاعدية ، ويقال فيها نسبة ٣ الى ٦ كنسبة ٦ إلى ١٢ كنسبة ١٢ إلى ٢٤ وكل حدّ يساوى الحد الذى قبله مضروبا فى الأساس مثل ٦ يساوى ٣ مضروبا فى ٢ أى يساوى الحد الذى قبله مضروبا فى الأساس و٢ هنا هوالأساس ، وهوالخارج من قسمة كل حد على الحد الذى قبله وهو لا يتغير ، وهذه المتوالية تكون تنازلية كما تكون تصاعدية ، وماقيل فى الوسطين والطرفين هناك يقال هنا ولكن بطريق الضرب فنقول هنا حاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين ، أوحاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسط فى نفسه (مربع الوسط) مثلا ٣ و٦ و١٢ مربع الوسط فيها وهو ٣٦ يساوى حاصل ضرب ٣ فى ١٢ وهذا واضح .

إنما ذكرت ذلك هنا ليكون ذلك تذكيرا لمن لم يعرف علم الحساب ، وأريد هنا أن آتى ببعض المقصود فأقول : إن للمتوالية العددية والمتوالية الهندسية فوائد فى علم الأوفاق ، وقد تقدّم فى هذا التفسير شذرات منه ، ولكنى أريد هنا أن أذكر منه عجبا :

جدول وفق فردي

٣	٢٠	٧	٢٤	١١
١٦	٨	٢٥	١٢	٤
٩	٢١	١٣	٥	١٧
٢٢	١٤	١	١٨	١٠
١٥	٢	١٩	٦	٢٣

كل قطر أوصف أفقي أو رأسي هنا اذا جمع يساوى ٦٥ أى يساوى حاصل ضرب جذر عدد الخانات ، وهو ٢٥ فى عدد ١٣ الذى هو وسط المتواليـة الذى هو (فى مربع تقاطع قطرى هذا الجدول) فالجذر ٥ فى ١٣ يساوى ٦٥ وكيفية تعمير هذا الجدول تراها فى كتاب أستاذنا المرحوم على مبارك باشا فى كتابه [خواص الأعداد] وفى كتابى [بهجة العلوم] فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة .

جدول وفق زوجى

١	١٥	١٤	٤	٣٤
١٢	٦	٧	٩	
٨	١٠	١١	٥	
٣٤ ١٣	٣	٢	١٦	

هذان الوفقان المنظمان العجيبان فيهما متواليـة عددية أولها ١ وآخرها ٢٥ فى الأول و١٦ فى الثانى ، وفيهما بدائع وعجائب ، فالخط الأفقى والرأسى والقطر كلها متساوية ، وجذر العدد الفردى وهو ٢٥ بضرب به فى وسط المتوالية الموضوع فى الوسط يكون هو نفسه ذلك المجموع ، ولأكتف بما ذكرته الآن فى أوفاق المتوالية العددية .

أوفاق المتوالية الهندسية

إن كل ماقيل فى أوفاق المتوالية العددية يقال نظيره فى أوفاق المتوالية الهندسية ، ولكن الأمر هنا يكون بالضرب وهناك بالجمع ، فتجد فى الوفق المثلث الآتى أننا عمرناه بهذه المتوالية : —

١ ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ ١٢٨ ٢٥٦ فههنا ترتيب كترتيب الوفق العددى لكل قطر وكل صف أفقى أو رأسى حاصل ضرب أعداده يساوى ٤٠٩٦ وهو مكعب ١٦ الذى فى الخانة الوسطى ، وطريقة التعمير هنا كالطريقة هناك :

٨	٢٥٦	٢
٤	١٦	٦٤
١٢	١	٣٢

وفق مثلث للمتوالية الهندسية .

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

وفق مثلث للمتوالية العددية .

فوازن بينهما أيها الذكى فانك تجد عدد كل صف وكل قطر فى الفردية ١٥ وهو من ضرب ٥ الذى هو فى الخانة الوسطى وهو وسط المتوالية أيضا فى ٣ الذى هو جذر عدد الخانات وهو هنا ٩ أما فى وفق المتوالية الهندسية فانك تجد حاصل ضرب أعداد كل صف أفقى أو قطرى أو رأسى مساويا لمكعب تلك الخانة التى فى الوسط وهى هنا ١٦ فى الفردية ٥ مضروبة فى جذر عدد الخانات ، وهنا مكعب تلك الخانة التى هى فى الحالين يمر بها القطران معا وتكون وسط الوفق بالضبط ، فهى فى الوفق كقلب الانسان أو الحيوان .

عند

عند ذلك قال صاحبى : لقد فهمت المتوالية بقسميها ، وفهمت أوفاق العددية بقسميها ، ولكن لم أطلع على وفق للمتوالية الهندسية يكون زوجيا ، فقلت : إن الأمر يطول ، وأنا لم أذكر شيئا من ذلك هنا إلا مقدمة لما سأذكره فى الفصل الثانى ، والثانى مقدمة للثالث أعنى أنى كما قلت لك سابقا أريد بهذه المقدمة أن أبين عجائب الأعداد فى نفوسنا ، ولكنى لا أطيل أكثر من اللازم ، وأثق بأن أمثال هذه القوانين التى فى نفوسنا وجدت فى نفس الطبيعة ، ثم أثق بأن أقول : من العار على هذا الانسان (الذى وجد فى نفسه تلك القوانين ، ثم عرفها فى الطبيعة ، ثم استعملها فى الصناعات التى يعيش بها) أن يكون غافلا أشدّ الغفلة ، جاهلا أفحش الجهل ، إذ لم يطبقها على نفس الانسان ، فالذى أريده من ذلك كله أن أبين أن للانسان فى نفسه بصيرة ولكنها محجوبة عنه ، ومادامت محجوبة فانه يكون معذبا فى حياته الدنيا والآخرة ، وهذا أصبحت به موقنا ، فعلىّ إذن أن أبينه لنوع الانسان . قال : إذن فلنكتف فى هذا الفصل بما ذكر ونبتدئ فى الفصل الثانى . فقلت : نعم ولكن بقى أن آتى بلمعة يسيرة لأتمم هذا المقال ، وذلك بذكر الأعداد المتحابة وذكر الأعداد الكاملة لتدهش أيها الذكىّ من عجائب نفوسنا البديعة . فقال : أرجو أن توضحه هنا ايضاحا تاما . فقلت : انه سيأتى فى ﴿سورة الرحمن﴾ عند قوله تعالى : «الشمس والقمر بحسبان» فانى سأبين هناك أن العوالم كلها مبنية على الحساب كنص الآية ، ولكنى أشير إليه هنا إشارة بسيطة لاستيفاء المقام :

اعلم أن العدد الكامل هو الذى يساوى مجموع مضاربه ، أما الناقص والزائد فهما على خلافه فعدد ٦ من ضرب ٢ فى ٣ ومن ضرب نفس العدد فى ١ وبجمع ٢ و٣ و١ يكون المجموع ٦ وهذا العدد نادر جدا ، وعدد ٢٨ ناتج من ضرب ٢ فى ١٤ ومن ضرب ٤ فى ٧ ومن ضرب ٢٨ فى ١ وبجمع ١ و٢ و٤ و٧ و١٤ يكون المجموع ٢٨ وليس فى الأعداد من ١ الى ١٠٠ سوى هذين العددين ، وله جدول تجده فى هذا التفسير عند ذكر خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وهنا أذكر قاعدة استخراج الأعداد الكوامل لمناسبة المتوالية الهندسية المذكورة التى رأينا فيها عجائب الأوفاق العددية السابقة ، فانظر ما يأتى :

٢ ٤	٤ ٨	١٦ ٣٢	٦٤ ١٢٨	٢٥٦ ٥١٢
٦	٢٨	٤٩٦	٨١٢٨	١٣٠٨١٦
٣ فى ٢	٧ فى ٤	٣١ فى ١٦	١٢٧ فى ٦٤	٥١١ فى ٢٥٦

فلما نظره قال : لم أفهم شيئا ؟ فقلت : إن هذه هى المتوالية الهندسية ، فانك فى الصف الأفقى الأعلى تجد ٢ و٤ و٨ و١٦ وهكذا ، فى الصف الذى تحته تجد الأعداد الكوامل وهى ٦ و٢٨ وهكذا ، أما فى الصف الأسفل فانك تجد أن ٢ التى فى أوّل الفاصل الأوّل من أعلى قد نقلت تحت ٤ فى نفس الفاصل وتجد عدد ٣ فى نفس الفاصل قد وضعت فى محاذاة ٢ وعدد ٣ هذا هو عدد ٤ فى الفاصل الأوّل المذكور نقصنا منه واحدا ، وبضرب ٣ فى ٢ يكون الحاصل ٦ وهذا هو المطلوب ، وهكذا نفعل فى الفاصل الثانى فان عدد ٤ الذى فى أعلاه قد وضعناه فى أسفل الصف الذى فى أعلاه ثمانية و٧ التى هى فى محاذاة ٤ هى عين ٨ التى عند الفاصل الثانى وقد نقصت واحدا ، وبضرب ٧ فى ٤ يكون عندنا ٢٨ وهو العدد الكامل ، ونفعل مثل هذا على التوالى فى كل المتواليات الهندسية بلا حصر ، ويمكننا أن نضع جدولا بأعداد كوامل من غير نصب يبلغ آلافا وآلافا ، وقد ذكرت هذا الجدول المذكور فيما تقدم من هذا التفسير ، ولكن لم أذكر هذه القاعدة هناك ، والقاعدة هنا خير مما هناك .

فقال : إن هذا عجب عجاب ! كيف تكون المتوالية الهندسية ذات خواص على هذا المنوال ، فانها ذات أوفاق عددية وزوجية عجيبة ، وبها أمكننا استخراج الأعداد الكوامل ، ولكن لم أعرف الأعداد المتحابة فقلت : انها واضحة هى وطريقة استخراجها فى ﴿سورة الرحمن﴾ فيما يأتى . فقال : ولكنى أرجو أن أعرف طرفا منها هنا لأتصور أمرها ؟ فقلت : هى من أسرار عدد ٢ كالتى قبلها ، فانك تجد عددى ٢٢٠ و ٢٨٤ متحابين ، لأن مضاريب ٢٢٠ يساوى مضاريب ٢٨٤ والعكس ، لأن ٢٢٠ يساوى ١ و ٢ و ٤ و ٧١ و ١٤٢ وهذه عينها مضاريب ٢٨٤ و ٢٨٤ يساوى مضاريب ٢٢٠ وهى ١ و ٢ و ٤ و ٥ و ١٠ و ١١ و ٢٠ و ٢٢ و ٤٤ و ٥٥ و ١١٠ واستخراج هذا كله بسبب عدد ٢ لأنه اذا ضرب فى ٣ ثم فى ٦ ثم ضرب مربعه وهو ٤ فى ١٨ حصل عندنا ٦ و ١٢ و ٧٢ فاذا نقصنا من هذه الثلاثة واحدا واحدا كان هكذا ٥ ١١ ٧١ واذا ضربنا ٥ فى ١١ وضربنا الناتج وهو ٥٥ فى ٤ كان الناتج ٢٢٠ وهو أحد العددين السابقين ، ويمكن إيجاد العدد الآخر بضرب ٧١ فى مربع ٢ المذكور ، وهو ٤ فيكون الناتج ٢٨٤ وهو العدد الثانى وهو المطلوب ، وهكذا يمكن استعمال أى قوة من قوى عدد (٢) على هذا النمط لاستخراج الأعداد المتحابة ، وهذا سيتضح اتضاحا تاما فى ﴿سورة الرحمن﴾ فانتظره . فقال : حقا قد استوفينا هذا المقام بقدر الامكان . فقلت : بقى الكلام على الكسر الدائر البسيط والمركب ، فانظر ١/٣ فهو اذا جعل كسرا اعشاريا يكون هكذا ٣٣٣٣ر٠ وهكذا إلى مالانهاية له فهذا كسر دائر بسيط ، وانظر الكسر الدائر المركب فهو كهذا ١/٧ وهكذا إلى مالانهاية ١٤٢٩٥٧١٤٢٩٥٧ر٠ وترى كسر ١/٦ ١٦٦٦ر٠ إلى مالانهاية له . واعلم أن الأعداد البسيطة على ثلاثة أقسام : زوجية وكلها كسورها منتهية وهى ١/٢ و ١/٤ و ١/٨ فهى تساوى ٥ر٠ و ٢٥ر٠ و ١٢٥ر٠ وفردية وهى كلها غير منتهية ، وقد تقدمت هنا ، وأعداد أولية مثل ١/٥ و ١/٧ والأول ٢ر٠ فهو منته كالأعداد الزوجية ، والثانى غير منته كالأعداد الفردية .

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أنت الجميل ، أنت الحكيم ، أنت البديع ، أبدعت نفوسنا وملأتها بالجمال أنت العليم تعلم كل شىء ، ولما أبدعت أرواحنا أشرق عليها نورك فأصبحت الأعداد من كيانها ومزاجها وحقيقتها ، وهذه الأعداد لها نظام جميل ، فاذا كانت الكسور المتقدمة قد اختلفت (فمنها ماله نهاية ، ومنها مالانهاية له ، ومالانهاية له إما كسر دائر بسيط ، واما كسر دائر مركب ، ولكل من هذه الأقسام التى امتزجت بنفوسنا نتائج ظاهرات فى العوالم حولنا) فان أمر نفوسنا إذن لعجيب ، إذ كيف نرى ماحسبناه فى الأعداد الممتزجة بنفوسنا تصير مظاهره فى العوالم حولنا كما سيأتى فى الفصل الذى يلى هذا ومابعده مثل :

(١) إن سير الكواكب لم يخرج عن الكسر الدائر المركب ، وذلك بسبب تكرار الأدوار فى القرون والدهور .

(٢) ومثل ان هذا النوع الانسانى لايعلم لأجزاء المادة نهاية عند تحليلها الكيمائى كما لاعلم له بنهاية الكسر الدائر .

(٣) ومثل عدم علمه بنهاية العالم من حيث المكان من جهاته الست .

(٤) وكذلك هو لايعلم متى ابتدأ ولامتى ينتهى ، إن هذا كله قد أوضحه الكسر الدائر الذى وعته نفوسنا إذن نفوسنا كنت فيها العوالم أو نماذجها .

(٥) ومن هذه أيضا ندرك أن الله لانهاية لعلمه ، واذا كان الكسر الدائر لانهاية له وقد انطوت عليه نفوسنا وصارفيها مجملا . وعلومنا بالنسبة لعلم الله أقل آلاف آلاف مرات من نسبة أجسامنا إلى العوالم كلها ، فهو إذن فى علم الله مع عدم نهايته مفصلا ، واذا نحن عرفنا الكسوف والخسوف بعد آلاف

آلاف

آلاف السنين معرفة مجملة فالله يعلم ذلك مفصلا ، ويعلم كل الحوادث الصغيرة والكبيرة التى لانهاية لها مفصلة وذلك التفصيل ضرب له المثل بما سيأتى :

(٦) ألم تر المثنين اللذين رسمناهما آنفا وفيهما المتواليتان العددية والهندسية ، أفلا تعجب معى أيها الأخ الذكى ، أفلا تدهش أن نرى عدد ٥ فى المتوالية العددية وعدد ١٦ فى المتوالية الهندسية قد جاء وضعهما فى المربع الذى هو فى وسط المثنين ، فكما كان عدد ٥ هو وسط ٩ هكذا عدد ١٣ وسطها ثم ان ضرب ٥ فى جذر ٩ هو عين مجموع الصفوف الأفقية والرأسية والقطرية ، هكذا تكعيب ١٦ هو حاصل ضرب كل صف وكل قطر ، هذا النظام الذى تقدم فيهما يدلنا على أن نظام العالم على هذا النمط كما نرى نظيره فى ترتيب العناصر الذى تقدم ذكره فى سورة العنكبوت ، فان صانع العالم رحمنا بعلم الحساب وبهذه العجائب فيه التى أريناها مفصلات الجداول منظمة مرتبة لاخلل فيها ولاخطأ ، ولو اختل منها واحد لاختل الجميع ، وهذا هو الذى نفهم به على سبيل اليقين والمشاهدة ولو بطريق التنظير قوله تعالى : « وكل شىء فصلناه تفصيلا » وقوله « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وقوله : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » وقوله : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وذلك لأن الحساب لايغير ، ولو غير الحساب لاختل نظام المجموع ، فكل امرئ فى الأرض أشبه بعدد فى مربع من تلك الأعداد ، وكل أمة أشبه بجدول أفقى أو رأسى وبين الأفراد علاقات لاخلل فيها ، وكل فرد وكل أمة تختلف عن الأخرى ، وهكذا خلق كل حيوان وكل انسان وكل معدن الخ .

(٧ و ٨) نظام الأمم ، وتشريح الأجسام : وكما أن علم الله مبنى على نظام واحد وهو حساب محكم ظهر لنا نموذجه الذى تقبله عقولنا الضعيفة هكذا يجب أن يكون نظام أمم الأرض جميعا ، لأن اختلاط الأمم الآن دلنا أنهن متعاونات مرتبطات ارتباط هذه الأعداد بعضها ارتباطا لا انفصام له ولاانقطاع ، وأى فرق بين ارتباط الأمم وتعاونها وارتباط أعداد هذه الأوفاق وتناسب أعضاء الجسم الواحد ؟ فالرجل لو نطقت لقالت أنا أحب العين وكلاهما يحب الكبد والكلية والعظم وما أشبههن .

الله أكبر جل الله : ظهر الحق واستبان السبيل . فقال صديقى : وأى حق غير ما تقدم ؟ فقلت : هو سر الأسرار وعلم الأبرار . فقال : وما هو يرحمك الله ؟ فقلت : أى صديقى : اذا كانت هذه حال الأعضاء من الصداقة والمودة بحيث يرى كل عضو لو كان يعقل أنه يحب بقية الأعضاء ولا يحسد واحدا منها ، لأن الجميع ينفع بعضه بعضا ، غاية الأمر أن الأعمال اختلفت كما أن عدد ١ و ٢ و ٣ الخ فى الوفق المتقدم كل واحد منها فى مربعه وهو مرتبط بجدوله وبالجداول الأخرى وبينهن مناسبات عجيبة ، بل لو نطقن لقال كل واحد انى أحب باقى الأعداد لأن الوفق كله لايتم اذا نقص واحد منها أو زاد أو انتقل من محله كما ينقص الجسم بنقص عضو واحد وتتألم لفقده بقية الأعضاء ، والذى يخطر لى كثيرا أن هذه العقول الانسانية فى الأرض سائرة إلى هذه الحال يوما ما ، وهى قبل أن تصل إلى هذه الحال لاتزال فى ذل وعذاب مهين كأهل أرضنا اليوم ، فان كل أمة من شدة الجهالة الفاشية فى نوع الانسان تريد أن تستقل بالحياة ، وهى فى ذلك أشبه بعضو فى الجسم ، أو مربع فى الوفق يريد الاستقلال بالحياة وحده ويذهب الباقى من الحياة ، وهذا هو السبب فى أن الحقد والحسد وبغض الناس من الكبائر ، لأن ذلك حجاب حجب هذه النفوس عن الاتحاد الذى يجعل كل نفس تفرح بالبقية ، وهذا إلى الآن لم يكن له أثر فى أرضنا إلاقليلا ، وقد نجد رجال الحكومات يتعاونون ورجال الصناعات وغيرهم ، ولكنه تعاون ظاهرى ، وكل يقصد نفسه ، وخير لكل امرئ فى الأرض أن يقصد المجموع الانسانى كما

قدّمناه فى ﴿ سورة الزمر ﴾ منقولا عن الاستاذ [كانت] الألمانى فى رسالته عن التعليم ، فانه حض جميع أفراد الأمم على أن يكون المقصد الأسمى سعادة المجموع . هذا هو الحقّ الصراح ، فليجدّ المسلمون من الآن فى إسعاد جميع النوع الانسانى ، وهذا هو سبيل الله والجهاد فيه موصل للقاء الله عزوجل ، وكيف يلاقى الناس ربهم وهذه حال قلوبهم المملوءة جهالة بهذا الوجود وبهذه النفوس . وبهذا انتهى الكلام على الفصل الأوّل فى حدائق النفس وبساتينها .

الفصل الثاني في حدائق العلوم التي تفيأ الناس ظلالها

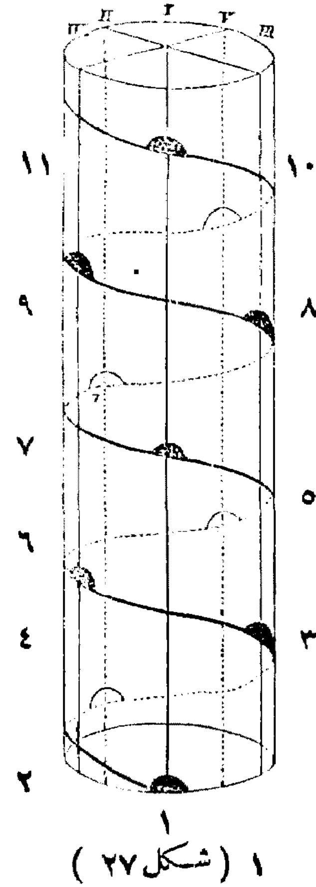
وعاشوا فى أكنافها من علم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات

لقد ذكرنا فى الفصل السابق الجذر والتربيع ، وأبنا أسرارا بديعة جميلة . وحكما بالغة ، وذلك فى المثلثات القائمات الزوايا ، وكيف كان عدد ١ و٢ و٣ الخ بواسطة الجذر والتربيع أمكن استخراج آلاف آلاف المثلثات القائمات الزوايا ذوات الأوتار والقواعد والارتفاعات اللاتى لهنّ من المناسبات والاتفاقات والعجائب مالا حصر له . هذا هو الذى رأيناه فى خفايا نفوسنا (كما قال تعالى : وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فها هو ذا الذى فهمته نفوسنا واشتملت عليه سواء أكانت جاهلة به أم علمته ظهر فى نفس الطبيعة ، ألا تذكر بعض ماتقدّم من الجذر والتربيع فى هذا التفسير ؟ فقال نعم قد تقدّم فى مواضع كثيرة مثل ماجاء فى أوّل [آل عمران] ، ذلك أن سرعة الأجسام الساقطة الى بئر مثلا من فوق جبل ، أو ارتفاع مّا ، أو من فوق الأرض نفسها تكون بحساب ١٦ قدما مضروبة فى ١ فى الثانية الأولى ، وفى ٣ للثانية الثانية ، وفى ٥ للثانية الثالثة ، وفى ٧ للثانية الرابعة ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ١٦ فى الأعداد الوترية ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥ وهكذا لكل ثانية على التوالى ، واذا ضربنا عدد الثوانى مربعا فى ١٦ قدما كان ذلك هو البعد الذى سقطه الجسم ، فالثانيتان يكون البعد فيهما ٤ فى ١٦ والثلاثة ٩ فى ١٦ والأربعة ١٦ فى ١٦ ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥ اذا ضرب كل منها فى ١٦ كان الحاصل هو الذى سقطه الحجر فى تلك الثانية فقلت : أحسنت أيها الأخ متذكر تمام التذكر وهناك زيادة إيضاح ، ولكن الذى ذكرته أيها الأخ كاف فيما نحن بصدده ، ذلك أننا نريد فى هذا الفصل أن نبين أن المربعات (التى تقدّمت فى الفصل السابق وجذورها وهى فى نفوسنا ماهى إلا أعداد مجرّدة لها نظام عجيب من تربيع وجذر وهما نتائج فى حساب المثلثات العقلية المنظمة العجيبة) قد ظهرت آثارها فى الطبيعة حولنا مما يدل على أن نفوسنا بينها وبين العالم حولنا مناسبة وكلما زدنا دراسة زدنا علما بنفوسنا ، وكنا أقرب إلى ربنا ، وهل يكون قرب إلا بالعلم ؟ وهل العبادة إلا فتح باب للعلم ، وهل الصيام والحج والزكاة إلا مساعدات على خلوص النفس من أوحال هذه الدنيا فتلحق بالعالم المجرّد عن هذه المادّة فتقرب من ربها ، وهل ترى أعجب من أن التربيع والجذر الكامنين فى نفوسنا قد ظهرا فى الطبيعة التى صنعها الله عزّوجل بيده بحسابه المشاكل لما فى نفوسنا « ولله المثل الأعلى » الذى بدرسه تزيد حبا له وعشقا وغراما

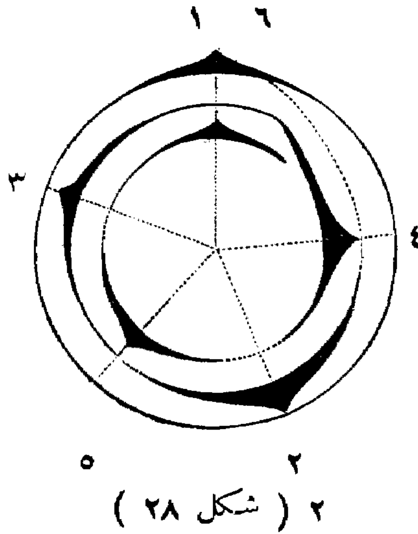
ثم قلت له : هذا هو الجذر والتربيع فى حركات الأحجار الساقطات ، فهل تذكر جذرا وتربيعا فى غير ذلك ؟ فقال نعم قد تقدم فى ﴿ سورة الرعد ﴾ عند قوله تعالى : « وكل شىء عنده بمقدار » فهناك الجذر والتربيع فى سرعة النور والصوت والحرارة والجاذبية ، ذلك أن شدة الصوت تقلّ بمقدار مايزيد مربع البعد عن الجسم الصائت كما اذا أتينا بأربعة أجراس بحجم واحد ووضعناها على بعد ٤٠ ذراعا ووضعنا جرسا آخر بحجمها أيضا على بعد ٢٠ ذراعا ، فانا نجد صوت الأربعة كصوت الواحد ، لأن بعدها كبعده مرّتين و٢ فى ٢ تساوى ٤ فاذن يكون كل واحد من الأربعة صوته كربع صوت الجرس القريب . ونقول مثل ذلك

فى الحرارة ، وفى النور ، وفى الجاذبية فهن سواء ، والتمثيل والايضاح تقدماهناك ، فهل أعيده ؟ فقلت . كلا . لأننا هنا نريد التذكير بما مضى ومن أراد فليراجع ماتقدم . ثم قلت : هل تذكر فيما مضى عجائب المتوالية العددية والهندسية المتقدمة فى الفصل السابق حتى يكون التطبيق عليها مما سبق فى هذا التفسير ؟ فقال نعم أتذكر مامر فى [سورة العنكبوت] عند آية : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » فان هناك جدول العناصر البسيطة التى كشفها العلماء ، وقد وضعت منظمة بحيث رأينا أن الايدروجين هو الوحدة التى يقاس عليها ، وأن الهليوم زاد عليه اثنين تقريبا ، وهكذا عناصر أخرى عدوها مع ضم الايدروجين إليها ٨ وثامنها الاكسوجين وهو له عدد ١٦ فكان لكل واحد اثنان فى الجلة وان اختلف بعض أفرادها وتجد أن ذرة الكبريت ٣٢ وكسر وهى تمام الثمانية الثانية ، وعلى كل فالنسبة بين كل عنصرين اثنان ولكن هذا أمر تقريبى قد يختلف ، ثم لننظر إلى الصفوف الرأسية التى يسمونها الطوائف فنجد أن الليثيوم فى الصف الرأسى ٦٫٩٤ والصوديوم تحته ٢٣ والفرق بينهما ١٦ ثم ان البوتاسيوم تحته ٣٩٫١ فالفرق بينهما ١٦ فهناك ثبت أن ترتيب زيادة العناصر ٢ ـ ٢ ـ ٢ عند وزنها بمعنى أن الايدروجين وهو أخفها جعل وحدة يقاس بها كما يقيس الناس بالذراع ، وهذه العناصر كلها أثقل منه بعدد ٢ ـ ٢ ـ ٢ إلى آخرها ثم وجد تناسب بينها فى الخطوط الرأسية ، إذن هى تفاوتت ٢ ـ ٢ ـ ٢ أفقيا وتفاوتت رأسيا بمضاعف ٢ وهو ١٦ وهو العدد المسمى بزوج الزوج الذى هو عدد الشطرنج المعروف ، فلما أجاب بذلك قلت له : لقد كنت قوى الذاكرة ، فلنكتف بهذا حتى اذا أراد أحد الأذكياء توسعا فى ذلك ورجع إلى نفس الجدول هناك رأى تفصيله . ثم قلت : وهل تذكر أثرا لأمثال هذا النظام فى علم النبات ؟ فقال نعم قد تقدم فى [سورة البقرة] عند آية الطير وابراهيم أن العناصر تدخل فى نظام النبات بحساب ، فاذا شئت بسطت القول فيه فهو هناك مفصل . فقلت . كلا . فمن أراده فليراجعه هناك وفى أى سورة أخرى غير البقرة . قال فى سور كثيرة ومنها سورة الحجر ، فان هناك بين الأوراق مناسبة عجيبة جدا لأننا نجد شجرة التفاح المرسومة هناك أوراقها ذوات دوائر منظمة تامة النظام ، وكل دائرة تحوى دائرتين صغريين ، وتشتمل على خمس ورقات فتكون هكذا ⅖ فالرقم الأعلى يشعر بالشكلين الحلزونيين ، والرقم الأسفل يشعر بعدد الأوراق ، وهناك نباتات أخرى فيها نسبة بين أوراقها وأشكالها الحلزونية ، وهناك نظمت هذه النسب وجعلت بهيئة جميلة ، ولما نظر فيها العلماء وجدوا بين هذه النسب بدائع حسابية جميلة ، فكما كانت العناصر بينها نسب هندسية وحسابية ، هكذا جميع أوراق الشجر فى مشارق الأرض ومغاربها بين بسط كل منها مع مقامه مناسبات لبسط باقى النبات ومقامه . فقلت : وهذا عجب يخجل هذا الانسان الجهول الذى لم يدرس نفسه حتى يعلم أن بين أفراده فى جميع أممه نسبا حسابية ، وهذه النسب جعلت للانتفاع بالمزايا الانسانية المختلفة لا القضاء عليها ولا محاربتها (انظر شكل ٢٧ و ٢٨) الآتيين فى الصفحة التالية .





١ (شكل ٢٧)



٢ (شكل ٢٨)

قد جاء فى المجلد الثامن من هذا التفسير ما نصه : « هاتان الصورتان المرسومتان أولاهما صورة لغصن التفاح أوالبلوط وقد دارت الأوراق عليه مبتدئة من الأسفل دائرة حول الغصن ، فالورقة الأولى المعنون عنها بعدد واحد تتلوها خمس قد صنعت دورتين حلزونيتين كما قدّمنا ، والخامسة منها التى هى السادسة فى العدد تراها أمامك فى الرسم فوق الأولى على خط مستقيم وهى تمام الدائرة الأولى وتليها الدائرة الثانية ، ونهايتها ومبدأ الدائرة الثالثة عدد ١١ وهكذا ، هذا واضح فى الشكل الأوّل ، ولكن لما كان هـذا لا يظهر منه أن كل خمس ورقات دائرة تامة وجب رسم الشكل الثانى الذى يمثل الدائرة التامّة من هذه الدوائر بورقاتها الخمس بوضعها الأفقى لتظهر للناس فيعلمون أن هـذه الأوراق الموضوعة وضـعا رأسيا هى دائرة تامّة منظمة مقسمة خمسة أقسام بخمس ورقات كل قسم منها ٧٢ درجة تقسيما عادلا » .

فانظر فى الشكل الثانى (شكل ٢٨) فانك تجد الورقات الخمس التى صنعت دورتين حلزونيتين قد ظهرت واضحة جليـة ، فالورقة الأولى عدد ١ والثانية عدد ٢ والثالثة عدد ٣ وهكذا إلى السادسة التى جاءت فى مقابلة الأولى على خط مستقيم ، ومن أراد الزيادة فليقرأ هذا الموضوع هناك اهـ

موازنة حساب الأجرام السماوية بالكسر الدائر

ثم قلت : فهل تذكر مما تقدّم فى هذا التفسير نظيرا للكسر الدائر ؟ فقال نعم تقدّم فى بعض السور كثير منه ولكنى لا أتذكره . فقلت اننا كما نقول ان الكسر الاعتيادى $\frac{1}{7}$ اذا حوّلناه إلى كسر اعشارى يصير مركبا من ستة أعداد تتكرّر بلانهاية هكذا نقول فى حساب الكواكب بعد أن تعرف عدد أيام السيارات بهذا الجدول :

عدد

عدد الأيام		عدد الأيام	
عطارد	٨٨	المشترى	٤٣٣٣
الزهرا	٢٢٥	زحل	١٠٧٥٩
الأرض	٣٦٥	أورانوس	٣٠٦٨٧
المريخ	٦٨٧	نبتون	٦٠١٢٧

تذكرة

أعداد أيام السيارات التى حصل فيها جبر للكسر

لتسهيل الموازنة بين الكسر الاعشارى السابق و بين حساب الكواكب ، فاذا قلنا ان الكسر $\frac{1}{7}$ يساوى ١٤٢٨٥٧ ١٤٢٨٥٧ ١٤٢٨٥٧ر، وهكذا تكرر هذه الأرقام الستة بلانهاية وهى ١-٤-٢-٨-٥-٧ هكذا نقول عطارد يدور إلى الأبد على مقتضى هذه الأعداد ٨٨ ٨٨ ٨٨ ٨٨ وهكذا إلى مالانهاية له ، ونقول : الأرض تسير على هذا النمط ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ الى مالانهاية له ، وأورانوس يدور على هذا الحساب وهو ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ :

اللهم انك أنت الحكيم الجليل العليم ، أنت أبدعت الجمال والحكمة ، وأريتنا الكسر الدائر ظاهرا نظيره فى سير الكواكب ، وفى تركيب كل مركب ، فهو فى الحركات وفى نظام العناصر ، فياليت شعرى هل كانت هذه الدورات الفلكية نتيجة تقسيم الواحد الصحيح إلى أجزائه ، أم ماذا كان ؟ وكيف كان الكسر $\frac{1}{7}$ تكررت فيه ٦ أرقام من الأعداد البسيطة ، وأورانوس تكرر فيه ٤ منها ، ونبتون كذلك ، وهكذا المشترى وزحل وفى عطارد ٢ وفى الزهرة والمريخ والأرض ٣ ، فيظهر لى أن العوالم أجمعها كأنها وحدة ، وهذه الوحدة تتجزأ ، دائما وتتبع طريقا مرسوما لا تحول عنه كما لم يتحول الكسر الدائر عن منهجه ، واذا كان الكسر المذكور لا تنتهى أدواره ، هكذا هذه الدرارى لا تنتهى أدوارها انتهاء معلوما لنا بل علم الانتهاء عند خالقها ومدبرها ، و بهذا تم الكلام على الفصل الثانى ، وهو تطبيق ماظهر فى العوالم من الحساب الموافق لما فى نفوسنا جذرا وتربيعا وكسرا دائرا ومتواليات هندسية وحسابية وغيرها .

الفصل الثالث

فى أن الأمم وان استظلت بظلال تلك العلوم فى حياتها لم تجن ثمراتها فى سياساتها ، ولم تتناول القطوف الدانية ، من الغصون الوارفة ، فى تلك الأشجار الباسقة ، بل هم لا يزالون بنظام أنفسهم فوق الأرض جاهلين

ألم تر أيها الصديق أن هذا الانسان رأى الثعلب يصيد فقلده ، وللعنكبوت شبكة للصيد فقلده ، ولبعض السمك منشارا و بلطة فقلده ، وللسرطان درعا فقلده ، وأخذ أحقاق النشوق عن [أم الخلول] ، وحرث الأرض عن الخنزير ، والتباعد عن الروائح الكريهة من الهرة ، وتعاطى المسهلات عن الكلب ، وتجنيد الجنود عن النمل ، والمشاورة عن اللقلق ، والحذر عن الغراب ، واتخاذ الجلساء عن النسناس ، والخيلاء عن النمر ، والهندسة عن النحل ، وعلم الطقس عن الخلد [بفتح الخاء واللام] ، وأخذ الكهرباء عن السمك الرعاد ، والغناء عن الطيور ، و بناء الأقبية عن بعض النيران ، والمهارة فى البناية والنجارة عن كاب الماء ، وصناعة الورق عن الزنابير ، والغزل عن دود القز ، والنسج عن دود لربيع ، والحياكة البديعة لدقيقة عن بعض الطيور ، وهكذا الخياطة والكدح ليلا ونهارا عن النمل .

كل ذلك وأكثر منه تقدم فى [سورة طه] فكل مايصنعه الانسان اليوم لرقىّ حياته تعلمه من الحيوان ونعم مافعل ، ولكنه لايزال فى سياسته طفلا غرّا جاهلا أبله ، ذلك أنه استعمل عقله فى درس هذا الوجود ، وابتدأ معارفه بالعلوم الرياضية ، والعلوم الرياضية هدته إلى استعمال العوالم التى حوله ، فهاهوذا الانسان شرقيه وغربيه أدرك الجذر والتربيع المشروح آنفا ورآهما ظاهرين واضحين فى الطبيعة كما تقدم فى بعض الفصول السابقة ، وأن الضوء والجاذبية والكهرباء والصوت كلها انتشرت حولها بمقتضى هذين القانونين ، وهكذا رأى هذا الانسان أن ١ ٢ ٣ الخ بجذرها وتربيعها وأعمال حسابية أخرى نتجت منها مثلثات لاعدد لها ، منظمة الحساب ، قائمة الزوايا كما تقدم ، فاستعمل ذلك كله ، ورأى الكسر الدائر المشروح فيما تقدم فوجد له نظيرا فى المادّة وهو أوّلا أنها لم تعرف لها نهاية فى جميع أقطارها علوّا وسفلا ويمينا وشمالا ، ولافى زمانها أزلا وأبدا ، ولا فى عظمتها وبعدها المكانى ، ولافى أجزائها عند تحليلها ، فكل هذه لم يعرف لها الانسان نهاية كما لم يكن للكسر الدائر نهاية ، وقد تقدم هذا كله ، وأعدناه هنا لترتب عليه ماياتى ، وهو المقصود من هذه المقالات كلها .

الانسان لم يدرس حقائق السياسة كما درس أحوال الحياة

هذا الانسان درس ذلك كله مدفوعا بعامل الحاجة المقوّمة لهيكله ، الحافظة لحياته ، ولكنه إلى الآن لم يتفرّغ لدراسة نظامه السياسى ، ذلك لأن النظام السياسى كمال ونظام الحياة مقدّمة له ، والمقدّمات عادة تصنع قبل النتائج .

اذا كان الانسان قدر على استكمال نظام حياته واستعان عليها بالرياضيات التى تغلغلت فى صميم العوالم المحيطة به من كل جانب فأحرى به الآن أن يستكمل السياسة بالعلوم الرياضية أيضا ، مثلا الجداول المتقدمة المسماة بالأوفاق فانظر فيها أليس المربع الذى فيه عدد ١ والذى فيه عدد ٢ وهكذا إلى نهاية الجدول كل منها فى مرتبة لايسد بها غيره ، وله صلة بجميع الأعداد ، وفى الوسط هناك عدد هو أكبرها ، فتأمل هناك تجد نظاما حسابيا بديعا أشبه شىء بنظام الجسم الانسانى والحيوانى ، فكما أن كل عدد فى الوفق لايغنى عنه سواه ويتوقف عليه جميع ماسواه : هكذا كل عضو فى الجسم لايغنى عنه سواه ويتوقف عليه ماسواه ، ولونطقت تلك الأعضاء أو تلك الأعداد لقالت إن المحبة بيننا تامة لشدة حاجة بعضنا إلى بعض ، واذا كانت العناصر المذكورة فى [سورة العنكبوت] المشار إليها آنفا بينها نسب هندسية وحسابية ، وهكذا أوراق النبات المرسومة المحسوبة فى [سورة الحجر] .

أقول : اذا كانت هذه كلها بينها نسب فليس من المعقول أن تكون عقول النوع الانسانى وحدها هى المجرّدة من الحساب والنظام فثبت ثبوتا لاشكّ فيه أن بنى آدم يجهلون أنفسهم وحقائقها ولابدّ من دراستها حتى يعرفوا استعداد كل أمة وكل قبيل وكل طائفة ، وتوضع كل أمة وكل فرد فى مرتبته التى فطر عليها ، وهذا آت لاشكّ فيه ، والسبيل لذلك قد شرحته فى كتابى [أين الانسان] وهذا يتضمن معنى الآيات التى نحن بصدد الكلام عليها وهى : « وفى الأرض آيات للموقنين » والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الثلاثاء ١٢ مايو سنة ١٩٣٢ م

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

اعلم أيها الذكىّ أن هذه الآية أشبه بالبسملة فان الرحمة فى البسملة تستدعى ذكر كل ماشملته الرحمة ، وذلك لايسعه زمان ولامكان ، هكذا أمر النظر فى النفس فانه لاحدّ لها ، ولقد تقدم فى هذا التفسير مافيه جمال

وبهجة لأذكياء المسلمين ، ولكن لابد من أن نذكرها [ثلاث شذرات جيلات] تبصرة وذكرى ورحمة للذاكرين ، وتلك الشذرات لا تختص بعلم تشريح البدن الذى هو الممهد لعلم النفس ، ولا بعلم الطب الذى به اصلاح البدن ، ولا بعلم النفس الذى هو المقصود بالذات ، بل يعم هذه الثلاثة .

الشذرة الأولى فى كريات الدم الحمراء

جاء فى جريدة الاهرام أول يناير سنة ١٩٣٢ م تحت هذا العنوان مانصه : « نشرت صحيفة ألمانية خلاصة إحصاء وضعه الاستاذ [كيزرلنغ] عن عدد الكريات الحمراء فى دم الانسان ، ففى الأنتار الخمسة (وهى مقدار مافى جسم الانسان العادى من الدم) من الدم ٢٥ تريليون كرية حمراء ، واذا وضعت تلك الكريات الواحدة إلى جنب الأخرى ألفت خطا طوله ١٨٧٠٠٠ كيلومتر ، ويقتضى عدها ثمانين ألف سنة بلا انقطاع اذا عدت عشر كريات فى الثانية ، واذا (١) وضعت الكرية الواحدة فوق الأخرى بلغ ارتفاعها ٦٢ ألف متر : أى ما يبلغ مرة ونصف من محيط الأرض ، وذلك يساوى مسافة يقطعها قطار الاكسبريس فى مائة يوم اذا كان يقطع سبعين كيلومترا فى الساعة ، واذا وضعت الكريات الحمراء بعضها إلى جنب بعض غطت سطحا تبلغ مساحته ١٤٠٠ متر مربع » انتهت الشذرة الأولى .

الشذرة الثانية

فى بعض المنافع الطبية التى تقدم فى هذا الكتاب كثير منها تغنى أولى الألباب عن الطبيب غالبا كما جربته ولكن الذى ذكرته فى طب الأسنان كان يعوزه ماهو أكمل فيه لأنه تقدم فى هذا التفسير أن الأسنان عليها مدار أكثر الصحة فى الحياة ، وقلنا هناك ان الأمة الألمانية وغيرها لا تدع مريضا إلا كتبت قبل الشروع فى مداواته عن صحة الأسنان ، ففى دوائها كان ذلك خطوة فى صحة المريض ، فهاك ماقاله الدكتور محمد على عثمان طبيب الأسنان المعروف بالقاهرة خريج كلية الطب الملكية المصرية ، وهذا نصه :ـ

وجوب المحافظة على الأسنان

الأسنان هى أجسام صلبة تشبه العظام ، موضوعة فى مدخل القناة الهضمية ، ومثبتة فى قطعتين من العظم يقال لهما الفكان ، وظيفتها قضم ومضغ الطعام وتهيئته حتى يسهل على المعدة هضمه ، فطبيعى أن نظافة الطعام المعد للهضم ، وخلوه من الميكروبات تتوقف على نظافة الأسنان وخلوها من المواد المتعفنة ، فاذا كانت الأسنان غير نظيفة فعند المضغ يختلط الطعام بما عليها من الأوساخ والمواد العفنة ، ويدخل المعدة فيسبب أمراض الامعاء وعسر الهضم ، وما إليها من أمراض القناة الهضمية ، وجائز بل ومحتم أن يمتص الدم جزءا من هذه المواد العفنة فيسبب كثيرا من الأمراض منها بل وأظهرها أمراض المفاصل وأمراض العين وغيرها ، فمن ذلك نرى أن العناية بنظافة الأسنان هى أساس الصحة .

تنظيف الأسنان

سواء أكانت بالسواك أوالفرجون [الفرشة] ، فكلاهما تؤدى الغرض اذا استعملت بالطريقة الصحيحة . الطريقة الشائعة فى استعمال السواك أوالفرجون هى تدليك الأسنان بالاداة المستعملة ، وجعل اتجاه تحريك الاداة فى اتجاه مضاد للاتجاه الطولى للأسنان ، هذه الطريقة خطأ ، فبينما استعمال هذه الطريقة ينظف ماظهر من الأسنان ، فهى فى الوقت نفسه تدفع فضلات الطعام بين الأسنان فتتخمر وتكون نواة يتجمع

(١) فى هذا خطأ وصواب ولكن نقلناه بالحرف اهـ

حولها الأوساخ فتتكون المواد الجيرية على الأسنان وتظهر كأنها طبقة منها ، وهذه الطبقة الجيرية هى الأساس الأكبر فى كل أمراض اللثة وتسويس الأسنان ، واستعمال هذه الطريقة يسبب تآكل اللثة شيئا فشيئا حتى تتعرى الأسنان وتبتدئ تتخلخل .

الطريقة الصحيحة

هى بتحريك الأداة فى اتجاه واحد مواز للاتجاه الطولى للأسنان بمعنى أنه عند تنظيف أسنان الفك الأسفل توضع الاداة عند ابتداء اللثة وتحرك الأداة إلى أعلى ، ويكون التحريك دائما من أسفل إلى أعلى ، فبذلك تخرج كل الفضلات التى بين الأسنان ، أما فى أسنان الفك الأعلى فيكون التحريك من أعلى إلى أسفل ، ويجب عمل هذه العملية على كل الأسنان (انظر شكل ٢٩)



(شكل ٢٩ ــ صورة تبين طريقة تنظيف الأسنان السفلى . اتجاه الفرجون من أسفل إلى أعلى)

بعد الانتهاء من تنظيف الأسنان يجب تدليك اللثة بالأصبع حتى تصير اللثة ذات ملمس ناعم غير لزج فهذا التدليك يفيد :

أوّلا : فى أنه يزيل الطبقة الرفيعة من الطعام التى قد تكون على اللثة .

ثانيا : تجذب جزءا كبيرا من الدم النقى إلى هذه الجهة فتقوّيها .

[ملاحظة] يجب تدليك اللثة بعد كل أكل ، بل وكلما أمكن الانسان فى أى لحظة وقت غسيل الفم .

أما عملية تنظيف الأسنان فيجب أن تكرّر مرّتين فى اليوم على الأقل [الأولى] قبل النوم مباشرة ، لأن الانسان عندما ينام يكون فمه دائما مقفلا فلا يمرّ فيه إلا الهواء الزفير المملوء بثانى اكسيد الكربون الذى يساعد على سرعة عملية التخمير مع بقايا الطعام ان كانت موجودة فى الفم [والثانية] عند القيام من النوم ، وذلك أن الانسان فى مدة النوم التى تتراوح بين ٦ ــ ٨ ساعات فيها لا يتجدّد لعابه فيكون غير مستعدّ لأن يؤدّى وظيفته على الوجه الأكمل كما ان طعم الفم عند الصباح لا يكون مقبولا .

عدد الأسنان عند الرجل والمرأة ٣٢ سنا ، منها ثمانية قواطع ، وأربعة أنياب ، وثمانية أضراس صغيرة ، واثنتا عشرة طواحن . وتتركب السن من تاج وهو الجزء الظاهر فى الفم ، وجذر وهو الجزء المثبت فى

الفك

الفك ومغطى باللثة ، وبين التاج والجذر طبقة يقال لها [عنق السن] ، وهى تكون الحد الفاصل بين الجذر والتاج ، وفى الحالة الطبيعية تكون [عنق السن] مغطاة باللثة . وتتكون الأسنان من : –

[ميناء] : وهى مادة صلبة جدا ، بل أصلب مادة فى جسم الانسان ، وهى تغطى التاج فقط .

[سيمنت] : وهى طبقة تشابه العظم العلوى من جسم الأسنان فى التركيب وتغطى الجذر .

[العظم] : وهى طبقة سميكة يتكون منها معظم جسم السن ، وتكون مغطاة بالميناء والسيمنت ، وتمتد من الداخل إلى اللب .

[اللب] وهومركز الحياة فى السن ، وهوعبارة عن مجموعة شرايين وأوردة وعروق ، ومكانها فى تجويف داخل عظم السن ، ومحتويات اللب تتصل بالدائرة الدموية العامة فى جسم الانسان ، ومن هذه المحتويات أيضا تتفرع فروع دقيقة جدا تتخلل عظم السن والسيمنت ، وقد تمتد إلى جزء فى الميناء . ويتصل السن بعظم الفك بطبقة ليفية رفيعة تحيط جذور الأسنان ، و يمر فى هذه الطبقة بعض الشرايين والأوردة والعروق التى توصل الفروع المتفرعة من اللب إلى الفروع الموجودة فى عظم الفك .

من ذلك ترى أن الأسنان عبارة عن أجسام حية ، لا كما يظن البعض أنها أجسام ميتة لاحياة فيها .

جذور الأسنان

كل القواطع والأنياب العليا والسفلى لها جذر واحد .

الأضراس الصغيرة كلها أيضا لها جذر واحد ماعدا الضرسين الصغيرين الأولين فى الفك الأعلى ، فقد يكون لهما جذران .

الأضراس العليا كلها لها ثلاثة جذور .

الأضراس السفلى كلها لها جذران فقط .

هذا التقسيم هوالشائع ، ولكن قد تشذ بعض الأسنان فتخالف المألوف .

تسويس الأسنان

يتكون تسويس الأسنان من : أن الانسان يترك بعض فضلات الطعام فى الفم فتتخمر وتفرز أحماضا تؤثرعلى مادة الأسنان فتذيبها ، وبذلك تتكون فتحة فى الأسنان قابلة لأن تمتلئ ببقايا الطعام عند ما يكون التسويس واصلا للعظم فقط قد يشعر الانسان بآلام عند شرب الماء البارد ، أوالساخن ، أومع استعمال كثير من التوابل ، أوعند الأكل ، وقد لايشعر الانسان بآلام قط ، واذا ترك هذا التسويس بدون علاج يمتد إلى اللب فيسبب آلاما شديدة متقطعه غير محتملة ، وتزيد الآلام عند ماينام الانسان أفقيا وتكون حادة جدا عند الأكل أو الشرب .

عند ما يكون التسويس فى الأسطح الجانبية للأسنان وهى الأسطح التى ليس عليها ضغط قد لايشعر الانسان بأى آلام ، وقد يصل التسويس إلى اللب بدون أن يدرك المريض ، فى هذه الحالة قد يموت اللب ويبقى متعفنا يسبب خراجا .

أمراض الطبقة الليفية

قد تكون أمراضا حادة ، وفى هذه الحالة يكون الألم مستمرا دقاقا ، وتكون اللثة حول الأسنان محمرة ومتورمة ، وتتألم لأى ضغط ، والأسنان أيضا تتألم عند الأكل ، أومجرد الضغط ، وتكون فى الغالب مخلخلة

وفى هذه الحالة يتكوّن فى الغالب خراجا حول السن المريض ، والأمراض المزمنة لهذه الطبقة تكون بتآكل اللثة مع هذه الطبقة ، وسببها يكون من ضغط المادّة الجيرية التى تتكوّن على الأسنان ، وقد تكون من أسباب أخرى كثيرة لايتسع المقام لذكرها .

أمراض اللثة

[التهاب فى اللثة] : وفى هذه الحالة تدمى اللثة من أقلّ لمس ، وسببها الأوساخ والموادّ الجيرية التى تتكوّن على الأسنان وعلاجها يكون بازالة هذه الموادّ .

[تضخم اللثة] : قد تظهر اللثة متورّمة ، وتدمى لأقلّ لمس ، وسببها كالمرض السابق وغيرها من أمراض أخرى ، وأغلب أمراض اللثة تتقدم بدون أن يعيرها الانسان أدنى التفات فتسبب امتصاص العظم الذى حول الأسنان فتكوّن بذلك بين الأسنان و بين اللثة مسافة قابلة لتخزين فضلات الطعام فتتخمر فى هذه الجيوب ، فتجعل الفم ذا رائحة كريهة ، وعند ضغط اللثة تفرزصديدا ، و بعض من هذا الصديد يمتص فى الدم فيولد أمراضا كثيرة غير الأمراض التى تتولد من امتصاص هذا الصديد مع الطعام إلى المعدة والأمعاء .

من كل ماسبق نجد أن جميع الأمراض التى تتكوّن فى الفم نتيجتها وساخة الأسنان .

[ملاحظة] ـ إذا تكوّنت الموادّ الجيرية على الأسنان قد تترك سطحا خشنا ، فمن كثرة احتكاك اللسان بهذا السطح يتكوّن فيه قروح قد تسبب سرطانا . عند مايتقدم امتصاص العظم الذى حول الأسنان تجد الأسنان تتخلخل وتقع من زوال مايربطها بالفك . لايصح أن يعتبر كل تآكل فى العظم الذى حول الأسنان مرضا ، فان تقدّم السن يكون مصحوبا دائما بتآكل هذا العظم ، ففى حالة كبر السن لايصح أن يعتبر تعرية الأسنان مرضا إلا اذا كانت مصحوبة بعوارض أخرى .

تركيب الأسنان الصناعية

قد تسمم رأى معظم الناس بأن العلاج الوحيد للأسنان من أىّ مرض كان هوتغطيتها بغطاءات ذهبية .

ماعمل هذه الغطاءات الذهبية ؟

أوّلا : أنها تعزل السن المريض عن العوامل الخارجية فلايتأثر بالحرارة والبرودة وغيرهما .

ثانيا : فى الوقت نفسه يبقى المرض داخل الضرس فينخرفيه ، فبعد تركيب الغطاء الذهبي بمدة وجيزة يبتدئ الضرس فى تسبب متاعب كثيرة ، وقد يكون علاجها شاقا جدّا على المريض والطبيب .

ثالثا : إن هذه الأغطية تثبت على الضرس بطبقة من الأسمنت ، وأن هذه الطبقة قابلة للذوبان فى اللعاب فتترك بذلك مسافة بين الضرس والغطاء يصعب تنظيفها فتتخمر فيها بقايا الطعام وتسبب بذلك أمراض اللثة ومايفتج عنها من الأمراض الوبيلة .

رابعا : قد يضغط الذهب على اللثة فيسبب للانسان اختلالا فى الأعصاب لايعرف لها سببا .

خامسا : إن صعوبة تنظيف الفضلات التى بين الذهب والسن تجعل رائحة الفم دائما كريهة .

فمن هذا ترى أضرار الغطاءات الذهبية المنتشرة فى كل أنحاء المعمورة ، والتى يجب أن نمتنع عنها بكل ما أوتينا من قوّة ، ولعلاج الأسنان يجب أن نبحث عن سبب المرض فنزيله ، فان كان الضرس به تسويس يجب أن ننظف الضرس جيدا بازالة الأجزاء المريضة ، و بعد ذلك نضع فى الضرس حشوا ليحل محل ماأزيل

من الضرس ، وبذلك نتفادى عن عمل الأغطية الذهبية . وان كان لا يمكن إزالة المرض يجب خلع الضرس إصالة حتى لايسبب للإنسان متاعب لا داعى لها .

كثير من الناس عند مايخلع له ضرس لايفكر مطلقا إلا فى تركيب بدله شيئا ثابتا ، أو يبنى آخر بتركيب [كبرى ذهبى] والكبرى هو عبارة عن غطاءين ذهبيين مثبتين على الضرسين الذين حول الضرس المخلوع وبين هذين الغطاءين يوجد ضرس ذهبى ملحوم بهما ، وأظننا بحثنا سابقا أضرار الأغطية الذهبية ولا داعى لذكرها الآن ، إنما أحسن طريقة لوضع بدل الأضراس المخلوعة هو طريقة الأجهزة المتحركة التى يمكن اخراجها وتنظيفها كلما دعت الحالة فبذلك يبقى الفم دائما حافظا لرونقه .

الأسنان اللبنية للأطفال

تبتدىء أسنان الأطفال فى الظهور من سن ٦ أشهر تقريبا . وتكمل فى سن ٣٠ شهرا وعددها ٢٠ وتقسيمها :

أربعة أسنان أمامية عليا ، ومثلها سفلى .

نابين أعلى ، ومثلهما اسفل .

أربعة أضراس عليا ومثلها سفلى .

أسنان الأطفال عرضة للأمراض بسرعة ، فتركيبها من مادة ليست من الصلابة الكافية بحيث تقاوم ماهى معرضة له من تخمر فضلات الطعام ، ومن الحلاوى المغرمة بها الأطفال ، فعند مايشكو الطفل من أضراسه يجب عرضه على الطبيب مباشرة حتى يزيل سبب الألم ، وبعض الأضراس عند مايهمل علاجها تبقى فى الفك مدة زيادة عن المقررة لها ، فتسبب بذلك اعوجاج الأسنان الأخرى الثابتة التى ستحل محلها ، فيظهر لنا الشخص فى بعض الأحيان ذا بروز فى أسنانه الأمامية ، أوخلل فى ترتيب أضراسه . ويكون نتيجة ذلك سرعة تسرب مرض الأسنان .

واجب الأم نحو طفلها

يجب على الأم أن تمسح أسنان طفلها يوميا بقطعة مغموسة فى [البيربوراكس الأبيض النقى] حتى تبقى أسنانه دائما نظيفة .

الاضطرابات التى تحدث للطفل فى وقت التسنين

عند التسنين تحدث جملة اضطرابات عند الطفل من الضغط الذى يحدث من السن على اللثة التى فوق منها :

(١) فقدان الشهوة عند الطفل فيرفض كل طعام يقدم له ، ولايقبل أن يرضع من ثدى أمه .

(٢) يحدث عند الطفل تشنجات وحركات عصبية .

(٣) ترتفع درجة حرارته وقد تصل إلى ٤٠ ْ فيشك أن عنده حمى .

(٤) لأرق المستمر .

(٥) يتقايأ كثيرا ، ويطرد اللبن الذى يعطى له .

(٦) يحصل عنده إسهال شديد .

(٧) بعض الأحيان لايستطيع الطفل أن يرى النور .

(٨) بعض الأحيان يحصل تصلب فى عضلات الرقبة وتتراجع الرأس إلى الخلف ، فيشك فى الالتهاب السحائى [الحمى الشوكية] . فى الوقت نفسه يحدث التهاب عام فى فم الطفل ، وفى بعض الأحيان

تحصل قروح صديدية فى فمه .

فى هذه الحالات يجب عرضه على الطبيب لعلاج مرض الطفل العام ، وفى الوقت نفسه يعرض أيضا على طبيب الأسنان ليعالج الالتهابات ، أو يفتح اللثة ، حتى يخف الاضطرابات عن الطفل .

هذا موضوع مقتضب عن حالة الأسنان وأمراضها يمكن به الانسان أن يعرف حالة أسنانه مؤقتا حتى يستشير أصحاب الرأى فى ذلك ، وماسبق لايجب أن يتخذه الانسان قاعدة عامة تسنّ على كل حالة ، بل لكل حالة علاجها الخاص ، ولكن بماسبق يمكنه أن يكون رأيا مبدئيا عن أىّ حالة كانت ، وبذلك يستعدّ لأن يفهم مايقوله له الطبيب عند مايعرض عليه الحالة . والذى دعانى إلى كتابة تلك الكلمة الموجزة عن الاسنان وأمراضها أستاذنا الكبير فضيلة [الشيخ طنطاوى جوهرى] مؤلف هذا التفسير .

دكتور محمد على عثمان
جرّاح وحكيم أسنان
خريج كلية الطب الملكية المصرية

الشذرة الثالثة

مسامرة بينى وبين صديق العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير

فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

وذلك فى يوم الجمعة ١٩ صفر سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٢ م بعد العصر فى أمر النفس وعجائبها ، ومدار الحديث على ما يأتى :

(١) الحقول هى الكلية الأولى لعلم النفس وما حوله من العلوم .
(٢) الأزهر .
(٣) المدارس النظامية .
(٤) فلاسفة القدماء .
(٥) الفلاسفة المحدثون ونظام علم النفس عندهم مع العلوم الأخرى .
(٦) علم النفس فى اخوان الصفاء .
(٧) فى جمهورية أفلاطون من حيث قياس نظام النفس الواحدة على نظام الأمة .
(٨) فى علم التربية الحديث ، وأن علم النفس فيه أوسع نظاما بحيث يرجع إلى مبدأ الخليقة متبعا سلسلة الرقىّ الحيوانى والانسانى ، فكأن كل فرد فى حياته سلسلة منتظمة من العوالم كلها ، وهذا آخر ماوصل إليه العلم الآن ، وهذا بعض سرّ : وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتبصرون

قال محدّثى : إنى اليوم أريد أن أحدّثك فى هذه الآيات : « انهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حقّ للسائل والمحروم ، وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض انه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون » .

فهاهى ذه آيات انتظمت فيها أوّلا جواهر العبادات من صلاة واستغفار ، ثم تبعها العطف على الناس بالاحسان ، ثم الكلام على الآيات فى الأرض ، ثم النفس الانسانية ، ثم السماء ، ثم ختم هذا البحث بهذا القسم ، وبماذا أقسم ؟ أقسم بنفس السموات والأرض اللاتى أحاطت بالنفس من كل جانب ، فقلت :

أيها

أيها الأخ الذكىّ : إن هذا النظام معلوم مما قررته فى مواضع كثيرة من هذا التفسير . فقال : ولـكنى أريد قولا أوسع ، ودرسا أتمّ ، وإيضاحا أوفى ، بحيث تسكن إليه نفس الحليم ، و يطمئن إليه قلب الحكيم . فقلت : أيها الأخ أحدثك عما زاولته فى ذلك مدة حياتى فى هذه الدنيا ، وذلك فى ثمانية فصول :

الفصل الأول علم النفس فى الحقول

ر باه : أنت قد أشرق نورك ، وتجلى جمالك فى البرّ والبحر ، والعامر والقفر ، والجبل والسهل ، والنهر والحقل . ذلك أنى أيام الصبا وزمن الحيرة المطلقة لم يكن لى مدرسة إلا فى حقلنا الذى كنا نزاول الزراعة فيه (فى أرض الثمانية) بكفر عوض الله حجازى ، فسبحانك اللهم وبحمدانك ، ماذا كانت دراستى ؟ دراستى فيها كانت راجعة إلى مافى الحقل من ذرة وقمح وقطن و برسيم ، وماحوله من ماء جار وطرق يطرقها المارّون ثم مافوق الحقل من الهواء والسحاب والمطر ، والأضواء والنجوم ، والشمس والقمر ، والحرّ والبرد.

هذا هو الذى كنت أدرسه ، ولـكننى كنت جاهلا جدّ جاهل ، أدرس ولاأدرى ماذا أدرس ، أنظر بعين حائرة ، وقلب خافق مضطرب ، ونفس وثابة إلى العـلا ، فالنفس وامقة ، والشقة طويلة ، فأين المفرّ ؟ . هنالك حرت فى هذا الوجود الذى يرجع لثلاثة أمور : نفسى المضطربة ومافوقها وماتحتها ، فالوجود كله ثلاثة فى حقلنا .

هذه أيام حيرتى ، ولـكنى كنت أستعين بالصبر والصلاة ، أصلى ليلا وأصوم نهارا ، وأضرع إلى صانع نفسى وأخاطبه وأنا أنظر إلى النجوم ليلا قائلا : يا ألله : قد ظهر لى أنك برّ رحيم بهـذه الطيور ، قد علمتها ووهبتها كل ماتحتاج إليه ، وأنا أريد المعرفة ولست أدرى من يعلمنى ، أفلاترى أيها الأخ أن ما اتفق لى فى ذلك يوافق أوّل هذه الآيات من حيث الاكباب على العبادة والالتجاء لصانع العالم ، وهذه مجرّد مصادفة لأنى ماكنت أدرى من هذا شيئا . لأنى كنت أحفظ القرآن بلاعلم ولاعقل ولاهدى ولاكتاب منير .

ولـكم كنت أسامر النجوم ليلا ، وأتفقد الشجر والزهر ، والثمر والحب ، وكل حشرة ودابة الخ فهذه كلها كنت أدرسها درسا غامضا ، ألتمس الحقيقة بين هذه المخلوقات . انتهى الفصل الأوّل .

فقال : قبل أن ننتقل للفصل الثانى أرجو أن تذكر لى قبل المباحث الأخرى لماذا ذكرت النفس بعد العبادات و بعد آيات الأرض ؟ فقلت : هذا الترتيب يظهر لك فى الفصول الآتية ، لأنك سترى أن الأمم قبلنا لم تجد لها مناصا من دراسة العوالم التى حولنا قبل دراسة أنفسنا ، لأن هذه العوالم مقدّمات لخلق نفوسنا ، فدراستها يجب أن تكون مقدّمة على دراسة النفس ، فهاهوذا أفلاطون فى الجمهورية يجعل النفس مقيسة على نظام الأمة ، وهاهم أولاء الفلاسفة المتقدّمون وهومنهم يقولون : إن لها قوى ثلاثة سيأتى إيضاحها ، وهذه القوى نظامها كنظام النبات والحيوان وهى الشهوية والغضبية والعاقلة . فقال : قداكتفيت بهذا الآن . فقلت :

الفصل الثانى : دراستى فى الجامع الأزهر

كنت أدرس فيه علوم اللسان من النحو والصرف وعلم الأحكام الفقهية ، و بعض المنطق والتوحيد ، وهوالذى حرّك وجدانى للبحث ، لأن نظامه إذ ذاك لم يكن مثل نظامه اليوم ، فهواليوم أرقى مما كان عليه إذ ذاك ، وسيزداد إن شاء الله تعالى .

ولطالما كنت وأنا أحفظ فى [متن المنهج] وهوآخر كتاب لدراسة الفقه أنظر إلى السماء وأقول : يا ألله أنا أريد الحقائق ، وقد طلبت منك ما فوق هذا ، ولقد أوضحت هـذا المقام فى ثنايا هذا التفسير فى كتابى

[التاج المرصع] الذى ترجم إلى القازانية ببلاد الروسيا ، وإلى الاوردية ببلاد الهند ، ونشر فى جميع بلاد الاسلام ، فليراجعه من أراد . انتهى الفصل الثانى .

الفصل الثالث فى مدرسة دارالعلوم

لما دخلت هذه المدرسة اعترانى الدهش مما رأيته فان العلوم الطبيعية من الضوء والحرارة والصوت ونحوها هى التى كنت أفكر فيها فى حقلنا وهكذا الحيوان والنبات ، ثم علم الفلك ، فكنت فى المدرسة مثلى فى الحقل أقرأ بشوق وتوق لتشبع النفس مما كانت تتوق إليه ، إذن الحقل كان لى مشوّقا ، أفلاترى أيها الأخ الذكىّ أنى على حقّ اذا قلت : إن أمم الاسلام يجب عليها أن لاتهمل أبناءها كما أهملت أنا فى الصغر وضاع زمان المراهقة فى حفظ القرآن بلاعقل ، وأن تبادر بتعليم الأطفال ما كنت أتعلمه وأنا فتى ، فليروهم جمال الأشجار والأزهار والأنهار والنجوم ، وليحببوهم فى ذلك ، فاذا انتظموا فى سلك الدراسة قالوا هذا الذى كنا ندرسه من قبل ، وهذه الطريقة هى المتبعة فى جميع بلاد الله شرقا وغربا الآن ، ولكن العلوم فى تلك المدرسة علوم جزئية فلابدّ من البحث فى :

الفصل الرابع فى الكلام على الفلاسفة القدماء

هنالك اشرأبت نفسى إلى أن أقف على آراء النوع الانسانى فى علم النفس وسوابقه ولواحقه بهيئة نظامية فان الحقل لاعلم فيه إلا المشوّقات ودراسة الدين بالطريقة القديمة دراسة جزئية ، و بعض الكتب والعلوم تربك النفوس ، ودراسة المدارس إيضاح لما أشكل علىّ فى الحقل

ولكنى أريد أن أنظر النظام العام وآراء الأمم جميعا فيه حتى تطمئن نفسى وأقول انى لم أهملها فى التعليم فماذا وجدت ؟ وجدت أن محصل علوم الأمم القديمة فيما كنت أدرسه فى الحقل هكذا . نظروا فى مقادير المادّة من العدد والمقياس والحركات ، ومعنى هذا أنهم قبل أن يدرسوا نفوسهم اضطرّوا أن يدرسوا المادّة التى تتركب منها أجسامهم التى تسكنها نفوسهم ، ذلك لأن أجسامنا مركبات مما حولها فدراسة ماحول الأجسام الانسانية مقدّمة لدراستها ، ودراسة تلك الأجسام مقدمات لدراسة النفوس ، ومتى درسنا نفوسنا انتقلنا إلى ماينتج عنها من الاجتماع المدنى والمنزلى والتهذيب الخلقى ، فعندنا مادّة حولنا وأجسام لنا ونفوسنا ، ونتائج نفوسنا ، وقوّة قاهرة فوق الجميع ، ولكن هذه المادّة لاتصح دراستها إلا بمقدمات وهى الأعراض القائمات بها ، وذلك مثل العدد والمقدار والحركات وهكذا فاذن ابتدءوا بعلم الرياضيات ثم الطبيعيات المختومة بعلم النفس ثم الالهيات ، وأخروا العلوم السياسية الثلاثة وهى : تهذيب النفس وتدبير المنزل وتدبير المدينة ، فأوّل العلوم عندهم علم الدولة [الارتماطيق] تسعة أقسام مشروحة فى كتابنا [بهجة العلوم فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية [تحت الطبع] . وثانيها الهندسة [الجومطريا] الذى يبحث عن النقطة والخط والسطح وهكذا ولها علوم تتفرّع عليها وصناعات تتبعها ، ولاجرم أنى فى الحقل كنت أفكر فى أعداد هذه الأشياء ، وفى الامتداد والطول والعرض وأشكال المخلوقات البديعة و بدائعها ، إذن هذان العلمان مبدؤهما كان فى الحقل من عدّ وامتداد . وثالثها علم الفلك [الاسطرونوميا] وفيه صفة البروج والمنازل وحساب الشمس والقمر وهكذا ، ولاجرم أن هذا العلم هوالذى كنت أفكر فيه ليلا وأنا أنظر النجوم بلاعلم ولاهدى ، ويلحق بعلم الفلك عند القدماء علم الجغرافيا ، ورابع العلوم علم الموسيقى ، وعلم الموسيقى ليس شيئا سوى مقياس حركات الأصوات كما أن الزمان مقياس حركات الأفلاك ، قاسوا حركات الكواكب فقالوا علم الفلك ، وقاسوا حركات الأصوات فقالوا علم الموسيقى ، وهذا العالم كله موسيقى ، وقد جعل الله لنا

دليلا

دليلا على ذلك غناء الأطيار على الأشجار ، وحفيف الأوراق ، ونغمات الأشجار اذا هبت الأرواح وفاءت الأفياء . هذه هى الموسيقى التى وضعها الله وأنعم بها على العالمين ولكن أكثر الناس لجهلهم بها لا يطربون ، ويظنون أن الطبيعة لا طرب فيها لأنهم غافلون .

هذه هى العلوم الرياضية عند القدماء وهى ترجع إلى الأعداد والحركات والمقادير ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ إن هذه لابدّ منها قبل دراسة المادّة المقدّمة على الجسم المقدّم على النفس المقصودة بالذات .

خامس العلوم علم المنطق الذى به ينتظم الفكر كما انتظم النطق بالنحو ، وبهذا انتهت العلوم الرياضية وما يقرب منها وهو المنطق .

سادس العلوم إلى ثالث عشرها هى العلوم الطبيعية ، وماهى العلوم الطبيعية ؟ هى التى كنت أجاهد وأنا فى الحقل لأعرف حقائق المادّة التى أزاول العمل فيها ، مثلا علم [سماع الكيان] وماهو سماع الكيان ؟ عبارة عن دراسة الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان ومايخص الجسم من الأعراض الزائلة واللازمة ، وهو العلم السادس .

سابع العلوم « السماء والعالم » وهو عبارة عن شكل العالم العام ونظامه فى أفلاكه وكواكبه وطبقاته ولكن تكون الدراسة إجمالية . ولاجرم أنى فى الحقل كنت أبحث عن ذلك وهذه العوالم تحيط بى .

ثامن العلوم : يبحث فيه عن تكوّن المعدن والنبات والحيوان وماأشبه ذلك ، وهذه كلها كانت محل نظرى فى الحقل وفى دار العلوم ، وهذا يسمى [علم الكون والفساد] .

تاسع العلوم : هو الذى يبحث فيه عن حوادث الحرّ والبرد والسحاب والمطر والثلج والرعد والبرق وقوس قزح والهالات ، ومنشأ السحب من البخار ، وغير ذلك من النور والظلمة ، وتصاريف الرياح ، والأنهار والبحار ، وما يكون من الغيوم والضباب ، والطل والندى ، والشهب وذوات الأذناب ، وماشاكل ذلك ، وهذا العلم يسمى [الآثار العلوية] وهى التى كنت ألاحظها فى الحقل ولاأفهمها .

عاشر العلوم : وهو الذى يبحث فيه عما فى التراب والطين والأرض السبخة كالكباريت والأملاح والشبوب والزاجات ، أوفى قاع البحار كالدرّ والمرجان ، أوفى كهوف الجبال ، وجوف الأحجار ، وهو [علم تكوين المعادن] .

حادى عشرها : [علم النبات] والبحث عن أجناسه وأنواعه وخواصه ومنافعه ومضارّه ، وماينبت منه على رؤوس الجبال ، وعلى شواطئ الأنهار ، وفى الآجام ، ومايغرس فى القرى والبساتين ، وما يكون منه تحت الماء ، وماينبت منه على وجه الماء ، ومايفسج على الشجر ، وعلى وجه الصخور وهكذا .

ثانى عشرها : علم الحيوان وعجائبه وطبائعه ، وأنه متصل بالنبات من أدناه ، مرتبط بالانسان من أعلاه .

ثالث عشرها : [علم الانسان] وفى هذا العلم يبحث عن أمرين : تركيب جسده وهو علم التشريح ، ومعرفة نفسه وما يلزمها وهى الحواس الخمس ومافيها من الحس المشترك ، والقوّة المخيلة والمفكرة والذاكرة وهكذا .

فترى من هذا أن علوم المادّة وأحوالها قد قدّمت على علم جسم الانسان ، لأنه لايفهم إلا بعد فهمها ، وهذا هو السبب فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتبصرون » فالقرآن قدّم الأرض ومباحثها وهى العلوم المتقدّمة وهى اثنا عشر علما على علم النفس ، وهكذا الفلاسفة ، إذن القرآن أشار بقوله : « وفى الأرض آيات للموقنين » إلى هذه العلوم الاثنى عشر ، وأتى بعدها بعلم النفس .

نرجع إذن إلى أقوال الفلاسفة القدماء ، فنقول : قد اطلعنا فى كلام أمثال ابن سينا والفارابى وابن رشد على علم النفس فوجدنا أنهم يقولون بناء على ماوصل لهم من علم اليونان ان فى الرأس مواضع منها ماهو للفكر

فى وسطها ، ومنها ماهو للخيال فى مقدمها ، ومنها ماهو للتذكر فى مؤخرها ، وكانوا يقولون : انهم عرفوا ذلك بواسطة علماء الطب ، لأنهم لما رأوا أن مرضا يحل بجهة من هذه الجهات يختل ماهو منوط بذلك الجزء من الادراك كالتخيل والتفكر والتذكر .

قرأنا ذلك إجمالا غامضا وانتهى ذلك الدور ، ثم وجدناهم أيضا يقولون : إن للنفس قوة شهوية وهى للنبات أقرب ، وقوة غضبية وهى بالآساد والنمور من الحيوان أليق ، وقوة عاقلة وهى إلى الملائكة أقرب ، فعليه ترى أن ماسنذكره فى علم التربية حديثا من جعلهم أن الطفل يمر على الأدوار السابقة للانسانية من مبدئها إلى آخر ما سيأتى إن هو إلا أشبه بتفصيل لما أجمله القدماء .

ثم إن القدماء يأتون بعد هذه العلوم بأبحاث عامة ، وهذه الأبحاث العامة يسمونها [العلم الإلهى] أو [الكلى] أو [العلم الأعلى] وذلك العلم الالهى أو الأعلى جعلوه أقساما :

(١) فنها قسم سموه [الامور العامة] مثل : ماهو الوجود والماهية والوحدة والكثرة والوجوب والامكان والامتناع ونسب مابينها ومايخصها من حيث هى موجودات [مثال ذلك] أن يقولوا : إن الوحدة فى جسم الانسان ظاهرة ، فهو واحد من جهة لكنه كثير من جهات أخرى ، فله أعضاء وحواس وأجزاء لايعرف عددها ، وجواهر فردة الخ فهنا وحدة وهنا كثرة ، والعدد الذى لانهاية له واحد من جهة أنه عدد وكثير من جهة أفراده ، والعالم كله واحد كثير من جهات ، وهكذا من تلك المباحث .

(٢) ومنها قسم فى النظر فى مبادىء العلوم كلها وتبيين مقدماتها ، وهكذا المقولات العشرة المذكورة فى ثنايا هذا التفسير مشروحة كالكم والكيف الخ .

(٣) ومنها قسم للنظر فى إثبات الإله الحق والدلالة على وحدته وتفرده بالربوبية واثبات صفاته ، وبيان أنها لاتوجب كثرة فى ذاته .

(٤) ومنها قسم للنظر فى إثبات الجواهر المجردة وهو العقول والنفوس والملائكة .

(٥) ومنها قسم للنظر فى أحوال النفس البشرية بعد الموت .

فهذه خمس علوم سموها [علم ما وراء الطبيعة] ولخصها ابن سينا فى كتاب الشفاء والاشارات ، فهذه بضمها إلى ماقبلها تبلغ العلوم ١٧ علما ١٣ فى الرياضيات والطبيعيات وخمسة فى الالهيات ، وهذه يسمونها العلوم العلمية ، وهى رياضية وطبيعية وعلوم كلية لاتختص بقسم من القسمين الأولين ، وهذه هى العلوم العلمية ويتبعها نتائجها ، وهى العلوم العملية ، وهى الخاصة بعمل الانسان وماقبلها كلها راجعة لعمل الله تعالى وهذه العلوم ثلاثة : علم الأخلاق الباحث عن القوى الثلاث المتقدمة الشهوية والغضبية والعاقلة ، وعلم تدبير المنزل فى معرفة معاشرة الأهل والخدم الخ وسياسة المدينة ، وهو علم السياسة المعروف ، وفى هذا العلم إجمال عام لسياسات الأمم .

فهذه عشرون علما ١٧ علمية وثلاثة عملية ، وهذه العلوم لها فروع كثيرة [مثال ذلك] علم الهندسة له فروع مثل علم المناظر ، وعلم المرايا المحرقة ، وعلم مراكز الأثقال ، وعلم المساحة ، وعلم انباط المياه ، وذلك لاحياء الأرضين ، وعلم جر الأثقال ، وعلم البنكامات ، وهو علم به يعرف إيجاد الآلات المقدرة للزمن مثل هذه الساعات التى يحملها الناس اليوم ، ومثل الآلات الحربية .

فهذه فروع الهندسة ، وهذه أصبحت صناعات تدرس فى مدارس خاصة ، وترى أن علمى النبات والحيوان يتفرع عليهما فروع كثيرة فان صناعتى النجارين والجزارين ترجعان إلى النبات والحيوان ، وعلى هذا فقس

فالعلوم

فالعلوم المذكورة وفروعها عند القدماء بلغت نحو ٦٠ ولهذه الستين فروع بلغت مئات سجلها قدماؤنا فى كتبهم هذا ماوصل إليه علم القدماء ، ولكن نفسى التى تعلمت مبادئ هذه العلوم فى الحقل وخرجت منه فى شوق إلى العلم لاتقف عند كلام القدماء ، هنالك نظرت فى كلام المتأخرين فماذا رأيت ؟ رأيت مايأتى :

الفصل الخامس فى ذكر ما رآه الأستاذ بيكون الانجليزى

انه قسم العلوم المذكورة إلى ثلاثة أقسام : [أولا] نظر إلى العلوم الاثنى عشر الأولى ومعها علم التشريح فقال هذه لا أسميها فلسفة ، وقال : كل علم منها له تاريخ فلنسمها هكذا : التاريخ الرياضى ، التاريخ الطبيعى كالحيوان والنبات الخ . ثم قال : فأما علم النفس ومعرفة نظام الطبيعة ومعرفة الله فهى التى أسميها فلسفة ، إذن الفلسفة الحديثة هكذا : تواريخ العلوم المتقدمة على علم النفس ، ثم نظام الطبيعة ، ثم علم النفس .

إذن [بيكون الانجليزى] بهذا التقسيم الذى عليه مدار الدراسة فى كرتنا الأرضية الآن تقريبا هكذا العلوم التى كانت تسمى رياضية وطبيعية جعل مقدمات للفلسفة ، وسميت بتواريخ لهذه العلوم وعليه الدراسة فى المدارس العامة الآن ، والامور العامة وهى العلوم الخمسة جعلها قسمين : قسم منها وهو الخاص بنظام الطبيعة سماه نظام الطبيعة ، والقسم المختص بالله فصله وحده وأخذ علم النفس أيضا فقال هكذا : [الله ، نظام الطبيعة ونفسى] وانما ذكر نظام الطبيعة لأن جزئياتها مشروحة قبل هذا العلم فى الذى سماه تواريخ العلوم .

فأما العلوم العملية الثلاثة فانه ضم إليها علم المنطق ، وقال : هكذا النفس تعقل المنطق ، إذن هذا العلم يتبع نفسى ، ثم إن نفسى تعرف الجمال و يعوزها التهذيب ونظام الأسرة ونظام المدينة فيقول : إن نفسى يتفرع عليها علم الجمال بعد المنطق ، وعلم الأخلاق ، وعلم تدبير المنزل ، وعلم سياسة الأمة .

مبدأ التقسيم عند القدماء وعند المحدثين

نظر [بيكون] إلى تقسيم المتقدمين فرأى أنهم يقولون هكذا : العلم الطبيعى يحتاج إلى المادة فى ذهننا وفى الخارج ، والعلم الرياضى يحتاج إلى المادة فى الخارج لافى أذهاننا لأننا نتصور العدد بدون التقيد بمادة خاصة ، والعلم الالهى لايعوزه مادة فى أذهاننا ولافى الخارج .

أقول : لما نظر هذا التقسيم . قال : ومالنا وللمادة فلنرجع التقسيم إلى نفوسنا ، إن نفوسنا فيها قوة الخيال ، وقوة الفكر ، وقوة التذكر ، فهذه إليها ترجع جميع العلوم .

فأما القوة المخيلة فاليها يرجع كل ما كان من قبيل الشعر والنقش والتصوير والموسيقى ، فهذه العلوم التى ترجع إلى التصوير والتخيل فانها ترجع إلى تلك القوة .

وأما قوة الذاكرة فلها جميع العلوم الرياضية والطبيعية ، وهى الثلاث عشرة المتقدمة . وعلم التاريخ الأثرى والبشرى ، فهذه كلها تواريخ حفظت فى ذاكرة الانسان وعليه العمل اليوم كما تقدم ، فالتاريخ البشرى منه عام وخاص ، والتاريخ الأثرى هوماجاء فى الكتب السماوية ، وهكذا التاريخ الطبيعى والرياضى الخ .

أما القوة العاقلة فعلومها هى المختصة بالفلسفة : [الله ، ونظام الطبيعة ، ونفسى] ومن النفس تفرع المنطق والجمال وما والاها كما شرحناه .

تبين من هذا أن النوع الانسانى اليوم رجع العلوم إلى النفس فمن العلوم سوابق وهى ١٣ علما ، ومنها معرفة الله ونظام الطبيعة ، ومنها لواحق وهى علوم نظام الأمم ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان نظام العوالم ودراسته مقدم على علم النفس ، ونظام الانسان مؤخر عن دراستها ، إذن دراسة مدارس الأمم الآن تجرى على نظام هذه الآيات ، فقوله : « وفى الأرض آيات للموقنين » يدخل فيها علوم نظام الطبيعة وما قبله ومعرفة الله ،

وقوله : « وفى أنفسكم » الخ إليه يرجع علم النفس ، تلك النفس التى جعلت مبدأ لتقسيم تلك العلوم سوابقها ولواحقها ، إذن آيتنا التى نحن بصددها الآن يجب على المسلمين أن يفكروا فيها ، إذن نحن نستحق أن نعنف على جهلنا فيقول الله لنا : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وهذا التعنيف يخجل نفوس الأذكياء منا معاشر المسلمين فلندرس .

فقال صاحبى العالم : إن هذا البيان لجيل جدّ جيل ، ولكنى أريد أن أسألك سؤالا يجول فى خواطر أكثر الناس : هل هذه الآية يترتب عليها هذا كله ؟ أى انك تقرأ علوم الأمم كلها عليها ، وهل أذكياء المسلمين مكلفون بذلك ؟ فقلت : لم لا وما المانع ؟ ألست أنا شهيدا على الناس ؟ فقال أنت أنت . فقلت : وأنت أيضا ، ألم تسمع الله يقول : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » فكيف نشهد على الناس ونحن لا نعقل علومهم ! فليقم الخواص بدراسة علوم الأمم ، وأهمها علم نفوسنا . فقال : إن علماء الاسلام لم يقولوا ما تقوله أنت فى هذا المقام . فقلت : ولكن القرآن يقول . فقال القرآن ؟ فقلت نعم . فقال : ماذا يقول فى هذا ؟ قلت : انه لم يقتصر على قوله : « لتكونوا شهداء على الناس » بل أوضحها فى آية أخرى وهى : « وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » فهل نشهد على الأمم إلا بعد العلم بما نشهد به . فقال حسن جدّا ، فأرجو ايضاح علم النفس الآن . فقلت : ذلك فى :

الفصل السادس

فيما قاله [اخوان الصفاء]

إن كتاب [اخوان الصفاء] جاءت فيه العلوم موجزة ولكنها أوضح مما فى الكتب التى قبلها ، وقد جعل أكثر العلوم المذكورة فى خمسين رسالة ، وأكثرها ثمين وأقلها غثّ ، وفيها آراء يجب تعديلها أو محوها فلنذكر ما فيها من حيث علم النفس ، وهذا الموجز سأنقله بنصه وفصه من نفس الكتاب ، ومؤلفه هو الذى لخصه فى أوّله ، وهاك نصه :

الرسالة العاشرة فى الحاس والمحسوس

والغرض منها هو البيان عن كيفية ادراك الحواس محسوساتها واتصالها بواسطة القوّة الحاسة واتصالها إلى الحاسة المشتركة الروحانية الواصلة التى منها انبعثت قوى الحواس الظاهرة وأنها ترد كالخطوط الخارجة من المركز إلى المحيط بنقط كثيرة الراجعة إليه بنقطة واحدة وهو أوّل منازل الروحانية ، إذ القوّة الحاسة المؤدّية إليه جسمانى بوجه وروحانى بوجه ، والحاسة المشتركة أعنى الداخلة روحانية محضة لأن حكم الجزء منها حكم الجميع وان كانت التجزئة لا تقع عليه بالحقيقة ، لأن تصوّرها الشيء بادراكها واتصالها إلى القوّة المتخيلة التى مجراها مقدم الدماغ لتوصلها إلى القوّة المفكرة التى مجراها وسط الدماغ لتميزها وتخلصها بجولانها فيها وتعرف حقائقها ثم توصلها إلى القوّة الحافظة الذاكرة التى مجراها مؤخر الدماغ لتمسكها وتحفظها معتقدة أو غير معتقدة إلى وقت التذكار ، ثم تؤدّيها إلى القوّة الناطقة العاقلة التى هى ذات الانسان المدبرة للكل الباقية بالذات تنتزع جميع المعانى والصور ، ثم تصوّر تلك المعانى والصور المنتزعة من مصوّراتها المترسمة فيها ، وهى القوّة الناطقة أيضا بوساطة الأولى ، فتلك الصورة هى لها كالموضوع وكالهيولى ، والقوّة المعبرة أيضا المنطق الخارج هى القوّة الناطقة أيضا على وجه ثان بواسطة الألسن ، فاذا همت الأولى باظهار شئ إلى خارج وهو النطق الإلهى على الحقيقة من صورة النفس تصوّرت النفس الثانية إذ هما جوهر واحد لتجرّدهما عن الموادّ وتعرّيهما عن الهيولى أعنى الجسمانية فتأدّت إلى القوّة الناطقة التى مجراها على اللسان لتعبرعنها بالألفاظ الدالة للمخاطبين على

المعانى

المعانى التى تخرج من النفس إلى القوّة الصانعة التى مجراها اليدان لتخط بالأقلام على أوجه الألواح وصفحات الدفاتر و بطون الطوامير تلك الألفاظ وهى النطق الخارج والكلام الظاهر لتبقى العلوم بصورها الذاتية أعنى معانيها محفوظة من الأوّلين إلى الآخرين ؛ وخطابا من الحاضرين للغائبين ، إلى يوم يبعثون . انتهى ماأردته من كتاب « اخوان الصفاء » وبهذا تمّ الكلام على الفصل السادس والحمد لله رب العالمين .

الفصل السابع

فيما جاء فى جمهورية أفلاطون

نظر أفلاطون فى علم نظام الأمم فقال : « لاسبيل إلى نظام الدولة إلا بأن يكون فيها فلاحون وعمال وصناع وتجار الخ وهؤلاء أشبه بالقوّة الشهوية فى الانسان ، و بأن يكون فيها جند مدرّبون بالكراع والسلاح ، وهذه هى القوّة الغضبية لحفظ الدولة فى الداخل والخارج ، ونظيرها فى الانسان قوّة غضبية بها يحافظ على شرفه وأدبه ، و بأن يكون فيها رجال عرفوا بسموّ النظر والعقل الراجح ، وهم رجال السياسة الذين يأمرون الجند ، وهؤلاء الساسة وجندهم هم السلطان والاشراف على الزرّاع والصناع والتجار ، وهذه الطوائف الثلاث لابدّ من نظام واعتدال فيها وهذا هو العدل » .

ولقد شرحت هذا النظام فى مواضع كثيرة من هذا التفسير كالذى فى [سورة النحل] عند آية : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان و إيتاء ذى القربى و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » فهكذا قوى الانسان الثلاثة اذا قويت القوّة العاقلة حكمت على الغضبية وهى تشرف على القوّة الشهوية وتمّ النظام بين الثلاثة كان العدل ، فهذه أر بعة أصول فى مقابلة الأر بعة الأولى .

فلما سمع ذلك صاحبى قال حسن والله ، لقد اطلعنا على هيئة العلوم فى العالم ، ولكن لم تذكر لنا علماء الصين ، هل كان علمهم على هذا النمط ؟ فقلت : لقد تقدّم فى [سورة الحجرات] مايفيد أن أمم الصين قبل التاريخ كانت معارفها على هذا النمط ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان القرآن فى أكثر سوره يمثل لنا عقول الأمم وعلومها . فقال : هذان أمران فأرجو ايضاحهما . فقلت نعم : أما الأمر الأوّل فهوقول [كونفشيوس] فيلسوف الصين قبل الميلاد المذكور فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ فان أقواله هناك هكذا :

(١) إن قدماءهم نظموا الممالك .
(٢) بعد أن نظموا أسرهم .
(٣) وهذا بعد تهذيب أخلاقهم .
(٤) وهذا بعد تنقية نفوسهم .
(٥) وهذا بعد كونهم مخلصين صادقين فى تفكيرهم ، منزهين فى أغراضهم .
(٦) وهذا بعد توسيع معارفهم .
(٧) وتوسيع معارفهم كان عن طريق البحث والمشاهدة . انتهى — ﴿و بعبارة أخرى﴾ هكذا :
(١ و٢) توسيع المعارف بالمشاهدة : أى مشاهدة الأشياء والأفعال .
(٣) ثم كمال المعارف .
(٤) ثم خلوص أفكارهم ونزاهة أغراضهم .
(٥) ثم تهذيب أخلاقهم ونقاوة نفوسهم .
(٦) ثم انتظام أسرهم .

(٧) ثم انتظام دولهم . هذا هو الأمر الأوّل .

أما الأمر الثانى فهو هذه الآية : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . فقال : ولكن الآية قدّمت الأرض على السماء ، فلم يكن ترتيب العلوم الذى شرحناه مطابقا لها . فقلت : هو مطابق كل المطابقة ، انه قدّم الأرض و بعدها النفس ، ثم ذكر السماء والأرض معا مقدّما السماء ، وذلك معناه تقديم العلوم الرياضية ، لأن علم الفلك من نتائجها . فقال حسن ولكنى أريد أصرح من ذلك فى القرآن بحيث ينطبق على نظام علوم الأمم كلها المذكور هنا . فقلت : هناك سورة تفيد ذلك وهى : « والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها » . فهذه الخمس ترجع لعلم الفلك وهو من العلوم الرياضية ، بل هو أجلّ ثمراتها ، ثم هو من جهة أخرى علوم مشاهدة أشار لها [كونفشيوس] وقوله : « والأرض وما طحاها ، ونفس وما سوّاها » موافق لآيتنا هنا : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ومعنى هذا أن العلوم الطبيعية المشروحة قريبا تكون قبل علم النفس فى نظام المدارس وفى القرآن ، والعجب العجيب من القرآن انه قدّم الأرض على النفس فى هذين الموضعين وفى غيرهما وألهم الأمم جميعها أن تفعل ذلك وقال [ابيكون] : يابيكون اجعل نظام الطبيعة قبل علم النفس كما قال لكونفشيوس بالصين ولإخوان الصفاء وللأمم كلها ، إن هذا القرآن مدهش ، إذن عندنا مزرعتان : مزرعة هى أرضنا ، ومزرعة هى نفوسنا ، ومزرعة نفوسنا هى المذكورة فى سورة الشمس إذ يقول الله بعد ذلك « فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

جلّ الله : أليس هذا بعينه هو الأخلاق والسياسة ونظام الدولة ، أليس الفجور والتقوى واضحين فى الأخلاق والأسرات والممالك ، أليس هذا بعينه هى السياسة العملية المتقدّمة عند فلاسفة اليونان والعرب وأوروبا والصين ، فهاهوذا بيكون يقول : نظام الطبيعة ثم النفس ثم الأخلاق وسياسة الناس ، وهاهم أولاء فلاسفة القرون الأولى يؤخرون الأخلاق وما عطف عليها عن العلوم ، وهاهوذا كونفشيوس يفعل ذلك ناقلا عن آبائه المتوغلين فى القدم ، وهم لا يعرفون علوم اليونان ولا غيرهم .

أيها المسلمون : لاعطر بعد عروس ، ولامخبأ بعد بوس ، حمّ الأمر وأزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ، لتقرءوا مزارع الله فى الآفاق ومزارعه فى النفوس ، إن القرآن لوح رسمت فيه صور علوم الأمم تذكرة لكم فهل أنتم مذكرون ! .

تباركت يا ألله : أريتنا علوم الأمم السابقة كلها فرأينا مدارها على علم نفوسنا ، فنفوسنا هى المصدر الأصلى ، فقد جعلوا علوم الرياضيات والطبيعيات مقدّمات لمعرفة النفس وعلوم السياسات والأخلاق والجمال نتائجها ، ومنهم من غير بعض النظام ، وذلك تبع اختلاف الأنظار وتباين الآراء ، والنتيجة من هذا كله فهم قولك فى قرآننا الكريم : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

هانحن أولاء نظرنا فى أنفسنا نظرا مستمدّا من آراء الأمم كلها لنشهد على علم ، ولكن لا تتمّ شهادتنا فى ذلك إلا بدراسة علم النفس والتربية الحديثة ، لأن العلوم المذكورة نقلها تلاميذ ابن رشد من يهود ومسلمين إلى أوروبا منذ نحو ٧ قرون فارتقت تلك العلوم ، واذا بقينا على ماقرأناه من كلام قدمائنا أصبحنا كأننا نعيش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ولكن نحن فى القرن العشرين ، إذن فلنذكر :

الفصل الثامن فيما جاء فى علم النفس الحديث

أمامى الآن كتاب [أصول النفس وأثره فى التربية والتعليم] تأليف الأستاذ [أمين مرسى قنديل] أستاذ علوم النفس والتربية بمدرسة المعلمين العليا ، ألفه بعد أن أخذ شهادات عالية فى هذا العلم من جامعات

أوروبا ، فهو كتاب موثوق به يدرس بمصر الآن ، وهو علم لم يدرس من قبل فى بلادنا ، وموضوعات الكتاب هكذا مثلا : معنى العلم وأغراضه ، حقيقة علم النفس ، طرق البحث فى علم النفس ، فروع علم النفس ، التربية وعلم النفس ، العقل ، الشعور ، اللاشعور ، الاستهواء ، الجهاز العصبى ، ردّ الفعل ، الأفعال المنعكسة ، تربية الجهاز العصبى ، الغرائز والميول ، دراسة طائفة من الغرائز والميول الفطرية ، العادات ، التعلم ، التمرّن ، الشوق ، التشويق ، الشوق والتربية ، الانتباه ، عوائق الانتباه كالتعب ، الأعمال المدرسية ، وهكذا .

نظرة عامة فى علوم النفس عند القدماء والمحدثين

أيها الأخ الذكىّ هذه صفحة عامة من صفائح نفوسنا المشرقات ، تلك النفوس التى هى مزارع الله عزّ وجل فى أجسامنا ، وحقوله التى تولى هو غرسها بيديه وقال لنا : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » بعد أن أرشدنا إلى أن ننظر دراسة مزارع أرضنا .

هاهوذا الآن أمامى كتاب [سلوك المالك ، فى تدبير الممالك] الذى ألفه شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع ، ألفه للخليفة المعتصم بالله العباسى ، إن المؤلف فى هذا الكتاب قسم الفضائل والرذائل تقسيما عجيبا جدا ، وأوضح ذلك أيما إيضاح ، وعلم الملوك والسوقة والفضلاء وغير الفضلاء ، ولم يترك بابا إلا ولجه ، ولا فضيلة إلا فصلها ، ولا رذيلة إلا أوضحها ، بجداول جيلة وعبارات طريفة وبهجة وجمال ، ولأقتصر على ماجاء فيه من جداول الأخلاق الناقصة ، ثم أتبعه بما جاء فى علم التربية الحديث المذكور ، أريد بذلك أن يرى المسلمون وأنت أيها الذكىّ أوّلهم آراء الأوّلين والآخرين فى أحوال نفوسنا ، وأنهم جميعا يسعون لغرض واحد متجهين لنتيجة واحدة ، ذلك أنهم جميعا يعاملون النفوس فى محو رذائلها معاملة الأجسام فى شفاء أمراضها بحيث أصبح تهذيب النفس مطابقا لشفاء الجسم من حيث سير العلاج الجسمى والروحى معا سيرا منظما ، فانظر كيف يقول صاحب كتاب [سلوك المالك ، فى تدبير الممالك] فى صفحة ٣٨ مانصه :

إن من شرّ رذائل القوّة الغضبية الغضب ، وهو أكبر الرذائل ، وله موادّ وأسباب :

الرذيلة	مداواتها
الزهو	باستعمال التواضع
العجب	بمعرفة عيوب النفس
الفخر	باليقن أنه من جنس عبده
المرح	بالتشاغل بما يجب من الحقائق
الهزل	بالجدّ فى طلب الفضائل
الهزؤ	بالتكريم عن أذى الناس
التعيير	بالقدرة على ترك الأقاويل القبيحة
الملاحاة	بصيانة النفس عن مرّ الجواب
المضادّة	بترك العناد
الغدر	باستعمال الوفاء

ثم أبان أن هذه كلها سببها الخوف : أى انه يزهو لأنه يريد العلوّ ويخاف من عدم هذه الصفة وهكذا البواق ، فاذا استهزأ بغيره فمعناه أنه أعلى منه وهكذا . ثم أخذ يذم أمثال الكسل الذى هو جزع من أن يفعل فعلا ما كسل عنه ففيه معنى الخوف أيضا لأنه يخاف أن يعمل ، ثم الخجل والحياء ، فالأوّل جزع من

أن يعرف بشيء قبيح لم يفعله ، والثانى جزع من أن يعرف بشيء قبيح فعله ، وذكر (الفرق) بفتح الراء من فعل شيء عظيم يضعف عن احتماله (والحذر) وهوالجزع من شعور أمر مترقب واشتباهه ، ثم الذعر وهو الجزع من صورة ليست مألوفة الخ .

هذه صفحة من علم الأخلاق فى كلام قدمائنا فى العصور الأولى ، وعلم الأخلاق ربيب علم النفس ، فهاهم أولاء جعلوا لكل منقصة دواء ، وماهو هذا الدواء ؟ هوأن يجعلوا الضد مزيلا لضده كما يفعل الأطباء بحيث يداوون الحارّ بتعاطى البارد والعكس بالعكس ، فلننظر إذن فى كلام علماء التربية فى عصرنا ، فهذا كتاب « أصول التربية » فقد جاء فيه فى صفحة ١٥٣ تحت عنوان « استعمال غريزة ضد أخرى » ماملخصه : —

إن المربى يستعمل غريزة ضد أخرى ليخفف من شرّها ، فغريزة الخضوع تخفف شرّ غريزة السيطرة والظهور ، والخوف يردع به الطفل عن كثير من الشرور ، وهؤلاء يقولون : « إن الغرائز لاتجوز إزالتها بل يجب تهذيبها وتوجيهها إلى المثل الأعلى لاقتلها فان قتلها جناية » — [مثال ذلك] غريزة المقاتلة والاقتناء يجب أن توجه إلى مغالبة الآلام والتغلب على العقبات التى تعترض المرء فى طريقه ، والى المنافسة فى عمل الخير ، والى الدفاع عن مبدأ نبيل ، وضربوا لذلك مثلا بأن الحكومات تتخذ اللصوص القدماء وسائل لمساعدة رجال الشرطة فى ضبط السارقين والقاتلين ، فهذا معناه أن المربى ينقل الغريزة من حال ضارّة إلى حال نافعة ، فالغضب والمقاتلة عند المهذب يكونان معينين على كل فعل نبيل كالدفاع عن كل ضعيف .

هذه هى الصورة الواضحة فى التربية الحديثة ، وهى على منوال التربية القديمة ، فالعلم هوعينه غاية الأمر أن الحديث قد أوضح إيضاحا أكمل ، وأبان وجوه الاصلاح أيما إبانة .

واذ فرغت من إيضاح الصور التهذيبية عند القدماء والمحدثين فلأشرع فى شرح المزارع التى تزرع فيها تلك التعاليم والحدائق الغناء الالهية التى تنبت فيها تلك الأزهار والرياحين .

تبصرة وتذكرة لآياتنا التي نحن بصدد الكلام عليها

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتبصرون »

فقال صاحبى : إن المسافة طويلة ، والشقة بعيدة بين مزارع الأرض ومزارع الدماغ ونبات الأخلاق فيه ، إن مزارع الحقول مشاهدة ، وهل شوهدت مزارع الغرائز فى حقول الدماغ ، غاية الأمر أنها عرفت بطريق الاستنتاج . فقلت : اعلم أيها الأخ الذكىّ انى كما كنت فى الحقل أيام الفتوّة أرى المزارع وهى كانت درسى نهارا ، والنجوم وهى كانت درسى ليلا ، هكذا اليوم أشهد فيما ستراه فى الدماغ مزارع الغرائز متجلية واضحة تزدهرفيها الغرائز والأميال ، فكما كانت النجوم والحقول ومابينهما من نفوس الناس هى التى منها استمدّت جميع العلوم التى شرحناها هنا فى الأمم كلها ، هكذا هذه الجمجمة الصغيرة التى ستراها الآن أصبحت مزروعة فيها جميع المزارع التى كنت أشاهدها ، والنجوم التى كنت ألحظها ، والعلوم التى درستها ، والسياسات التى عرفتها .

تباركت يا ألله : جعلت الأرض مكان الانبات ، وجعلت أدمغتنا حدائق ، كل حديقة منها مختصرة من هذا العالم العظيم وعلومه المفصلات . جلّ الله ، جلّ الله . ومما أدهشنى فيما ستراه أيها الأخ النبيل أن ماكنت أقرؤه فى الكتب القديمة من أن المخيلة فى مقدم الدماغ ، والمفكرة فى وسطه ، والقوّة الذاكرة فى مؤخره كما ذكرته سابقا ، وأن ذلك استنتجه الفلاسفة من تجاريب الأطباء فى مرضاهم أصبح اليوم مشروحا على هذا

النمط

النمط بعينه ، فسترى أن هناك مناطق ثلاثة : أمامية ووسطى وخلفية ، جعلت للتفكير والتصوّر ، و باضطرابها لا يكون الانسان عاقلا ولكن علماء العصر الحاضر برعوا براعة أوسع من السابقين :

(١) أرونا أن فى المخ تلافيف وشقوقا تتضح فى العقول الكبيرة ، وتصغر ولا تتضح فى العقول الصغيرة وفى الحيوان .

(٢) أرونا أن للمخ نصفين كل نصف يقسم أربعة أقسام ، فهذه ثمانية أقسام ، وكل قسم يسمى باسم عظم القحف الذى يقرب منه ، وكل واحد من هذه الثمانية ينقسم إلى أقسام على حسب التلافيف التى فيه الخ

(٣) إن المخ محط جميع المواصلات فى الجسم .

وستشاهد أن فى هذا المخ مناطق معينة للحس وأخرى للحركة وأخرى لربط المعلومات ، فترى منطقة البصر عند الفص المؤخرى من الرأس ، وهناك منطقة إدراك المرئيات والقراءة ، و يلى تلك المنطقة من الداخل منطقة السمع ثم الذوق والشم ، وهاتان بالقرب من الفص الصدغى . وترى فى المنطقة الخلفية التى تقرب من الفص الجدارى مراكز ربط تلك المعلومات وترتيبها وتنظيمها ، وترى أيضا منطقة ربط أخرى أمامية .

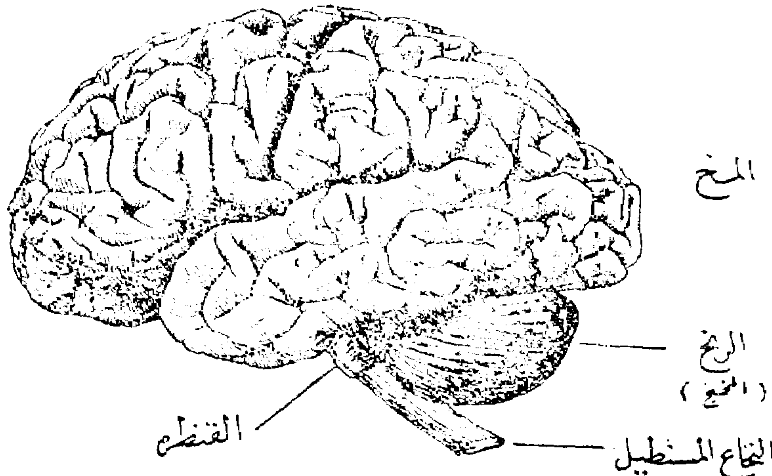
أيها الأخ الذكى : اننى الآن فى دراسة مخ الانسان لم أعد ما كنت أدرسه فى الحقول أيام الشباب ، كيف لا ، أليست هذه المزارع التى فى أدمغة الانسان بعد أن يدرسها المدرّسون و يعرفوها ، يحتالون فى تهذيبها وتوجيهها ، وفى انتزاع واهلاك ماضرّ منها ، و يوجهون الغرائز من الضار إلى النافع .

فياليت شعرى أىّ فرق بين تقطيع الحشائش فى الحقول و بين إزالة الكذب من أفواه الأطفال ، ثم أىّ فرق بين تهذيب القوّة الغضبية فى الطفل بأن نوجهها إلى اقتناء الفضائل ، والى الحماسة فى حماية الضعيف و بين تقليمنا الأشجار وتشذيبنا الأغصان لتعدل الأشجار عن إضاعة قواها فيما لا يفيد ، ولتتجه إما إلى ازدياد الخشب فى نحو الصنوبر ، واما إلى ازدياد الثمار فى الأشجار المثمرة ، إذن نظام العالم واحد « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » وحقلنا كما كان مضرب مثل لعلوم الأمم هكذا هو مضرب مثل لعلوم النفس وتهذيب الأخلاق ونظام مناطق مخ الانسان .

فقال صديقى : الله أكبر ، الله أكبر ، حسن حسن ، يظهر لى أنك ذكرت هذه المقدّمة لتكون نورا يأتنس به من يطلع على هذه المعانى فيما تريد أن تلقيه ، لأن هذا العلم صعب المنال ، بل اذا لم يفهم القارئ إلا ما ذكرته فحسبه ، والعقول الكبيرة ستفهم نفس الموضوع بتفاصيله وصوره الشمسية . فقلت : نطقت بالصدق ، فهاك الموضوع الذى اخترته من ذلك الكتاب بتمامه ، فقد جاء فيه فى صفحة ١٠٩ ومابعدها ما يأتى بالحرف الواحد :

المخ

« يملأ الجزء العلوى من القحف ممتدّا من الأمام إلى الخلف ، وحدّه الأسفل من الأمام مستوى الحاجبين ، ومن الجانبين حذاء الأذنين (انظر شكل ٣٠)



(شكل ٣٠)

ويبلغ متوسط وزنه ١٤٠٠ جرام [1] إذ هو يختلف عادة بين ١٣٠٠ و ١٨٠٠ جرام ، ويشبه فى الشكل قلب الجوزة ، فهو منقسم بشق مستطيل إلى نصفين متماثلين : النصف الأيمن ، والنصف الأيسر ، و يعرف كل منهما بنصف كرة ، والنصفان ليسا منفسلين بعضهما عن بعض تمام الانفصال بل متصلان من الأسفل بحزمة من الألياف العصبية تعرف بالجسم الصلب ، و بكل نصف منهما ثنايا كثيرة تعرف بالتلافيف بينها منخفضات ظاهرة تسمى شقوقا ، وهذه الثنايا تجعل سطح المخ فى مجموعه كبيرا جدا ، و بذلك تكون المادّة السمراء أواللحاء كبيرة أيضا ، لأنها تدخل فى الشقوق وتغطى التلافيف كلها ، وهذه التلافيف قليلة ليست ظاهرة فى الحيوانات ، ولكن كلما ارتقى الحيوان بدت الشقوق والتلافيف عميقة جلية حتى انها لتكون واضحة كل الوضوح فى الانسان فكأن نموّها وعددها يسيران يدا بيد مع نشوء الحيوان وترقيه فى سلم النشوء والتطوّر . تميز التلافيف بعضها عن بعض بالشقوق التى بينها ، وأهمّ هذه الشقوق اثنان : شقّ رولندو ، أوالشق الأوسط ، وشق سلفيوس ، أوالشق الجانبى ، والتلافيف تختلف اختلافا قليلا باختلاف الأفراد ، ولكنها فى جلتها ثابتة ، ولذلك وضع لكل منها اسم خاص كما وضع لكل شق اسم خاص به أيضا وتراها واضحة فى (شكل ٣٠) الذى تقدم قريبا .

ينقسم كل نصف من نصفى المخ إلى أربعة فصوص يسمى كل منها باسم عظم القحف القريب منه ، وهذه الفصوص هى : (١) الفص الجبهى (٢) والفص الجدارى (٣) والفص الصدغى (٤) والفص المؤخرى وكل فص من هذه الأربعة ينقسم إلى أقسام أخرى حسب مافيه من التلافيف ، فالفص الأمامى مثلا ينقسم إلى أربعة تلافيف التلفيف : الأوسط الأمامى (الصاعد الامامى) والتلفيف الأعلى ، ثم الأوسط ، والأدنى .

مادة المخ البيضاء

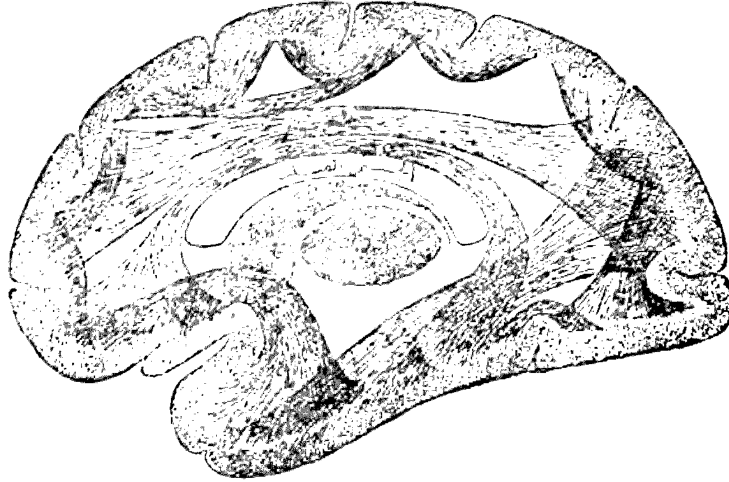
تتكوّن هذه المادّة البيضاء من الألياف العصبية المغلفة بذلك الغلاف الأبيض العازل الذى يجعلها بيضاء اللون ، وأغلبها خارج من الخلايا المحركة التى فى المخ ، والبعض الآخر وارد إليه من الخلايا الحساسة التى فى المحيط ، فالألياف الصادرة تخرج من أجسام الخلايا المتعدّدة فى اللحاء ، ثم تجتمع هذه الألياف بعضها مع بعض وتكون حزمتين كبيرتين من المادّة البيضاء تتصلان بالقنطرة و بالنخاع المستطيل (انظر شكل ٣١) فى الصفحة التالية .

---

(١) لقد حاول كثيرون أن يجعلوا زيادة وزن المخ على هذا المتوسط دليلا على الذكاء ، فمخ الأبله والغبى يكون عادة أقلّ من المتوسط بكثير ، فى حين أن مخ العالم الطبيعى [كوفييه] كان يزن ١٨٦٠ جراما ، ومخ [اللورد بايرن] الشاعر الانجليزى ١٨٠٠ جرام ، ومخ [كرمول] ٢٢٠٠ جرام ، ومع ذلك فان هذه لاتتخذ قاعدة ثابتة ، فمخ [گمبتا] الخطيب الفرنسى يزن أقلّ من المتوسط ، ولكن يقال ان تلافيفه كانت أعمق من المعتاد ، والحقيقة أنه لابدّ من أن نحسب لنوع المخ حسابا ، وأن لايقتصر على الثقل وحده .

على أنه قد حاول كذلك كثير من العلماء إيجاد نسبة بين ثقل المخ والجسم ، ليتبينوا من وراء ذلك مقدار الذكاء ، وغاية مايستطيع الجزم به هوأنه كلما كانت النسبة كبيرة كان الحيوان أذكى من غيره ، ومع ذلك فهذه الحقيقة ليست مطلقة ، فبعض الطيور كالعقعق نسبة ثقل مخها إلى جسمها الصغير أكبر من نسبة ثقل مخ الانسان إلى جسمه اهـ

شكل ٣١



(شكل ٣١ ــ مقطع جانبي للمخ يبين الألياف الرابطة متجهة بين كل تلفيف وآخر وبين الفصوص المختلفة وترى الجسم الصلب فى الوسط)

والألياف البيضاء التى تتكوّن منها مادّة المخ البيضاء أربعة أنواع :

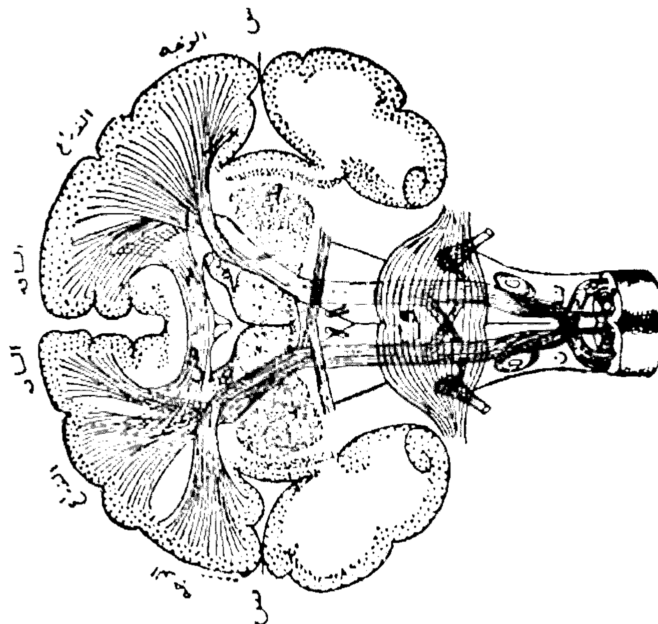
(١) ألياف رابطة وترى متجهة بين التلافيف تربط خلاياها كل نصف كرة بعضها ببعض كما ترى فى شكل ٣١ وبذلك تتصل مراكز اللحاء كلها بعضها ببعض .

(٢) الألياف الضامّة : وهذه أيضا رابطة ، ولكنها تربط نصفى الكرة بعضها ببعض بواسطة الجسم الصلب وغيره ، بذلك تكون التلافيف التى فى كل نصف كرة مرتبطة بالتلافيف التى فى النصف الآخر .

(٣) الألياف المصدرة وهى محركة ، وقد تسمى الألياف النازلة .

(٤) الألياف الموردة وهى حساسة ، وقد تسمى بالألياف الصاعدة .

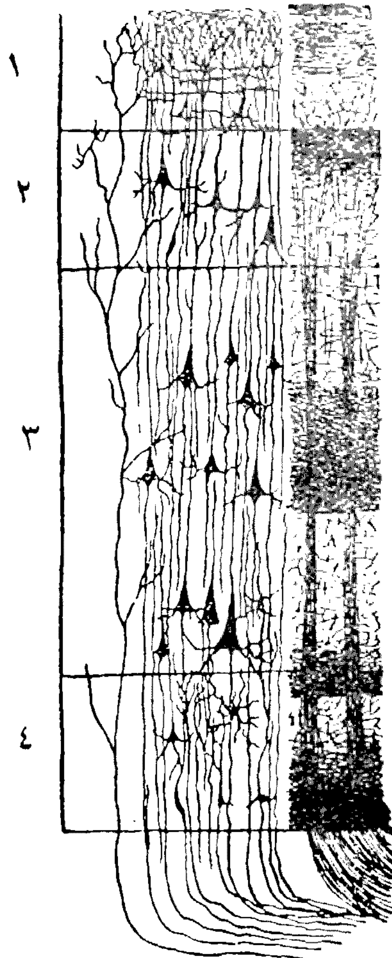
وكلا الألياف المصدرة والموردة هذه تربط اللحاء بالأجزاء السفلى من المخ وبالحبل الشوكى ، ويتصل بالدماغ مباشرة اثنا عشر عصبا تذهب إلى الرأس كلها تقريبا وتتفرّع فى أعضاء الحواس المختلفة (شكل ٣٢)



(شكل ٣٢)
مقطع مستعرض للمخ يوضح الألياف المصدرة وتقاطعها عند النخاع المستطيل (ق) قنطرة (ح س) الجسم الصلب (س) شق سلفيوس

اللحاء

تغطى الدماغ كله طبقة رقيقة من المادّة السمراء وهذه تتكوّن كما تقدم من جسوم الخلايا العصبية وأوائل فروعها ، ويختلف سمكها القليل الذى لا يزيد على ثلاثة ملليمترات باختلاف أجزاء المخ ، واللحاء على رقته يتكوّن من خمس طبقات من الخلايا بينها طبقات أخرى من الألياف العصبية ، وخلايا الطبقات تختلف شكلا ووظيفة .



(شكل ٣٣)

مقطع فى اللحاء ، يبين طبقاته وأشكال خلاياه المختلفة . الجزء الأيمن من الشكل يوضح الألياف العصبية . والأيسر يوضح الخلايا . وهذان الشكلان يجب أن يتصورا معا بعضهما فوق بعض . وبذلك يتضح التعقيد الكبير فى تركيب اللحاء .

(١) فالطبقة العليا ، أو السطحية تتكوّن من خلايا قليلة العدد تمتد فروعها امتدادا أفقيا وأكثرها يتكوّن من فروع خلايا الطبقات التى تحتها ، ومن نهايات الأعصاب الموردة ، وهى كلها لا تزيد ¼ ملليمتر ولا شك فى أن وظيفتها ربط الخلايا الحساسة (الموردة) بالخلايا المحركة (المصدرة) .

(٢) تلى هذه الطبقة طبقة أخرى بها خلايا كثيرة العدد ، مختلفة الحجم ، هرمية الشكل ، وظيفتها الربط أيضا ، وسمك هذه الطبقة يزداد برقىّ الحيوان فى مرتبة النشوء ، ثم طبقة :

(٣) ذات خلايا صغيرة نجمية الشكل محاورها قصيرة كثيرة التفرّع .

(٤) ويلى هذه طبقة رابعة فيها خلايا هرمية كبيرة الحجم طويلة المحاور : وأغلبها فى منطقة الحركة فى المخ .

(٥) وأخيرا توجد طبقة خامسة خلاياها متعدّدة الشكول ، مختلفة الحجوم .

فخلايا اللحاء المخى كثيرة جدّا معقدة التركيب ومختلفة الشكل ، كل خلية ترسل فروعا كثيرة متشابكة تشابكا كبيرا بعضها مع بعض ومع غيرها من فروع الخلايا الأخرى ، وهذا التشابك الكثير مما يميز الانسان الراقى عن غيره من الحيوان ، وفى الوقت نفسه إلى اللحاء نهايات محاور كثيرة أيضا من أجزاء شتى تتشابك أطرافها مع فروع الخلايا الأخرى ، واذا تذكرنا أن بالمخ مراكز تمثل جميع أعمال الجسم الكثيرة ووظائف أعضائه المختلفة اتضح لنا مقدار التعقيد الكبير فى تركيب المخ ، ولاسيما فى طبقته الرقيقة الخطيرة الشأن المعروفة باللحاء .

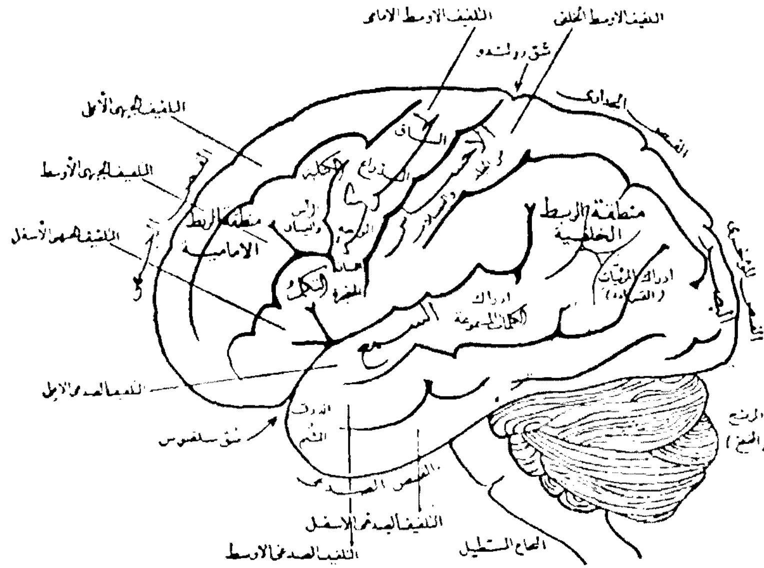
وظائف

وظائف المخ

المخ أهم أجزاء الجهاز العصبى ، فهو الذى يشرف على سلوك الانسان ويدبره ويراقب كل حركة ارادية أوغير ارادية من السلوك ، ويوفق بين أعمال الأعضاء المختلفة ويربطها بعضها ببعض ، وهو موطن العمليات العقلية السامية ، ففيه مراكز الاحساس والادراك الحسى والذكر والتفكير وربط العمليات العقلية بعضها ببعض ، وهو موطن الشعور ، فكل تأثير يقع على أى جزء من أجزاء الجسم ، ولم يصل أثره إلى المخ فان المرء لا يتفطن إليه ولا يشعر به ، ولذلك فانه اذا نزع مخ حيوان كالضفدعة أو الحمامة مثلا فانها تفقد كل حركاتها الارادية ، وتصبح كأنها آلة من الآلات لا تتحرك بارادتها و باختيارها ولا تحس بما يسلط عليها من المؤثرات فالمخ هو محط جميع خطوط المواصلات فى الجسم ، وهو مستوى جميع المراكز العليا .

مناطق اللحاء

لكل جزء من أجزاء اللحاء المختلفة علاقة بأجزاء معينة فى الجسم يشرف عليها ويديرها ، فالنصف الأيمن من المخ يسيطر على الجزء الأيسر من الجسم وبالعكس (انظر شكل ٣٤) .



(شكل ٣٤)

ولقد تمكن الباحثون من علماء وظائف الأعضاء والتشريح من تعيين مواضع كثير من المراكز المختلفة فى اللحاء التى تقوم بوظائف خاصة ، وكثير من هذه المراكز ينحصر فى ثلاث مناطق : مناطق الحس ، ومناطق الحركة ، ومناطق الربط . فللحس مراكز : للبصر ، والسمع ، والشم ، والذوق ، واللمس ، وتحريك العضلات ، وللحركة مراكز كثيرة أيضا تمثل عمل الأعضاء المختلفة ، فهناك مراكز لتحريك الرجل واللسان واليد وغيرها كما سترى ، وهذه المناطق توجد فى كل من نصفى المخ إلا أنه لتصالب المحاور قرب النخاع المستطيل صارت مراكز النصف الأيمن تشرف على النصف الأيسر من الجسم ، ومراكز النصف الأيسر من المخ تشرف على الجزء الأيمن من الجسم :

[منطقة الحركة] : توجد فى الفص الجبهى فى تلافيفه الأوسط الأمامى ممتدة أمام شق [رولندو] وبها

مراكز لتحريك أعضاء الجسم المختلفة ، ففى الجزء الأعلى من هذه المنطقة مركزتحريك أصابع القدم تليه مراكز تحريك الركبة فالحرقفة فالأطراف العليا فالوجه وهكذا بترتيب تنازلى ، فكل حركة ارادية تنشأ من عمل مركز خاص فى هذه المنطقة ، إذا أصيب مركز منها بضرر أومرض أعقبه شلل العضو المتعلق به فلايمكن تحريكه بالارادة .

[منطقة الحس] : توجد موازية لمنطقة الحركة على الجانب المقابل لها من شق [رولندو] فى الفص الجدارى ، وفيها مراكزالاحساسات الآتية من الجلد وحركة الأعضاء المختلفة ، وترتيب مراكزالاحساس فى هذه المنطقة عين ترتيبها فى منطقة الحركة ، فمراكزالاحساسات الآتية من الساق مثلا توجد حذاء مراكز تحريكه وهكذا .

[منطقة البصر] : مراكز البصرتوجد فى الفص المؤخرى من المخ ، فأىّ اصابة لها تحدث العمى مع أن العين نفسها قد تكون سليمة من كل شائبة ، وفى الفص المؤخرى هذا مراكز أخرى لادراك المرئيات ، فمنها مايتعلق بادراك الكتابة ، ومنها مايتعلق بادراك الألوان أوالأشياء وهكذا .

[منطقة السمع] : تقع فى الجزء الخلفى من التلفيف الصدغى الأعلى ، وهوتلفيف يقع أسفل شق سلفيوس ، وهى متصلة مباشرة بالأذنين ، فأىّ أثر يلحق بمراكزالاحساس السمعى فيها يحدث الصمم ، وقرب هذه المنطقة كما فى منطقة البصر مراكز مختلفة لادراك الكلمات المسموعة ، أولتمييزالأنغام المختلفة وهكذا .

مناطق الربط والاتصال

يختلف مخ الانسان عن مخ القردة العالية وغيرها من الحيوانات الأخرى بأن به مناطق (صامتة) أوسع رقعة مما لديها ، وليست هذه المناطق وظيفة الحس أوالحركة وانما ربط مراكزالحس بعضها ببعض ومراكز الحركة كذلك والتوفيق بين أعمالها الكثيرة المعقدة ، فاذا أصيبت هذه المراكز لايحدث للمرء ضرر مادى فى جسمه مثل شلل أوفقدان الحس ، وانما يفقد قدرته على التفكير أوالمهارة المكسوبة فيختلط عقله و يلتاث أو يضطرب اضطرابا واضحا فى كل عمل من الأعمال التى كان يؤدّيها قبلا بمهارة وحذق ، وتوجد هذه المناطق فى ثلاثة مواضع :

(١) المنطقة الأمامية ، وتقع فى الفص الجبهى أمام شق [رولندو] وأمام منطقة الحركة .

(٢) المنطقة الخلفية ، وتقع فى الفص الجدارى بين منطقتى الاحساس والبصر .

(٣) المنطقة الوسطى ، وتقع فيما يعرف بجزيرة [رايل] .

فهذه المناطق الثلاث ملتقى الاحساسات المختلفة الآتية من الحواس ، وفيها تربط بعضها ببعض وتحبك بواسطة الألياف الرابطة ، فيحدث الادراك الحسى والتذكروالترابط وسائر العمليات العقلية السامية من التفكير والحكم والاستدلال ، فهى مناطق التفكير بمعناه المعروف ، أوان شئت فقل هى أعضاء التفكير ، ولقد دلّ التشريح وعلم الأمراض أن لحاء البله وضعاف العقول يكون أرقّ من المعتاد فى هذه المناطق فى حين أنه يكون سميكا نوعا مّا ، وتكون التلافيف عميقة ومعقدة عند النابغين والمفكرين ذوى العقول الكبيرة ، ومن هذا يستنتج أن مقدرة الانسان العقلية تتوقف على عاملين :

(١) على التربية والتدريب .

(٢) وعلى صفات المخ الخلقية التى فطرعليها .

أو بعبارة أخرى على البيئة ، وعلى الوراثة ، فمن الناس من يولد ذا استعداد طبيعىّ للموسيقى مثلا ،

فهذا

فهذا معناه أنه ولد وبعض أجزاء من مناطق الربط فى مخه منظمة تنظيما خاصا مخالفا لغيره يجعلها متهيئة لقبول مهارة خاصة والنبوغ فيها اذا وجدت الأحوال معينة لها ، كأن يوجد الشخص المجدود هذا فى بيئة موسيقية ، أو يجد من مدرسته تشجيعا وحثا على العناية بتغذية موهبته هذه ، فالمواهب السامية العاملة ليست ثمرة التدريب وحده ، بل ثمرة تدريب استعداد فطرى وتربيته ، والواقع أن التربية لاتستطيع أن تبنى إلا على أساس الفطر والغرائز والاستعدادات ، فهى لاتخلق ماليس موجودا ، ولكن تذكى الموجود منها وتنظمه وتوجهه إلى العمل فى متجهات خاصة بما تغذيه به من الخبرات ، وبما تدرّبه عليه من الأعمال وتوجده فيه من ميول .

مراكز اللغة فى اللحاء

فى لحاء المخ أربعة مراكز ذات شأن كبير فى التربية المدرسية لاتصالها باللغة ، وهذه هى مراكز [الكلام] و[الكتابة] و [ادراك الألفاظ المسموعة] و[الألفاظ المكتوبة] ، وكل مركز منها يقع قرب المركز العام المتعلق به ، فمركز الكلام يقع فى النصف الأيسر من المخ فى التلفيف الأدنى من الفص الأمامى أمام مركز تحريك اللسان ، وذلك عند من يكتب بيده اليمنى ، فالطفل يتعلم التعبير عن خواطره بألفاظ وعبارات خاصة يكتسبها بالمحاكاة والمرانة ، فتذكر التعبير بهذه الأصوات يتركز فى هذا المركز ، ومنه ينتقل الأثر إلى المنطقة المحركة المجاورة له فيتحرك اللسان وينطق بالألفاظ ، فاذا أصيب مركز الكلام هذا بضرر ما فقد الانسان القدرة على التعبير بالألفاظ ، أوكان تعبيره على الأقل مضطربا لاتآلف فيه ولذا لايفهم مع أن لسانه يكون صحيحا غير مصاب بأىّ شلل ما ، فهو ليس بأبكم ولكنه مع ذلك يعجز عن التعبير عما فى نفسه بعبارات يدرك السامع مدلولها ومعناها ، ويقع [مركز الكتابة] فوق مركز الكلام أمام مركز حركة اليد وهو مرتبط بها كل الارتباط ومتوقف عليها ، واذا أصيب بضرر فقد المرء القدرة على الكتابة وما يماثلها من الأعمال التى تستلزم مهارة وتدريبا مكتسبا بطول الخبرة والمرانة . ويقع مركز [ادراك الألفاظ المسموعة] قرب منطقة السمع ، ويعرف بمركز فرنك ، واصابته تحدث مايعرف بالصمم اللفظى ، فالمصاب يسمع الألفاظ ولكن لايفهم معناها ، ويقع مركز [ادراك الكلمات المرئية] أو [مركز القراءة] فى الفص المؤخرى قرب مركز البصر ، ومرضه أواصابته تحدث العمى اللفظى ، فلايستطيع المصاب أن يدرك لمايرى من الكلمات المكتوبة معنى مّا ، مع أن نظره قد يكون سليما من كل شائبة مرض ، فوقفه يكون أشبه بمن يرى لغة غريبة عنه لم يتعلمها قط ، ولربما كان عجز بعض الأطفال عن التقدّم فى القراءة راجعا إلى ضعف فى هذا المركز .

وهذه المراكز فضلا عن كونها مراكز ارتباط فى نفسها متصلة بعضها ببعض ، ولاسيما مركز إدراك الألفاظ المسموعة والكلام ، والأوّل منهما يسبق الثانى فى ترقيه ، فالطفل يفهم كثيرا من الألفاظ والعبارات التى يسمعها من أهله ويدرك معناها قبل أن يستطيع التلفظ بها على الوجه الصحيح ، ولربما تظلّ هذه الحال كذلك فى الانسان طول حياته ، فتكون قدرته على الفهم أكبر من قدرته على التعبير عمايجول بنفسه ، ولهذا فان هذا المركز أهمّ المراكز الأوّلية كلها ، فعند القراءة الجهرية تتأثر العين بما ترى من الكلمات ، ويسير أثر الانفعال إلى مركز القراءة ثم يتجه إلى مركز إدراك الكلمات المسموعة بواسطة ألياف رابطة فيستثير ذكرى أصواتها ، ثم تتصل هذه بألياف رابطة أخرى إلى مركز بروكا أو مركز الكلام ، فيلفظ المرء الأصوات التى ترمز إليها الكلمات التى يقرؤها ، وكذلك الحال عندما يكتب الانسان مايملى عليه ، فان الألفاظ المسموعة تتجه من الأذن إلى مركز إدراكها ، ثم تتصل بمركز الكلمات المرئية فتستثير ذكرى أشكال الحروف التى ترمز إليها ، ثم تتصل بمركز الكتابة ، وهذا كما علمت متصل كل الاتصال باليد ، فتتحرك هذه عندئذ وتكتب الألفاظ التى تدل على

أما من هذه الأمّة التي قال الله في نبيها صلى الله عليه وسلم : « وإنك لعلى خلق عظيم » . وقال أيضا : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وأعمّ الرحمات انتظام الأمم كلها كأمة واحـدة كمملكة النحل والنمل يقتسمون الاعمـال ويوزعونها ، ويترك لـكل امرئ حريته في دينه ، وأمرها هو الذى يقوم به الجماعات إن القرآن قد أصبحت العلوم اليوم والعلوم المستقبلة سرّه وحقيقته ، وأمة هذا شأنها تعلم الأمم كلها ، فـكل دين غير الاسلام لايهتمّ إلا بنظام الجماعات الانسانية ، فاما خلق العوالم ونظام الطبيعة ونحوها فهو غالبا بضرب الأمثال والحـكايات المصطنعة ، الاسلام أخذ أعلى دور أيام العصور الأولى فنفع الانسانية ، ثم انحط أهله انحطاطا لا نظير له ، وهاهم أولاء الآن يريدون أن يكونوا بين الأمم في عصرنا في أمر السلام العام كما كان شأنهم أيام عصر الصحابة والتابعين هم الذين يدعون إلى سلام الأمم انتهاجا منهج الآية : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ونحن أتباعه فعلينا أن نقوم بما أنزل الله من صفات الـكمال .

أما الأمر الثانى فهو أن هذه الدنيا وماحوت إنما هى كلمات الله .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : كون الدنيا كلمات الله هذا أمر مجازى لاكته الألسن كثيرا فهو أشبه بالأمر بالمعروف ، وجاء على لسان الصوفيـة الذين يقولون : « إن خطاب الله يسمعه الانسان بجميع جسمه لابحاسة سمعه فقط » وهذه أمور لاقبل لنا بفهمها ، فاذا قلت لنا ان هذه الأجسام وهذه العوالم كلمات الله فلماذا لم نسمع ــ ان صحّ كلام الصوفية ــ إلا بآذاننا . ولماذا لم تسمع أبصارنا ولاجلودنا أولحومنا وهكذا ، فانا أرى أن هذا المقام يصح اغفاله رفقا بالقارئين .

فقلت ياصاح حياك الله وبياك : أنا أكتب هذا اليوم الأحد ٢٢ صفر سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٢ م وأنت معى ولـكن خطر لى خاطر قبيل صـلاة الجمعة المـاضية وأنا متأهب لصـلاتها بمسجد الحبيبي في شارع السيدة زينب ، وهذا الخاطر عجيب ! فبعد أن صليت لم أرجع إلى المنزل بل جلست وحدى في الخلاء لأفهم ماورد إلى خاطرى من الآراء ، وذلك الخاطر ملخصه :

إن عوالم المـادّة ترجع كلها (كما تقدم في سورة النور عنـد آية : الله نور السموات والأرض) إلى نقط كهربائية يدور سالبها حول موجبها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية الواحدة ، وباختلاف عددها كثرة وقلة وتباينا أشـكالها تظهر لعيوننا جبـلا وجلا وشجرا وحجرا الخ فهناك خطر لى أنه من المسلم به الآن عنـد الأمم شرقا وغربا أن المـادّة ماهى إلا حركات ، وهذه الحركات فى الأثير ، والمحرّك لهـا هو الله عزّ وجل .

حدّثنى أيها الذكىّ رعاك الله ما الصوت ؟ قال : هو حركات تنتقل فى الهواء وفى الأثير من فم القائل إلى أذن السامع . فقلت له : وهذه الحركات ان كانت أقلّ من ٣٢ فى الثانية الواحدة لم تسمعها الآذان ، وان كانت فوق ذلك سمعت ، وتزداد شدّة كلما ازدادت عددا حتى تصل إلى نحو ٣٢ ألفا فى الثانية الواحدة ، فاذا زادت عن ٣٢ ألفا لايسمعها الناس . قال نعم هكذا تقدّم فى هذا التفسير . فقلت له : ماهى المـادّة ؟ فقال : هى حركات فى الأثير . فقلت : إذن الـكلام حركات فى الأثير ، والمـادّة حركات فى الأثير ، وقصارى الأمر وجماداه أن الحركات التى يحدثها الانسان فى الأثير بأعضاء فمه المتصلات أضعف أثرا وأقلّ عددا من حركات الأثير التى صنعها الله لاحداث الأجسام والأضواء وجميع العالمين . فقال هذا حقّ لأن الضوء لايصل لأبصارنا إلا اذا كانت حركاته قد وصلت إلى ٤٠٠ مليون مليون حركة فى الثانيـة فيحس بلون الحمرة ، ولايزال يزداد فتـكون هناك ألوان أخرى حتى تصل عدد الحركات إلى ٧٠٠ مليون مليون حركة فى الثانية فيكون اللون البنفسجى وماوراء ذلك غير معلوم .

فقلت

فقلت له : إذن أيها الأخ جميع الحركات من ٣٢ ألفا إلى ٤٠٠ مليون مليون مليون لم نعطها حاسة حتى نعرفها ، ومافوق ٧٠٠ مليون مليون لانعرفه حتى نصل إلى نحو ستة آلاف مليون مليون فهذا لانعرفه ، وتتجلى لنا تلك الحركات بصفة مذوقات ومشمومات وملموسات ناعمة وخشنة وهكذا ، فهنا أمران : حركات لانعلمها ، وحركات وصل لنا علمها ، والحركات التي وصل لنا علمها منها ماهو من فعلنا ، ومنها ماهو من فعل خالقنا ، فما كان من فعلنا فهو ضعيف كحركات تسمى أصوات كالكلام وكالغناء ، وما كان من فعل خالقنا فهو قوى جدا ظهر بهيئة ضوء تارة ، وتارة بهيئة حديد ونحاس وأرض وسماء وهكذا ، ونسبة كلامنا إلى قوة كلام الله وهى هذه العوالم نسبة ضئيلة جدا ، ذلك أن ٣٢ ألفا بالنسبة إلى مليون واحد إنما هى نحو جزء من ٣٠ جزءا ، فكيف بها إذا نسبت إلى ألف مليون ، ثم إلى مليون مليون ، ثم إلى ستة آلاف مليون مليون ، انها إذن تصبح كالعدم ، فهى كنسبة الانسان الضعيف الذي يشبه المعدوم إلى خالقه القادر العظيم ، أليس هذا معناه أن العوالم كلمات الله فعلا ، لأنها حركات كحركات كلامنا بحسب ما كشفه العلماء فى عصرنا وهو يقرأ فى مدارس الشرق والغرب . قال بلى . قلت : أفليست كلمات الله إذن هى هى أنفسها هذه المخلوقات وهو هو المتكلم بها ، ثم كلماته ان كانت أصواتا سمعتها آذاننا كأصوات الرياح ، أو كانت مذوقات أو مشمومات أو مبصرات أو حارة أو باردة أو بيضاء أو حمراء مثلا أدركتها حواسنا ، إذن الكشف الحديث أبان لنا معنى قوله تعالى : « إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » الآية « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى » ، « وكلمته ألقاها إلى مريم » وليس معنى هذا أن ذلك كلام الله القديم . كلا . وإنما هو كضرب مثل له ، إن من هذا النوع الانسانى من صفت أرواحهم فيرون أن هذا العالم خطاب من الله لهم وكأنهم فى حضرته الآن ، هكذا يخطر لى أن فى الأرض أناسا على هذا المنوال .

أقول : إن آية : « إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وان كان يراد بها ضرب المثل فان العلم أرانا أن المثل له قريب المنال ، فهو وان لم يسم فى العرف كلاما ولكنه يشبه الكلام لأنه حركات فى الأثير ، وهذه الحركات قوية متينة وآثارها مدهشة بحيث تشعر بها جميع حواسنا على اختلاف طبقاتها وتعطينا جميع اللذات المحسوسات والمعقولات الآن فى الدنيا ، فاذا متنا وانكشف الغطاء لنا ، وتجردت أرواحنا ذاقت من اللذات أضعاف أضعاف ماتذوق هنا وهى محجوبة فى هذه الحياة ، إذن خطاب الله يصدر عنه المتكلم به ويظهر فى الخارج عند النطق به (وهذا ليس هو الكلام القديم بل ضرب مثل له) ويبقى آمادا وتحس به جميع الحواس ، وكلام المخلوق لاقدرة له إلا على الوصول إلى الأسماع فحسب ، ولانتيجة له إلا مايفعله السامعون .

ولما عرفت ذلك وكنت إذ ذاك خارج القاهرة تبين لى أن هذه الأشجار والأحجار والأنهار والأزهار والماء والسماء كلها كلمات ، وهذه الكلمات مفرقات على حواس الانسان والله نفسه كأنه بها يخاطبنا ، فالعلوم المشروحة فى هذا المقام جميعها شرح لبعض تلك الكلمات التى نعيش فيها ، إذن العالم كله كلمات فعلا ، والكلمات مقروءات لأولى الألباب .

هذا ماخطر لى يوم الجمعة السابقة فى التاريخ المذكور والحمد لله رب العالمين . فرغت من هذه المقالة صباح يوم الاثنين ٢٣ صفر سنة ١٣٥١ هجرية — ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٢ م بحى السيدة زينب بشارع زين العابدين .

حديث طريف

حضر صاحبي العالم بعد ذلك في نفس اليوم وقال لي : لقد نسيت أن تذكر شيئا أشرت إليه في علم التربية ألم تقل فيما تقدم أن الانسان في أدوار حياته يضارع أطوار الخليقة ، ووعدت أن تشرح ذلك . فقلت حقا : « إن الله لا يخلف الميعاد » إن العلماء في عصرنا نظروا في لعب الأطفال فرأوها أمرا عجبا مدهشا ، وهذا الأمر المدهش معناه قول الله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » ونحن نسمى لعب الأطفال لعبا ولكن للأطفال غريزة ومزرعة والله هو الزارع ، فهل يخلق الله اللعب ؟ هذا لعب عندنا ، وجد عند الله والحكماء ، إن الحكيم ينظر إلى لعب الأطفال والصغار ويحدق بنظره إلى أسلاف الطفل وأسلاف الحيوان فيجد ذلك اللعب ماهو إلا ما فطر عليه أجداده في كرّهم وفرّهم ، وصيدهم وقنصهم ، سواء أكان انسانا أو حيوانا ، وهذا اللعب من جهة أخرى يدل على مستقبل الطفل ، فهو وارث لأعمال الآباء ، يجددها من جهة وهو من جهة أخرى يستعد لحياة جديدة يمرّن عليها ، إذن اللعب أعطى صورتين : صورة للماضي ، وصورة للمستقبل كلاهما في آن واحد ، فالفتاة تلعب بالعروس وتغنى لها ، والفتى يتقلد السيف والرمح ويركب العود كأنه فرس ، وهما يحكيان أفعال الآباء والأجداد ، ومن جهة أخرى هما يتأهبان للمستقبل القريب ، بل الأمر أعظم من ذلك .

إن الانسان يلخص في الرحم جميع الأدوار التي مرّت فيها الخليقة كلها من خلية واحدة إلى الانسان ثم هو يلخص في أدوار ترقيته من وقت ميلاده إلى نضوجه جميع الأدوار التي مرّ بها الجنس البشرى في تقدمه من الوحشية إلى الحضارة . إن كل لعب من ألعاب الأطفال يدل على دور من أدوار الآباء في أعمالهم العادية تقبله الطفل هنا بهيئة لعب ، ثم ان لكل امرئ مواهب خاصة تظهر ما استعدّ له ، فاذا راقبنا ذلك ووضعنا كل امرئ فيما خلق له فذلك هو اليوم الذى يسعد فيه الانسان ، وهذا القول ملخص آراء الاستاذ [ستانلى هول] والاستاذ [كارل جروس] أحد أساتذة [جامعة بال] في سنة ١٨٩٦ م انتهى الحديث في نفس التاريخ ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم .

تذكرة

سنذكر ان شاء الله تعالى في سورة « والشمس وضحاها » فصولا من علم التربية جيلة نافعة اهـ

جوهرة في قوله تعالى : ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون

ففرّوا إلى الله إني لكم منه نذير مبين

خلقت اللهم من كل شيء زوجين ، ودعوتنا للتذكر ، وأمرتنا بالفرار إليك ، ونحن لا نتذكر إلا بالعلم لاسيما علم الحيوان الذى ظهر فيه الزوجان ظهورا تاما ، وسمعناك تقول في ﴿سورة الجاثية﴾ : « وفي خلقكم وما يبثّ من دابة » الخ وفي ﴿سورة الزخرف﴾ : « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا إلى وما كنا له مقرنين » وفي ﴿سورة الغاشية﴾ : « أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت » ثم تقول : « فذكر إنما أنت مذكر » نحن الآن تذكرنا ونظرنا فوجدنا أن ذكر الابل في الآية لم يقصد به إلا ضرب مثل ، لأن الابل مراكب الصحراء والعرب عليها يركبون ، وهى تحمل أثقالهم ، فذكر ما يناسب عملهم ، ولو أن القرآن نزل على رجل هندى لقيل أفلا ينظرون إلى الفيل كيف خلق ، أو على الذين يعظمون الحيات في أواسط افريقيا لذكر الحيات ،

أو

أوالذين يجلون القرود فى الهند أيضا لذكر القرود ، إذن الله بهذه الآية وأمثالها فتح لنا باب التذكرة والعلم فلنبحث إذن فى كل حيوان ، ولنقدم مقدمة فنقول :

إن الله عزّ وجل أكثر فى القرآن من ذكر العقل فيقول : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ومن ذكر التدبر والتذكر ، وعوّل جدّ التعويل على العقول ، فلننظر بعقولنا فى هذه الفطرة الانسانية العامّة ، اننا لما خلقنا فى هذه الأرض وجدنا لنا شهوة لطلب الغذاء ، ولطلب التناسل ، وغضبا لمدافعة الأعداء ، وقوّة أعلى منهما لمعرفة الحقائق كلها كالذى نحن فيه ، ووجدنا الديانات تطلب منا الاعتدال فى القوّتين الأوليين ، فنسمع الله يقول : « وكلوا واشربوا ولاتسرفوا » ويقول : « ولاتقربوا الزنا » ويقول : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » إذن الديانات والوعظ والقضاء إنما جاءت لتلطيف هذه القوى فينا لاغير ، إن شهوة الغذاء ، وشهوة التناسل ، والقوّة الغضبية فينا كلها قوى شريفة رفيعة المنزلة أنزلها الله لحياتنا ، وانما المذموم الخروج بها عن مقاصدها ، والافنحن بغيرها لاحياة لنا ، فكل قانون ، وكل وعظ دينى أودنيوى وظيفتها أن تجعل هذه القوى معتدلة لاغير ، ولكن القوّة العليا وهى الفكرية المسيطرة على القوّتين السابقتين لها مطالب أيضا ومطالبها هوالعلم وغذاؤها صور المعلومات ، فكما كان لشهوة الغذاء أنواع الطعام ، ولشهوة الوقاع أنواع النساء ، وللقوّة الغضبية أنواع القتال ، هكذا للقوّة العاقلة أنواع الصور العلمية المكتسبة من الموادّ المحيطة بنا ، وهذه وظيفة تامّة قائمة بنفسها لا أنها مهذبة فحسب ، بل هى شهوة مقدّسة وهى الخاصة بالانسان ، فاذا غذاها صارانسانا تاما ، واذا تركها بقى حيوانا لأنه لم يرتق عن الحيوان فهو مثله فى الشهوتين السابقتين ، نعم اذا كان قد هذب الشهوتين السابقتين فقد تكمل فى العمل ، ولكن العلم هو الخاصية الانسانية ، الحيوان ليس فى حاجة إلى التهذيب أما الانسان فهو فى حاجة إليه ، وأذكر منظرا شاهدته قبل كتابة هذه الأسطر بساعات لأنى الساعة أكتب هذا قريبا من منتصف ليلة الجمعة ١٧ يناير سنة ١٩٣٠ م وفى عصر الخميس كنت أرتاض ماشيا عند مصر القديمة مارّا على [كوبرى الملك الصالح] فرأيت راعيا يسوق عنزات ذوات ضروع مملوءة لبنا ومعهنّ تيسهنّ فتأملت ذيولهنّ اذا هى مرفوعة دائما ، وقد عرى السبيلان عما يغطيهما فترى الذيل كأنه قوس رجع إلى الخلف فقلت فى نفسى : يقول الله تعالى : « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم ولباس التقوى ذلك خير » فنحن أمرنا وامتنّ الله علينا باللباس الذى يوارى سوآتنا ، أما هذه الحيوانات فقد كشف سوآتها وعاشت بهذا والله لايخلق إلا الكمال ففكرت فيما علق بالنفس من أمر هذه الحيوانات ، وأن ذكورها لاتقرب اناثها إلاوهى غيرحاملة ، ومتى حملت لاتقربها ، وهذا عجيب ! إذن كشف العورة لايضرّها هى ، لأن هنالك قانونا مسنونا ، وهوأن التيس لايقرب العنز إلا ورحمها خال من الجنين ، فسألت الراعى فقال نعم انها متى حملت لايقربها التيس ولوفى اليوم الثانى ، فأما الانسان فانه أعطيت له الحرّية فى كل شىء ، فشهوة الغذاء لاحدّ لها وهكذا شهوة الوقاع ، فهذه الحرّية وجب أن تقيد بالقيود الشرعية والعقلية لتحفظ حياته وكماله ، وهذه الحرّية شرف له لأنه طلب منه الجهاد بنفسه ، فهوهوالملزم بالمحافظة على قواه ، فاذا قدر على أنواع الطعام وفنون ألوانه ولم يجد مانعا يمنعه من تناول أنواع الشهوات فى الوقاع ، فهوالمكلف بأن يمنع نفسه بنفسه كما منعت ذكورالك الحيوانات بغرائزها فى بعض الأحوال ، وهكذا نرى الحيوانات لاتشرب إلا اذا عطشت بخلاف الانسان فانه يشرب الحلوى متلذذا بغيرعطش ، فهذه حرّية أعطيت له وقد كلف أنه هو الذى يقيد هذه الحرّية ، أما الحيوانات التى فى البرية فالغريزة والسليقة أغنتها عن الشرائع وتكاليف الانسان بمقاومة شهواته اعظاما له فكأنه قيل له : أنت حرّ فدبر نفسك بنفسك ، لأننا نريد أن تكون ملكا على عواطفك

لا أنك مقيد بقيود طبيعية تحجزك ، بل قيودك تكون من تلقاء نفسك ، وهذا شرف لك ، وخذلان لك ان قصرت ، والمقصود من هذا الجهاد أن تعتاد نفسك المران على العمل ، وترتقى إلى ماهو أعلى منه وهو تغذية القوّة العاقلة بالصور الحكمية ، ولن تستقيم أيها الانسان حالك إلا بجدّك واجتهادك .

إن هذه العنزات التى رأيتها اليوم قرأت فيها درسين : الدرس المتقدّم وهو درس الشهوات وحفظها بالغريزة فى الحيوان ، واحتياج الانسان فى حفظها إلى العلم والدين ، ودرس الألوان ، فان العنزات رأيت منهنّ البيضاء والسوداء والحمراء والصفراء والداكنة اللون ، ومنهنّ من كان جسمها مختلط البياض بالسواد ، أو بالحمرة ، أو بالصفرة ، أو بالجميع ، أو بالبعض ، وهنّ متصاحبات متحابات ، فقلت فى نفسى هذا معنى قوله تعالى : « قتل الانسان ما أكفره » لأن الناس كما احتاجوا فى طعامهم وشرابهم ودفاعهم إلى وازع ليحفظوا قواهم هكذا فى السياسة العامّة يحتاجون إلى وازع يرفع من شأنهم ، فهاهم أولاء أهل أمريكا يعادى البيض منهم السود لمجرّد اللون ، وهكذا فى بلاد الانجليز فى هذه السنة لم يقبل أصحاب المطاعم والمجتمعات العامّة رجلا أسود أمريكيا مع أنه مثرعظيم ، ذلك كله لمجرّد اللون ، فهؤلاء لم يجدوا مايهذب هذه النفوس المحبوسة فى أمورتافهة كالألوان ، ولكن هذه العنزات متحابة معا وهنّ مختلفات الألوان لأنهنّ يرين أن النظر لهذه الفوارق اللونية أمر تافه ونظرة حمقاء وقلة عقل وقصر فى العلم ، ولكن ليس هذا عندهنّ علما وانما هو غريزة كغريزة امتناع الوقاع أثناء حمل الأنثى ، فههنا درسان درستهما اليوم على هذه العنزات درس أخلاق ودرس سياسة ، ولهذا قال الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وورد فى الحديث : « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » وقال صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشىّ » وأمر بلالا أن يؤذن فى الكعبة يوم فتح مكة بمحضر من قريش ، كل ذلك تهذيب لهذه النفوس الانسانية فى الامور السياسية العامّة ، والحيوان لم يحتج إلى هذا لأن غريزته تكفيه ، الحيوان ليس مستعدّا لحوز العلوم والمعارف ولذلك لم يكلف بالجهاد لحفظ شهواته ، بل كفته الغريزة كما قدّمنا ، أما الانسان فجهاده فى مدافعة شهواته يكون مقدّمة لجهاده فى اكمال نفسه بالعلم وادراك الحقائق التى لم يخلق إلا لادراكها ، إذن هذه الشهوات واطلاق الحرّية للانسان فيها جعلت أشبه بامتحان له فان جدّ فى المحافظة على قواه الشهوية كان ذلك دليلا على أنه سينال العلوم العقلية ويكون رجلا كاملا ، وان بقى فى غمرات شهواته دلّ ذلك على أنه ليس أهلا لأن يستكمل نفسه بالعلم .

هذا ما أردت جعله مقدّمة لما أكتبه فى هذه الآية : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » وما ماثلها من قوله تعالى : « والذى خلق الأزواج كلها الخ » فلأشرع إذن فى دراسة هذه الأزواج الحيوانية وأقول :

لقد تقدّم الكلام عليها مفرّقة فى هذا التفسير ، فتراها فى سورة فاطر ، وفى سورة النحل ، وفى سورة الحج عند آية : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » وهكذا فى سور كثيرة ، ولكنى أريد هنا أن أذكر حادثة عجيبة : ذلك أنى قدّمت فى سورة يونس أنى أرسلت خطابا الى الحكومة المصرية ، والى رجال البرلمان أبين لهم فيه أن تعليم الشبان فى المدارس الثانوية ناقص إذ لا نبات ولا حيوان ولا تشريح ، ولا علم طبقات الأرض ، ولا علم الفلك تدرس فيها ، فالتلميذ يخرج وهو جاهل ماحوله ، فيجب أن تدرس هذه العلوم ، وأن يجعل التعليم الثانوى خمس سنين ، لأن هذه الموادّ قد حذفت من المدارس لما دخل الانجليز البلاد فوجب رجوعها وأنتم الآن عندكم استقلال ، وبقية الخطاب تجده هناك مسطورا .

أفلا تعجب معى أن هذا القول قد عمل بأكثره الآن ! أفلا تعجب أن ما كنت أقوله كثيرا فى هذا التفسير

أن

أن بلاد الاسلام سترتقى قريبا قد أخذ يتحقق بعضه ، وهذه بلادى لما كتبت ذلك الخطاب منذ بضع سنين لم تكن هذه العلوم فيها ، فهاأنا ذا الآن أرى أمامى علم الحيوان وعلم النبات مشروحين فى كتبهم شرحا وافيا عجيبا ، وأنا لاأزال أزاول طبع التفسير ، أفليس هذا معناه أن مابشرت به المسلمين من أنهم سيرتقون سريعا قد ابتدأ تحقيقه وهذا من البشائر ، وهاهوذا أمامى كتاب فى علم الحيوان تأليف ثلاثة من علماء هذا الفن المصريين ، فلأبين طرفا من ذلك الكتاب هنا بحيث يكون مفيدا فوائد أحسن مما سبق فى هذا الكتاب ، وأريد بذلك أن أبين لك طريقة دراسة هذا الفن فى بلادنا اليوم بعد أن حرمت تلك العلوم فى أيام الاحتلال ، فقد جاء فى الكتاب المذكور تحت العنوان التالى مانصه :

اقسام المملكة الحيوانية

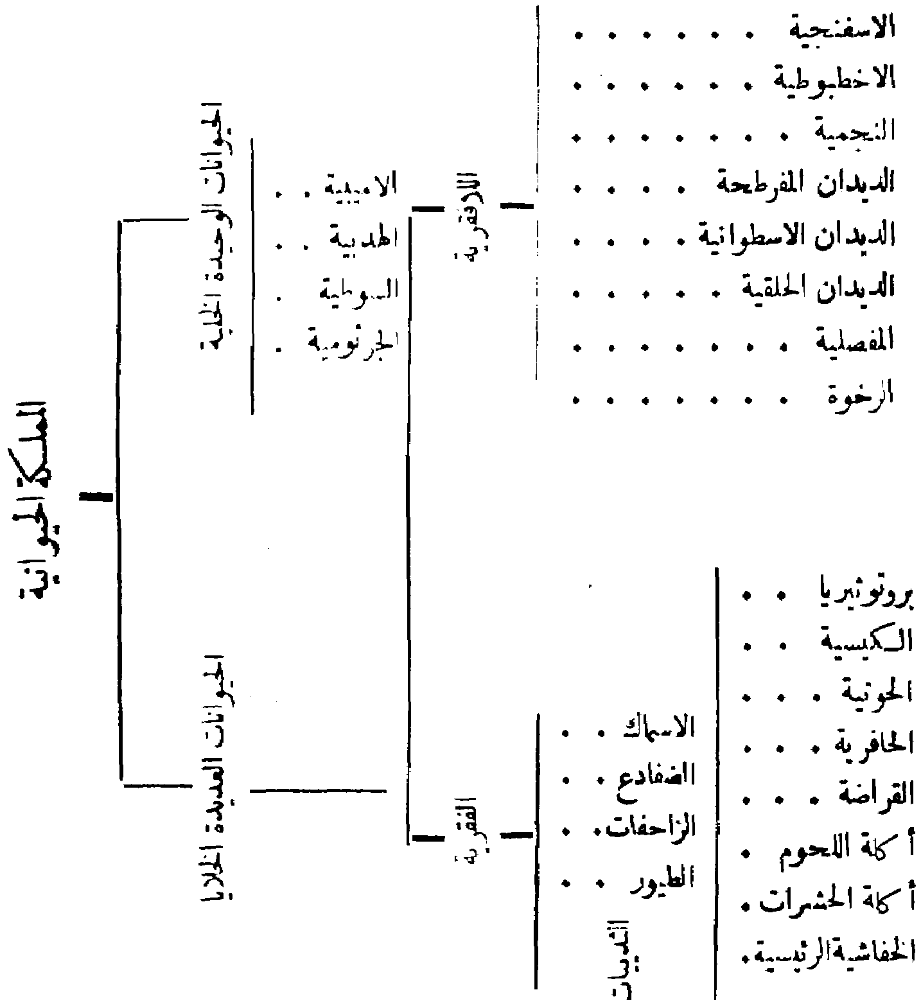
تنقسم الحيوانات تبعا لتركيبها الخلوى إلى مملكتين وهما :ــ

(١) الحيوانات الوحيدة الخلية أو البروتوزوه ، وتسمى كذلك بالحيوانات الأوّلية ، وهى مايتركب جسمها من خلية واحدة .

(٢) الحيوانات العديدة الخلايا أو الميتازوه ، وهى مايتركب جسمها من خلايا عديدة تتكوّن عنها أنسجة مختلفة تقوم بالوظائف الحيوية للجسم . وتنقسم الحيوانات العديدة الخلايا الى قسمين كبيرين وهما :

[ا] الحيوانات اللافقرية هى ماليس لها سلسلة فقرية ، وتنقسم الى ثمان رتب كما هو مبين بالجدول الآتى

[ب] الحيوانات الفقرية هى ما لها سلسلة فقرية ، وتنقسم الى خمس رتب كما هو مبين بالجدول كذلك



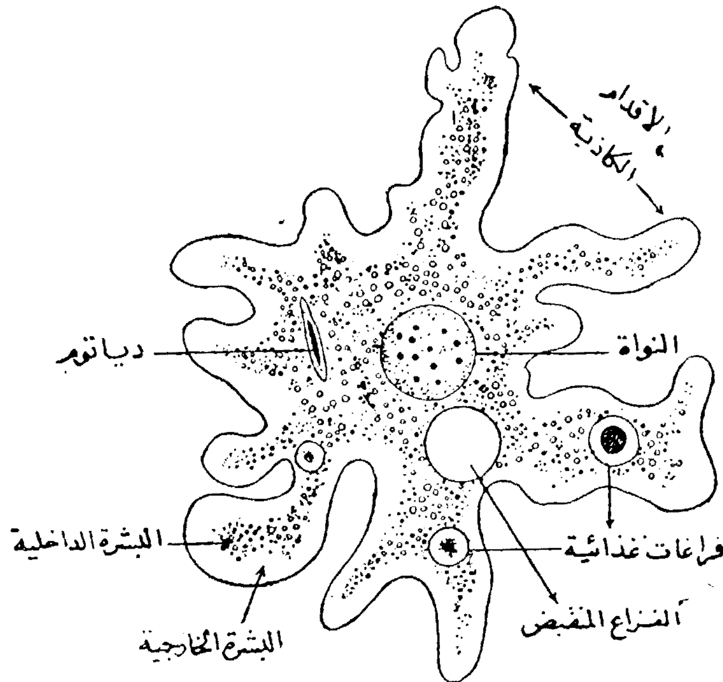
فالحيوانات الوحيدة الخلية هذه جعلت أربعة أقسام تراها فيما تقدم هنا ، ومن هذه الأربعة [الأميبا] (انظر شكل ٣٥) .

الأميبا

الأميبا كائن حي دقيق الحجم يعيش فى البرك والمستنقعات ، أوعلى سيقان النباتات المائية ، أوعلى الأحجار الراسية فى القاع ، ويرى أكبرها بصعوبة بالعين المجردة .

شكلها

عند ماتشاهد [الأميبا] بالمكرسكوب تكون عبارة عن كتلة بروتو بلازمية شفافة هلامية عارية أى لاجدارلها ، وليس لها شكل معين حيث تتشكل بأشكال مختلفة فى وقت قصيرتبعا لبروزأجزاء بروتو بلازمية من جسمها ، ، ويلاحظ كذلك أن البروتو بلازمية فى حركة مستمرة . (انظرشكل ٣٥)



(شكل ٣٥ ـ الأميبا)

القسم الثانى من وحيد الخلية : الحيوانات الهدبية

والذى يهمنا منها أن نعرف أن الحيوانات الطفيلية التى تعيش فى الغشاء المخاطى للأمعاء الغليظة فتسبب الاسهال المخاطى الدموى المسمى [الدسنتاريا] إنما هى من هذه الحيوانات الهدبية ، وهى من الوحيدة الخلية .

انتهى الكلام على القسم الثانى .



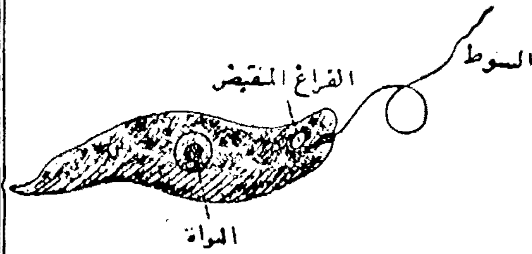
القسم الثالث من وحيد الخلية

الحيوانات السوطية

والحيوانات السوطية هي حيوانات أوّلية ، يكون فى أحد طرفيها زائدة سوطية تشبه الذنب ، تساعدها على الحركة ، وقد يكون ببعض أنواعها سوطان ، والبعض الآخر لاسوط له ، تعيش هذه الحيوانات فى وسط سائل ، وتتحرّك فيه بواسطة حركة سوطها الكرباجية .

والذى يهمنا من هذا النوع [البوجلينا] وهى حيوانات مكروسكوبية تعيش على سطح المياه العذبة الراكدة فى البرك والمستنقعات ، وشكلها مغزلى ، وبأحد طرفى جسمها سوط طويل بجانبه فتحة الفم . وتتغذى بالكائنات الدنيئة ، وبقايا الموادّ العضوية التى تجدها فى الماء ، وتتغذى [البوجلينا] بطريقة نباتية ، وهى أنها تستخلص الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الذائب فى الماء وتمثله فى جسمها ، ثم تمتص الآزوت وغيره من العناصر بشكل أملاح ذائبة فى الماء .

وتتغذى كذلك بطريقة حيوانية ، وهى إدخال قطع الموادّ العضوية السالفة الذكر من فتحة فمها (انظر شكل ٣٦) وهو حيوان سوطى صغير يعيش معيشة طفيلية فى دم الانسان ، ويسبب له مرض النوم وهو مرض منتشر فى أواسط أفريقيا ، وتنقله إلى الانسان ذبابة خاصة تسمى [جلوسينا] ، يمضى فى جسمها حيوان مرض النوم جزءا من حياته ، وعند ماتمتص الذبابة الملوّثة دم الانسان تمرّ هذه الحيوانات فى لعابها إلى الجرح الذى تمتص منه ثم تدور مع الدم وتتكاثر فيه وتسبب الأعراض المرضية للمصاب .



(شكل ٣٦ ـ البوجلينا)

القسم الرابع من الحيوانات الوحيدة الخلية

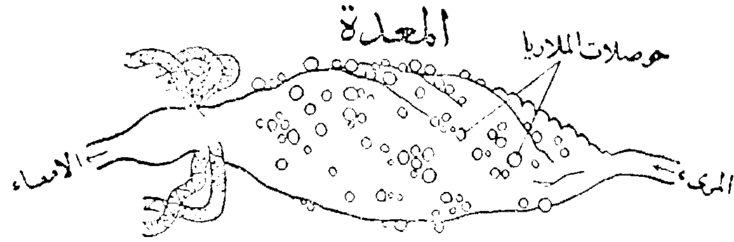
الحيوانات الجرثومية

الحيوانات الجرثومية هى حيوانات أوّلية ليس لها أعضاء خاصية للحركة ، وتعيش معيشة طفيلية فى الأنسجة المختلفة لأجسام الحيوانات التى تصيبها وتسبب لها أمراضا قتالة ، فنها :

(١) [الككسيديا] : وهو حيوان دنىء يصيب حيوانات مختلفة ، فى الأرانب يعيش فى أنسجة كبدها ويسبب لها مرض تعفن الكبد ، وفى الأغنام يعيش فى الغشاء المخاطى لأمعائها ، وينتشر بينها بسرعة ويعرف بوباء الككسيديا .

(٢) [حيوان الملاريا] : وهو يعيش فى دم الانسان ، ويسبب له حمى الملاريا .

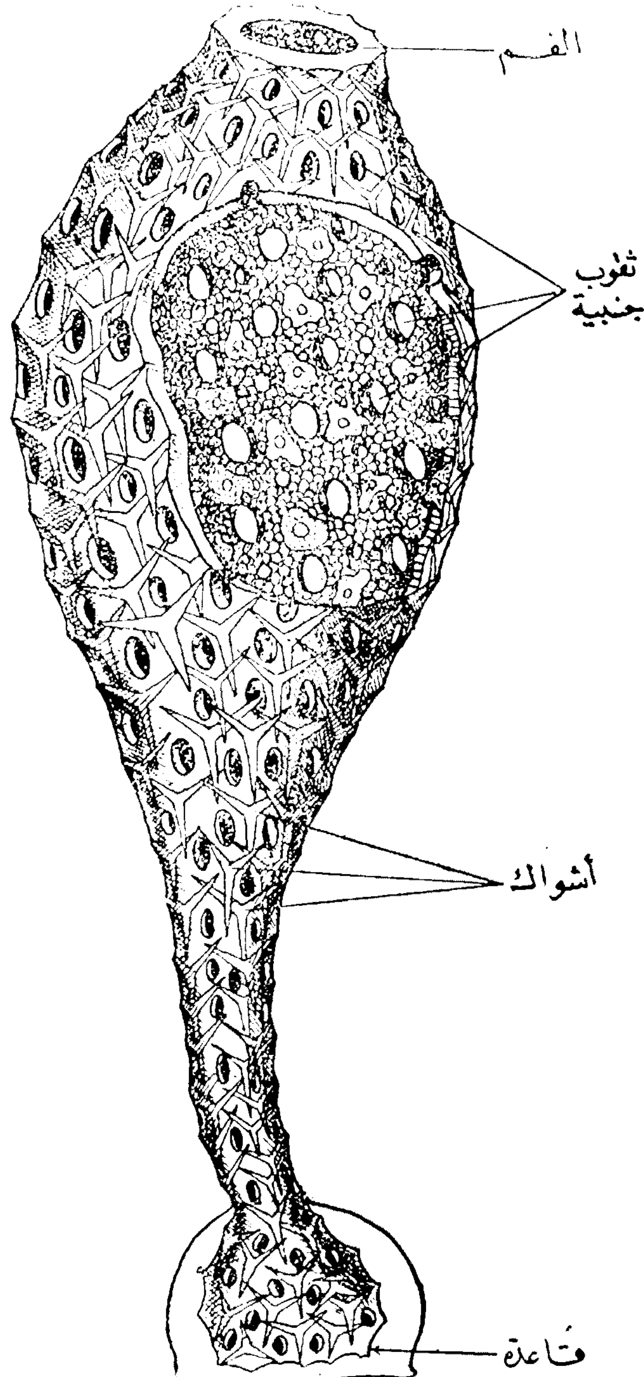
ثم إن الناموس على قسمين : قسم ينقل هذه الملاريا ، وقسم لاينقلها ، والقسم الذى ينقلها حينما يتغذى بدم الانسان المصاب بالملاريا تتناسل تلك الحيوانات فى جوف الناموسة ، وهناك تكون معدية فتنقل ذلك النسل إلى جسم إنسان آخر فتحصل العدوى ، وهذه صورة معدة الناموسة المذكورة (انظر شكل ٣٧ فى الصفحة التالية) .



(شكل ٣٧ ــ معدة الناموس وعليها حوصلات الملاريا)

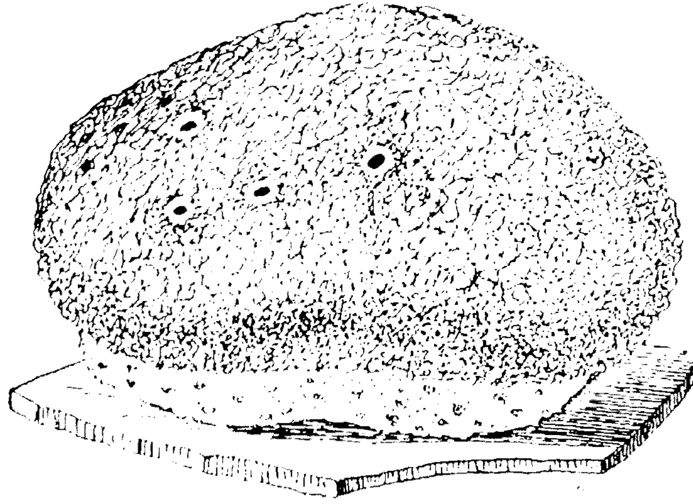
الكلام على الحيوانات المديدة الخلايا

فنها الاسفنجية كما تقدم وهذه صورتها (انظر شكل ٣٨) وها هو ذا :



(شكل ٣٨ — نوع من الاسفنج الحجرى البسيط)

ومنها اسفنج الحمام ، وهذه صورته (انظر شكل ٣٩) :

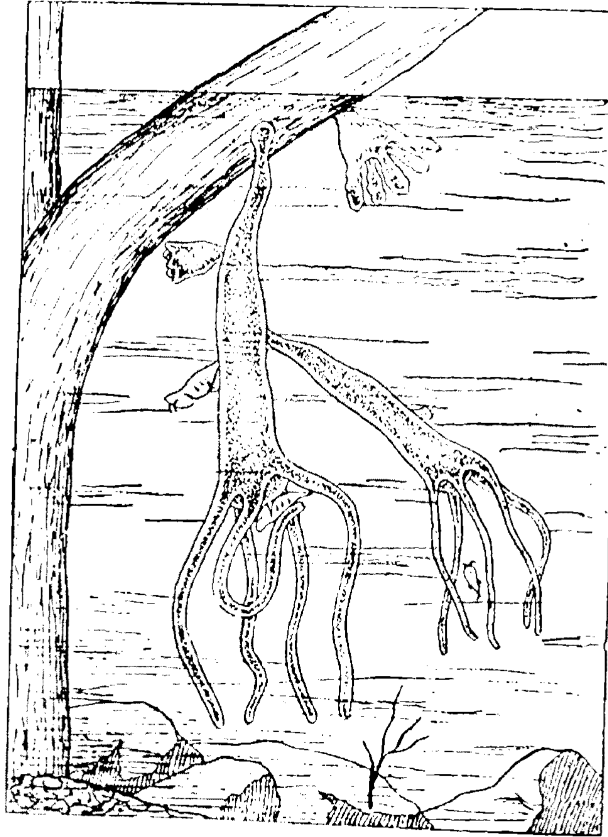


(شكل ٣٩ ـ اسفنج الحمام)

القسم الثاني من الحيوانات كثيرة الخلية

الحيوانات الاخطبوطية

(انظر شكل ٤٠)



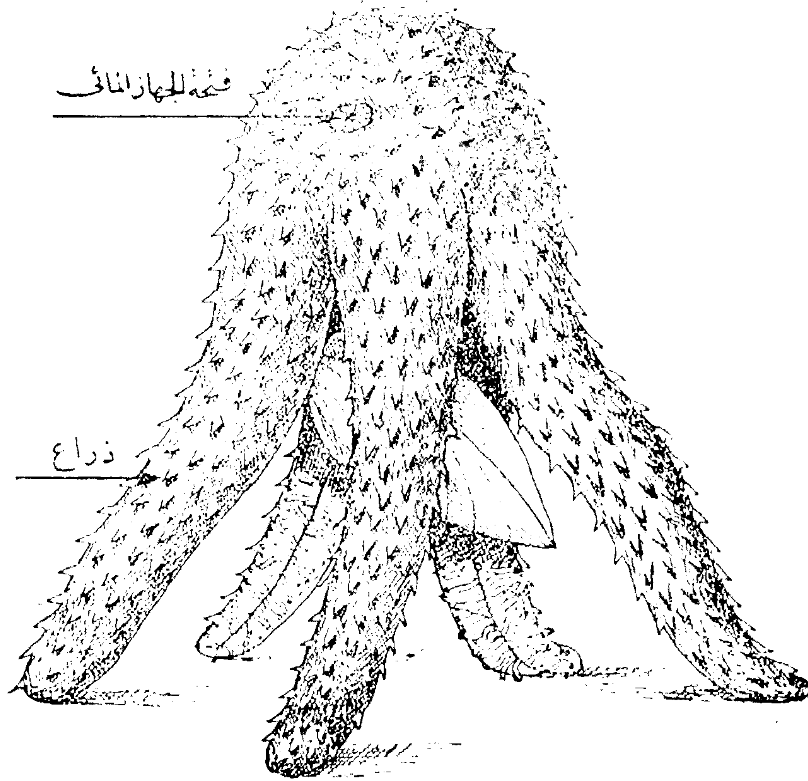
شكل ٤٠ ـ أخطبوط فى حالته الطبيعية (٧ ×)

ومن الحيوانات الاخطبوطية حيوان المرجان ، وقد تقدّم فى سورة الجاثية ، وفى سورة النحل .

القسم الثالث من الحيوانات العديدة الخلايا

الحيوانات النجمية ، وهى ذوات الجلد الشوكى

(انظر شكل ٤١)



نجم يفترس محارا

(شكل ٤١)

حيوانات هذه الرتبة كلها بحرية ، يعيش بعضها على سواحل البحار كنجم البحر ، والبعض بالقرب من الشواطئ كقنفذ البحر ، والبعض الآخر فى وسط البحار كخيار البحر .

وكل هذه الحيوانات ذات شكل منتظم أعضاؤها متشععة كأنصاف أقطار الدائرة حول مركزها ، وأجسامها فى الغالب مغطاه بأشواك قد تكون طويلة كما فى قنفذ البحر ، أوقصيرة كما فى نجم البحر ، وقد لاتظهر أصلا وتعوّض بصفائح حجرية صغيرة موضوعة تحت الجلد كما فى خيار البحر ، وقد تكون هذه الصفائح كثيرة وتتصل بعضها ببعض فتكون شبه صندوق كما فى قنفذ البحر ، وقد توجد الصفائح والأشواك معا فى الحيوان الواحد . وتشاهد على أجسام هذه الحيوانات زوائد بيضاء اللون متحركة تمتد وتنكمش عند الارادة ، وتنتهى كل واحدة منها بقرص صغير مقعر قليلا ، وهذه الزوائد هى أعضاء الحركة والالتصاق ، والحركة فى هذه الحيوانات بطيئة جدا .

الذكور فى هذه الحيوانات منفصلة عن الاناث ، ومن الصعب جدا التفرقة بينهما من غير الاستعانة بالتشريح .

[نجم البحر] يشبه هذا الحيوان النجمة فى شكلها لهذا سمى نجم البحر ، و يتركب جسمه من قرص وسطى يتفرع منه عدد من الأعضاء (خمسة فى الغالب) وكلها متشابهة شكلا وفى الغالب متساوية حجما ،

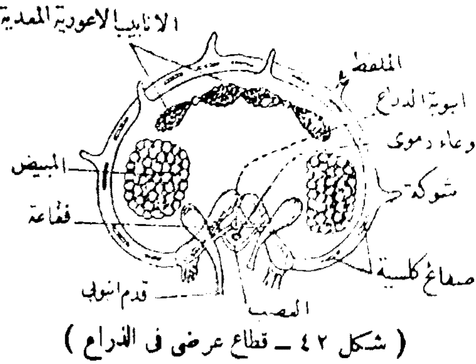
وتعرف هذه الأعضاء بالأذرع ، وللحيوان سطحان : أحدهما علوى والآخر سفلى ، والسطح العلوى أقتم لونا من السفلى ، وبوسطه فتحة صغيرة جدا لاترى بسهولة تعرف بالأست .

ويوجد على حافة القرص من أعلى أيضا وبجوار نقطة اتصال ذراعين من أذرع الحيوان جزء قشرى مستدير به عدة ثقوب صغيرة يعرف بفتحة الجهاز المائى .

ويوجد عدد كبير من صفائح كلسية منتشرة تحت جلد الحيوان تبرزمنها أشواك كثيرة تظهر فوق سطح الجسم كما أنه تبرز من بعض هذه الصفائح أعضاء صغيرة كالأشواك شبيهة بالملقط ، وظيفتها التقاط الأشياء الصغيرة كالحشائش المائية ، وكذلك تنظيف جسم الحيوان مما قد يلتصق به من أوساخ (انظرشكل ٤٢)

وتظهر على جسم الحيوان فى المواضع الخالية من الصفائح الكلسية زوائد صغيرة شبيهة بالأصابع ذات جدر جلدية رقيقة للغاية يحصل الحيوان بواسطتها على مايحتاج إليه من الاكسوجين الذائب فى الماء المحيط به ، فهى إذن أعضاء للتنفس .

وتوجد فى وسط القرص من أسفل فتحة تعرف بالفم محوطة بأشواك كلسية .



(شكل ٤٢ ـ قطاع عرضى فى الذراع)

القسم الرابع من الحيوانات المديدة الخلايا التى لافقرات لها كالتى قبلها

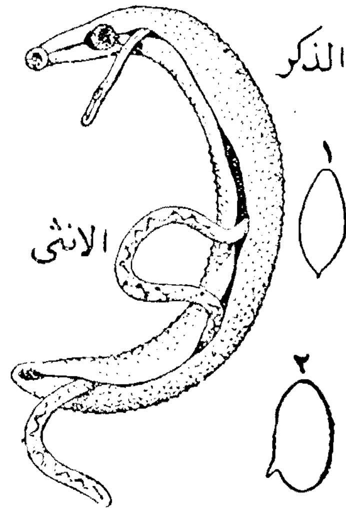
الديدان المفرطحة ومنها الدودة الكبدية

تعيش الدودة الكبدية وهى فى طورها الكامل فى القنوات المرارية الكبيرة فى كبد الأغنام والمواشى والجمال ، وأحيانا الانسان ، ويبلغ طولها سنتيمتران أو أكثر ، وتسبب لهذه الحيوانات مرض تعفن الكبد أى تفتت الكبد ، لأن الكبد المصاب يصير خشن الملمس غير مرن ، وسهل التفتت . (انظر شكل ٤٣) .

ومنها دودة البلهارسيا (انظر شكل ٤٤ فى الصفحة التالية)


(شكل ٤٣)
الدودة الكبدية الكاملة



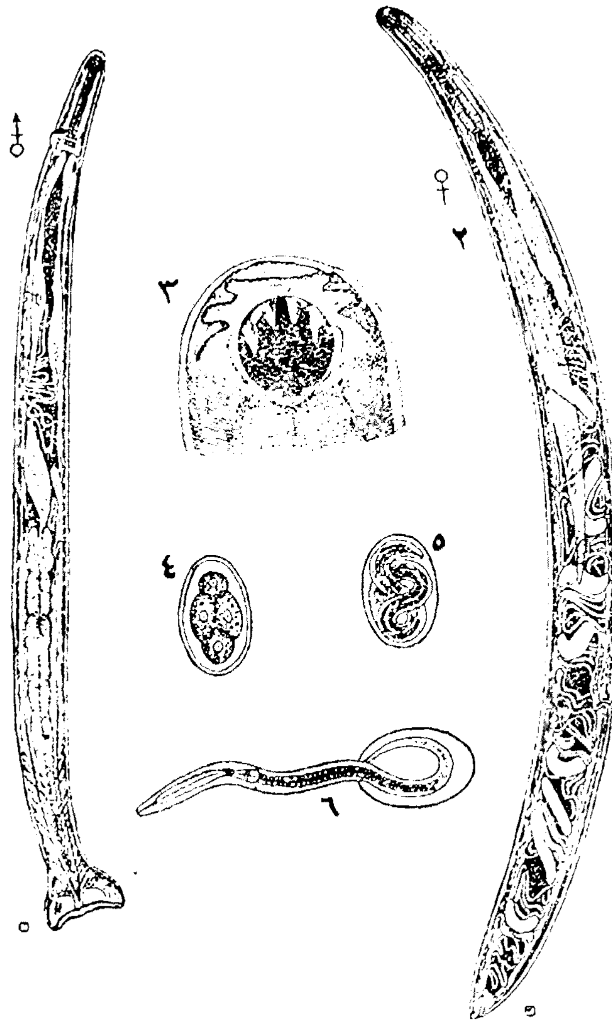


(شكل ٤٤ ـ دودة البلهارسيا)
(١) بيضة بلهارسيا المجارى البولية . (٢) بيضة بلهارسيا المستقيم .

القسم الخامس
من الحيوانات عديدة الخلية
الديدان الاسطوانية

ديدان [الانكلستوما] هى ديدان رفيعة بيضاء ، يبلغ طولها سنتيمترا تقريبا وتعيش فى الأمعاء الدقيقة ملتصقة بجدرها وتمتص الدم منها ، وتحدث للمصاب بها ضعفا وانحطاطا مستمرًا فى قواه ناشئا من فقر الدم ينتهى بالموت ، ويسمى فقر الدم الناشئ من الانكلستوما عند الفلاحين (بالرهقان) أى سرعة دقات القلب عند القيام بأىّ مجهود جسمانى .

وأناث الانكلستوما أكبر بقليل من ذكورها ، وتعيش الاناث منفصلة عن الذكور بخلاف البلهارسيا ، ولاتتصل بها إلا عند التزاوج (انظر شكل ٤٥) .



(شكل ٤٥ ـ دودة الانكلستوما)
(١) الذكر (٢) الأنثى (٣) فم الدودة مفتوحا (٤) البيضة عند وضعها (٥) البيضة عند نضج الجنين فيها (٦) اليرقة

القسم

القسم السادس من الحيوانات عديدة الخلية

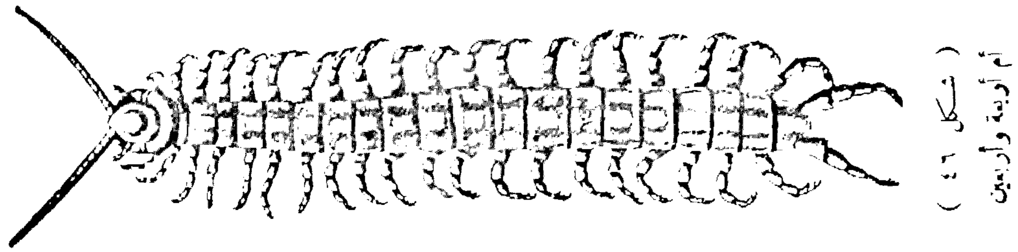
الديدان الحلقية ، وهى من الحيوانات التى لافقرات لها

ومنها دودة الأرض ، وقد تقدّم الكلام عليها فى [سورة فصلت] فراجعه هناك إن شئت .

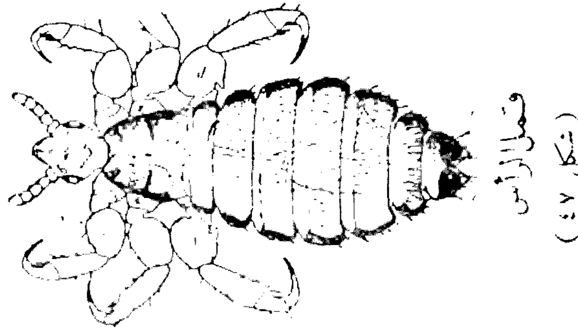
القسم السابع من الحيوانات عديدة الخلية التي لافقرات لهـا

الحيوانات المفصلية

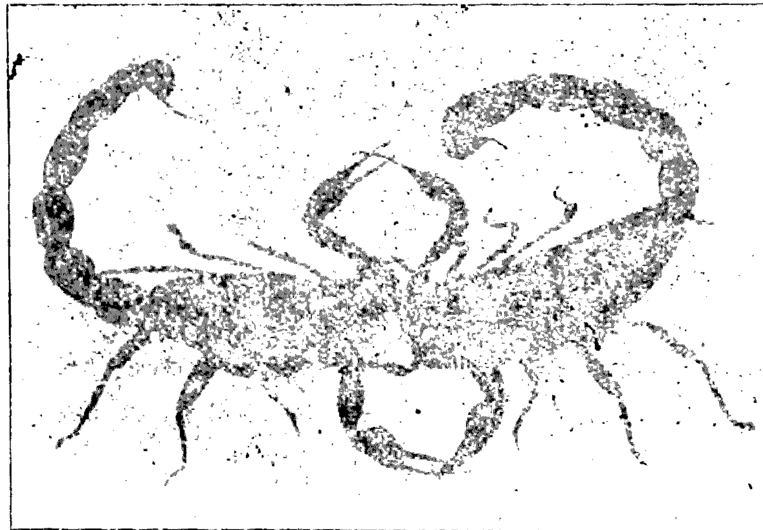
ويدخل فى هذا القسم الحيوانات القشرية كالجبرى ؛ أوالكثيرة الأرجل كأم أربعة وأربعين (انظر شكل ٤٦) والعنكبوت ونحوه ، والحشرات : كالجراد ، وفرس النبى ، والصرصار ، ودودة القطن ، والذباب والناموس ، والبق ، والبرغوث ، والقمل (انظر شكل ٤٧) ودودالقز ، والنحل ، والعقارب (انظر شكل ٤٨). و(شكل ٤٩ تراه فى الصفحة التالية) ثم الجنبرى (شكل ٥٠ تراه فى الصفحة التالية أيضا)



(شكل ٤٦) أم أربعة وأربعين



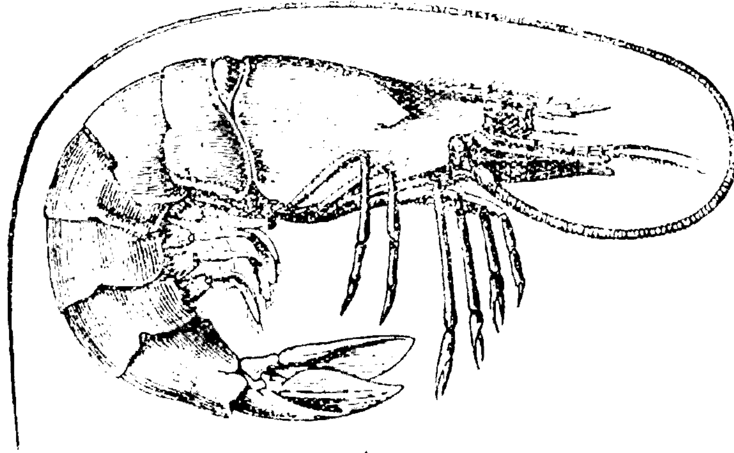
(شكل ٤٧) قمل الرأس



(شكل ٤٨ — عقربان يتصافحان عند مقابلتهما)



(شكل ٤٩ ـ عقربة تحمل صغارها على ظهرها)

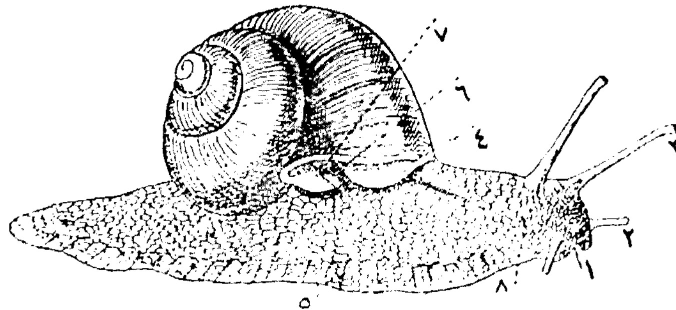


(شكل ٥٠ ـ الجمبرى بالحجم الحقيقى)

القسم الثامن من الحيوانات عديدة الخلايا وهى ليست ذات فقرات

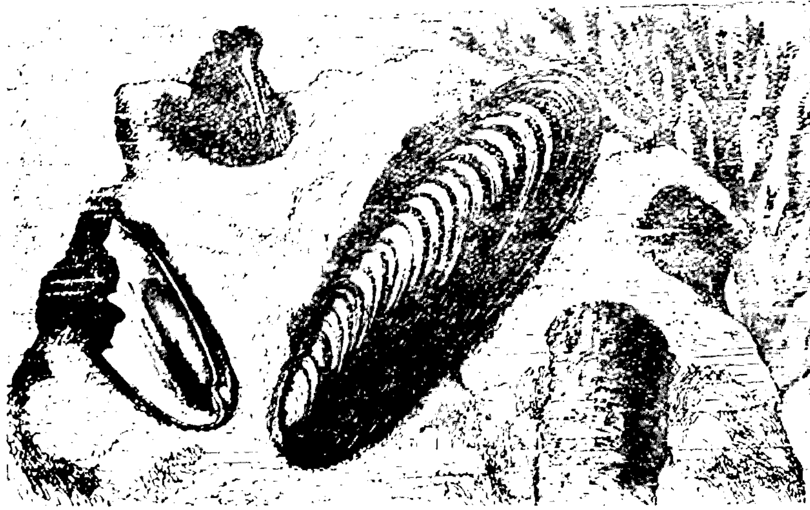
الحيوانات الرخوة ، ومنها القواقع ، و بلح البحر

(انظر شكل ٥١)



(شكل ٥١ ـ الوقع الرومانى)

(١) الفم (٢) الزوائد الأمامية (٣) الزوائد الخلفية الحاملة للعين (٤) حافة البرنس (٥) القدم (٦) الفتحة التنفسية (٧) الفتحة الشرجية (٨) الفتحة التناسلية



(شكل ٥٢ — بلح البحر مدفونا فى الصخر بحالته الطبيعية)

هذا ما أردته من كتاب « علم الحيوان » فى هذا المقام ، وبهذا تم الكلام على أقسام الحيوانات الثمانية الوحيدة الخلية والعديدة الخلية ، والحمد لله رب العالمين .

بهجة الحكمة فى هذه المناظر الحيوانية وعجائبها وبدائعها

أنا يا الله وجميع المغرمين بعجائبك وقرّاء هذا التفسير المطلعين على أكثره من أهل الفطنة موقنون إيقانا مبنيا على المباحث العقلية ، والمشاهدات الحسية ، والنظريات الحكمية ، انك رحيم رحمة لاحدّ لها ، بحيث أصبحت رحمة الأمهات والآباء بالنسبة لها قليلة الجدوى ، وبهذا فهمنا قولك : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » فأنت عززت فحكمت وأحكمت التدبير وأولو العلم هم الذين يشهدون بالحق ، والجهال مؤمنون لاغير ، وفهمنا أيضا معنى قولك فى القرآن : « وهو أرحم الراحمين » فكل منا عنده رحمة ولكنها رحمة جزئية ، فأما رحمتك التى شهدناها فانها لاحدّ لها ، ومن آيات ذلك إحكامك الصنع فى أجسامنا ، ودقة صنع أعيننا ، وتلك الطبقات العجيبة المنظمة ، وكيف وضعت بهيئة بها تقبل ضوء الشمس ، وهذا الضوء يوصل الصور المرئية ، وهذه الصور تدخل فى تلك الطبقات وتخترق العدسة وتمرّ فى الشبكية وراءها ، ثم تصل إلى أعصاب الاحساس البصرى وتتجه إلى القوّة الباصرة فى الدماغ وهناك يكون الاحساس ، وماهذه إلا وسائط ، وقد فعلت أمثال ذلك فى إحساسنا بالأصوات وفهم الكلمات والجمل ، وأبدعت وصوّرت وأحكمت ، وأودعت فى آذاننا قطعات تتلوها قطع تتحرك حركات تنتقل من واحدة إلى الأخرى ، وهكذا من العجائب التى لوكانت ممثلة لنا دائما لاستغرقت قوانا وعقولنا الأوقات فى الاعجاب ثم الحب والهيام والغرام بصانعها الحكيم .

ومن أنعم النظر فى عجائب الأشجار والأزهار والأوراق والجذور وبدائع الحيوان يدهش من تلك الثروة الحكمية ، وأن نظرة واحدة لورقة واحدة (كما تقدم فى سورة يس عند آية : سبحان الذى خلق الأزواج كلها الخ) بل لخلية واحدة من خلايا الورقة المرسومة هناك يدهش كل الدهش ويعجب كيف خلقت الشمس وبيننا وبينها نحو ٣٥٠ سنة بسير القطار و١٢ سنة بجرى قلة المدفع و٨ دقائق و١٨ ثانية بسير النور ، خلقت هذه الشمس فى ذلك البعد العظيم عنا ، ولوأنها قربت منا لأحرقتنا فلم نعش ، فهذه الشمس ترسل

نورا لأعيننا به نرى الطرق ونقرأ الكتب ، وهذا النور نفسه يدخل فى الخلية من الورقة المحتوية على آلاف من الخلايا بل عشرات آلاف الآلاف فى بعض الورق ، وهذه الخلية ذات حيطان شفافة مسقوفة بسقف من موادّ شفافة موضوعة وضع اللبنات فى أبنيتنا لبنة بجانب أخرى ، فهى إذن مقفلة ، وهذا الاقفل لايمنع دخول نورالشمس ، فماذا يفعل ذلك النور ، يا ترى يقابل السائل الذى فى وسط تلك الحجرة ، فيجد فيه مادّة خضراء وهو [كاوروفل] فباجتماع هذا الضوء المسافر من أقطارشاسعة مع هذه المادّة الخضراء تجتذب الورقة [المادّة الكربونية] من الهواء .

الله أكبر : إذن هذه الخلية أشبه بالرئة للحيوان والكربون أشبه بالاكسوجين للحيوان والاكسوجين الذى يخرج من الورقة قائم مقام المادّة الكربونية التى يخرجها الانسان والحيوان .

ههنا ههنا وصلنا إلى المقصود وهو أن خلية واحدة من خلايا الورقة تحدث مع الشمس المرسلة ضوءها لحياة الشجرة ، ولاريب أن هذه الرئة واحدة من آلاف آلاف آلاف آلاف آلاف الخلايا فى الشجرة ، والشجرة واحدة من آلاف آلاف النبات والشجر فى الأرض ، وكل هذه صنعت لأجل حياتنا نحن ، فههنا رحمة لاحدّ لها وحكمة واتقان لانهاية لها ، والرحيم الحكيم محبوب على مقدار رحمته وحكمته ، ولعمرى ليس يحبّ الله أحد من الناس حبا حقيقيا إلا من درسوا أمثال مانكتبه الآن ، فالرحمة والحكمة لاحدّ لها ، واذا نظرنا نظرا أرق وقلنا إن نفس هذه المادّة وأوراقها وأشجارها وحيوانها كلها ليست موجودة بالفعل وماهى هذه إلاحركات انقلبت ضوءا ، وهذا الضوء كهر بأى متحرّك سالبه حول موجبه آلاف آلاف فى الثانية الواحدة : وباختلاف الحركات والأحوال اختلفت المظاهر كما هو رأى علماء عصرنا الحاضر .

أقول : اذا نظرنا هذه النظرة أدركنا معنى : « الله نورالسموات والأرض » وأدركنا « والله خلقكم وماتعملون » وأنه هوالمتجلى فى كل عمل دقّ أوجلّ « ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ومايعزب عن ربك من مثقال ذرّة فى الأرض ولافى السماء ولاأصغر من ذلك ولاأكبر إلا فى كتاب مبين » .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : هذا المقال جيل ، ولكنه ليس أمرا جديدا فى هذا التفسير ، فهوكله على هذا النمط ، ولكن هذا الاسلوب شيق يهيج القلوب ويحركها إلى المعالى ، وعندى سؤال : وهوأنك فى هذا المقال أبنت الرحمة العامّة ، وحلّ هذا الموضوع يناسب ذكر الصور المتقدمة ، أنت ابتدأت الكلام بذكر ما شاهدته من الرجل الذى يرعى العنز ، وأنك استنتجت من منظر العنز وألوانها أمرين : الأمر الأوّل علم الأخلاق ، الأمر الثانى علم السياسة ، وأن انكشاف عضو التناسل فى أنثى المعز جاء لحكمة ، وهى أن الحيوان عنده غريزة تحفظه من التمادى فى شهوة الوقاع ، وأن الانسان حرّ يتصرّف كما يشاء ، فهو أبدا يعوزه المذكرات العقلية والدينية ومزعجات الأيام والليالى حتى يرجع من تلقاء نفسه بتلك المذكرات فيعرج بهذه القوّة التى اكتسبها من المران على حفظ شهوته إلى الحكمة والعلم اللذين خلق فى الأرض لهما ، ويظهر من كلامك أن أهل الأرض جيعا لافائدة تامّة لهم إلا لطائفة خاصة وهم الحكماء ، وبقية الناس همج الهمج فان هؤلاء الذين ظنوا الشهوات من المطعم والمشرب ، أوغلبة الأعداء هى المقصودة من الحياة — جاهلون أغبياء إلا من تاب وعرف وقرأ الحكمة .

فهذا هوالذى ذكرته أنت فى مقدّمة هذا المقال ، ورسمت بعده صورالحيوانات ، وأبنت الحيوانات ذوات الخلية الواحدة الأربعة وهى : [الاميبه] و [هدبيه] و [سوطيه] و [جرثوميه] ثم الحيوانات ذوات الخلايا التى لافقرات لها مثل : [الاسفنجية] و [الاخطبوطية] و [النجمية] إلى آخر الأقسام الثمانية المتقدمة

فهذا

فهذا هو الذى ذكرته أوّلا ، فهل الكلام على رحمة الله بعدها مناسب لها كل المناسبة ؟ هذا ما أريد سؤالك عنه ؟ فقلت حياك الله : إن الرحمة التى ذكرتها بعد انتهاء هذه الصور الحيوانية إنما نقلتها على سبيل التمثيل للرحمة بمثال سهل مقبول ، ورحمة الله تعالى لنا بتلك الحيوانات رحمة شريفة عالية ، إن الرحمة على قسمين : رحمة الأم ، ورحمة الأب ، أما رحمة الأم فانها يقلّ فيها التفطن والتفكر والتأديب ، أما رحمة الأب فهى الكاملة ، لأن الأب واسع النظر حكيم يريد للولد مستقبله ، أما الأم فهى تريد الأحوال الجزئية والمنافع السطحية .

فهذا المثل الذى ضربته هنا بخلية الورقة جاء فى الرحمة المشبهة رحمة الأم ، فأما هذه الحيوانات ومافيها من الأعضاء والمنافع فانها كرحمة الأب التى تشتمل على التأديب والزجر كما تشتمل على تغذية البدن بأنواع الغذاء . قال : فبين لى هذا المقام على شريطة أن تكون الأمثلة من نفس تلك الحيوانات المصوّرة فيما تقدّم . فقلت : اللهم انا خلقنا فى هذه الأرض فرأينا أسلوبا واحدا متبعا فى حياتنا ، فكما أن الشهوات للغذاء وللتناسل حفظتها بالغرائز فى الحيوان وهذبتها فى الانسان (الذى أعطى الحرّية فى التصرّف) بالمنذرات والعبر والعلوم والمعارف ، وجعلت عقولنا هى المسيطرات على قوانا المخلوقة فينا . وغرائز الحيوان لاحاجة معها إلى عقل كبير ، ثم اننا نظرنا حولنا يا ربنا فرأينا أغذية نتعاطاها وفيها الضارّ والنافع ، فقامت عقولنا بما تعرفه من التجارب والعلم ، فاختارت منها ماينفعنا ونبذت مايضرّنا ، وهكذا رأينا ماء ينزل من السماء ويسيح على الأرض ، فألهمت عقولنا أن تحفر له الأنهار وتقيم له السدود لتحفظه فيسقى زرعنا كما أقامت هذه العقول موانع وحواجز حجزت شهواتنا عن التوغل والاسراف لحفظ حياتنا .

ثم إن هذه العقول أنفسها بها نظمنا دولنا ، فنحن فى هذا كله أرقى من الحيوان ، لأن الحيوان نظم دوله بغرائزه ، أما نحن فقد أحكمنا عقولنا فتصرّفت فى شهواتنا بخلاف التيس مع العنزات فى المشاهدة التى ذكرتها سابقا ، فالمانع له غريزته ، وتصرّفت أيضا فى نظام طعامنا وشرابنا ، وسقى زرعنا ، واقامة دولنا ، والغريزة عندنا لاحكم لها هنا وانما الحكم لعقولنا ، وبهذه العقول قويت اراداتنا ، وعملنا باختيارنا لا بغرائزنا . أما الحيوان فهو مسوق لاسائق ، ومقود لاقائد ، فاذا رأينا حيوان الملاريا يدخل الكرات الدموية الحمراء ويهلك مافيها ويميتها ، وبهذا العمل ترتفع درجة الحرارة فى فترات منتظمات كل يومين أوثلاثة على حسب نوع الملاريا ، ثم تستمرّ هذه النوبات بضع أسابيع حتى يضعف المصاب بها (وهذا الحيوان دقيق الجسم جدا من الحيوانات الجرثومية ذوات الخلية الواحدة وهو يتكاثر ، ثم يساعده فى الانتقال إلى جسم انسان آخر ليجعل له مستعمرة هناك حشرة الناموس المعروفة تمتصه الاناث منها وتذهب به إلى انسان آخر فتمتص دمه وتبقى بجسمه ذلك الحيوان الفتاك فيتكاثر فيه) .

أقول : اذا رأينا حيوان الملاريا هكذا فلم يخرج ذلك عن إعطائنا الحرّية والعلم وعن أنه مهماز يسوقنا إلى العمل ، ولولا ذلك لكان الكسل ولكان الموت .

الله أكبر : أىّ فارقة بين شهواتنا التى أطلقت لنا الحرّية فيها (بخلاف الحيوان ذى الغريزة) وبين خلق هذه الحيوانات لنا ، الحيوانات هى المساعدات لنا ، كما أن الشهوات لولاها لم نعش ، فالمخلوقات الخارجية مساعدات لنا ، والقوى الباطنية فينا كشهوة الغذاء والوقاع لاحياة لنا بدونها ولابقاء ، وقد أطلقت لنا الحرّية فى شهواتنا وبالمحافظة عليها يتمّ لنا نظام الحياة ، وبعدم المحافظة عليها والاسراف يكون شقاء الحياة فالنتيجة من ذلك تدريبنا على حكم أنفسنا وأن نتولى نحن بأنفسنا العمل لها بخلاف الحيوان ، فهل نحن اذا رأينا [حمى الملاريا] تقتل آلافا منا (كما أن حشرة النمل ودودة الحرير وأنواع الجاموس والبقر والخيل جالبات الخير والسعادة لنا) قد خرجنا عن المثال السابق . كلا . فلوأننا أعطينا العسل والحرير والصوف واللحم

واللبن من الحيوان ، ثم لم يصاحب هذه النعم ضدها لكنا أغبياء كسالى ، بل كنا حيوانات أقل من الانسان لأننا قلنا فى مثال الغزات ان الفارق بيننا و بين الحيوان المحافظة بأنفسنا على قوانا وعلى نعمنا حتى نستأهل للارتقاء إلى عالم فوق هذا ، إذن الله عزّوجل يكلمنا دائما ليلا ونهارا بكلام بلا حرف ولاصوت ، يقول : ياعبادى اعقلوا عنى هذه قوا كم فيها الخير وفيها الشرّ فاحترسوا ، وهذا الماء وهذا الهواء وهذا الحيوان فيها كلها الخير والشرّ فاحترسوا ، وعملى هذا بعلم أشبه لكم بعمل الأب لابنه منكم « ولله المثل الأعلى » فهو يأخذه فى دكانه ، أوفى حقله ، أوفى محل تجارته ، و يترك له الحرّية حتى يخطىء و يصلح خطأه بعقله و بنفسه ، ولكنه عادة فى بعض بلاد الشرق لايعلم ابنته هذا التعليم ، لأنها فى نظره غير أهل لتلك النعمة ، نعمة الرجال الذين يفكرون بأنفسهم لأنهم خلقوا للاستقلال ، ولوأنى لم أخلق من الحيوان إلا مانفعكم ، ولم أخلق لكم أنواع الملاريا التى تتربى فى دمائكم ، ويحملها الناموس من واحد إلى آخر منكم لكنتم فى مرتبة صغيرة حيوانية جاهلة .

بهذا تفهمون أيها الناس قولى : « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ماابتلاه فقدرعليه رزقه فيقول ربى أهانن ، كلا بل لاتكرمون اليتيم ولاتحاضون على طعام المسكين » .

أيها الناس : إن المدار على عملكم أنتم لاعلى العطايا والمواهب وحدها ، وأعظم عطائى ونعمى علمكم وعملكم ، لهذا خلقتم فى الدنيا ، وعلمكم وعملكم لايتمان إلا بالمتضادّين ، ولذلك قلت : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففرّوا إلى الله » فهاأنا ذا هنا خلقت لكم الضارّ والنافع فى قوا كم الشهوية والغضبية ، فالاعتدال نافع ، والاسراف ضارّ ، وخلقت الضارّ والنافع فى الهواء وفى الماء وفى الحيوان ، وتركت لكم الحرّية فلتختاروا ماتشاءون لأنكم إلىّ راجعون ، وهل يرجع إلىّ ويكون عندى فى مقعد صدق وأما الملك المقتدر أحد إلا اذا تخلق بالصفات الشريفة من العلم والعمل ، وكل من ازداد علما وأحسن عملا فى صناعة أوأىّ عمل كان قريبا منى بقدرمنفعته للناس واتقانه لصناعته .

ياعبادى : هاهوذا عملى معكم ، خلقت فيكم حيوان الملاريا ، وماهو إلا كلمات يعقلها الموفقون ، وهذا القول مجسم بخلاف أقوالكم فهى أصوات والأصوات يفهمها العلماء والجهلاء ، والكلام المجسم لايعقله إلا الحكماء ، فهؤلاء هم الذين أفهمهم أنا كلماتى المجسمة فيفهمونها و يعلمونها للناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهؤلاء الحكماء هم الذين يقولون لكم عنى و يبلغونكم أننى أنزلت هذه الحيوانات الخلوية الدقيقة ، وخلقت دودة [البلهارسيا] وقلت لها : أيتها الدودة عيشى فى أكباد بنى آدم ، وكلى واشربى من دمائهم ، واحدثى ضعفا فيهم ، ثم انزلى فى المجارى البولية فيكون النزيف الدموى ، أوانزلى فى المستقيم ، واحدثى نزيفا دمويا فى البراز ، فيكون هناك صعوبة وآلام فى أثناء قضاء الحاجة ، فاذا نزل بيضك بهذه الصفة ووقع فى نهر فانى أجعله يفقس هناك وتخرج الذرّية على مثالك فألهمها أن تعمد إلى القواقع التى خلقتها هناك فتدخل فيها بعد أن تثقبها وتعيش فيها ، ثم تخرج الذرّية فتعوم فى الماء ٤٨ ساعة ، فان لم تجد انسانا تعيش فى جسمه ماتت ، فان رأته فهنالك تكون سعادة ذرّيتك فتثقب جلده وتتجه إلى كبده كما اتجهت إلى كبد القوقعة أوّلا ، ودخولها جسم الانسان إما بالاستحمام أوالشرب أوالاغتسال بالماء الملوّث بها ، ذلك هو عمل دودة البلهارسيا ، ومثلها الدودة الشريطية التى تعيش فى بعض الحيوان ، وتصيب من لم يطبخه طبخا جيدا إن لم يكشف عليه كشفا صحيا الطبيب العام فى البلاد ، وهكذا دودة الانكاستوما و بقية الحشرات السابقات كالقمل والعقارب وما أشبهها ، فكل هذه أيها الناس كلماتى المجسمة أنزلتها عليكم وقلت لها : لاتدّخرى وسعا فى الحاق الأذى والمكروه بالأمم فى الأرض و بالأفراد ، فان أجمعوا أمرهم بينهم على قتالكنّ وازالتكنّ من الأرض ، وانتهوا بأنهم صاروا متضامنين جميعا فى الشرق والغرب فذلك هو الذى أريد سوقهم

اليه

إليـه بهذه الزرايا والذوائب بحيث تنتقل العـدوى من بلد إلى بلد ، ولافرق بين البلدان فى هذه الزرايا .
فياأيتها المخلوقات المؤذية لبنى آدم استمرّى فى عملك ولاتفرّقى بين أهل الديانات والممالك ، وافتكى بهم فتكا ذريعا حتى يعلموا أنهـم خلقوا أمة واحدة تتعاون ، وهناك تـكونين قد أدّيت مهمتـك الشريفة فى هذه الأرض .

هذا ما يقوله الحكماء لأهل لأرض فى هذا الزمان ليدلوهم على المحبة والمودة ، وتعميم السلام العام ، والحمد لله رب العالمين . كتب ليلة السبت ١٨ يناير سنة ١٩٣٠ م قبيل الفجر .

زيادة إيضاح قوله تعالى : ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون

كتب ليلة الثلاثاء قبيل الفجر يوم ٢١ يناير سنة ١٩٣٠ م

بعـد أن كتبت ما تقدم ملخصا من ذلك الـكتاب أخذت أطالع ماجاء فى أحوال الديدان الحلقية التى منها دودة الأرض التى تقدم رسمها ووصفها فى [سورة فصلت] وأنها تـكون سببا فى خصب الأرض الخ ومنها العلق الطبى ، فـاذا رأيت ؟ رأيت أن الأمم المستعمرة اذا منعت الناس عن العـلم والحـكمة ودراسة أمثال هـذه العجائب فانها بهذا تفوز وتملك البلاد ، ولماذا تملـكها ؟ تملكها لأن الناس بلاعلم بأمثال هذه العجائب يكونون أشبه بالبهائم فيسهل التسلط عليهم و إذلالهم وتسخيرهم كما تسخر الدواب .

ولما وصلت إلى هذا المقام . قال صاحبى بعد ماقرأ هذا : هاأنت ذا رجعت إلى الذم والتقريع فعلام هذا اللوم ؟ أعلى دودة فى الأرض منبوذة لاعلاقة لها بالدنيا ولابالدين ، فهل يكون المسلمون وقد جهلوا هـذا الدود قد استعدّوا لاذلال الأمم لهم ، إن هذا منك مبالغة ، ثم لماذا أعدت القول فى هذه الدودة وحدها ، وهل الجهل بها و بأمثالها هو الذى مكن الانجليز من بلادكم فيما مضى ؟ فقلت : اعلم ياصاح : إن الجاهـل أعمى ، والأعمى يستحق قائدا يقوده ، لقد كنت فى حقل وأمامى ساقيـة قد دار فيها ثور ، وكان على عينه غطاء فانكشف الغطاء فوقف الثور ، فلما أن أعيد إليه الغطاء جرى كما كان ودارت الساقيـة ، وما أشبه الأمم الاسلامية وقد غطيت بصائرها عن نظر العجائب الـكونية إلا بهذا الثور الذى كان أمامى لما غطيت عيناه ، وأنا لا أشبهها وقد أزيل هذا الغطاء عن بصائرها بالفهم والعلم إلا بنفس هذا النور اذ أزيل عن عينيه الغطاء فوقف عن السير .

فقال صاحبى : هـذا لم يزد عن أنه من ضرب الأمثال . فقلت : ياصاح إن للقول بقية ، لقد أدهشنى وصف دودة الأرض المتقدّمة فى [سورة فصلت] بل أذهل عقلى أىّ اذهال من فرط التعجب وزادني يقيني بأن هذه الدنيا جنة خلقنا فيها وحجبنا عن بساتينها وحدائقها وأزهارها وأثمارها ، نحن معذبون فى الدنيا لشدة جهالتنا فاذا علمنا فنحن من المقربين ، دود منبوذ فى الأرض يكون سببا لاسعادنا وامدادنا بالخبز والفاكهة والتـين والرمان والحب والعصف والريحان ، دود منبوذ يكون سببا لتغذية العلماء والحكماء والأنبياء ، دود منبوذ يقوم بحرث الأرض وتسميدها والناس لايعلمون ، دود منبوذ يفتت القطع الأرضية فيدخل الهواء فيها فيحسن الزرع فتـكون سعادة الحياة ، يخجلنى والله أن نعيش فى الأرض ونحن غافلون .

أما أنا فانى أحمدك يارب على نعمة العلم ، وأنا أعلم أن من الناس من يقرءون ماذكرته فيها ولا يعجبون وأكثر علماء النبات والحيوان يعرفون أضعاف مافى هذا الـكتاب وهم غافلون ، فهـم يرون الجمال وكأنه لاجمال ، ويرون الحسن والاحسان وكأنه لاحسن ولااحسان ، أكثرهم عمى وقد رأوا الغادات الحسان ، صم وقد سمعوا أجمل النغمات ، وليس هذا عجيبا فقد نرى الحسان ونسمع أبهج النغمات . وقد اعترانا فى

النفوس موانع وهموم ، فلانهتز طربا ولانهتاج شوقا وغراما ، هكذا أغلب نوع هذا الانسان ، انى لما قرأت ماستسمعه تذكرت أن هذه العوالم التى نعيش فيها إنما هى شموس فى مجرّات والمجرّات كثيرات ، ووراءها السدم ، ووراء السدم سدم وهكذا إلى مالانهاية له كما هومقرّر فى علوم الفلك اليوم ، وهذا هو الذى يغذى نفوسنا ، إن نفوسنا تودّ أن تزيد علما ، ولوكان للعلم نهاية لكان ذلك عذابا لنفوسنا إذن العلم غذاؤها فان انتهى العلم نفد الغذاء .

قد كنا أيام الصبا وزمن المراهقة نحمل الشص [الصناره] لنصطاد السمك ، ونبحث فى الطين المستخرج دود الأرض (قد تقدم رسمه والكلام عليه فى سورة فصلت فراجعه هناك إن شئت) لنضعه فيها فيأكله السمك فيعلق بالشص فنصطاده فنأكله ، فهذه علومنا ونحن صغار بالنسبة لهذه الدودة ، والفلاحون وجميع المسلمين غالبا لايزيدون علما بهذا عن الأطفال .

أقول : فهل كان يدور بخلدى وأنا مراهق ، أويدور بخلد أكثر عامّة المسلمين وعلمائهم أن الفدان الواحد فيه ٥٣ ألف دودة ، وكل هؤلاء إنما هم حراثون يحرثون الأرض ويقدّمون لها سمادا يغطى نصف سنتيمتر من سطح الأرض .

والحقّ أقول : إن الله لما خلق لنا الحيات والعقارب ، وأمثال هذا الدود جعلها فى المحسوسات أشبه بالحكايات الخيالية فى المسموعات ، نسمع حكايات [كليله ودمنه] وما شاكلها من حكايات [ألف ليله وليله] فنظن أننا بها عالمون ، ومتى عقلنا وعلمنا أدركنا أنها أعظم قدرا مما كنا نظنّ ، الجهال والأطفال يسمعون حكاية الحمامة المطوّقة ، وقد اجتمعت مع صواحبها فى ذلك الكتاب ، وقد أجمعن أمرهنّ وتخلصن من الشبكة بمساعدة حيوانات أخرى ، فيظنون أن هذه حقائق وأنهم بها عالمون ، و يقصونها على غيرهم وهم لايعقلون ولكن الحكماء والعلماء يستنتجون منها النتائج وهم يفكرون ، هكذا العقارب لايعرف منها الناس إلا أنها مؤذية ، وقد علمت فيما تقدم فى غير هذا المكان أنها آكلات لحشرات ضارّات بأمتعتنا ، وهكذا الحيات لايعرف الناس إلا أنها سامات ، ولكنهم فى الوقت نفسه يرون رجلا وهوالمشعوذ الذى يسمونه [الحاوى] تأبط منها كثيرا فلاتلدغه ، وهو قد حل معه الحيات التى لاسمّ لها وهى تملأ الخافقين والناس لايعلمون ، وهكذا دودة الأرض التى كلامنا فيها يراها الناس مزدراة محقورة إذا هى عونهم وغوثهم وحارثهم ومسمد أرضهم .

ياسبحان الله و ياسعدانه ، يقول الله : « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، و بنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا » ، فهذا السراج الوهاج اذا أظهره لنا كان المعاش ، واذا غيبه عنا كان اللباس ، ولكن هذه الدودة التى نحن بصددها ، ومثلها النمور والاسود والفهود وجميع السباع كالذئاب قد عكس الأمر عليها ، فالليل معاشها والنهار لباسها فالسبع الشداد يار بنا جعلت فيها سراجك الوهاج فأنقت به طائفة وأنمت أخرى اذا أضاء واذا أظلم ، فاذا أضاء أمرت أنواع العصافير مثل أبى ذيل أبيض وأبى ذيل أحمر وأبى رقبة بيضاء ، ومثل المغنى فى الصفصاف ، ومثل المغنى الأصفر والمغنى الأحمر وأبى ذيل طويل وأبى فصاده وأبى زور أحمر وآكل الذباب والقنبرة الافرنجية والوروار بأنواعه والهدهد والعنز وأبى قردان والكروان والزقزاق المطوّق ، والزقزاق الشامى ، والزقزاق البلدى مما شرحته هناك فى أوّل سورة يوسف ، فهؤلاء أنت يا ألله تأمرهم اذا أطلعت شمسك أن يأكلن الحشرات الآكلات لزرعنا ، ويحفظن بلادنا ، ويكنّ عونا على حياتنا وحيواننا كما أن الليل اذا جنّ تبعث دود الأرض فيطوف حقولنا و يلتقط الورق منها و يعيش فى هناء وسعادة ، و يغيب فى جوفها اذا طلع النهار ، فالليل والنهار آيتان مدهشتان فلاندرى أيهما نفضل وقد عرفنا

حمدا

بهذا العلم أن المانوية كاذبون إذ يقولون بإلهين : إله الخير ، وإله الشر ، وأن إله الشر هو الذى خلق الليل فهاهوذا الليل فيه يتمتع الدود النافع لمزارعنا المنمى لحاصلاتنا .

تباركت يا ألله وتعاليت ، وأريتنا رحمتك الواسعة ، وعرفتنا أننا غافلون جاهلون ، ندرس القليل ، ونجهل الكثير ، وأصبحت اليوم أقول : لوأنني درست بعد موتى جميع المجرات وجميع السدم التى كشفت حديثا ، واطلعت على جميع سكانها ، وخبرت بواطن أحوالهم ، وأسرار حياتهم لقلت انى لا أزال كما أنا الآن أيضا أجهل الكثير كما جهل اليوم عموم المسلمين إلا النادرمنهم عجائب دودة الأرض التى ذكرناها ، ومنافع الطيور التى بيناها ، واحساسنا بالجهل يحثنا على العلم ، والعلم غذاء أرواحنا ، فلنكن باحثين فى الدنيا انرقى الأمم ، وذلك يجعلنا من المجدين فى العلم بعد الموت لتتغذى به أرواحنا ، وكلما ازددنا علما قربنا من ربنا ، وربنا هوالجيل الحكيم الذى منه ينزل كل جمال وكل حكمة .

ألافليسمع المسلمون أنى أكتب هذا وأنا أحس بسعادة تفوق كل سعادة أرضية ، ولقد جربت كما جربت جميع الحيوانات والناس أنواع السعادات واللذات فوجدت اللذة العلمية طورا لاصلة بينه و بين تلك الأطوار ، إن ارتباط الشمس وضوئها ، ودود الأرض وحشراتها ، ومزارعها وطيورها ، وآكلها ومأكولها أشبه برواية تفوق كل الروايات ، إن الناس فى أحوالهم العادية يذهبون إلى محال الصور المتحركة ودور التمثيل التى تمثل فيها الروايات الغرامية و يفرحون بذلك العلم و يقرءون الروايات فى [ألف ليله وليله] وهم فرحون بتلك الصورالخيالية ، إن سعادة الناس بالعلم تابعة لمقداره ، فهى فى الخياليات خيالية ، وفى الحقائق حقيقية ، وهل يستوى الرجلان : رجل عرف هذه الحقائق فرأى تمثيلا حقيقيا ، وامتزجت فى نفسه مشرقات الكواكب ، ومنيرات الشموس مع الطيور والعلق والدود ، وانكشف لنفسه بدائع المناظر العجيبة ، يرى ستارا ينزل فيكون الظلام ، فهناك تمثل الروايات الليلية التى أسلفناها ، فاذا أشرقت الغزالة أسدلت الستار على مناظر الليل فغابت تلك المناظر الكوكبية فى دياجى الظلمات ، وهجعت الطيور الليلية والبوم فى أعشاشها ، والاسود فى آجامها ، ودود الأرض فى باطنها ، وأخذت الشمس تظهر الألوان ، والبحار والأشجار ، والمسالك والممالك .

وسيكون من قرّاء هذا التفسير من تكون الأرض لهم جنات ونعيم وان شاركوا الناس فى أتراحهم وأفراحهم ، ولكنهم يرون فى نفوسهم مالايراه الأكثرون ، وهؤلاء اذا أخذوا يصلون وهم يسلمون على أنفسهم فى التشهد ، وعلى عباد الله الصالحين وعلى الأنبياء والمرسلين ، إذ يقولون : السلام عليك أيها النبي الخ يفهمون معانى تشبه ماذكرناه الآن ، إذ هم بعد أن درسوا الوجود على هذه الشريطة وأدركوا أنه عالم جميل وبديع ومتسق ، و بين أعلاه وأدناه نسب بديعة بحيث يرون الرباط محكما بين دودة الأرض وعلقها ، و بين الطيور والنبات والانسان والشمس ، هكذا هنا يرون المناسبة والرباط بين المصلى و بين عباد الله الصالحين والأنبياء والمرسلين . وأن هذا الوجود مبنى على هذا ، فالصلاة نوع من العلم والتذكرة ، فالمسلم يذكر نبيه صلى الله عليه وسلم وجميع الصالحين من الأمم القديمة والحديثة والآتية بعدنا ليعلم من الآن أن ربنا سيجمع جميع الصالحين على مقتضى درجاتهم بعد مفارقة الأجسام أوّلا و بعد الحشر ، فهو من الآن يتعرّف بهم ، ومنهم الملائكة الذين يذكرون فى جميع الديانات ، فالصلاة تذكرة حتى اذا فارقنا أجسامنا وقابلنا الأرواح من جميع الأمم ومن الملائكة لم تكن فى حال شديدة الغرابة علينا ، والعلم الآن يساعدنا على الرقى هناك ، لأن عالمنا الحسى قدضرب مثلا للعالم الروحى ، فهنا رباط وثيق عجيب بين أخس الأشياء وأرفعها ، وهناك نفس هذا الرباط بين الأخس والأرفع ، وترى أضعف المؤمنين يقول : « السلام عليك أيها النبى » كما ترى دود الأرض بين ظهرانينا ذا علاقة بالشمس إذ يطلع ليلا فيأكل الورق ، والورق مانما إلابسبب ضوء الشمس الذى أشرق

عليه فامتص الكربون من الهواء ، ولولا ذلك الضوء مع [الكلوروفل] ملوّن الورق لم يكن ذلك الامتصاص فلم يكن نبات ، ولم تكن دودة تمثل فى دياجى الظلمات فى مسرح الوجود هذه الفصول التى شرحناها . فأعلى الأرواح له صلات بأدناها كما أن للشمس صلة بأدنى الحيوان وهو دود الأرض ، وهذا كله ظاهر فى التشهد فى صلاتنا الاسلامية .

ولاجرم أن هذه المعارف التى شرحت فى هذا المقام تجعل نفوسنا مشوقة إلى إسعاد جميع الناس ، لأننا اذا عرفنا أن للشمس صلة بالدودة أفلا يكون لنا صلة بنوع الانسان ، فياحسرة على الأمم الاسلامية الحالية ، اللهم انك أنت تعلم أن الجهل فرّقهم ، والبدع طمست على بصائر الكثيرين منهم ، ولكن آن أوان ارتقائهم واسعاد أممهم ، والله هو الولىّ الحميد ، والحمد لله رب العالمين . كتب فى ضحى يوم الثلاثاء ٢١ يناير سنة ١٩٣٠

مسامرة بينى وبين أحد العلماء الفضلاء

فى آيات : « وفى السماء رزقكم وماتوعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » مع آية : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففرّوا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين »

حضر صاحبى العالم الذى اعتاد الحديث معى فى هذا التفسير يوم الاثنين صباحا ١٤ من شهر المحرّم الحرام سنة ١٣٥١ هـ — ٣٠ مايو سنة ١٩٣٢ م فأخذ يجاذبنى أطراف الحديث فى هذه الآيات ، ومما قاله لى :

لقد رأيتك فى آيات القرآن المتشابهة المعانى بحسب ظواهرها تذكر فى كل منها من المعانى ما ليس فى غيرها فيكون ذلك مسرّة وتذكرة للناس ، وعبرة للمعتبرين ، ونشاطا للقارئين ، فماذا تقول فى قوله تعالى هنا : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » وماهذا الفرار الى الله الذى ذكر عقبها ، وماهذا الانذار ؟ فقلت : لقد تقدم الكلام على الذكور والاناث من أنواع النبات فى سورة الأنعام ، وفى سورة طه ، وفى سورة [الشعراء] وغيرها . فقال : ولكنى فى سؤالى لك قد صرّحت بأنك دائما تنوّع الكلام فى الآيات المتشابهات ، نعم قد تقدم فى [سورة الأنعام] أن علماء النبات لم يجدوا طريقا لتقسيمه إلا بتشريح الزهر، وتبيان ذكرانه من اناثه ، ولكن المقام يعوزه إيضاح أتمّ . فقلت : لقد اطلعت على ماذكره [بول بيرت] العالم الطبيعى الفرنسى ، وهو أستاذ فى [السربون] ووزير المعارف العمومية فى كتابه المترجم إلى اللغة الانجليزية . قال فى صفحة ٩٨ ماترجمته :

« سأشرع فى الكلام الآن على تقسيم النبات إلى فصائله ، ولكن هذا ربما كان أشد تعقيدا وأكثر صعوبة من تقسيم الحيوان ، ألاترى رعاك الله أن فصائل الحيوان وأنواعه يمتاز بعضها عن بعض بسهولة ، ولا كذلك النبات ، فان أنواعه وفصائله متشابهة ، إن الناس يعرفون بكل سهولة الفرق بين الحشرات والطيور ، بل يعرفون أيضا الفرق بين الذباب وحشرة أبى دقيق اللذين هما من نوع الحشرات ، ولكنهم لايتسنى لهم بسهولة أن يرسموا خطوطا فاصلة مابين فصائل المملكة النباتية وأنواعها ، إن ذلك على الناس عسير » .

ثم نادى أحد التلاميذ قائلا : [يابول] لوأننى كلفتك بأن تقسم النبات إلى فصائل فماذا أنت صانع ؟

(ج) كيف يصعب ياسيدى هذا ؟ انه لأمر سهل ، أنا أقسمه إلى ثلاثة أنواع : شجرات ، وشجيرات وأنجم : أى وهو مالاساق له : كالقمح ، والذرة ، والشعير .

(س) حسن ، إن هذا الرأى يغلب على كثير من المفكرين ، ولكن انظر : هل تعرف كم من العقبات

فى طريق تقسيمك هـذا ، وكم من المتشابهات فيه التى تورث العقول حيرة وارتباكا ، وتضيع الزمن على المفكرين ، فأرجو أن تبين لى الحدود الفاصلة بين هذه الأنواع الثلاثة ، نخبرنى إلى أىّ مدى تنتهى أصناف الشجيرات ؟ ومن أين تبتدئ الأشجار ؟ ومتى نطلق على النبات أنه شجيرة بدل أن نطلق عليه أنه نجم ، خبرنى يابنىّ : أنبات البندق من الشجرات أم من الشجيرات ؟ وهـل مايقال له (دفوز) باللغة الانجليزية (وهو نبات شوكى دائما أخضر وله زهر أصفر) أمن الشجيرات هو أم من الأنجم ؟ اللهم ان الفاصل بين هذه الأنواع والفصائل عسير غير يسير . ثم أشار إلى تلميذ آخر فقال :

(س) ما الذى تقوله ياجورج ؟

(ج) ياسيدى أنا أقسم النبات إلى نبات سنوى ، وإلى نبات ذى سنتين ، وإلى نبات ذى سنين كثيرة بسبب جذوره فقط ، وإلى نبات ذى سنين كثيرة حقيقية .

(س) هذه فكرة أجل وأتمّ ، ولكن يردعليها اعتراض ، فانظروا : أليست مظاهر المراعى تشابه مظاهر مزارع الحبوب ، ولكن الحب سنوى أما الحشائش فانها تعيش سنين فى الأرض ، إن الحشائش والحب إذن يدخلان تحت نوعين مختلفين من أنواع النبات ، فهما من جهة ذوات حب ، ومن جهة أخرى هذا سنوىّ وهذا ذوسنين كثيرة ، بل هناك ماهو فوق ذلك ، فهذا نبات [الشوفان] وقد تقدم الكلام عليه فى هذا التفسير ، فهذا اذا زرعناه صار سنويا ، ولكنه اذا نبت بنفسه بدون زرع كالذى ينبت فى جوانب الطرق فانه يعيش سنين كثيرة . وأيضا ههنا نوعان من نبات ترجمته بالانجليزية [كأس الزبدة] .

هاأنا ذا وضعت مااختلف منه بعضه بجانب بعض ، فهاهوذا بعضه سنوىّ والآخر ذوسنين كثيرة و يعسر إزالته من الأرض واهلاكه ، إذن هذا غير موفى التقسيم حقه ، ولاقائم بما توخيناه .

أهمية الزهر في تحقيق تقسيم النبات

ههنا أخذ المؤلف يشرح هـذا التقسيم النباتى بواسطة درس الزهرة النباتية . جلّ الله . جلّ الله . ياعجبا ياربنا ! يعيش الناس فى الدنيا و يموتون و ينظرون ياربنا جمال زهرك ، و يشمون روائحه ، و يتهادونه و يفرحون و يمرحون ، وهم ساهون لاهون .

ياسبحان الله : فى الأرض أزهار ، وفى السماء شموس وأقمار ونجوم وسدم ومجرّات ، هناك المجموعة الشمسية ، فالشمس تحيط بها السيارات ، ولها أبعاد خاصة لولاها لاختلّ النظام وتقدم موضحا فى هذا التفسير

الله أكبر : منه الجمال وهو مفيضه على الأرض وعلى الناس ، العوالم التى نعيش فيها كتاب مفتوح لايقفل ، صفحة منه تظهر لنا نهارا ، وأخرى تظهر ليلا ، فصفحة النهار تظهر بواسطة ضوء الشمس ، وصفحة الليل تظهر بواسطة النجوم ، فهذه النجوم بينها و بين زهر النبات مناسبة ، وأىّ مناسبة هذه ؟ انها لمشابهة قوية ، ألم تر أن الزهرة الواحدة فيها أوراق خضر يسمونها الكأس ، وفى داخلها أوراق ملوّنة يسمونها [تويج] وفى داخل هذه أعضاء الذكور التى فيها اللقح ، ووراء هذه أعضاء الاناث التى تتلق هذا الطلع ، و ينزل فيها إلى محل النموّ مايشبه الجنين فى الحيوان فيكون الحب أوالثمر ، وفى داخل الثمر يكون النوى ، فههنا مملكة ، ولكن الاحكام والابداع فيها يدهش العقول العظيمة كما يدهشها نظام المجرّات ونظام المجموعة الشمسية ، إذ يرى الانسان السيارات جاريات بنظام حول الشمس ، وهنّ يرسلن الأشعة لمنفعة أهل الأرض هكذا هذه الزهرة الصغيرة منظمة محكمة مبدعة ، وهذا الابداع كله لأجل حصول الثمرات النافعات للانسان والحيوان ، وأعظم مساعد على تغذية النبات ضوء الشمس الآتى إلينا من بعد شاسع جدّا يبلغ بسير قلة المدفع

١٢ سنة ، و بسير القطار السريع نحو ٣٥٠ سنة ، فضوء الشمس يهجم على الورقات من منافذها فيساعد على التغذية فيكون النمو فالثمرات والحبوب ، و ينتج من الزهرات وثمراتها منافع تناسبها كما ينتج من الشموس والكواكب منافع تناسبها ، وهناك ضوء وجمال ، وهنا بهجة وجمال ، فصحيفة الليل بهجة جميلة ، وصحيفة النهار بديعة بهية .

رباه : هذا كتابك الذى صنعته أنت ، وأريته لنا ، وقلت انظروا فنظرنا فأدهشنا صنعك . تقول لنا : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » تذكرنا فوجدنا أن علماء النبات حاروا فى تقسيم النبات أيقسم بأنه شجر وشجيرات وأنجم . وسترى صورهذه الزهرات الثلاث فى سورة النبأ إن شاء الله .

ولكن هذا التقسيم غيرمجد ولانافع ولامحدد ، أم يقسمونه باعتبار أنه سنوى ، أوذوسنتين ، أوذوسنين كثيرة ، ولكن هذا التقسيم أيضا غير مجد ، لأننا نرى البرسيم فى بلادنا المصرية منه ماهو سنوى وهو البرسيم المعتاد ، ومنه مايبقى سنين كثيرة وهوالبرسيم الحجازى ، وهو الآن مزروع فى حقلنا جهة [المرج] فهذا أمثل به ليتضح لأهل الشرق الأدنى فوق أمثلة المؤلف ، فماذا يصنعون إذن ؟ رجعوا إلى الزهرة والثمرة والحبة ، فدراسة هذه هى التى بها قسم النبات إلى فصائل بحيث تجتمع كل طائفة منه تحت شكل من أشكال الزهرة ، ولاتختلف فيه إلا قليلا ، و بهذا انحل الاشكال عند أهل الأرض ، انحل الاشكال بفعل الله عز وجل فى نظام الزهرة وهو نظام ثابت جميل .

ثبت نظام الكواكب والمجموعة الشمسية و بثباتها انحل اشكال ما على الأرض من سير السفن فى البحار ، لأنها لاتعتمد إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، فثباتها فى السماء وحسن نظامها ، واتساقها فى مسيرها هوالذى على مقتضاه سارت السفن ، السفن فى بحر الظلمات ، وفى بحر الهند وجميع الاوقيانوسات ان لم تهدها النجوم ويلاحظها الربان ضلت سواء السبيل وهلكت ، لولا ثبات النجوم فى السماء لضاعت معالم فن المساحة فى الأرض ، فساحة الأرض الواسعة ووضع حدودها يقتضى ملاحظة الكواكب ، وهذا لايعرفه إلا أكابر علماء المساحة .

لولا ثبات النظام السماوى ونجومه لم يثبت المكيال المصرى مثلا ولاالميزان ولاالمقياس ، ألم تر إلى ماتقدم فى سورة يونس وأن العلم أثبت أن هناك ارتباطا بين مساحات الهرم بالجيزه و بين بعد الشمس ومدارسيرها وأن أبعاد الهرم أساس للأردب والكيلة الخ وللفدان والقيراط الخ وللذراع المعمارى والبلدى الخ وللقنطار والرطل والأوقية الخ . كل هذا موضح فى [سورة يونس] فارجع إليه أيها الذكى إن شئت . هذا فعل الله عز وجل بالكواكب فى أرضنا « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

الزهرات تنوب عن النجوم فى بعض آثارها

انظر إلى الزهرات فى النباتات ، إن كل زهرة أشبه بمجموعة شمسية ، لأن نظامها متزن كما تقدم قريبا . الله أكبر : كأس وتويج وأعضاء ذكور وأعضاء اناث وروائح ومادة عسلية ونحلات وحشرات أخرى تغدو وتروح وهناك يكون الثمر وهناك تكون الحياة ، فالزهرات فى نظامها الدقيق البديع قائمات مقام المجموعات الشمسية بهجة سارة للناظرين . و بهذا الثبات وهذا النظام قسم النبات إلى أنواع وفصائل فالتقسيم هنا تابع لثبات نظام الزهرات كما كانت المكاييل والموازين والمساحات وسير السفن فى البحر تابعات لثبات الكواكب ، وكما كانت الساعات والدقائق ، وحساب الناس فى المعاملات تابعات لسير الشمس الصادق المتقن ، فعلى الاتقان وحسن النظام يكون ثبات الأعمال ، فههنا فى الزهرة ثبت نظام تقسيم النبات لحسن اتقانها بخلاف ظواهر النبات من حيث انه شجرات أوشجيرات ، ومن حيث انه سنوى أوغيره .

جنات النجوم ، وجنات الزهرات ، والجمال أس السعادات ، فلنرجع إلى ماوراء النجوم ليلا ، وإلى ماوراء الزهرات نهارا ، ولننظر بعقولنا فنرى تلك العقول تلمح وراء هذا الجمال من هو أجل وهو الحكيم وهو البديع وهنالك تطمئن وتحس بالسعادة فى الحياة ، ثم ترجع ثانيا هذه النفوس فتدرس أقسام هذه الزهرات فماذا ترى ؟ ترى أن من الزهر ما يكون الذكر والأنثى فى زهرة واحدة كزهرة القطن ، ومنه ما يكون أحدهما فى زهرة والآخر فى زهرة أخرى فى نبات واحد كما يرى فى الذرة ، فالذكر أعلى ، والأنثى فى وسط العود ، ومن الزهرات ما يكون زهرة الذكر فى نبات وزهرة الأنثى فى نبات آخر كالنخل ، وهذا القسم ان تباعدت الديار بحيث صارت الذكور فى اقليم والاناث فى اقليم آخر فلا ثمر لهؤلاء ولا لهؤلاء ، وذلك كشجر الصفصاف فان الصفصاف الذى فى بلاد آسيا كله ذكور ، والصفصاف الذى فى أوروبا كله اناث ، فلا ثمر لهذا ولا لذاك ، فلو اقترب هؤلاء من هؤلاء لكان للصفصاف ثمرات .

ومما يدهشنا أن نرى ذكور الصفصاف فى الشرق دلالة على أن الشرق هو الذى يجب أن يلقح الغرب لأن الغرب يأخذ بالظواهر ، والشرق يبحث عن البواطن ، ولذلك كانت الديانات من الشرق فاستعمرت الغرب ، إذن الشرق لا بد منه لاصلاح عقول الغرب ، وهذه الانسانية لن تستقيم مالم يظهر فى الشرق نابغون يصلحون الأمم ، ذلك مأخوذ من الاشارة التى فهمناها من نظام شجر الصفصاف ، فهو فى الشرق ذكر وفى الغرب أنثى ، وهما الآن عقيمان . الله أكبر : ان نظام الزهر كما قدمنا به كان تقسيم النبات :

الفصيلة الأولى من فصائل النبات

ومن أهم أقسام النبات الفصيلة الخضرية ، سميت بذلك لأن كثيرا من هذه الفصيلة يطبخ لأكله ، ومن هذه الفصيلة : الفول ، واللوبيا ، والبسلة [الجلبان [1]] شجيرة شوكية ذات ورق دائم الخضرة وزهر أصفر ، والعدس ، وشجر السنط ، وشجرة تسمى المكنسة والبرسيم وغيرها ، فهذه النباتات كلها كأسها مكون من خمسة أوراق ، والتويج كذلك ، وفى داخلهما عشرة ذكور : واحد مرتفع إلى أعلى ، وتسعة متحدة عند القاعدة تكون أنبوبة واحدة ، ثم ينتج اللقاح فى آخر الأمر قرونا ، وهذه القرون فى داخلها حب ، وكل حبة فلقتان :

كل نبات إما مخرج ذا فلقة واحدة وإما مخرج ذا فلقتين

الله أكبر : إن جميع النبات ان يخرج عن إحدى حالين . إما أن ينتج ماهو ذو فلقتين ، وإما أن ينتج ماهو ذو فلقة واحدة ، فما كان مخرجا ذا فلقتين فان ساقه تكون مخروطية ، وما كان مخرجا ذا فلقة واحدة فان ساقه تكون اسطوانية ، أليس هذا من العجب ! أليس من العجب أن نرى النخل اسطوانى الشكل بخلاف العدس والفول واللوبيا وكل ما كان ثمره ذا فلقتين ، فليس أعلى عود العدس واللوبيا كأسفله ، وهكذا الشوك والسنط والبرسيم ، فهذه كلها نرى أعلاها أدق من أسفلها ، أما النخل مثلا فأعلاه كأسفله ، لماذا ذلك ؟ لأن النواة فى الثمرة غير منقسمة قسمين كما انقسمت حبة الفول وحبة اللوبيا وقرظ السنط .

أليس هذا أيها الذكى هو السر الذى قدمته من أن جمال الزهر والحب والنوى والفاكهة يشبه الثبات والجمال فى المجموعات الشمسية ، وأن الثبات فى العالم العلوى ظهر أثره فى قطاراتنا وساعاتنا المنظمات وسفننا كما ظهر أثر نبات الحب والفاكهة والزهرات الجميلات فى تنظيم فصائل النبات ، ومن أروعها وأبدعها نظام كل

(١) بضم الجيم وتشديد اللام وفتح الباء .

ساق لكل نبات لأن ذلك النظام يتبع الحبة ، فان كانت ذات فلقتين كان نظام ذلك الساق مخروطيا ، وان كانت ذات فلقة كان نظام ذلك الساق اسطوانيا ؛ نظام فى السماء أنتج نباتا فى الأرض ، ونظام فى الأزهار وما والاها أثبت نظاما فى تركيب النبات .

تذكرة

إن ذكر الفلقة والفلقتين جاء هنا تبعا للكلام على الفصيلة الأولى الخضرية التى يطبخ بعض أفرادها ، فلنرجع الآن إلى فصائل النبات ولنذكر الفصيلة الثانية وهى الفصيلة الوردية ، ويدخل فيها الورد والكمثرى واللوز والكريز والعليق (والفريس) الذى يشبه ثمره ثمر التوت والتفاح والبرقوق وهكذا ، فهذه كلها متشابهات من حيث نظام زهرها ، فالكأس فى الورد البرى خمس والتويج خمس ، فأما أعضاء الذكور فهى كثيرة جدا ، وبقية المذكورات معه ونحوها مثله تماما ، فسميت كلها باسم الفصيلة الوردية ، وهناك فصائل أخرى كالفصيلة الزنبقية الخ .

فهذه الفصائل إنما رتبت ونظمت على مقتضى الأزهار والثمار والحبوب ، وكيف كان الزهر منظم الكأس والتويج وأعضاء التناسل ، وهذا النظام يكون متحدا فى كل فصيلة من فصائل النبات .

الله أكبر : ههنا ههنا ظهر سرّ قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . الله أكبر . الله أكبر بنظام الذكور والاناث فى الأزهار عرف الناس فصائل النبات ، وبنظام الذكور والاناث فى نوع الانسان ألفت أنا «طنطاوى جوهرى كتاب» [أين الانسان] لنظام هذه الأمم الأرضية على مقتضى نظام الله فى وضعه عواطف أصناف الناس واستعدادهم كما أنه وضع بنفسه نظام الذكور والاناث .

الله أكبر : إذن آية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » فيها ثبات نظام النبات ، وثبات نظام الانسان فى السياسة . أما النبات فقد انتظم وعرف ، وأما نظام الجمعية الانسانية ، فانه لايزال فى اختباط واختلاط حتى يظهر فى بلاد الشرق رجال يعلمون أوروبا المتخبطة الجشعة التى يعوزها عقول من الشرق تدبر أمرها فى السياسة كما دبرت أمر الدين ، والله هو الولىّ الحميد .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : حيا الله العلم ، وحيا الله الحكمة ، إن هذا لعجب ! وحكمة ونظام ، كيف تكون آية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » يعوزها نظام الأزهار ، وتقسيم فصائل النبات حتى تفهم ، ويعوزها نظام الأمم وعواطفها وقواها المختلفة ، وكيف حملتنا هذه الآية على أن نسيح فى هذه العوالم فندرسها وكيف كانت هذه الأزهار التى تضمنتها الآية لها ارتباط بالكواكب العليا من حيث ان ضوء الشمس مساعد على نموّ أشجارها فتزهو هى وتثمر ، وكيف نرى الله فى نفس السورة : أى سورة الذاريات يقول : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » ويقول : « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » فهو نفسه كما ربط هذه الأزهار بالعوالم العلوية جعل الكلام على العلويات مرتبطا بالزوجين الذكر والأنثى ، فجعل كلامه كفعله ، فقول الصانع راجع لفعله . ثم قال : وههنا قد عرضت لى تذكرتان :

التذكرة الأولى فى اتجاه العقول الاسلامية قديما

إنى ليدهشنى هذه المفارقة ، فبينما القرآن يوجه العقول إلى النظام الجليل البديع ، وهذا النظام لايعقل إلا بدرس الزهرات وأنواع النبات والجمال البديع فى السموات والأرض اذا بشعراء الاسلام لايتغنون إلا بما يثير الشهوات ، ويظن هؤلاء الغافلون النائمون الجاهلون أنهم سيروّضون عقولهم لبلاغة القرآن فوا أسفاه فهل بلاغة القرآن وصدق القرآن وابداع القرآن لايتمّ إلا بالتغنى بما يثير الشهوات .

أمم

أمم والله نائمة ، هام شيوخها وهام شبانها بما ينيم العقول ويضيع الوقت ، ويرجع بالانسان إلى الحال البهيمية ، فالقرآن فى ناحية والمسلمون فى ناحية .

لقد تقدم فى هذا التفسير عند آية : « والشعراء يتبعهم الغاوون » فى سورة الشعراء كيف حكم العلماء فى أوروبا بأن ضياع بلاد الأندلس إنما نشأ من اكباب العلماء على الشعر وترك العقول فارغة ، والأسبان فى نفس الوقت يفكرون فى تدمير المسلمين .

إن المسلمين فى المستقبل غير هؤلاء السابقين فى القرون المتأخرة ، هم سيكونون كالصدر الأول ويخرج جيل لانظير له ، ويكونون تلاميذ الصحابة والتابعين الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف .

فياليت شعرى : أهذا الذى نراه من الجمال الرائع والابداع فى نظام هذه العوالم الجليلة ، أم مايتغنى به أطفال الرجال ولايتعدّونه فى القرون المتأخرة الاسلامية ، فيقرءون موشحة الوزير أبى عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره إذ يقول :

جادك الغيث إذا الغيث همى ✲ يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما ✲ فى الكرى أوخلسة المختلس
إذ يقود الدهر أسباب المنى ✲ تنقل الخطو على ما ترسم
زمرا بين فرادى وثنى ✲ مثل مايدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا ✲ فسنا الأزهار فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما ✲ كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما ✲ يزدهى منه بأبهى ملبس
فى ليال كتمت سرّ الهوى ✲ بالدجى لولا شموس القدر
مال نجم الكاس فيها وهوى ✲ مستقيم السير سعد الأثر
وطر مافيه من عيب سوى ✲ أنه مرّ كلمح البصر
حين لذ النوم منا أوكما ✲ هجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا أوربما ✲ أثرت فينا عيون النرجس
أىّ شىء لامرئ قد خلصا ✲ فيكون الروض قدكن فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا ✲ أمنت من مكره ماتتقيه
فاذا الماء تناجى والحصا ✲ وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيورا بدما ✲ يكتسى من غيظه مايكتسى
وترى الآس لبيبا فهما ✲ يسرق الدمع بأذنى فرس
يا أهيل الحى من وادى الغضا ✲ وبقلبى مسكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا ✲ لا أبالى شرقه من غربه
وأعيدوا عهد أنس قد مضى ✲ تنقذوا عانيكم من كربه
واتقوا الله واحيوا مغرما ✲ يتلاشى نفسا فى نفس
حبس القلب عليكم كرما ✲ أفترضون خراب الحبس
وبقلبى فيكمو مقترب ✲ بأحاديث المنى وهو بعيد
قمرا يطلع منه المغرب ✲ شقوة المغرى به وهو سعيد

قد تساوى محسن أو مذنب * فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقـلة معسول اللمى * جال فى النفس مجال النفس
سدّد السـهم رسمى ورمى * بفؤادى نهبـه المفـترس
ان يكن جار وخاب الأمـل * وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهـو للنفس حبيب أوّل * ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
* أمره معتمل ممتثـل * فى ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتـكما * لم يراقب فى ضعاف الأنفس
ينصـف المظلوم ممن ظلما * ويجازى البرّ منها والمسى
مالقلـبى كلما هبت صـبا * عاده عيد من الشوق جديد
كأن فى اللوح له مكـتتبا * قوله إن عذابى لشـديد
جلب الهـمّ له والوصـبا * فهو للأشجان فى جهد جهيد
لاعج فى أضلعى قد أضرما * فهى نار فى هشيم اليبس
لم تدع من مهجتى إلا الدما * كبقاء الصبح بعد الغلس
سلمى يانفس فى حكم القضا * واعمرى الوقت برجعى ومتاب
واتركى ذكرى زمان قد مضى * بين عتبى قد تقضت وعتاب
واصرفى القول إلى المولى الرضى * ملهم التوفيق فى أمّ الـكتاب
الـكريم المنتهى والمنتمى * أسد السرح وبدر المجلس
ينزل النصر عليـه مثـل ما * ينزل الوحى بروح القدس

فاذا كان الوزير هذا ديدنه يضيع ذكاءه فى أمثال هذا النظم ، وليس لهذه النجوم ، ولاهذه الأزهار فى نظره إلا أنها ضرب أمثال للحبيب وابتسامته ، وأمة هؤلاء حكامها لابدّ من أن يعتورها الانحلال .

فقلت : هذا حقّ أيها الحبيب ، إن نسبة هؤلاء الذين لايعرفون من الزهر والكواكب إلا ظواهرها ، وذكرى الحبيب بها إلى العارفين بعجائب الكواكب وبواطن الزهر كنسبة لون الكوكب والزهر ونحوها إلى حقائق العوالم السماوية ونظامها وتركيب الزهرات وابداعها ، فالأوّل كطفل للثانى ، وهؤلاء الأطفال هـم أكثر شعراء الاسلام الذين يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وانهـم يقولون مالايفعلون » وترى المتعلمين فى الديار العربية على هذا المنوال فى زماننا إلا قليلا منهم وهم العقلاء .

وهذا الـكتاب الذى نقلنا عنه نظام الأزهار لم يؤلفه إلا وزير المعارف فى فرنسا ، فالوزير الفرنسى قلبه معلق بنظام النبات والنجوم وغيرها ، والوزير الأندلسى مثلا ليس له من العـلم إلا الحظ الأدنى وهو نحو يل العوالم الجيـلة إلى مسألة التناسل التى تنقضى اذا حلّ الـكبر واشتعل الرأس شيبا ، ثم ينظر الانسان فلايجد فى عقله متسعا للحكمة وهوخال من كل فضيلة وكمال .

فقال صاحبى : هذه هى التذكرة الأولى ، أما التذكرة الثانية فانى حينما سألتك فى أوّل الأمر عن أمر الأزهار ومامعها أجبتنى بجواب هو فى أسلوبه أشـبه شىء بما جاء فيما تقدم فى الأجزاء السابقة فى [سورة الزمر] من حيث الـكلام على انـكسار الضوء فان الأسلوب هناك جميل كالأسلوب هنا ، والذى ذكرنى به تلميذ فى المدرسة الخديوية فى السنة الرابعة ، فانه لما قرأ انـكسار الضوء هناك اغرورقت عيناه بالدموع وقال

هذا الاسلوب أسهل وأجل مما نعطاه فى المدرسة ، لأنه بهيئة « سؤال وجواب » فلما سمعت الاسلوب هنا فى مسئلة الأزهار وجدتها تطابق ذلك الاسلوب . فقلت حياك الله إن المؤلف واحد .

فقال صاحبي : إذن أرجو أن تفصل الكلام على عالم السماء المذكور هنا فى هذه السورة بهذا الأسلوب كما فصلته على أزهار النبات فى آية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » ؟ فقلت أيها الأخ الذكي : إن المقام هنا قد طال جدا فسأوضح الكلام بهذا الأسلوب فى [سورة الملك] على عالم السموات وعلى الأنوار ، وكيف نرى الضوء النازل من الشمس النافذ فى حجراتنا يصطحب معه بحرارة ثم تحكم عقولنا بأن ذلك النور يجرى على خط مستقيم ، وتحكم علومنا بأن سرعته فى الثانية تبلغ نحو ١٨٥ ألف ميل ، ثم نضع أيدينا على ذلك النور فنحكم بالحرارة المصطحبة معه ، فههنا حكمان : حكمنا باستقامة الخط بالبصر ، وبالحرارة باللمس ، ثم ننتقل من هذا إلى أن الصور الواصلة من الخارج إلى حجراتنا معكوسة مقلوبة لتقاطع الأشعة الداخلة فى حجراتنا وهكذا ندخل فى أودية من العلم فيها أزهار وأثمار وحدائق وجنات ، فنرى أن هذا الضوء اذا عارضناه بمراءاتنا فانها تعكسه على الحائط المقابل للضوء الداخل ، وتكون تلك الأنوار الساطعات على ذلك الحائط تابعة فى ثباتها وذبذبتها إلى المرآة التى فى أيدينا ، وتكون هناك زاوية للسقوط وأخرى للانعكاس بينهما ارتباط وثيق .

أليس هذا من أعجب العجب : إن ماتقدم يفسر وضع صورنا فى المرآة أمامنا ، فيميننا موضوع فى المرآة جهة اليسار والعكس بالعكس ، وهكذا نرى البعد الواقع بيننا وبين المرآة مماثلا للبعد الذى بين المرآة والصورة المصورة كما حصل لما عرضنا المرآة للضوء وانعكس منها على الحائط المقابل ، وهكذا ننتقل من المرآة الزجاجية إلى الماء فنجده مرآة أيضا ، وهو يتقبل الصور المحيطة به كما يتقبلها الزجاج ، وهناك نرى أن النور متى دخل فى الماء حصل له مايسمى بانكسار الضوء الذى وضحناه فى [سورة الزمر] كما ذكرناه به أيها الأخ الذكي الآن ، وهذا الانكسار نعمة عظيمة فى هذه العوالم ، ولولا انكسار الضوء ما كان صبح ولا مغرب ، وانكسار الضوء له حالان : فاما أن يسير الضوء من طبقة لطيفة إلى أخرى كثيفة ، فهناك ينكسر الضوء إلى ناحية خاصة واذا كان العكس فانه ينكسر إلى الجهة الأخرى .

العدسات والميكروسكوبات والتلسكوبات والمناظر
وأضواء الشمس السبعة

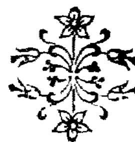
هنالك هنالك يدخل العلماء فى باب واسع من العلم ، وههنا يكون الكلام على العدسات ، وهى إما محدبات ، واما مقعرات ، فالعدسات المحدبات زجاجات منتفخات من الجانبين ، فهذه تكبر الأحجام المنظورة من خلالها ، فاذا نحن وضعنا جملة من هذه الزجاجات متحدة بنظام خاص كان عندنا مانسميه ميكروسكوب (الآلة المعظمة) وهذه قد تكبر الشيء ألف مرة بل أكثر ، وقد توضع تلك العدسات بهيئة خاصة أخرى وهى تسمى (التلسكوب) الآلة المقربة ، فهى تكبر الأجسام البعيدة فترى قريبة لنا ، فبهذا سميت مقربة . وهل أتاك نبأ العدسات المقعرات اللاتى تفعل عكس العدسات المحدبات ، ان هذه تصغر الأجسام كما كانت التى قبلها تكبرها ، وههنا يدخل الضوء فى علم الطب فتكون العدسة المصغرة لصاحب النظر القصير والمكبرة لصاحب النظر الطويل .

للعدسات المكبرات عمل آخر

وذلك أنها تستعمل لاحداث حرارة وضوء على ما وراءها من ورق مخصوص مثلا ، فههنا يدخل ضوء الشمس فى العدسة ، ويستمرّ جاريا إلى ما وراءها ، وهناك تكون بؤرة خاصة فى بعد مخصوص : أى ان الحرارة فى بعد مخصوص تجتمع فى نقطة خاصة ، وهذه الحرارة قد تتقد بها النار ، بل إن ربان السفينة لما عنده من العلم اذا كان فى الأقطار الشمالية التى ليس فيها إلا الثلج يقدر بتلك العدسة المكبرة للضوء الحدبة الوجهين أن يستعملها فى إيقاد النار فى الصوفان مثلا ، وذلك بأن يستعمل عدسة من نفس الثلج ، وهذا الثلج يجمع ضوء الشمس الضعيف فى تلك الأقطار ، وفى البؤرة فى البعد المخصوص يضع ذلك الربان مايريد احراقه فيشتعل ، فيذهل من ذلك نوتية السفينة ، ويذهل سكان الأقطار الشمالية (وهم الاسكيمو) .

وههنا مباحث أخرى لامحل لتفصيلها الآن مثل أضواء الشمس السبعة وعجائبها ، ولعلنا نفصل الكلام على هذه العجائب فى [سورة الملك] ان شاء الله تعالى بشرح أطول وصور بديعة تشرح الموضوع كما تشرح الصدور . ولعلنا أيضا نفصل الكلام ان شاء الله تعالى فى [سورة النبأ] « عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم » على أنواع النبات المتقدّمة ، والفصائل بصورها وأشكالها بمناسبة قوله تعالى : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا » كما نذكر بعض ماتقدم مجملا عند الكلام على قوله تعالى فى [سورة الحشر] : « هوالله الذى لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هوالله الذى لاإله إلا هوالملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عمايشركون ، هوالله الخالق البارئ المصوّر له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » لنبين أن هذه العجائب لاتفسر أسماء الله حقّ تفسيرها إلا بها ، وأن من أراد أن يفقه معنى البارئ والمصوّر ونحوهما فليس له إلا طريق هذه العجائب .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : الحمد لله قد أثلجت صدرى بهذا البيان . فقلت الحمد لله رب العالمين . والى هنا تمّ الكلام على [سورة الذاريات] . كتب فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥١ هجرية .



تفسير سورة الطور

هى مكية

آياتها ٤٩ — نزلت بعد السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ * فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ

الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ سُبْحَانَ اللّٰهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتّٰى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذٰلِكَ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأوّل فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى ذكر العذاب والنعيم ، ووصف أهل الجنة وأهل النار ، مبتدئا ذلك كله بالقسم بما فى العلويات والسفليات من أوّل السورة إلى قوله : « انه هوالبرّ الرحيم » .

القسم الثالث فى إلزام الكافرين بالحجة ، ومجادلتهم بالتى هى أحسن فى صدق النبوّة ، واثبات الألوهية من قوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولامجنون » إلى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

تنوّعت الرحمات فى هذه العوالم التى أبدعها الله عزّ وجل ، وهذا التنوّع يدعو الى استيقاظ الأرواح ، ونشاط النفوس التى خلقت فى هذه العوالم ، موت وحياة ، وذلّ وعزّ ، وجهل وعلم ، وشقاء وسعادة ، ثم نار وجنة ، وهذان هما المذكوران فى هذه السورة ، كل مخلوق فى هذه العوالم الأرضية يبدو فى أوّل أمره ناقصا ثم يأخذ فى الاستكمال شيئا فشيئا حتى يصل إلى درجة الكمال كالزروع والحيوان والانسان ، فالنقص قبل الكمال ، والنار قبل الجنة « وان منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ، ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » .

الانسان يخرج من بطن أمه لايعلم شيئا والعلم يبدو له قليلا قليلا ، وأكبر مذلة فى هذه الحياة للأفراد والأمم الجهل ، وأعظم سعادة بالعلم ، وأوّلهما مقدّم على ثانيهما ، وفى هذه السورة نرى آيات العذاب جاءت فى أوّل السورة ، وتلتها آيات النعيم والجنات كما يتلوالعلم الجهل والسعادة الشقاء ، ومن أجلّ الرحمات وأبهج السعادات أن تصل النفوس إلى مبتغاها بعد حرمانها ، والى سعادتها بعد شقاوتها ، وتتذكر ما كانت تعانيه وتوازنه بما نالته من الهناء والسعادة ، ويشير لذلك اقبال بعض أهل الجنة على بعض يتساءلون ويتذكرون

أنهم كانوا يخافون العاقبة وسوء المنقلب ، فنجوا من العذاب وتمتعوا بأنواع اللذات ، متكئين على سرر مصفوفة وهم متزوّجون بالحور العين .

ومن أبدع مايسرّ النفوس و يشرح الصدور الحجج القيمة والبراهين المنتظمة ، كأن يقال : أهذا العالم خلق نفسه ؟ أم وجد بلا خالق ؟ وكلاهما باطل ، إذن له خالق وهوالله تعالى ، وهـذا أيضا راجع للعلم بعد الجهل ، والعزّ بعد الذل ، فكأن الرحمة فى هذه السورة متجهة لمنهج واحد معبد [بتشديد الباء] وذلك على سبيل النشوء والارتقاء ، فالانسان قبل تمام الحجة جاهل بالنتيجة والجهل عذاب ، ورسوخ العقيدة بتمام الحجة نعيم كما أن الجنة بعد المرور على الجحيم ، ولقد جاء فى [اخوان الصفاء] أن شقاء الناس تابع لجهلهم . وقال قبل ذلك سقراط فانه أبان أن الانسان لايفعل المعصية إلا لظنه أنها نافعة له من وجه ، ولو أيقن أنها ضارّة له لم يفعلها ، وأوضح ذلك الامام الغزالى رحمه الله تعالى فقال : لوأن طبيبا قال للمريض هذا الكوب فيه سم قد تخلل الشراب الذى يملؤه وهو واثق طبعا بكلام الطبيب لم يشربه المريض ولم يقربه ، وفرّ منه فراره من الأسد ، فلوأن الناس أيقنوا بمضرّة الذنوب وثوقا حقيقيا لم يذنبوا ولكن العلم الناقص لايفيد ، إذن نقص العلم باب من أبواب جهنم ، والعلم التامّ باب من أبواب الجنة .

وليس ينال المرء كمالا فى هذه الحياة إلا بأمرين : الصبر عن الشهوات ، وعلى البلاء ، وفى الأعمال حتى تكمل ، ومن أجلّ الأعمال فى هذه الحياة الدنيا الوقوف على سرّ هذا النظام ، وسرّه أن كل شرّ فى هذا العالم لم يقصد به إلا أنه مقدمة لخير ، فالخير والشرّ يتجهان معا لنظام العالم نظاما تامّا يستوجب الحمد ، ولذلك ختم السورة بهذه الآيات : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » .

فى أوّل السورة ذكر العذاب والنعيم ، وفى آخرها اطمئنان النفس بالصبر و بالعلم وهما المقصودان من هذه الحوادث الانسانية فى هذا الوجود ، التسبيح والتحميد معا سرّ هذه الحياة ، فالتسبيح كما شرحناه مرارا ملازم للتحميد ، إذ نرى سلامة عيوننا من المرض ملازمة لتمتعنا بالنعمة الموجبة للحمد ، فتنزيه الله عن العبث وعن الظلم بطريق البحث العلمى ملازم لحصول الخيرات لنا ، ولذلك كان التسبيح والتحميد ملازمين لأهل الجنة ، فهم هم الذين أدركوا سرّ هذا الوجود واطمأنوا بنورعقولهم إلى أن كل شرّ لم يقصد به إلا الخير بل أيقنوا أنه لاخير بلاشرّ ، ولايمكن حصوله بدونه ، فالشرّ لابدّ منه لحصول الخير ، وهذه الطمأنينة نهاية سعادة هذا الانسان فى الدنيا والآخرة ، فاذا لاحظ النجوم وسيرها وجمالها فرح بجمالها وجمال مبدعها ، وكان فى هذه الحياة الدنيا فى سعادة وحبور ، ومن أيقن بهذا بطريق العلم فهم معنى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » انتهى الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة . كتب يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٤ م

القسم الثانى : فى ذكر العذاب والنعيم

ووصف أهل الجنة ووصف أهل النار

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والطور) طورسينين ، وهو جبل بمدين كلم الله موسى عليه السلام فيه ، والطور بالسريانية الجبل

(وكتاب مسطور) مكتوب ، يقال سطره رتب حروفه المكتوبة ، والكتاب المسطور كل ما كتب من القرآن أو التوراة ، أو بقية الكتب السماوية ، وماسطر فى القلوب الانسانية من المعارف ، ومافى نفوس الملائكة من الحكمة ، ومافى اللوح المحفوظ ، بل كل مادلّ على حكمة يرمز له بالكتاب المسطور (فى رقّ منشور) الرق هو الصحيفة ، أو الجلد الذى يكتب فيه ، وأريد به هنا مجازا ماهو أعمّ ، والمنشور المفتوح لاختم عليه (والبيت المعمور) أى الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين ، وقلب المؤمن الممتلئ بالمعارف والحكمة والاخلاص ، وهكذا كل مكان فيه عبادة كالذى ورد فى الحديث الآتى ، وهو بيت فى السموات العلى قدّام العرش (والسقف المرفوع) أى السماء (والبحر المسجور) أى الموقد المحمى بمنزلة التنور المسجور كما قاله ابن عباس ، وهذا البحر هو الذى كشف فى العصر الحاضر على سبيل الظن ، وقد أشارت له الأحاديث ، ولكن الأمم قديما لم تعرفه ، فعن عبد الله بن عمرو : لايركبنّ رجل البحر إلا غازيا أومعتمرا أوحاجا فان تحت البحر نارا وتحت النار بحرا ، ولا جرم أن هذا البحر هو باطن الأرض الذى اتضح اليوم ، وعلم من الكشف أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة : أى ان نسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذى يؤكل كنسبة قشرة الأرض إلى النار التى فى باطنها ، فنحن الآن نسكن فوق نار عظيمة : أى فوق بحر مملوء نارا ، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة سدا عليه ، ومن وقت إلى وقت يتصاعد من ذلك البحر نار تظهر فى البراكين أو بالزلازل كالزلزلة اليابانية التى حدثت فى سنة ١٩٢٥ وكبركان ايزدن بايطاليا ، وهذا البحر المسجور الآن يعتبر من أكبر المعجزات للقرآن ، فانه لم يعلم به أحد من الأمم الاسلامية ، ولا غير الاسلامية بعد النبوّة ، ومن عجب أن يذكر فى الحديث أن تحت البحر نارا ، وهذا عجيب ! وأما كون النار تحتها ماء فمعناه أن البحر فوق الأرض والنار فى باطنها ، وفى الجهة المقابلة يكون البحر ، فالبحر فى الجهتين المتقابلتين والنار محصورة بينهما . أقسم الله بهذه كلها وجواب القسم (إن عذاب ربك لواقع) لنازل (ماله من دافع) يدفعه (يوم تمور السماء مورا) تضطرب ، والمور تردّد فى المجىء والذهاب (وتسير الجبال سيرا) أى تسير عن وجه الأرض فتصير هباء (فويل يومئذ للمكذبين) يقول : اذا وقع ذلك فويل لهم (الذين هم فى خوض يلعبون) أى يندفعون فى الباطل والكذب كما قال تعالى أيضا فى سورة أخرى : « وكنا نخوض مع الخائضين » (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) يدفعون إليها بعنف بحيث تغلّ أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويقال لهم (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) ولقد كنتم تنسبون لمحمد أنه يسحر العقول ويغطى على الأبصار ، فهل هذا الذى هو مصداقه سحر أيضا ، وهذا قوله (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) هذا أيضا كما كنتم لاتبصرون فى الدنيا مايدل عليه ، وهذا تقريع وتهكم (اصلوها فاصبروا أولا تصبروا) أى ادخلوها على أىّ وجه شئتم من الصبر وعدمه (سواء عليكم) الأمران الصبر وعدمه ، ثم علل الاستواء المذكور بأن الجزاء لابدّ منه فلا يتوقف على الصبر فقال (إنما تجزون ما كنتم تعملون) .

ولما فرغ من ذكر أهل النار شرع فى الكلام على أهل الجنة فقال (إن المتقين فى جنات ونعيم فاكهين) معجبين بذلك ناعمين (بما آتاهم ربهم) من الخير والكرامة (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) يقال لهم (كلوا واشربوا هنيئا) مأمون العاقبة من التخمة والسقم (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من إيمان وطاعة (متكئين على سرر مصفوفة) موضوعة بعضها إلى بعض مصطفة (وزوّجناهم بحور عين والذين آمنوا واتبعتهم ذرّيتهم بإيمان) هذا مبتدأ خبره (ألحقنا بهم) أى نلحق بهم (ذرّيتهم) فى إيمانهم ولو كان أولئك الأبناء مقلدين لآبائهم ، فالآباء إيمانهم نظرىّ والأبناء إيمانهم تقليدىّ لاتباعهم الآباء ، فنحن نلحق الأبناء بالآباء فى الايمان ، ونجعل غير الناظرين كالناظرين المفكرين ، ويلزم من ذلك أن يدخلوا الجنة معهم (وماألتناهم) ومانقصناهم (من عملهم من

شىء

شيء) بهذا الالحاق (كل امرئ بما كسب رهين) بعمله مرهون عند الله تعالى ، والعمل الصالح يفكه والا هلك (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أي وزدناهم وقتا بعد وقت مايشتهون من أنواع النعم الحسية والمعنوية (يتنازعون فيها كأسا) يتعاطون في الجنة هم وجلساؤهم ويتجاذبون خمرا في كأس (لالغو فيها ولاتأثيم) لايتكلمون بلغو الحديث في أثناء شربها ، ولايفعلون مايؤثم به فاعله ، بخلاف خمر الدنيا ، فالشارب لها كثير اللغو فعال للآثام (ويطوف عليهم) بالكأس (غلمان لهم) مماليك مخصوصون بهم (كأنهم) في الحسن والبياض والصفاء (لؤلؤ مكنون) مخزون مصون لم تمسه الأيدي ، وقد سئل ﷺ فقيل له هذا الخادم فكيف المخدوم ؟ قال فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا في الجنة أي يتذاكرون ما كانوا فيه من الخوف والتعب في الدنيا (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا) في الدنيا (مشفقين) خائفين من العذاب (فمن الله علينا) بالمغفرة (ووقانا عذاب السموم) عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم (إنا كنا من قبل ندعوه) أي كنا من قبل ذلك في الدنيا نعبده ونسأله الرحمة ووقاية العذاب فنقول « وقنا عذاب النار » ثم ان في تجاذب الكأس بينهم واقبالهم بعضهم على بعض ، وعدم اللغو في مجالسهم اشارات إلى لذات فوق لذات أهل الأرض كما قال ابن الفارض :

صفاء ولاماء ولطف ولاهوا ✲ ونور ولانار وسكر ولاخمر

وقوله (إنه هو البر) أي المحسن (الرحيم) انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة .

القسم الثالث في الزام الكافرين بالحجة

ومجادلتهم بالتي هي أحسن في صدق النبوة واثبات الألوهية

قال تعالى (فذكر) فعظ يامحمد بالقرآن كفار قريش ومن معهم (فما أنت بنعمة ربك) برحمته وعصمته وانعامه عليك بالنبوة ، أو بحمده وانعامه (بكاهن ولامجنون) الكاهن من يوهم الناس أنه يعلم الغيب ويخبر به (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) أي بل أيقولون هو شاعر ، وريب المنون مايقلق النفوس من حوادث الدهر ، أو نفس الموت ، يقال منه اذا قطعه (قل تربصوا فاني معكم من المتربصين) أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أي بل أتأمرهم عقولهم بهذا التناقض في القول ، فالشاعر غير الكاهن غير المجنون ، وفرق عظيم بين مجنون العقل ومن يزن الشعر بحكمة ودقة ومن هو كاهن (أم هم قوم طاغون) مجاوزون الحد في العناد (أم يقولون تقوله) اختلقه من تلقاء نفسه (بل لايؤمنون) فيرمونه بهذه المطاعن كفرا وعنادا ، وفي قوله « بل » رد لما زعموا أي ليس الأمر كما زعموا (فليأتوا بحديث مثله) أي بحديث مختلق مثل القرآن (ان كانوا صادقين) في زعمهم ، وفيهم الفصحاء ، ثم شرع يبين فساد نظرياتهم في الالهيات بعد النبوات فقال (أم خلقوا من غير شيء) أي بل أخلقوا من غير خالق ، ومعلوم أن الحادث لابد له من محدث ، أم هم أحدثوا أنفسهم ويلزم عليه أن الشيء مقدم على نفسه وهو مستحيل ، فهم باعتبار أنهم خالقون مقدمون على أنفسهم في الوجود باعتبار أنهم مخلوقون ، وهذا هو قوله (أم هم الخالقون) أي بل أهم (أم خلقوا السموات والأرض) أي واذا فرض أنهم خلقوا أنفسهم فهل هم خلقوا السموات والأرض اللتين عليهما تتوقف حياتهم ؟ فان من يخلق شيئا يخلق أسبابه ، واذن لابد أن يخلقوا السموات والأرض ، وهذا معلوم كذبه طبعا (بل لايوقنون) اذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض ؟ قالوا الله ، ولو أنهم أيقنوا ذلك ما أعرضوا عن العبادة (أم عندهم خزائن ربك) خزائن

رزقه حتى يعطوا النبوّة لمن يشاءون ، و يصطفوا لها من يختارون (أم هم المصيطرون) الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف يشاءون (أم لهـم سلم) مرتقى إلى السماء (يستمعون فيه) كلام الملائكة ومايوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ماهو كائن من تقدّم هلاكه على هلاكهم وظفرهم فى العاقبة دونه (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) بحجة واضحة تصدّق استماع مستمعهم (أم له البنات ولكم البنون) سفه سبحانه أحلامهم إذ اختاروا لله البنات ولهم البنين ومن كان هذا رأيهم لايعتدّ بهم (أم تسألهـم أجرا) على تبليغ الرسالة (فهم من مغرم) من التزام الغرم (مثقلون) محملون الثقل فلذلك زهدوا فى اتباعك (أم عندهـم الغيب) اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيبات (فهـم يكتبون) ما فيه حتى يقولون لانبعث ، واذا بعثنا لم نعـذب (أم يريدون كيدا) وهوكيدهم فى دارالندوة برسول الله ﷺ (فالذين كفروا) أظهر فى موضع الاضمارلتسجيل الكفرعليهم (هم المكيدون) هم الذين يحيق بهم الكيد و يعود عليهم وبال كيدهم وقد تمّ يوم بدر (أم لهم إله غير الله) يعينهم و يحرسهم فيكفرون بالله و يلتجئون إلى ذلك الإله (سبحان الله عما يشركون) عن اشراكهم (وان يروا كسفا) قطعة (من السماء ساقطا يقولوا) من فرط طغيانهم وعنادهم هذا (سحاب مركوم) تراكم بعضه على بعض ، وهذا جواب لقولهم : « فأسقط علينا كسفا من السماء » . يقول الله : لوعذبناهم بسقوط قطعة من السماء لقالوا أوّل ظهورها ليس بعذاب مكابرة كما هى عادتهم (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) عند النفخة الأولى (يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا) أى شيئا من الاغناء فى ردّ العذاب (ولا هم ينصرون) يمنعون من عذاب الله (وان للذين ظلموا) من كل أمة وجيـل (عذابا دون ذلك) أى دون عذاب الآخرة فى الحياة الدنيا كقحط قريش وقتلهم يوم بدر ، وهكذا المصائب التى تحيط بالمسلمين اليوم باغارات الفرنجة عليهم وغير ذلك ، وكعذاب القبر (ولكنّ أكثرهم لايعلمون) ذلك (واصبر لحكم ربك) إذ أمهلهم وأوقعك فى نصب معهم فذلك لأجل معلوم (فانك بأعيننا) فى حفظنا ورعايتنا فنحن نراك ونكلؤك ، وجمع العين للمبالغة فى الحفظ (وسبح بحمد ربك حين تقوم) من أىّ مكان قمت ، ومن منامك ، والى الصلاة (ومن الليل فسبحه) فان العبادة فيه أشقّ على النفس وأبعد من الرياء (وادبار النجوم) واذا أدبرت النجوم من آخرالليل : أى فى أعقابها اذا غربت أوخفيت ، والمرادأن يقول « سبحان الله و بحمده » فى هـذه الأوقات ، وقيـل التسبيح الصلاة اذا قام من نومه ، ومن الليل صلاة العشاءين ، وادبار النجوم صلاة الفجر . انتهى التفسيراللفظى للقسم الثالث من السورة

* * *

و ينبغى للانسان أن يقول : سبحانك اللهم و بحمدك اذا قام من المجلس ، وزاد الترمذى : أشـهد أن لاإله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، فانها تكفر مابينهما . وغيره يقول : ذكر الله بالليل من حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل الصلاة . وقالت عائشة رضى الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم اذا قام بالليل يفتتح بالتكبير عشرا والتسبيح عشرا والتهليل عشرا والاستغفار عشرا و يقول اللهم اغفرلى وارحمنى واهدنى وارزقنى وعافنى ، وكان يتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة ، وأيضا كان صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بقوله : سبحانك اللهم و بحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، وجلّ ثناؤك ، ولا إله غيرك .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « والطور » الخ .

(٢) وفى قوله : « والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحرالمسجور » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : والطور

أقسم الله فى هذه السورة بأعلى مكان وأشرفه وأكثره رحمة وهوالسماء ، و بأدنى مكان قد ملئ ججيما وعذابا وهوالبحرالمسجور فى باطن الأرض ، و بما بين ذلك من الكتب المسطورة ، والعلوم المنشورة ، والحكم المنثورة ، والآراء المبثوثة ، المقروءة فى كتب الديانات ، و بدائع الآيات ، وحكم السموات ، ومعارف النفوس وإشراق القلوب ، و بأماكن العبادات من البيت الحرام ، وغيره من أماكن فى عوالم لا يعلمها أحد إلا الله .

أقسم الله بالسموات العلى ، و بما تحت الثرى ، و بيوت العبادات فى الأرض والسموات ، و بالعلوم المعقولات فى الأرض وفى السماء .

أقسم الله بذلك كما أقسم بالذاريات ذروا ، هناك أقسم الله بالرياح وتصريفها ، و بالسماء وحسنها وجمالها وهنا أوسع القسم ايساعا فلم يذر عالما سماويا ولا أرضيا ، ولا موضع عبادة ، ولا مكان علم إلا أدخله فى القسم أو أشار إليه . انتهت اللطيفة الأولى

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : والبيت المعمور الخ

وأعجب ما أقسم به البحر المسجور الذى فى باطن الأرض على ما يظن الناس ، والبيت المعمور ، والرق المنشور ، وقد روى أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة نارا فيزاد بها فى نار جهنم ، فاذا أضفنا هذا الحديث إلى الحديث المتقدم وهو أن تحت البحر نارا يكون البحر الذى هو باطن الأرض منضما إليه البحر الملح فيتسع نطاق النار ، فاذن باطن الأرض نار الآن ، والبحار يوم القيامة تصير نارا ، وهذا واضح لأن البحر المسجور الذى هو عبارة عن باطن الأرض اذا جاء أجل الأرض ووقع ماء البحر فى باطن الأرض لم تكن البحار التى على وجه الأرض شيئا مذكورا بالنسبة للنار فتتحول نارا فى لمح البصر ، فانا نشاهد أنا اذا أنزلنا الماء على النار ليطفئها وكان الماء قليلا تحوّل الماء الى نار ، وزاد فى اشتعالها ، لأن الاكسوجين الذى فى الماء نار فينقلب الماء إليها ، وهذا من أعجب العلم والمعجزات فى القرآن .

وأما البيت المعمور الذى يقال له [الضراح] فيقال ان حرمته فى السماء كحرمة الكعبة فى الأرض . وقد جاء فى حديث المعراج من أفراد مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى البيت المعمور فى السماء السابعة قال فاذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه . وفى رواية أخرى : فانتهيت إلى بناء فقلت للملك ماهذا ؟ قال بناء بناه الله للملائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون يسبحون الله و يقدسونه ، ولعل ذلك البيت فى عوالم مما لا يخطر بالبال ذكرها غابت عنا لبعدها ، ومن تأمل علم الفلك أيقن بما تقدم لاسيما مارويته روح الفيلسوف غاليلى لما أحضرت وطلب منها التكلم على العالم ذكرت أن هناك كواكب شمسنا بالنسبة لها كحبة بالنسبة لجبل ، وحياتهم ونظامهم أرقى من حياة أهل الأرض ونظامهم ، بل لا يخطر بالبال السعادة هناك والهناء والعظمة وأنواع المعيشة ، وهناك الشموس التوائم جم توأم فان نظام أهلها لا يخطر بالبال ، ولم تسمعه أذن ، ولم تره عين ، بل هو فوق متناول الخواطر من البهجة والجمال ، و يقول : ان تلك العوالم كلها مسكونة وهى تعد بمئات الملايين ، فما جاء فى هذا الحديث وهذه الآية أصبح مما يقرأ فى العلم الفلكى والعلم الروحى بأوروبا .

وأما الرق المنشور الذى ذكر بعد الطور المتناول كتاب التوراة وكل كتاب سماوى وحكمى الخ فانه قد ظهر أتم ظهور فى هذا الزمان ، إذ لم يكن النوع الانسانى ليعرف رقا منشورا كما نعرف نحن الآن ، فلقد أظهر الله فى سائر الأرض الجرائد والمجلات منشورة يقف بها الباعة فى الطرقات والحارات والشوارع ، وقد نشروها

فى أيديهم وقرأها الناس فى كل مكان ، ولم يكن ذلك معروفا قبل هذا العصر عصر الورق ، والقرآن يسميه الرق المنشور .

فانظر كيف أقسم الله بالبحر ، وبالبيت المعمور ، وبالرق المنشور ، ولم يظهر بحر النار ، ولا أن هناك عوالم فى الكواكب لاتتناهى ، ولاأن هنا فى الأرض جرائد تنشر وتباع للعامة والخاصة ، ولا أن هناك تعليما عاما يشترك فيه الخاصة والعامة من كل الأمم إلا فى هذا الزمان .

نشر الصحف على قسمين : أحدهما انتشار التعليم والتربية وهوالتعليم العام الذى أخذ ينتشر انتشارا سريعا فى الوقت الحاضر . وثانيهماظهورالجرائد والمجلات منشورة فى كل مكان ، ومن هذا الباب عموم التلفون والتلغراف (البرق) الذى له سلك والذى لاسلك له ، وهكذا المسرة (التلفون) . كل هذه فى معنى الرق المنشور ، فهذان القسمان من الصحف المنشورة لم يكن لهما وجود قبل هذا الزمان أخبر عنها القرآن .

لم يكن فى الأرض أمة قط تعلم تعليما عاما أيام النبوّة ، لم يكن فى دولة الرومان تعليم إلا لأبناء الأشراف ، وهكذا دولة الفرس الذين يجعلون التعليم لطبقة معلومة ، جاء القرآن وقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق » .

كانت البراهمة تجعل الناس أربع درجات : فمنهم من هم كالرأس وهم رجال الدين ، ومنهم من هم كالصدر وهم رجال الجيش ، ومنهم من هم كالبطن ، ومنهم من هم كالرجلين ، ومعنى هذا أن الرق لم يكن منشورا عاما بل كان خاصا ، جاء الاسلام وعمم العلم وقال : « فى رقّ منشور » ولا نشر على الوجه الأكمل إلا فى هذا الزمان ، فهو يرمى لغرضين : الأوّل تعميم التعليم ، والثانى الاخبار عما حصل فى هذا الزمان من قولهم : [انتشار التعليم] وقولهم [تعميم التعليم] وقولهم [نشر الصحف] وقولهم [نشر المدنية والحضارة] وقولهم [نشر الكتب] وما أشبه ذلك .

نتائج هذه المعجزة القرآنية فى النفوس

إن نتائج هذا المقال فى العقول قسمان : القسم الأوّل ما يحصل فى عقول بعض المؤمنين من أمتنا فيفرحون بهذا القول ويقولون الله أكبر : إن نبينا حقّ والاسلام حقّ ويفرحون ، وهؤلاء هم الكسالى الغافلون الذين يقتصرون على الايمان وهم نائمون [القسم الثانى] هم أهل الحكمة والبصيرة الذين سيقرءون هذا الكتاب وأمثاله ويدركون بنور البصيرة مستقبل الاسلام فيقولون : لم يذكر الله ذلك لمجرد الايمان كلا . وانما يريد أن يحثنا نحن أبناء هذا الجيل على العلم والحكمة ، وأن نأخذ حظنا فى الأمم ومركزنا فى الحياة ، وهذا الفريق يقول : ان هذه الآيات حجة علينا ، فاذا كان الله نشر العلم فى العالم الانسانى ، وأبرز مكنون الحكمة كالبحر المسجور والبيت المعمور ، واذا كان جلّ جلاله يقسم بما هوفوق السموات العلى ، وبما هو تحت الأرض السفلى ، وبما بينهما من العلم المنشور ، وقد أقسم قبل ذلك بجانب الرياح والسحاب والمطر التى بها كان نظام حياتنا ، وذلك بعد أن لفت عقولنا للسماء والأرض فى [سورة ق] . اذا فعل الله ذلك وكرره فليس له نتيجة إلا أن المسلمين اذا قصروا فى معرفة علوم العالم العلوى والسفلى لاسيما بعد ظهور الصحف المنشورة فى عصر العلم والعرفان فانهم لايستحقون الوجود ، وأن هذا الدين ينقل منهم إلى قوم آخرين ويسكن الله أرضهم قوما خيرا منهم لأنهم لا يصلحون للحياة ، فالناظر لهذه الأقسام من أرباب الفكر يجدّون فى ارتقاء أمتهم خائفين من ربهم اذا قصروا فى العناية بما أقسم به .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولوالدىّ والمسلمين والمسلمات ، وأسأل الله أن يفتح بهذا الكتاب بابا يلجه المسلمون للعلوم والعرفان ، وأن يكثر فى هذه الأمة من رجال العلم العاملين ، والى هنا تمّ الكلام على « سورة الطور » والحمد لله رب العالمين . كتب فى ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٣٤٥ هجرية .

تفسير سورة النجم

هى مكية

إلا آية : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى : فمدنية

آياتها ٦٢ — نزلت بعد الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۞ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۞ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۞ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۞ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۞ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۞ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۞ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۞ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۞ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ۞ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۞ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۞ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۞ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ ۞ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۞ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۞ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۞ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا

اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى * أفرأيت الذي تولى * وأعطى قليلاً وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى * أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن عليه النشأة الأخرى * وأنه هو أغنى وأقنى * وأنه هو رب الشعرى * وأنه أهلك عاداً الأولى * وثمود فما أبقى * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى * فبأي آلاء ربك تتمارى * هذا نذير من النذر الأولى * أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة * أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ، وفي قربه من ربه ، من أول السورة إلى قوله : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

القسم الثالث : تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام ، ونسبتهم البنات إلى الله ، وأخذهم بالظن وبخلهم ، وفي حكم علمية ، وفي صفات لله علية .

القسم الأول في تفسير البسملة

إيضاح الرحمة في البسملة في [سورة النجم] وبيان أن الرحمة قد اكتنفت البسملة ، فان في آخر السورة قبلها رحمة كصلاة الليل ، وفي أول السورة بعدها إفاضة علمهم على الناس

آخر سورة الطور وأول سورة النجم

خواطري في صلاة الصبح يوم الخميس ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١

كتب هذا في يوم الجمعة ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١ م

كنت أقرأ في الركعة الثانية من صلاة الصبح أول سورة النجم ، فخطر لي في الصلاة و بعدها ما يأتي :

إن سورة الطور مختومة بقوله تعالى : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » إن آخر سورة الطور متصل بأول سورة النجم كأن الله يقول : أيها الناس قوموا الليل إلا قليلا ، تهجدوا فى آخر الليل ، وسبحوا واحمدوا ، ثم أخذ يقسم بالنجم مذكرا المصلى بالنجوم التى تقارن صلاته آخر الليل ، أقسم بالنجم ليذكر المصلى والمسبح والنجوم فى ادبارها آخر الليل ان الصلاة والتسبيح العاريتين عن الفكر ضعيفتا الأثر ، قليلتا الخطى ، لاهما فى العير ولا فى النفير ، وهل يقسم الله إلا بما هو جليل وعظيم ! والجليل والعظيم والآيات الكبرى هى التى إليها تتجه الأنظار وبها تطمئن القلوب :

(١) أقسم الله بالنجم وقال فيه : « وانه لقسم لوتعلمون عظيم » لماذا هذا ؟ لأنه يعلم قبل أن ينزل القرآن لأهل الأرض أن أمما وأمما ستظهر بعد نزول القرآن ، وتدرس النجم ، وتفتح لها أبواب السماء والأرض ، وذلك بعلم النجوم ، ذلك العلم الذى به أمكن الناس السير فى المحيط الهادى والهندى والصينى والأطلسى والبحر الأبيض المتوسط وغيرها . ياسبحان الله : كيف يعرف الربان مكانه فى وسط البحار اللجية إلا بواسطة الآلة الفلكية التى لا اعتماد لها إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، فاذا غفل ثانية طاح وضاع فى وسط اللجج ولات حين مناص .

(٢) أقسم الله بالنجم اذا هوى ، لأن النجم فى وسط السماء فى خط نصف النهار ، لا يعرف اتجاهه ، لكنه اذا هوى ومال إلى الغروب عرف اتجاهه فهدى السارين فى الصحراء ، أقسم بهذا النجم الموصوف بهذه الصفة أن محمدا ماضل وماغوى ، وكما أن النجم اذا هوى لا يصحبه فى هذه الحال ضلال ، هكذا محمد ﷺ لا يصحبه ضلال ، بل هاد للناس كما يهدى ذلك النجم الربان .

(٣) أقسم الله بالنجم لأنه يعلم أن أمما وأمما تبحث فى مقادير الكواكب وأعدادها ، وهذا من آيات الله العظيمة ليرشد المسلمين إلى تلك الآيات ، ان سير نور الكوكب ١٨٦ ألف ميل فى الثانية أو ٣٠٠ ألف كيلومتر ، وهكذا الأمواج التى لاسلك لها وكلاهما يجرى حول الأرض فى سبع ثانية مرة واحدة ، ويجرى حول الكون كله نحو مائة مليون سنة ، إذن نسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ماعرف من الكون كنسبة سبع ثانية إلى مائة مليون سنة ، وأيضا ان الأرض اذا صغرت فصارت مقدار حجم الجوهر الفرد بلغ حجم الكون الذى عرفه الناس بأقوى التلسكوبات على هذه النسبة حجم الأرض مرة واحدة ، وبلغ حجم الكون كله على ماهو ممثل فى مذهب النسبية ألف مليون أرض منتشرة حولها فى الفضاء ، النظام الشمسى يشتمل على الشمس وتسعة سيارات تدور حول أكثرها أقمار ، وهذه الشمس وعالمها جزء من المجرة ، والمجرة فيها نجوم تبلغ ٣٠ ألف مليون نجم كلهن شموس كشمسنا أو أكبر أو أصغر ، ويقول الاستاذ [شايبلى] أحد أساتذة علماء الفلك فى [هارفرد] انها مائة ألف مليون نجم ، وقطر المجرة الأطول ٢٢٠,٠٠٠ سنة ضوئية أعنى أن الضوء الذى يسير فى الثانية ١٨٦ ألف ميل يقطع المجرة فى مائتى وعشرين ألف سنة بهذه السرعة ، وفى خارج هذه المجرة سدم لولبية أقربها إلينا يبعد عنا ٨٥٠,٠٠٠ سنة نورية ، والسديم الواحد فيه مادة تكفى لتكوين ألفى مليون نجم ، ويقول الدكتور [هيل] ان تلسكوب مرصد جبل ولسن الذى قطر مرآته العاكسة ١٠٠ بوصة يستطيع الوصول إلى مليونين من هذه العوالم الجزرية يبعد أحدها عن الآخر نحو مليونى سنة ضوئية ، وأبعدها عنا يبعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، والمنتظر أنه متى تم بناء التلسكوب الجديد الذى سوف يكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة تمكن الراصدون من الوصول إلى ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات بدلا من مليونين ، ويقدرون

عمر الشمس بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وعمر الأرض بنحو ألفي مليون سنة ، وعمر الحياة عليها بنحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الانسان عليها بنحو ٣٠٠ ألف سنة ، إن شمسنا التي تزيد عن أرضنا ألف ألف مرّة وثلثمائة ألف مرة كوكب له توابع وسيارات ونيازك وذوات أذناب لاحدّ لها ، وهذا الكوكب وتوابعه واحد من ثلاثين ألف مليون شمس ، وهذه كلها تكون مجرّتنا ، وهذه المجرّة لها نظائر ، وهذه النظائر هي السدم اللولبية ، وكل سديم منها فيه شموس في دور التكوّن ، أو هو مادّة سيأتى عليها ذلك الدور الذى فيه تحوّل إلى شموس ، وقد وجدوا أن كل سديم فيه مادّة تكفى لتكوين ألف مليون شمس ، وفوق ذلك أن تلك المادّة لطيفة جدا ، إذ يبلغ حجم كل جزء من مليون جزء من الأوقية منها حجم جبل مثل جبل [الماترهورن] وعلوّه نحو ١٥ ألف قدم ، فنسبة كل من هذه السدم الى جبل [الماترهورن] كنسبة ألف مليون شمس كشمسنا إلى جزء من مليون جزء من الأوقية . هذه صورة سعة الكون وشموسه (ولقد أوردنا كلاما يقرب من هذا فى سور كثيرة منها آخر سورة الكهف) . وقد قدّر الاستاذ [هبل] أن هذه السدم التى وصفناها تبلغ نحو مليونى سديم كلها منتشرة فى الفضاء الذى يمكننا رؤيته بتلسكوب مرصد جبل ولسن ، وأن فى الكون فضاء يفوق الفضاء الذى يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف ، فعدد السدم فى الفضاء كله يبلغ نحو ألفي مليون مليون سديم ، فاذا كان فى كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم التى فى الفضاء المنظور وغير المنظور نحو (٢) على يمينها (٢٤) صفرا أى : ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٢ — هذه هى الآراء التى وصل لها عقل الانسان الآن ، وأن النجوم التى أعظم أمرها الله هذا عددها وهذه مقاديرها ، وبهذا نفهم لماذا يقول : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » إذن الله ما أقسم بالنجوم إلا لعظم قدرها والله يقول اننا لانعلم قدرها إلا اذا علمنا ، فهذا هو العلم ، هذا هو العلم الذى به نعرف قيمة النجم ، فاذا لم يتعلم المسلمون هذه العلوم فانهم لا يعرفون قيمة القسم بالنجم فى أوّل هذه السورة ، وهذه من عجائب القرآن التى خبأها الله فيه لتبرز لأبناء المسلمين الذين يقرءون هذا التفسير فى حياتنا وفيما بعدها ، ومن عجب أن آية : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » جاءت فى سورة متأخرة عن سورة النجم وهى سورة الواقعة مشعرة بعظم هذا القسم ، ولله الحمد وله الشكر على العلم والفهم .

(٤) أقسم الله بالنجم على شرف الهداية المحمدية ليفتح لنا باب العرفان ، ولما فتح لى فى الصلاة ذلك الباب ولجت منه ، فدخلت فى دائرة المعارف ، فألفيت فيها تلاميذ مبتدئين ، وآخرين قد أتموا الدروس منتهين ، وفيها أساتذة معلمون مهذبون ، ولقد هالنى الأمر إذ وجدت فى هذه الدائرة كل ماجادت به الأمم المتحضرة فى دوائر تعليمها ،

محاورة بينى وبين صديقى العالم الذى اعتاد مجالستى فى هذا التفسير

فلما اطلع على ذلك صاحبى سكت واجما وقال نعم أحسنت فى ذكر النجوم وعددها ومقاديرها العظيمة وأحسنت أيضا فى ذكر القسم والابداع فيه ، وأن المسلم لن يعرف معنى هذا القسم ولا عظمته إلا بدراسة هذه العلوم حتى يعرف عظمة مبدع هذا الوجود ، هذا قول لامرية فيه وقد جمع الحسن كله ، فأما قولك انك وأنت فى الصلاة قد دخلت فى دائرة العرفان ، وأن تلك الدائرة حوت كل نظام علمى فى الأمم المتحضرة ، فهذا من الأقوال التى اعتاد الناس أن يرسلوها سبهللا ، ولعمر الله ماهذه بعادتك ، إن من نعم الله على أممنا الاسلامية أن الكتاب (بالتشديد) اليوم فيها يكتبون وأكثرهم يبرهن على ما يكتب وأنت منهم ، فكان الأجدر أن

تترك هذه الجملة الأخيرة وتحذفها من نظام هذا المقام . فقلت حياك الله أيها الأخ : لقد وقفت من الجملة على المبتدأ ولم تنتظر الخبر ، أوعلى الجملة ولم تصبر حتى ترى تفسيرها .

أيها الأخ : أنا جعلت الذين فى دائرة العرفان ثلاثة أقسام : قسم منهم مبتدئ ، وقسم منهم قد انتهى فى التحصيل ، وقسم بعد اتمام التحصيل يعلم غيره . قال نعم . فقلت : ان المبتدئ فى التعلم الآن فى بلاد الاسلام يجب على القائمين بتعليمه أن يقرنوا العلم بالتطبيق سواء أكان ذلك فى العلوم الرياضية أم الطبيعية أم الخلقية والأدبية ، أم فى العبادة ، وأى أمة علمت تلاميذها الأخلاق بلا ممارستها ، أوالحساب بلا تطبيق ، أوالنحو وما معه من علوم اللسان ، أوالدين بلا عمل ، فان هذا التعليم لافائدة منه .

فعلى المسلمين فى الأزهر ، وفى المعاهد الدينية ، وجميع مدارس الاسلام فى الشرق والغرب أن يمرّنوا التلاميذ من أوّل درس فى كل علم ، وذلك التمرين يختلف باختلاف العلوم ، وفى الدين يكون بالعبادة كالصلاة وكالتهجد ليلا ، وكالصدقات ، وكالصيام الخ .

فلما سمع صاحبى ذلك ظهرت عليه هيئة الانفعال والغضب ، وقال : ماهذا الذى تقوله ؟ أين هذه الأقسام الثلاثة ؟ أنت انما وصفت قسما واحدا وهم التلاميذ ، ولكنك لم تسمعنى من الآية شيئا ، فأما هذه الآراء فانك تعرفها من المدارس ومن الكتب ، فأما الآية فما الذى فيها من هذا ؟ فقلت : إن الأقسام الثلاثة فى هذه الآيات فان فى آخر سورة الطور التسبيح والتحميد ، و بعبارة أخرى قيام الليل ، وهذا من أعظم العبادات والعبادة تمرين على الايمان ، لأن الاستاذ يقول للتلميذ « الله خالق كل شىء » فاذا لم يكرّر التلميذ هذه المعانى فى الصلوات وغيرها حرم التمرين ، ومن حرم التمرين على النظريات عاش جاهلا ، فمن نشر التعليم الدينى ولم يمرّن المؤمنين على تلك النظريات بالأعمال الصالحة فدينه ناقص لاثمرة فيه والتمرين فى كل شىء بحسبه ، فأما فى معرفة الله فبالعبادات كالصلوات ، وأما فى الأخلاق فبالتعوّد عليها كالتعوّد على الصدق وعلى عدم اخلاف الوعد وعلى الاحسان ، و يبتدئ ذلك من أوّل الدراسة من أوّل سنى التمييز ، إذن آخر سورة الطور يشير إلى التمرين على المعارف الاسلامية ، وذلك التمرين ضرب له مثلا بالتسبيح والتحميد فى كل وقت وفى آخر الليل هذا هو القسم الأوّل وهو القسم الابتدائى ، فاذا أخذ التلميذ فى الترقى شيئا فشيئا فى المعارف وقد أتقن الدور الأوّل بالتمرّن على الطاعات فهو لاجرم يوما مّا واصل إلى النهاية المشار إليها بقوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى » وأخذ يصف تلك السدرة بأنها غشيها ماغشيها ، فهل كان يغشاها فراش من ذهب ، أو يغشاها ملائكة كأنها الطيور ؟ أوغشيها نورالله ؟ ونبقها كقلال هجر ، وأوراقها كآذان الفيلة ، أوهى تحمل الحلى والحلل والثمار من جميع الألوان ، والورقة منها لو وضعت فى الأرض لأضاءت لأهل الأرض وهى شجرة طوبى .

نحن لسنا فى مقام أن الأحاديث حسنة أوصحيحة أوضعيفة ، نحن فى مقام عام ، ان هذه الأوصاف كلها اعراب عن العجائب الإلهية ، فلتكن أنوار ، وليكن فراش من ذهب ، أولتكن حلى وحلل ، كل هذا عند حكماء الاسلام جمال الله وجلاله ، ولم يذكر فى الأحاديث من جماله وجلاله إلا ماتحتمله عقولنا ، فهذه المناظر غاية ماتسمح به مخيلاتنا الضعيفة فنخرج من هذا المقام بنعمة عظيمة ، وحكمة قويمة ، وآية مبينة ، ونعمة حديثة قديمة ، وهى أن المقام جمال وجلال وحكمة وبهاء ، وهذا كله ليس يدركه إلا الذين كان مبدؤهم العبادة كالمذكور فى آخر الطور ونهايتهم العلم بجمال الله وكماله ، وهوالمشار إليه بقوله تعالى : « وقل رب زدنى علما » فالنبى ﷺ فى كل وقت يزيد علما ، فلتكن سدرة المنتهى عظيمة جدا يسير الراكب فى ظلها أوفى ظل فرع منها مائة عام أوأكثر ، ولتكن الأنوار محيطة بها ، وليكن الفراش من الذهب حولها

وليكن الجمال كل الجمال فيها ، فالمنتهون فى العلم لن يقفوا فى معارفهم عنـد حدّ ، لأن الوقوف عن الرقىّ عذاب للواقفين .

إن نهاية كل امرىء أن يزداد علما فى كل ساعة من الزمان كما ورد عن سيدنا علىّ كرّم الله وجهه : « اذا طلعت شمس يوم ولم أزدد فيه علما فلابورك لى فى ذلك اليوم » وهذا هو الحقّ الصراح ، إذن هنا مرتبتان : مرتبة المبتدئين ، وهى أن يتمرّنوا على الايمان والاسلام بالعبادات ، ومرتبة المنتهين فى العلم ، وهم الذين درسوا هذا الوجود وأدركوا حقائقه بقدر طاقتهم .

وأما الدرجة الثالثة فهم أولئك المنتهون فى العلم إذ أخذوا يفيضون على تلاميذهم وعلى الأمة مما امتلأت به صدورهم ، فهؤلاء يفيضون على الناس من العلم الذى أحرزوه بالجدّ ، وثبتوه بالطاعة ، فصارت العلوم عندهم ملكات أشبه بالعواطف فيلقونها على الناس بعد إلقاء الأنبياء العلم للناس بالوحى ، وللاشارة إلى هذه الدرجة جاء انه ماضلّ وماغوى ، وانه ماينطق عن الهوى

ومن عجب أن وصف النبىّ صلى الله عليه وسلم بأنه يوحى إليه وأنه ما ينطق عن الهوى إنما ذكر بعد القيام بالليل مباشرة فى السورة قبلها للاشارة إلى أن التمرين بالعبادة على قواعد الايمان هو الأسّ الذى يبنى عليه نهاية العلم أوّلا وافاضته على الناس ثانيا ، ولاجرم أن النبوّة كانت على هذا المهيع ، فانه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد فى غار حراء ، ثم أفيضت عليه العلوم بالوحى وأفاضها على الناس ، فهاتان المرتبتان مؤخرتان عن العبادات ، وهى التمرين العملى على القواعد الدينية .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : هـذه الآراء جميلة وهى من جهة أخرى غريبة ، فاذا أفضت فيها بشرح يكفل تبيانها بضرب أمثال تكون المثالة قد أثمرت وآتت أكلها باذن ربها . فقلت اسمع ياصاح زادك الله هدى وآتاك تقواك : ماذا يفعل الناس فى تعليم النحو ؟ قال : يبتدئون بمعرفة الاسم والفعل والحرف ، ويركبون الجمل ، ويأتون بأقسام الأسماء والأفعال والحروف وماتفرّع منها ، ويبينون النصب والرفع والجرّ وهكذا . فقلت : والصرف ؟ فقال : يأتون بالمصادر ويشتقون منها الأفعال وأسماء الفاعلين والمفعولين وهكذا . فقلت : وعلم المعانى ؟ فقال : يأتون بالخبر والانشاء والمسند ، والمسند إليه ، وحذفهما وذكرهما وتوابعهما وقصرهما والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب ، والمساواة ، وهكذا . فقلت : والبيان ؟ فقال يأتون بالتشبيه والمجاز والكناية وما أشبهها ، ويفصلون الكلام تفصيلا . فقلت : والبديع ؟ قال يأتون بالمحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس وأنواعه والطباق والاستخدام وهكذا . فقلت : والحساب ؟ فقال : يجمعون ويطرحون ويقسمون ويضربون ، ويأتون بأبواب كثيرة مبنية على ذلك مثل الخطيطة الداخلية والخارجية ، وحساب الكسور ، وحساب اللوغارتم ، والقاعدة الثلاثية البسيطة والمركبة وهكذا . فقلت : والهندسة ؟ فقال يأتون فيها بالنقطة والخط المستقيم والمنحنى والسطوح والأجسام التعليمية والمربعات والمخمسات وهكذا ، والدوائر والكرات ، وسطوح الكرات ، والاسطوانة والمكعبات وهكذا ، والمخروط ومأشبه ذلك ، ويبنون بعض هذه على بعض فالخطوط تكون منها الزوايا ، ومن الزوايا الثلاث تكون المثلثات ، ومن المثلثات يكون من كل اثنين منها مربع ، وبازدياد مثلث آخر يكون المخمس ، وهكذا يقال فى مساحة محيط الدائرة ومساحة نفس الدائرة وسطح الكرة وحجم الكرة (انظر هذا المقام موضحا إيضاحا تاما فى سورة الروم عند قوله تعالى : « فطرت الله التى فطر الناس عليها » الخ) . فقلت : والطبيعة ؟ فقال : يأتون بأقسام الجسم من حيث انه صلب أوسائل أوغاز ويأخذون فى تقسيم هذه الأجسام كلها ، ويبحثون فى خواصها ، وهى قسمان : خواص عامّة لجميع الأجسام ، وخواص يختص بها أنواع من الأجسام ، فالمسام عامّة فى الأجسام ، وكذا عدم التدخل ، ومثل السرعة فى

الضوء ، وسرعة الصوت وهكذا ، و يبحثون فى الحرارة والضوء والصوت والكهرباء والمغناطيسية وهكذا ، فأما الكيمياء فانهم يبحثون فيها عن اتحاد الأجسام بحيث تصبح بعد تركيبها فاقدة خواصها الأصلية كما فى تركيب الماء من الاكسوجين والادروجين فان خواص الماء وكذا خواص الحيوان والانسان والنبات غير خواص العناصر التى تركبت منها . فقلت : بناء عليه يكون علم الطبيعة أقرب الى علم المعانى ، ألا ترى رعاك الله أن الماء اذا صار ثلجا أو صار بخارا فانه يكون أشبه بالمعنى الواحد يذكر بطرق مختلفة مرة بالايجاز، والمساواة أخرى والاطناب آونة فالمساواة كحال الثلج ، لأنه يكون أكبر من حجم الماء ، والماء كالايجاز ، والغاز كالاطناب ، وهكذا نرى علم البيان يقرب من الكيمياء فله بها نوع من الشبه بسيط لأننا نخرج عن اللفظ الحقيقى ونتجوّز له بلفظ فهو أشبه بانقلاب العناصر إلى مركبات بخواص جديدة .

فقال صاحبى حسن ماتقول . فقلت : كيف أجبتنى حين سألتك عن هذه العلوم ؟ فقال : تلك الاجابة حضرت عندى لأنى مرنت على هذه العلوم . فقلت حسن جدًّا ، وهناك علم آخر يعوزه التمرين مثل هذه العلوم ، فاذا كان النحوى وعالم الحساب والهندسة لايحسن أحدهم إفاضة هذه العلوم على الناس إلا اذا ثبتت تلك العلوم فى نفسه بسبب التمرين وقتا بعد وقت فيركب جملا معربة أومبنية و يصرف المشتقات و يأتى بعمليات الحساب و يحلها ويحل مسائل الهندسة والطبيعة ، و يدخل المعمل بالمدرسة لأجلها ولأجل الكيمياء ، هكذا هناك علم آخر له تلاميذ يتعلمون و يصيرون أساتذة ، ولن يفيضوا العلم على الناس إلا بعد أن يثبتوا قواعد ذلك العلم بالتمرين ، ومن هم هؤلاء الناس ؟ هم هداة النفوس ، فأما العلماء المتقدّمون فانما يعلمون أمورا أقرب إلى الأجسام الحسية ، أما هداة النفوس فعلومهم وتمارينهم كلها نفسية ، وهؤلاء لن تعيش أمة فى الأرض إلا بأن يكون هؤلاء منبثين بين أفرادها ، وعلم هؤلاء معرفة الله وتوحيده ، وتمرينهم هى الصلوات ، فاذا قرأ الناس دينا ولم يمرّنوا نفوسهم على صلواته فان هذا الدين لايرفع هذه الأمة كما لايرفع علم الحساب ولاعلم النحو صاحبيهما إلا اذا كانا قد تمرّنا على هذين العلمين ، فاذا سمعنا الله يقول فى آخر سورة الطور : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » قلنا هذا هو تمرين هذه الطبقة على قواعد علمهم كما يتمرّن النحوى على المرفوع والمنصوب ، فالنحوى يحفظ لسانه بذلك التمرين ، وهذا العالم النفسى الدينى يرفع نفسه بالصلاة وتصبح نفسه ذات صلة بخالقه لكثرة التكرار فى الصلوات كما يتكرّر الحل لمسائل الحساب فذاك يحلّ مشاكل الحساب بسهولة وهذا تتوارد المعانى على قلبه بسبب تكرار الصلوات والعبادات ، وهذا هو السرّ فى ذكر الوحى بعد قيام الليل .

اسمعى يا أمة الاسلام : يجب تغيير المناهج الحالية ، أظهروا عواطف الاسلام ، لاتبتدئوا بعلم الفقه كرة واحدة بحذافيره ، بل يجب الابتداء بما يرقق القلوب و يصفيها ، فتذكرون صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ورحمته وأخلاق أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وليحذف من التعاليم كل خلاف شجر بين الصحابة ، ثم لتسمعوهم جمال الطبيعة المسمى بعلم الأشياء مقرونا بالآيات القرآنية ، وأنتم فى ذلك تصلون معهم صلاة حاضرة فيها قلوبهم ، بل مروهم أن يقوموا بالليل كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم فهذا التمرين لابد منه حتى يثبت حب الله فى قلبه و يمتزج بدمه ، ثم بعد ذلك ادرسوا علوم الفقه والاصول والعلوم الأخرى كما تشاءون .

لماذا وجب المران فى كل شىء

قد ظهر أن المادّة ليست شيئا مذكورا ، اللهم إلا أنها أنوار متحركة اجتمعت وقد اختلفت مظاهرها باختلاف حركاتها (انظره فى سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) .

ياعجبا : إذن أجسامنا نور متكاثف ولكنه متحرّك حركات سريعة جدّا تبلغ نحو ستة آلاف مليون مليون حركة فى الثانية ، ثم ان هذه الأجسام لاتظهر ثمراتها إلا بالحركات كأن ندلك الأجسام بهيئة خاصة فتكون الكهرباء كأنها لما كانت دائمة التحرّك أبت أن يستخرج مافيها من الأسرار إلا بحركات جديدة غير حركاتها الطبيعية ، العالم حركات منظمات لاغير فى شيء سموه الأثير ، ولن تستخرج كنوز المادّة إلا بالحركة أيضا ، ولوأ مكن استخراج مافى الجوهر الفرد بأى عمل كان وخرج منه ماكان كامنافيه لأخرج حرارة وضوءا بهما تصبح الأرض مشتعلة جميعها . هذا كلام علماء زماننا .

الله أكبر : إذن نحن الآن فى وسط عجائب وغرائب ؛ إذن جسمى أنا فيه من الكنوز مالاحصر له ، وذلك فى ذرّاته هوالمادّية ، واذا كان جسمى على هذا النمط فكيف بأرواحنا ! تلك الأرواح التى لها صلة مّا بصانع العالم ، وهوعلى طريق المجاز نور وشعاع من ابداعه فلها قرب ما ، ولكن لن يستخرج ما كمن فيها إلا بالعبادات لأنها تكرار وتمرين على القواعد الكلية للدين ، فبها يذكر اسم الله ، وتذكر نعمه ، ويتوجه العبد إليه ،

فاذا كان الجوهرالفرد باستخراج ما كمن فيه إن أمكن يقلب الأرض كلها ، فرجل واحد اذا استخرجت قواه بالصلوات والعبادات ، وكان ذا قلب سليم محبّ للعلم مخلص فهذا يقلب نوع الانسان كله أو بعضه ، وهؤلاء هم الأنبياء ويتبعهم المخلصون المحققون من أممهم .

وملخص هذا المقام أن العلوم لايتمّ الانتفاع بها إلا بالتمرين ، وأجلّ العلوم معرفة الله ، وهذه لاتتمّ إلا بالعبادات ، وهذه العبادات مثبتات لتلك المعرفة ، معينات على تلقى ذلك العلم إلى النهاية فيصل لربه ويصير مرشدا للأمم ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم كان يصلى بالليل ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، وأوحى إليه ، فهدى الناس ، وهكذا تابعوه المخلصون من هذه الأمة لكنهم لايوحى إليهم بل يهتدون بهديه ويصلون ، وخواصهم يقومون الليل كما كان يقوم ، ويتعلمون ويفتح عليهم ، ويقرءون علوم الأمم حتى اذا ماسمعوا أن شجرة المنتهى يسير الراكب فى ظل كل فنن من أفنانها مائة سنة ، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب فانه يقول إن العلوم اليوم قرّبت هذه المسائل لأننا اذا رأينا فى السديم المتقدم ذكرها وهى ألفا مليون مليون سديم ، وكل سديم منها فيه ألف مليون شمس على الأقلّ ، والضوء يجرى فى مجرّتنا وحدها مئات الألوف من السنين فهذا معناه أن عالم المادّة مدهش وعجيب فكيف بعالم الغيب الذى لايعرفه إلا الأنبياء ، فأصبحت العلوم اليوم مفهمات ومقرّبات لمسائل الدين .

فلما سمع ذلك صاحبى قال الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات ، والى هنا تمّ الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة . انتهى ليلة السبت ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣١ م

مقدمة فى مناسبة هذه السورة لما قبلها

لقد ختمت السورة المتقدمة بعبادات تقرّب العبد من الله ، وأخلاق شريفة : كالصبر على مايصيب الانسان ، وأن يقول المرء عند القيام من الليل ، وعند القيام إلى الصلاة ، وعند القيام من أى مجلس كان : « سبحانك اللهم وبحمدك » ونحوها ، وبالعبادة ليلا كصلاة المغرب والعشاء ، وكصلاة ركعتين بعد الفجر اذا أدبرت النجوم ، وهماركعتا الفجرقبل الفرض كما أن ادبارالسجود الركعتان بعدالمغرب ، فهذه العبادات مذكرات بالله ، مقرّبات العبد من ربه ، لأن كثرة الذكر تؤثر فى النفس ، تستحضر المذكور استحضارا تقرّ به النفس على طول الزمان ، وذلك هوالذى يهيئ النفس الانسانية للالهام فى عامة الناس وللوحى فى الأنبياء ،

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يتعبد فى غار حراء فأوحى إليه ، فههنا ذكرت العبادة فى آخر [سورة الطور] وانبعث بالوحى فى [سورة النجم] تعليما للأمة أن من أكثر من ذكر الله عند قيامه من النوم ، ومن مجلسه ، وللصلاة ، وصلى المغرب والعشاء بحضور قلب ، وفى بعض الليل ، وركعتى الفجر ، فانه أقرب إلى الالهام من غيره .

وينبغى لمن يتصدّى لارشاد الأمة أن يكون هذا خلقه ، فان لم يفعل ذلك كانت آثاره ضائعة فى الأمة لأن النفوس التى لاتشرق بذكر الله لاتؤثر فى الأمة ، وكأنّ الذاكر باقتراب قلبه من المذكور يتجلى عليه فيفيض العلم على قلبه فتحس النفوس بذلك الفيض فتقبله ، وفى ذكر إدبار النجوم وتعقيبه بالنجم اذا هوى مناسبة لطيفة ، وكأنه يقول : أيها الناس : انه ﷺ يقوم الليل و يصلى المغرب والعشاء ، ويذكر الله عند قيامه من النوم ، وعند قيامه للصلاة ، ويصلى ركعتى الفجر ، فهو فى عبادة إلى مطلع الفجر اذا أدبرت النجوم فاستحق بذلك أن أفيض عليه العلم والوحى ، وذلك فى :

القسم الثاني فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه . وفى قربه من ربه

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والنجم اذا هوى) أى أقسم بجنس النجوم اذا غربت أوطلعت ، يقال هوى هَويا [بالفتح] اذا سقط وغرب ، وهويا [بالضم] اذا علا وصعد ، أوبالنجم من نجوم القرآن اذا نزل ، فالنجم السماوى عند شروقه وعند غروبه يشعر النفوس بجمال الابداع وحكمة الخالق وهكذا نجم القرآن وقد نزل القرآن فى عشرين سنة ، أقسم الله بذلك وجواب القسم قوله (ماضلّ صاحبكم) ماعدل محمد ﷺ عن الطريق المستقيم (وماغوى) وما اعتقد باطلا ، والخطاب لقريش (وماينطق عن الهوى) أى بالهوى : أى لايتكلم بالباطل ، وذلك ردّ لقولهم : ان محمدا يقول القرآن من تلقاء نفسه (إن هو إلا وحى يوحى) أى ما القرآن إلا وحى يوحيه الله إليه (علمه شديد القوى) ملك شديد قواه وهوجبريل ، ويقال انه اقتلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه ، ورفعها إلى السماء ، ثم قلبها ، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، هذا هو الذى يقوله علماء التفسير رحمهم الله ، وقد جاء فى علم الأرواح الحديث أن للأرواح من القوى مايعجز البشر ، وكلما ارتقت الروح كانت أعلم وأقدر على الأفعال العظيمة ، ولقد مرّ عليك فى هذا التفسير فى [سورة البقرة] مارفعه خمسة عشر ألف نفس إلى مجلس الأعيان فى الولايات المتحدة وقولهم : انا رأينا أنوارا وسمعنا أصواتا وشهدنا زلزلة وأمورا عظاما ، فها نحن أولاء جئنا إلى مجلسكم الموقر لتستجلى حقيقة الأمر فى ذلك ، وهذا عند استحضار الأرواح الى آخر ماهناك وقد ذكرته هناك بلفظه فارجع إليه ، واذا كان هذا فى الأرواح التى فارقت أرضنا فما بالك بالأرواح العلوية كجبريل ، فانظر للعلم الحديث كيف أظهر ما كان العقل لايصدّقه وانما يؤمن الناس به إيمانا ، فالملائكة أقوياء الأجسام فى عقولهم حصافة رأى وتدبير وحكمة ، وهذا هو قوله (ذومرّة) ولعلك تذكر مامرّ فى هذا التفسير نقلا عن علماء الطبيعة فى أوروبا لاسيما [أوليفرلودج] وقوله : « اننى أصبحت موقنا أننا يحيط بنا عالم نحن بالنسبة إليه كالنمل بالنسبة لنا وهم يساعدوننا و يحافظون علينا و يقول هذا وقفت عليه بطريق علمى يريد تحضير الأرواح ، ثم قال : فاذن ما قاله القديسون من أنهم رأوا الملائكة ، أوأنهم رأوا الله ، كل ذلك حقّ لامرية فيه ، وهذا من عجائب القرآن ، إن سمعيانه أصبحت اليوم تذاع بين الناس بصفة علوم

روحية وكشف حديث ، وذلك هوقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » فقوله «فى الآفاق» راجع لما كشف حديثا كالبحر المسجور المتقدّم ، وقوله « وفى أنفسهم » كقوله « شديدالقوى ذومرّة » فان القوّة الجسمية والعقلية للعالم الروحى قد ظهرت بطريق علم الأرواح ، وهذا يستحيل أن يعرفه الناس إلا بالاستحضار أوالتنويم المغناطيسى ، وكلاهما لن يكون إلا بالأنفس البشرية ، فان التنويم المغناطيسى معناه انخلاع النفس عن البدن انخلاعا جزئيا أوكليا وهى به مربوطة وهناك تتصل بالعوالم الروحية ، فاذن معرفة العالم الروحى لم تتم إلا بواسطة أنفسنا ، ولعلك تذكر مامرّ فى [سورة البقرة] من تنويم المريض حتى اطلع على مرضه وعلى دوائه ، و بين أوقات المرض المقبلة بالدقة ، و بين الأدوية اللازمة ، وهذا كان أمام أكابر الأطباء بفرنسا كماشرحته هناك ، وتمّ كل هذا بعد الامتحان الدقيق والحرص الشديد والانتباه التامّ ، فهذه النفوس الانسانية المتعلقة بأجسامنا هذا شأنها ، ومن شأنها أن تنطلق وتكلم الأرواح الأخرى كما عرفت ، فهذا هوالمقصود من إراءتنا آيات الله فى الأنفس والآفاق ، ولقد تجلى لك فى هذا التفسيرا كثر ماتجلى فى الآفاق من عجائب الطبيعة ، وماتجلى للأنفس من عالم الأرواح والملائكة ، وسترى بعدذلك مايظهر من العجائب ، فعلى المسلمين أن يفكروا فيها ، وأن يعلموها ، وقوله (فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أوأدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى) أى استقام على صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها حين أحبّ رسول الله ﷺ أن يراه فى صورته الحقيقية ، فظهر له فى الأفق الأعلى : وهو أفق الشمس ، فلأ الأفق ، ثم أخذ جبريل يدنو من رسول الله ﷺ ويتدلى : أى يزيد فى القرب والنزول بقرب النبيّ ﷺ حتى كان منه مقدار قوسين ، والعرب تقدّر بالقوس و بالرمح و بالسوط و بالذراع والباع : أى فكان مقدار مسافة قربه مثل قدرقوسين أوأقرب على تقديركم ، وعلى مقدار فهمكم ، إذ تقولون قدر رمحين أوأنقص ، وليس بعدالتدلى والقرب إلاالوحى ، فأوحى جبريل إلى عبدالله محمدصلى الله عليه وسلم ماأوحى ، عبر بذلك تفخيما للوحى به ، مثل انه أوحى إليه « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلاتقهر ، وأما السائل فلاتنهر ، وأما بنعمة ربك فحدّث » وهذا من عظائم الأمور ، ولا جرم أن ظهور الأرواح فى صور مرئيــة أصبح الآن معروفا ، وقد قصّ علماء الأرواح عجائب ، إذ تظهر الروح فى صور بشرية وصور نورية وتخاطبهم ، وذلك فى حال التنويم المغناطيسى ، وتحضرالفوا كه ، وقد تمّ ذلك فى جهات كثيرة من الأرض والمسلمون لايعلمون ، وقد ذكرت كثيرا من هذا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، ظهر ذلك على يد الأمم الأوروبية من أرواح ليست فى شرف جبريل ، ولاهى مستنزلة على أنبياء ، بل على أناس امتازت قواهم بأنها مستعدّة للتنو يم المغناطيسى وان لم تكن قدسية كأرواح الأنبياء ، فاذا صحّ هذا بالنسبة لآحاد الناس اليوم فليكن للأنبياء من باب أولى بطريق يناسب مقامهم ، إذ لاتتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلى والمتجلى عليــه ، وهمنا ظهر جبريل لنبينا ﷺ وتبدّت صورته له صلى الله عليه وسلم وهذا راجع لقوله : « شديد القوى » لأن ظهوره فى صورة مرئية راجع لقوّته وشدتها ، وقوله : « فأوحى إلى عبــده ما أوحى » راجع لقوّته العلمية : أى قوله « ذومرّة » فهو على سبيل اللف والنشر المرتب ، ولما كان الانسان كثيرا مايظن أنه قد تخيل ما رآه ويكذب قلبه ماظهر له ، بل قال علماء الأرواح انهم لما خاطبوا الأرواح قالوا لهم : انكم كثيرا مايظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتنسبونها إلى خداع الحواس ، فالناس فى أكثرأحوالهم يكذبون مايقع لهم من غرائب الأرواح مع أن فيهم من هم أقرب استعدادا لتجليها ، فلما كانت هذه عادة الناس أعقبه الله بما يفيد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يقم بنفسه ان هذا خداع الحواس ولأنه وهم فقال (ما كذب الفؤاد ما رأى) أى ماقال فؤاده لما رآه لم أعرفك كما يحصل

لبعض العامة بعض التجليات الجزئية فيظنونها وهما لأنهم ليسوا مؤيدين من الله (أفتمارونه على ما يرى) أفتجادلونه على ما رآه بعينه تلك الليلة ، بل صدقه وحققه (ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى) أى ولقد رآه مرة أخرى كما رآه هذه المرة فكان ظاهرا له بهيئته ، فكان قاب قوسين أوأدنى ، فأوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم فما حصل فى الأولى حصل فى الأخرى ، ولم يكن ذلك فى الأرض ، بل كان عند شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش ، وهى فى منتهى الجنة أى آخرها ولم يجاوزها أحد فى الرقىّ من الخلائق وعلم الملائكة ينتهى إليها ، وماوراءها غيب لايعلمه إلا الله ، وأرواح الشهداء أيضا تنتهى إليها ، أوهى منتهى مايعرج من الأرض فيقبض منها ، واليها ينتهى مايهبط من فوقها فيقبض منها . وفى الحديث ان نبقها كقلال هجر ، و إن أوراقها كآذان الفيلة ، وقد غشيها من نور الله ماغشيها فتغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، ومن وصفها ان الراكب يسير فى ظلّ الفنن منها مائة سنة ، أو يستظل بظلها مائة ألف راكب فيها فراش الذهب ، ووصفها مقاتل أنها شجرة تحمل الحلى والحلل والثمار من جميع الألوان ولوأن ورقة وضعت منها فى الأرض لأضاءت لأهل الأرض ، وهى شجرة طوبى التى ذكرها الله فى [سورة الرعد] ولقد فهمت من هذا الملخص قوله تعالى (عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة مايغشى) أى رآه إذ يغشى السدرة مايغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ، ومن الأنوار والاشراق والبهجة والحسن والنضارة ، ومن الملائكة ، ومن فراش الذهب ، من كل ماورد فى الحديث (مازاغ البصر) أى بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أى ماعدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها ، وما مال يمينا ولا شمالا (وماطغى) وما جاوز ما أمر برؤيته (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى والله لقد رأى الكبرى من آياته وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج ، ومنها نور رب العزة الذى غشى السدرة فلم يزغ بصره ، بل ثبت فى ذلك المقام الذى تزلّ فيه الأقدام حافظا قواه ، والآيات الكبرى منها ماذكر ومنها مالم يذكر ، ومنها أنه رأى رفرفا أخضرسدّ أفق السماء ، وانه رأى جبريل له ستمائة جناح .

ثم كأن الله يقول : هذا وصف ما رآه ، فماذا رأيتم أنتم أيها المشركون ؟ فهل ترون فى اللات والعزى ومناة من العجائب مارأى محمد ؟ وكيف تحصرون نفوسكم فى العالم المادّى وأصنامه وتقطعون على أنفسكم طريق الوصول والارتقاء ، إن النفس لاترقى إلا بما استعدّت له ، فاذاوقفت نفوسكم عندهذه المادّة وأصنامها لم يكن لها عروج إلى السماء :

القسم الثالث : تقريع المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام

ونسبتهم البنات الى الله ، وأخذهم بالظن وبخلهم ، وفى حكم علمية ، وفى صفات لله علية

قال تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى) هذه الثلاثة أصنام كانت لهم ، فاللات كان رجلا يلتّ السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، ثم صنعوا له صورة تعبد ، والعزى شجرة بغطفان كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها ، فجعل يضربها بالفأس و يقول :

ياعزّ كفرانك لاسبحانك * إنى رأيت الله قد أهانك

ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، أولثقيف ، وكانت دماء النسائك تمنى عندها أى تراق ، وقوله الأخرى صفة ذم : أى المتأخرة الوضيعة المقدار كما فى قوله تعالى : « وقالت أخراهم لأولاهم » أى وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم ، ولفظ الأخرى متعارف بين أبناء العرب المصريين بهذا المعنى فيقولون هوالآخر وهى الأخرى بمعنى الضعة ، وتأخر القدر والشرف .

ولما قرعهم على تنزل عقولهم لعبادة الأصنام ، وتناهيها فى الجهالة ، وسقوط المنزلة عن المقام الأرفع عند سدرة المنتهى أخذ يذكر جهالات أخرى من جهالاتهم فقال (ألكم الذكر وله الأنثى) كانوا يزعمون أن هذه الأصنام هياكل للملائكة ، أومواطن لجنيات تسكنها ، والملائكة والجنيات بنات الله ، أفرأيتم هذه الأصنام الثلاثة [ألكم الذكر وله الأنثى] تقريعا لهم وتوبيخا ، إذ يجعلون هذه الهيا كل لبنات الله من ملائكة أوجن ، وهم يأنفون من البنات ، ويصطفون الذكور . فكأن الله قد منحهم ماحرمه على نفسه ، فقوله « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » مفعوله الثانى « ألكم الذكر وله الأنثى » كقوله « أفرأيتم ماتمنون أءنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » (تلك إذن قسمة ضيزى) جائرة حيث جعلتم له ماتستنكفون منه وهى فعلى كفضلى من الضيز وهو الجور لكن كسرت فاؤه لتسلم الياء (إن هى إلا أسماء) أى ان الأصنام من حيث الألوهية إلا أسماء تطلقونها عليها وتقولون انها آلهة وليس فيها شىء من معنى الألوهية (سميتموها) أى سميتم بها (أنتم وآباؤكم) بهوا كم (ما أنزل الله بها من سلطان) برهان (ان يتبعون إلا الظن) إلا توهم أن ماهم عليه حق تقليدا وتوهما باطلا (وماتهوى الأنفس) وماتشتهيه أنفسهم (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) الرسول أوالكتاب (أم للانسان ماتمنى) بل ألالانسان مايتمناه : أى ليس له كل ما يتمناه ، إذن ليس لهم مطمع فى شفاعة الآلهة المخترعة وليس لهم أن يطمعوا حيث يقولون : « ولئن رجعت إلى ربى ان لى عنده للحسنى » ويقولون «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وما أشبه ذلك ، ومثل هذا أمانى الانسان فى نفسه أوأمته ، فالله هوالمدبر ، وعلى الانسان العمل والجد (فلله الآخرة والأولى) يعطى منهما مايشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه فى شىء منهما (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا) أى وكثير من الملائكة لاتغنى شفاعتهم شيئا ولاتنفع ، فاذن أمر الشفاعة ضيق فان الملائكة مع قربهم من ربهم وكثرتهم لوشفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم قط ولم تنفع إلا اذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له ، واذا كان هذا أمر الملائكة الذين هم عالم روحى أقرب إلى الرب من الأصنام وعباد الأصنام ، فكيف يكون الأمر إذن فى أصنام أرضية ميتة لاروح لها فى غاية البعد عن ذلك المقام الأقدس ، وبهذا فهمت قوله تعالى (إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة) أى كل واحد منهم (تسمية الأنثى) بأن سموه بنتا (ومالهم به من علم) أى ومالهم بما يقولون من علم (ان يتبعون إلا الظن وان الظن لايغنى من الحق شيئا) فان الحق الذى هوحقيقة الشىء وماهوعليه إنما يعرف بالايقان لا بالظن والتوهم (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) فأعرض عمن رأيته معرضا عن ذكر الله وهوالقرآن (ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك) أى اختيارهم الدنيا والرضا بها (مبلغهم من العلم) منتهى علمهم (إن ربك هوأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) يقول انه يعلم من استعد للهداية ومن ليس أهلا ، فلاتتعب نفسك فى دعوتهم إنما عليك البلاغ (ولله مافى السموات ومافى الأرض) خلقا وملكا وعبيدا يهدى من يشاء ويضل من يشاء (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) أى بعقاب عملهم (ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى بالمثوبة بالحسنى وهى الجنة على مقتضى النظام الذى وضعه بحيث يسير كل فى الطريق الذى قدره له الله على مقتضى الاستعداد . ثم وصف المحسنين فقال (الذين يجتنبون كبائر الاثم) أى الذنب الذى يستحق صاحبه العقاب (والفواحش) جمع فاحشة ، وهى ماعظم قبحه من الأفعال والأقوال (إلا اللمم) إلا ماقل وصغر من الذنوب أومقاربة المعصية من غيرمواقعة ، فهذامغفور من مجتنبى الكبائر ، والاستثناء منقطع (إن ربك واسع المغفرة) حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، وله أن يغفرمايشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ، وانما ذكرها هنا لئلا ييأس صاحب الكبيرة

من رحمة الله ، والكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار ، أوغضب ، أولعنة ، أوعذاب ، أوحدّ فى الدنيا ، أوأقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أوندم ، أوترتب عليه مفاسد كبيرة ، ولوكان فى نظر الناس صغيرا ، فمن أمسك انسانا ليقتله ظالم ، أودلّ العدوّ على عورات البلاد ، فقد فعل كل منهما أمرا عظيما فيكون أكل مال اليتيم بالنسبة لهذين قليــلا جدا مع أنه من الكبائر ، ولوكذب على انسان كذبا يعلم أنه يقتل بسببه فهذا من الكبائرأيضا ، فأما اذا كذب عليه وترتب على الكذب أخذ تفاحة منه فليس من الكبائر . يقول الله انه واسع المغفرة (هوأعلم بكم) أعلم بأحوالكم منكم (إذأنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) أى علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتدأ خلقكم من التراب وحين صوركم فى الأرحام (فلاتزكوا أنفسكم) تنسبوها الى زكاء العمل ، وتثنوا عليها بزيادة الخير والطاعات ، أو بالطهارة من المعاصى ، فدعوا الثناء عليها واهضموها ، إن الله علم الزكى منكم ، والتقى أوّلا وآخرا قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم .

وسبب ذلك أن ناسا كانوا يعملون أعمالا حسنة ويقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا ، وكان ذلك على سبيل الاعجاب والرياء ، وليس على سبيل الاعتراف بالنعمة فانه جائز ، والمسرّة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر مالم تصبح كالحجاب على النفس فتمنع مايرد عليها من الواردات كما تقدم منقولا عن الامام الغزالى فى [سورة آل عمران] وهذه الآية كآية : « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم » فهناك يقول : كل شيء فى كتاب فما جاءكم من نعمة أوفاتكم منها فينبغى أن لايؤثر فيكم فرحا ولاترحا لأنا نحن كتبناه فى كتابنا ، فهكذا هنا يقول : لاينبغى تزكية النفس لأن ماعملناه مقدر . وملخص الآيتين أن الكامل لايفرح بنعمة ، ولايحزن بنقمة ، ولايفتخر بفضل ، لأنه لاعمل له ولاتقدير والعمل لله وحده ، وهذه مرتبة شريفة متى وصلها الانسان كان سعيدا ، وهذه هى التى نقولها فى صلواتنا فى الرفع والاعتدال : « أهل الثناء والمجد أحقّ ماقال العبد ، وكلنا لك عبد ، لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولارادّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » فهذا الدعاء يقصد منه الاستكمال بهذه المنقبة الشريفة ، وقوله (هوأعلم بمن اتقى) أى يعلم التقىّ وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم (أفرأيت الذى تولى) أعرض عن الايمان (وأعطى قليلا وأكدى) قطع عطيته وأمسك ، وأصل ذلك أن الحافر تلقاه كدية أى صخرة عظيمة فيمسك عن الحفر (أعنده علم الغيب فهو يرى) أن الكفر والبخل من الأعمال النافعة عند الله (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى) أى بل ألم يخبر بما فى صحف موسى وهو التوراة (وابراهيم) أى وصحف ابراهيم (الذى وفى) أى وفى وأتمّ فما أمره الله بشيء إلاوفى به ولم يسأل مخلوقا ، فلما قذف فى النار قال له جبريل : ماحاجتك ؟ فقال أما إليك فلا ، وأيضا صبر على نار النمروذ وذبح ولده ، وقد كان يمشى كل يوم فرسخا يرتاد ضيفا فان وافقه أكرمه والانوى الصوم . ثم ذكر الله مافى صحفهما وهو ماياتى :

(١) أن لايؤاخذ الانسان بذنب غيره .

(٢) ولايثاب إلا على عمله .

(٣) وأن عمله سوف يرى يوم القيامة فى ميزانه .

(٤) وانه يجازى عليه الجزاء الأوفر .

(٥) وأن انتهاء الخلائق ورجوعهم إنما هوإلى ربهم فيجازيهم بأعمالهم .

(٦) وأن الله خالق الضحك والبكاء والفرح والحزن .

(٧) والموت والحياة .

(٨) وأنه خلق الذكر والأنثى من نطفة اذا تصب فى الرحم .

(٩) وهوالذى أعطى الغنى ، وأفاد القنية وهى أصول الأموال ومايدخرونه بعد الكفاية .

(١٠) وأنه هورب الشعرى ، وهوكوكب يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحرّ وكانت خزاعة تعبدها فقال الله كلا انه هوربها ، وأوّل من سنّ لهم ذلك أبوكبشة من أشرافهم عبدها . وقال : لأن النجوم تقطع السماء عرضا ، والشعرى تقطعها طولا ، فهى مخالفة لها فعبدها ، وخزاعة تبعه ، وتسمى الشعرى أيضا [كاب الجبار] والشعرى اثنتان : يمانية وشامية ، والمجرّة بينهما ، واحداهما تسمى العبور ، والأخرى تسمى الغميصاء وهى أخفى من العبور ، والمراد هنا العبور .

(١١) وأنه أهلك عادا الأولى القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح .

(١٢) وثمود فما أبقى الفريقين .

(١٣) وقوم نوح من قبل عاد وثمود ، وقد كانوا أظلم وأطغى من الفريقين ، فلقد كانوا يؤذونه وينفرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به حراك .

(١٤) والمؤتفكة : وهى القرى التى ائتفكت بأهلها : أى انقلبت ، وهى قرى قوم لوط ، أهواها الله وأسقطها ، فهو بعد أن رفعها قلبها (فغشاها ماغشى) فيه تهويل عظيم .

هذه أربع عشرة مسألة مذكورة فى صحف موسى وابراهيم وانما جيء بها لأن الذى تولى وأعطى قليلا وأمسك عطاءه غافل عن علم الله وعن العلم الذى أنزل على أنبيائه ، ومن هذا العلم هذه المسائل ، ومنها أنه لاينفعه إلا ماعمل من صالح كالعطاء فلماذا يمسكه ، والعطاء بدون ايمان لاينفع فكيف يعرض عن الأصل وهوالايمان وعن الفرع وهوالعطاء ، وأكثرالمفسرين رحمهم الله أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يتبع رسول الله ﷺ فعيره بعض المشركين وقال تركت دين الأشياخ وضللتهم فقال أخشى عذاب الله ، فضمن بعضهم أن يتحمل عنه العذاب ان أعطاه بعض ماله ، فارتد وأعطى بعض المشروط ثم بخل بالباقى ، فهذا يذكره الله بأنه لم يطلع على علم الله حتى يعرف حقائق الأشياء وأن فعله المذكور ليس مرضيا عند الله ، وانه لا يؤاخذ أحد بذنب أحد فكيف ظنّ أن ذلك الرجل يتحمل عنه ذنبه يوم القيامة والآية عامة لاتختص بهذا السبب ولا بغيره كما رأيت .

ولما عدّد الله تلك المسائل وفيها عبر وحكم ، ومتى اعتبربها الانسان صارت نعمة قال تعالى (فبأىّ آلاء ربك تتمارى) أى فبأىّ نعم ربك أيها المخاطب تتشكك أبما أولاك من النعم أم بما كفاك من النقم ؟ وكلها دالة على وحدانية ربك وربوبيته فبأيها تتشكك مع أنها واضحة (هذا) أى محمد (نذير) منذر (من النذر الأولى) من المنذرين الأوّلين ، أوالأولى على معنى الجماعة ، أوالقرآن نذيرمن جنس الانذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم . (أزفت الآزفة) قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى قوله تعالى « اقتربت الساعة » (ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس لها نفس كاشفة أى مظهرة ومبينة متى تقوم إلا الله ، أوالكاشفة بمعنى الكشف كالعافية أى لا يكشف عنها ولا يظهرها إلا الله ، وهما يؤولان لمعنى واحد ، أو يقال ليس لها نفس قادرة على كشفها اذا وقعت إلا الله غيرأنه لا يكشفها لأنه لابدّ ماض فى جزاء كل بما يستحقه كما يقتضيه نظامه فى السموات والأرض ، فالمعنيان الأوّلان بمعنى بيانها ، والمعنى الأخير بمعنى كشف غمها اذا وقعت . ثم قال تعالى (أفمن هذا الحديث) القرآن (تعجبون) انكارا (وتضحكون) استهزاء (ولاتبكون) تحزنا على مافرطتم (وأنتم سامدون) لاهون أومستكبرون يقال سمدالبعير اذا رفع رأسه فى مسيره ، أومغنون من السمود وهوالغناء لتشغلوا الناس عن استماعه (فاسجدوا لله واعبدوا) أى واعبدوه دون الآلهة . انتهى التفسيراللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « والنجم اذا هوى » .
اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » .
اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : والنجم اذا هوى

لقد علمت مناسبة أوّل هذه السورة لما قبلها ، وأدركت السرّ فى ذلك ، وأزيدك الآن وضوحا فأقول : لقد ختمت السورة السابقة بقوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » والتسبيح بالحمد إما سبحان الله وبحمده ، وإما الصلاة ، ولاجرم أن التسبيح هو التنزيه ، والحمد هو الذكر بالجميل على الجميل الاختيارى : أى أن يشكر الانسان النعمة ، ليس المقصود مجرّد الألفاظ ، إنما يراد بالألفاظ وتكرارها إيقاظ القلوب إلى نعم علام الغيوب ﴿ و بعبارة أصرح ﴾ أن يتغلغل الانسان فى معرفة النعم أى أن يدرس هذا النظام الذى نعيش فيه ، فالعامة يكتفون بالتسبيح والتحميد اللفظيين المعينين على نور القلب واستعداده للفيض ، وحكماء الأمّة الاسلامية يسبحون ويحمدون ويكبرون لفظا ، ثم يتغلغلون فى الفكر والحكمة والعلم ، ويوقنون بأن الذكر بالقلب واللسان لهما أثر فى المعارف والعلوم ، وعلى ذلك يجدّون فى الحكمة ، ولعلك تقول : أين هذا فى هذه الآيات ؟ أقول لك : انظر إلى سورة ق والى سورة الذاريات والى سورة الطور ، ففى [ق] قرع الكفار ووبخهم على أنهم لم ينظروا مافى السموات وما فى الأرض ، وفى الذاريات والطور جعل الرياح والسحاب والمطر مقسما بها تعظيما لشأن العلم بها ودراستها ، وفى الطور أقسم بالعرش والفرش وبمعرفتهما ومعرفة مابينهما ، ولما ختم السورة أمر بالتسبيح والحمد ، والحمد يرجع إلى النعم ، والنعم إن لم تعرف فلاحمد عليها ، فأصبح أمر الحمد هو نفس أمر العلم ، والعلم بكل مخلوق فى الأرض وفى السماء بقدر الطاقة البشرية ، ومافى الأرض والسماء مذكور أوّل السورة وما قبلها ، وابتدأ سورة النجم بأن أقسم به لفتا لنظر العبد إلى النجوم فى اقبالها وادبارها ، واصباحها وامسائها ، حتى لايعيش الانسان فى دار وهو يجهل مايحيط به فيها ، وفى ذكر النجم تذكرة باشراق النجوم وباشراق النفوس بالعلم وبالعبادة وباشراق القرآن ، وباشراق الشرائع المنزلة ، وباشراق نور النبوّة ، وأن صاحبها ﷺ دنا من ربه فتدلى إلى آخره أودنا الله منه ، أودنا هو من جبريل ، هذه معان ثلاث رآها علماء آخرون جاءت فى التفسير ذكرتها لتطلع عليها حتى تقف على ماذكره العلماء ، ولا تضيع وقتك فى اقتفاء آثار الأقوال ، وانما يهمنا الحكمة والعلم فنقول :

لما رأى صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى كان هذا نوعا من العلم ، لأن كل ما رآه الانسان ببصره أو بعقله فهو علم ، وهذا العلم يستوجب الحمد المذكور فى آخر السورة السابقة . يقول الله : « فسبح بحمد ربك حين تقوم » وهنا يقول : انى أطلعتك على عجائب ملكى ، وعلى شجرة عظيمة ، وعلى فراش من ذهب الخ وهذا العلم هو الموجب للحمد . فكأنه فى السور السابقة شوّق النفوس للمعارف ، ذلك لأنه أقسم بالمخلوقات فى السورتين السابقتين ، وهذا تشويق للعلم بها ، وذكر فى سورة الطور البيت المعمور ، وهو فى السماء ففتح بهذا بابا للنفس ، وهنا يقول : انظر إلى عجائب خلق ، ومتى اطلعت عرفت ، ومتى عرفت النعمة حمدت الله عليها ، فالحمد اللسانى قليل الجدوى .

يقول الله : ان محمدا ماضلّ وماغوى ، ثم قل انه اطلع على عالما وعجائبنا ، فاذن يكون حمده المصحوب

بالتسبيح فى آخر السورة السابقة حمدا مصحوبا بعلم ، فلاحمد إلا على نعمة ، ولا بدّ أن تكون معلومة للحامد وهاهوذا قد اطلع على عجائبنا وحكمنا فى خلقنا .

ثمرة هذا المقام فى امم الاسلام

مامن امرئ إلا وأحسّ فى نفسه بقول خفىّ تحدثه به نفسه فتقول فى وقت مّا ماهـذا الكوكب ؟ ماهذا النبات ؟ ما هـذا الشجر ؟ ما هذا الحجر ؟ ماهذا المطر ، ومن أين جاء البحر ؟ وماهذه الشمس ؟ وماهذا النور ؟ وما أشبه ذلك ، ويودّ لو يقف على حقائقها ، ففى هـذه السورة ابتدأ بذكر النجم تشويقا لدراسته ، وجاء فيها اطلاع النبي صـلى الله عليه وسلم على عجائب هـذه الدنيا وغرائبها ، فلئن كان هذا للأنبياء من غير تعليم فليكن لنا بطريق التعليم : وليس عظمة الثروة عند الأغنياء إلا مشوّقة لمن دونهـم أن يكونوا على شاكلتهـم ، فمن جلت صورته طبعا ، ومن ورث الملك عن أبيـه ، ومن هو حادّ الذكاء من الناس قد كانوا قليلين فى الناس ، وليس معنى هذا أن الناس لايتولون الأحكام مالم يكونوا ملوكا ، ولا يدرسون مالم تكن أذهانهـم خارقة للعادة ، ولا يتجملون مالم يكونوا آية فى الجمال . كلا . فالأدنى يقلد الأعلى ، فاذا رأينا فى أنفسنا شوقا إلى الاطلاع إلى العالم فلنجدّ فى العلم حتى نعرف مانطيقه ، واذا أطلع الله نبيه على آياته الكبرى وجعلها له نعمة فلندرس نحن بعض آياته المشاهدة فى الطبيعة والفلك ، واذا وجدنا أنه صلى الله عليه وسلم رأى البيت المعمور ، وأن هناك ملائكة يدخلون وهم كثيرو العدد الخ فلندرس العلوم الفلكية ولنقرأ ماعرفه الناس فان هناك عوالم عظيمة وكواكب تصـغر شمسنا دونها ، واذا رأينا أن سدرة المنتهى قد انتهت إليها علوم الخلائق فلايعرفون ما وراءها فلنعلم أن ذلك يفتح لنا باب العلم فندرس مافى طاقتنا دراسته حتى تقف عقول الناس ، إن الناس الى الآن يزيدون علما فى معرفة الكواكب والأفلاك والطبيعة ولم يقف الناس وهم يزيدون كل يوم كشفا وعلما فلندرس علومهم لأنها فى حيز الامكان ﴿و بعبارة أخرى﴾ لم تصل العلوم إلى سدرة المنتهى فلوأنها وصلت إليها لوقفت العقول وأعلن العلماء أن العلم لايزيد ، ولكن العلم يزيد ، ولايجوز للمسلمين أن يقولوا : ان العلم قاصر على الفرنجة ، فهاهوذا نبينا ﷺ يقول : إن للخلائق حدّا فى العلم ، وليس معنى هذا أن يكون العلم خاصا بغير المسلمين فان قدوتنا ﷺ هوالذى اطلع على آيات ربه الكبرى بلاتعليم ، فلنطلع نحن على آيات ربنا بالتعليم لأننا من الخلائق ، ولا يصح أن نستثنى أنفسنا لأننا بهذا نكون قد جهلنا ديننا ولم نقتد بنبينا الذى أمره الله أن يقول « رب زدنى علما » فليس يصح لنا ألا نقول ذلك

يفتح لنا صلى الله عليه وسلم باب العلم و يقول انه رأى سدرة المنتهى ، وأن هناك علوما ومعارف ، و يقول ان ماوراء سـدرة المنتهى ممنوع عن الخلائق ، وكل هذا يؤخذ من « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » فالتسبيح تنزيه الله ، والتحميد معرفة حقّ النعمة ، والتكبير الاعتراف بأنه أكبر مما نعلم ، فاذا كان التسبيح والتكبير والتحميد وراء الصلوات فهومذكرلنا بذلك ، مذكر لنا بأن تصفو نفوسنا أخلاقا وآدابا ، وتتفرّغ للعلم ، فتنزيه الله عن المادّة ولواحقها يفتح لنا باب التفرّغ للعلم وترك المألوفات ، والتبرّى من العادات ، لأن العلم لايدخل إلا قلوبا لها حظ من التهذيب والتأديب ، وهذا نوع من التنزيه عن المادة والعلم للنفوس المهذبة أقرب وهوالمشارله بالحد ، والعلم أمده طويل ولاحدّ له ، فليجدّ الانسان فيه ليقرب من خالقه ، وعلى مقدار علمه يكون قربه ، فما قرب ﷺ إلاقربا علميا ونحوه ، لاقرب الذات بل قرب المعنى ، ثم نعلم فوق ذلك أن الله أكبر من كل ماعرفناه ومايعرفه الخلق من ملائكة وجنّ وانس ، فالتسبيح والتحميد والتكبير فى الاسلام فوائح لرقىّ المسلمين كما تراه فى هذا المقام ، فلم يقصد ذكراللسان وخلوّالجنان ، ولوقصد ذلك ماذكرت

سورة النجم بعد الطوراني ختمت بالتسبيح والتحميد ، بل يجىء فى سورة النجم التى فى أوّلهاالمعارف والعلوم وأنه رأى من آيات ربه الكبرى ، فليقرأ المسلمون علوم العوالم المحيطة بنا ، فليقرءوا تلك الكواكب البعيدة المدهشة التى يصل ضوءها فى مئات السنين ، بل فى ألوف السنين ، بل فى ملايين السنين ، واذن تكون شمسنا قريبة جدا ، بل تكون المسافة بيننا و بينها بالنسبة لغيرها أشبه بطول رمح صغير بالنسبة لمحيط الأرض عشرمرات ، ويكون ضوءها وقدرها بالنسبة لغيرها ضعيفين جدا وقليلين ، فراجع ما تقدم فى [سورة آل عمران] تجد مانقلته هناك من أبعاد الكواكب عن أرضنا وفى سورغيرها كالأنعام وهكذا تقدم فى هذا التفسير ماذكرته روح غاليلى من العوالم البديعة ، والخلائق العجيبة ، التى تعيش عيشا لايحلم به أهل الأرض والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « والنجم اذا هوى » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : « وأنه هوأضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هوأغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى ، وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ماغشى ، فبأى آلاء ربك تتمارى »

قال صاحبي الذى اعتاد مسامرتى فى هذا التفسير : الله أضحك وأبكى ، الله أمات وأحيا ، الله أهلك عادا ، الله أهلك ثمودا ، وقوم نوح ، وأهوى المؤتفكة ، وانتهت الآية ان هذه آلاء الله ، الآلاء النعم ، أمن النعم أن يبكى العيون ويهلك الأمم ؟ نعم هذا السؤال ورد كثيرا فى هذا التفسير وكثرت الاجابة عليه ولكن النفس لاتزال تطالب بالمزيد ، فحدّثنى أليس الله أرحم الراحمين ؟ أليس الله قدوة لنا فى أفعاله ، الله أهلك أمما وأبكى عيونا ، واذا قتل أحدنا انسانا عمدا دخل جهنم ، الله يهلك أمما ، الله يسلط الميكروب على الأمم فيهلكها ، ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذلها ، الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش فتأكلها ، كل هذا فعل الله ، لأن هذا نظامه ، ثم تشريعه لنا على خلاف ذلك ، فنحن بقتلنا انسانا عمدا نعذب فى جهنم يوم القيامة ، وتحكم شريعتنا علينا بالقتل . واذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعله فكيف بنا نحن الضعاف فى الأرض ؟ هذه المعانى تتردّد فى نفسى صباحا ومساء ، وكل ما جاء فى هذا التفسير من الأجوبة فيما مضى فانما هى أجوبة جزئية ، والجزئيات لاتغنى عن الكليات ، فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية — ٢٠ ينايرسنة ١٩٣٢ م أريد اجابة شاملة كاملة حتى لا أحتاج إلى سؤال بعدها فى هذا الشأن . فقلت : ماذا تقول فى آية : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . فقال : وماذا تقول فى آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » فنحن الآن فى مقام السير فى طريق أولى العلم الذين يشهدون ببصائرهم أن صانع العالم قائم فى عمله بالقسط والعدل ، نريد أن نشهد ونحن فى الأرض كيف كان الله قائما بالقسط فى تدبير الخلق ، وفوق ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الاهلاك والابكاء والتدمير وابادة الأمم واذلالها و بين اسمه [الودود] . ألم يقل الله [وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد] ولا جرم أن الودود يفعل مايريد ، ولكن هل يلتى ودّه إليهم ، ويكون فعله محبوبا لأنه أتى على سبيل المحبة ، وهو اهلاك المدن ، وازالة الدول ، وابكاء العيون أيكون ذلك ودّا ، وأيضا جاء فى القرآن آيات فى سور كثيرة كلها دالة على تنزيهه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك بصفة التسبيح ، والتسبيح تنزيه ، وهذا المعنى جاء مصدرا وفعلا ماضيا وفعلا مضارعا وأمرا ، فهو مصدر فى سور كثيرة مثل : « سبحان الذى

أسرى بعبده ليلا » . « وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » وفى هذه السورة ، وفى آخر السورة قبلها : « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » وسيأتى فى [سورة الحديد] : « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وذكر الاحياء والامانة هناك كما ذكرها هنا ، وفى آخر [سورة الحشر] : « يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وفى آخر [سورة المجادلة] : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » إن رضا العبد عن ربه وتنزيهه وحبه وودّه يعوزه الاطلاع على جمال الأفعال ، والأفعال الالهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والودّ والرضا الخ فأرجو الاجابة على هذا حتى لا أعود إلى السؤال كرّة أخرى .
فقلت : سأسامرك ان شاء الله فى أوّل [سورة الحديد] فى هذه المعانى وهنالك تتجلى المعانى التى تريدها وان كان أكثر ماسأقصه عليك هناك قد مضى كثير منه متفرّقا فيما مضى من التفسير . وسأشرح :

(١) النظام التكوينى .
(٢) والنظام التشريعى وأنهما متفقان .
(٣) وأبين درجات التربية الست :
(٤) تربية الأمّ لولدها .
(٥) وتربية الأب له .
(٦) وتربية المعلم .
(٧) وتربية الحكومة للأفراد مع مايتبع ذلك من نظام الجندية .
(٨) التربية الالهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة .
(٩) وأن الأم حين تمنع ولدها مايضرّه وهو يبكى لم يمنع ذلك حبها له ، وقد ضربت مثلا لدرجات التربية التى بعدها ، وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للمربى .
(١٠) وبيان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء ، وإما بهيئة حكمية فلسفية عالية كعلم الحكماء ، وايضاح ذلك وتفصيله من كلام [كونفوشيوس] فيلسوف الصين الذى توفى فى القرن الرابع قبل الميلاد .
(١١) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم .
(١٢) بيان أن الله توارى عنا بحجبه ولكنه قذف لنا كرات جيلة لاحصر لعددها ، وهى الشموس والكواكب ، وهو يقرّبها ويبعدها ليجذبنا إلى حضرته ، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبه الأعليين ، وصنع للناس فى الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالى لذهلت عقولهم ، فمن سرج تجرى فى سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات ، وتارة يرسل لهم شهبا تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا ، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعيها ، والتعجب يكون على مقدار اتقان الصنعة .

هذا ماسأذكره هناك ان شاء الله مع شذرات فى الآيات التى ذكرتها أيها الأخ الذكى . فلما سمع ذلك قال : إن هذا لعجب ! وانى لفى غاية الشوق إلى ماوصفت . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى »

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمة مذكورة فى البسملة فى أوّل هذه السورة وهى منبثة فى أجزائها كما هى منبثة فى أجزاء العالم الذى نعيش فيه الذى هو محل دراستنا كما أنه مناط حياتنا .

اللهم انك أنت الحكيم العليم الملهم الهادى ، نحمدك اللهم على الهداية ، وعلى الحكمة ، وعلى النور والعرفان ، العرفان الذى ابتهجت به يوم الأحد الماضى فى تفسير هذه الآيات ، وذلك بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٣٢ م فى شهر شوّال سنة ١٣٥٠ ﻫ

خرجت من القاهرة مع أهل بيتى لمشاهدة حقلنا الذى اعتدت فى هذا التفسير أن أكتب خواطرى فيه تلك الخواطر التى ترد فى المزارع والحقول ، وقد امتزج المعقول فيها والمنقول ، نور والله على نور ، نور الوجود على نور الكتاب المبين ، نور الحكمة العلمية يزدان بكتابنا المقدّس ، كتابنا الذى جاء به الوحى تفسره المناظر الطبيعية ، وتشرح تفسيره المباهج الحقلية ، ركبنا القطار من القاهرة ، آذن القطار بالمسير إذ ارتفع صفيره ، وازداد شهيقه وزفيره ، وأخذ يطوى الأرض طيا من محطة الليمون عند القاهرة ميمما محطة المرج وهى التى منها نتوجه إلى حقلنا ، هنالك أخذ الفكر يجول فى عالمنا الذى خلقنا فيه ، وخيل لى أن روحا علويا بجانبى قد تمثل لى بشرا سويا ، وقد أخذ يخاطبنى ، وما أجل الخطاب ، وما ألذ حديثه المستطاب . إذ أخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث ، هنالك نسيت القطار ومن فيه ، وخرجت من ضيق الأرض إلى فسيح السموات ، وغبت عن عالم الحس ، وارتقيت إلى عالم الروح والعقل ، وسموت إلى فسيح السموات تذكيرا وتفكيرا .

هنالك قال لى الروح : انظر إلى عجائب الشمس ، انظر إليها كيف ترسل ذرّات النور متتاليات متتابعات فى الجوّ ، وانظر كيف تسافر تلك الذرّات فى فسيح الجوّ جاريات منها إلى الأرض ، ما أسرع جريها ، انها تجرى حثيثا من حين خروجها إلى أن تصل إلى أرضكم هذه فى ٨ دقائق و١٨ ثانية ، تجرى وتلحقها أخرى بتقدير محكم ونظام عجيب ، وهذه الذرّات الضوئية المشاهدة يحسبها الناس غير موزونة وهى موزونة (لقد تقدم فى هذا التفسير أن علماء عصرنا قد وجدوا للضوء وزنا ، وأن الشمس تخرج فى الثانية الواحدة منه مايقدّر بمئات الملايين من القناطير المقنطرة ، كل هذا واضح فيما تقدّم بأجلى بيان ، ذلك لأن النور عبارة عن حركات ، والحركات طبعا لها ميل واتجاه ، وهذا الاتجاه له ثقل وان كان ذلك لا يكاد يشعر به أحد ، ولكن اجتماع الكثير الذى لاحصر له يوجب ثقلا عظيما كما قدّمناه) . ثم قال : وهذا الضوء الذى هذه صفته يجرى فى جوّ أثقل منه بما لا حدّ له (أقول : انظر ماتقدم فى أوّل سورة الصافات ، فقد أثبت العلماء فى عصرنا أن هذا الجوّ الفسيح بقطع النظر عن الهواء الذى هو فيه مملوء بما يسمونه [الأثير] والأثير عالم لا نحسّ به ، وقد قلنا انه أشبه بخيالنا نحن ، فكما أن خيالنا لاوزن له وهو موجود هكذا هذا الأثير يظن الانسان أنه لاوزن له بل لا وجود ، ولكن العلماء أثبتوا وجوده ووزنه معا ، ولكنه وزن مدهش إذ قالوا انه لو قدّر وكان مادّة محسوسة لكان أثقل من الحديد بمئات المرّات ، وهذا المقام محقق هناك بقدر الامكان فارجع إليه ، ويقرب من ذلك أن الشمس والكواكب والأرض كلها متجاذبات ، والحبال التى تتجاذب بها وتتمسك بها هذه الأجرام الكبيرة ، هو هذا الأثير فلنفرضه حبالا ، وهذه الحبال المعنوية بها تجذب الشمس الأرض والسيارات ، وتجذب الأرض القمر [وبعبارة أخرى] اننا نعيش فى جوّ مشبع بالجذب ، فهذا الجذب

قوة ، وهذه القوة لوجسمت لكانت أثقل من الحديد والرصاص والأحجار بآلاف المرات ، وهذا الذى قلته الآن يسهل عليك أيها الأخ فهم مقال الروح لى ، ويزداد به فهم ما ذكره العلماء ونقلته فى أول [سورة الصافات] وذكرت هذا الايضاح هناك) .

ثم قال الروح بعد ذلك : انظر الطيور ، انظر الحشرات ، انظر الأشجار ، انظر هذا كله . قلت ثم ماذا ؟ قال : قد فهمت منظر الشمس ، وفهمت اخراجها لأنوارها ، وانها جاريات فى عالم قوى متين ، وهذا العالم القوى المتين هو الأثير ، ذلك الأثير القوى المتين الذى به عرفتم قوله تعالى : « و بنينا فوقكم سبعا شدادا » فكل كوكب يحيط به أثير ، والعيون تنظر الجو إلى أمد محدود ، وهنالك ترى قبة منظورة واضحة لايشك من رآها أنها سماء تظله كما لايشك الرجال والنساء فى سقوف بيوتهم أنها تظلهم ، وهذه السماء المنظورة عبارة عن أجزاء من الهواء منبثة فى أجزاء الأثير ، والأثير هو الأصل ، والأثير قوى متين قوة لاحد لها ، وهذا قوله تعالى : « و بنينا فوقكم سبعا شدادا » فالشدة الآن واضحة أشد وضوح فى زمانكم ، وقوله بعدها : « وجعلنا سراجا وهاجا » بيان للضوء الجارى من الشمس فى ذلك الجو الشديد القوى المتين ، وهذا الجو القوى المتين هو العمد الذى لم تروه فى آية : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » فهذا الأثير عمد غير مرئية ، وهذه العمد قوية متينة ، وكيف لاتكون قوية متينة ، وقد رفع فوقها سماء شديدة [و بنينا فوقكم سبعا شدادا] .

ثم قال : اذا عرفت هذا فأنت الآن وجميع بنى آدم وكل حيوان ونبات تعيشون فى وسط واحد يغمركم جو الأثير ، ذلك العالم الخفى القوى المتين ، النور يشرق عليكم جميعا ، إذن هذا العالم جسم واحد ، وهذا الجسم يشرق عليه نوران : نور حسى ، ونور معنوى ، فالنور الحسى قد شرحناه ، والنور المعنوى هو الذى سنشرحه الآن ، فهذه الطيور لها غرائز وأنواع من الادراك وهكذا الانسان ، بل النبات له نوع احساس ، وما ذلك كله إلا أنوار معنوية ، واذا كان للنور منبع وهو الشمس ، وقد سطع على كل بر و بحر ، وعامر وقفر ، ونبات وحيوان وانسان ، فهكذا ذلك النور المعنوى المنبعث من عوالم أرق من الشمس ، عوالم هى شموس العقول والادراك ، عوالم أنتجت بقدرة الله وعلمه ، هذه الشموس هى أولى باسم الوجود ، هى أولى باسم النور ، هى أعمدة لهذه العصافير الطائرات ، المغردات المربيات لذريتها ، هى المعطيات لهذه الحشرات ادراكها وعلمها .

أيها الجوهرى : ألا تخبرنى رعاك الله ؟ ألم تقرأ ماجاء فى كشفكم الحديث فى أرضكم أن هناك فى المزارع التى تراها مادة تسمى [الفيتامين] وهى مادة الحياة ، والفيتامين المذكور يقوى فى الفواكه والخضر ، ويقل فى غيرها ، ويشتد ظهوره فى البرتقال وما قاربه ، ويقل فى نحو الارز الذى فصل من قشره ، كما جربوا ذلك مع الفيران فى ألمانيا ، إذ رأوا ما أكلت الارز منها وهى فى الظلمة قد مرضت وهلكت ، وما أكلت البرتقال منها قويت وسمنت ، فعلموا أن البرتقال أخذ من مادة الحياة المنبثة فى ضوء الشمس المنبعث منها عليه أكثر مما أخذ الارز ، لأن القشر الذى كان عليه هو الذى تلقى ضوء الشمس ، فلما فصل منه أصبح هو قليل القوة والمتانة ، وأصبح آكله المقتصر عليه أضعف من آكل البرتقال ونحو البرتقال .

ثم قال : إذن هنا ضوء للشمس فيه قوة الحياة ، وهذه القوة منبعها الشمس ، وهذه القوة تكثر وتقل بحسب القابليات ، فعلى مقدار القابليات تكون العطايا .

الله أكبر . جل الله : أليست هذه الحيوانات من حشرات وطيور ودابة وانسان قوابل لنور الفكر والعالم العلوى الملكى أشبه بشموس تنبعث منها الأنوار الفكرية ، وهذه الأنوار الفكرية تكون فى الانسان

أكثر

أكثر من الحيوان ، وتختلف الأنوار الفكرية باختلاف القوابل الحيوانية ، إذن الأنوار الفكرية لاتزال تنبعث من عوالم نورية تسمى بلسان الشرائع ملائكة ، وبلسان الحكمة عقولا ونفوسا ، اختلفت الأسماء ولكن المسمى أصبح معلوما لكم بطريق القياس ، لأننا نكلمكم على قدر عقولكم أيها الناس ، فهناك عوالم روحية نورية عقلية نسبتها إلى عقولكم وعقول حشراتكم ودوابكم كنسبة أجرام هذه الشموس والكواكب إلى أحجام أجسامكم ، واذا كان للنور المحسوس أجرام عظيمة هى منابعه ، هكذا للنور المعقول منابع هى أصوله ، إذن المحسوسات جعلت أمثلة للمعقولات ، وهل أدار الله الشمس حول أرضكم وأجراها جريا متتابعا بحساب إلا لتدرسوها ، ومن أجل دراستها أن تتفكروا وتقولوا هاهى ذه أنواع النبات كل اختلفت قوة الحياة فيها قدرا ومنفعة ، حتى ان قشور الفاكهة والحبوب قد كمنت فيها قوة الحياة المستمدة من ضوء الشمس أكثر مما كمن فيما وراء تلك القشور من لب الثمار ولب الحبوب البعيدة عن ضوء الشمس ، فان كل تلك القشور ينال من قوة الحياة أكثر مما ينال آكل ماتحت تلك القشور .

ثم تقولون : واذا كان ذلك كذلك فى عالم الحس فليكن هذا عالم الروح ، وأن النفوس لاتأخذ من العوالم الروحية إلا على مقدار ما استعدت له ، فاذا رأينا انسانا وحشرات وطيورا ودواب ، فهذه لم تختلف فى ادراكها إلا باختلاف قابليتها لما يرد عليها من العوالم الروحية التى تحيط بالشموس و بالثوابت و بالسيارات ، واذا كان المسلمون اليوم فى أنحاء الأرض أقل علما من غيرهم فى الأمم فما ذلك إلا لأنهم قد أصبحوا أشبه بما تحت قشور الحبوب والثمار والفواكه ، لأن الخرافات قد أحاطت بعقولهم ، وأضلهم بعض شيوخهم ، فنعوهم العلم ، ومنحوهم مواعيد عرقوبية ، وأفهموهم أن حظوظ الحياة وحظوظ الممات ليس مدارها على العمل ، واتكلوا على المغفرة المجانية ، ونسى كثير منهم أنفسهم وغرائزهم وعقولهم ، فلم يصل لهم من تلك العقول العالية إلا قليل كما لم يصل لما تحت قشور الحبوب إلا قليل ، فقلت مادة الحياة فى الدقيق الناعم فى نحو البر وكثرت فى النخالة وفيما يسمى (بالسن) وهوالذى يتركه الناس فلايأكلونه ، وقد يطعمونه البهائم جهلا منهم ، وهوالذى فيه قوة الحياة والمنفعة .

إن نورالفكر منتشرانتشارضوء الشمس ، نور مشرق على جميع هذه الكرة الأرضية كما ينتشر نور الشمس وجميع كواكب السماء ، لامكان فى الأرض ، ولافى الجو إلا وهو مشبع بأنوار لاحصر لها ، أنتم يابنى آدم لاتكادون تفهمون من الأنوار العلوية فى أرضكم إلا نور الشمس والقمر ، مع أنكم فى الحقيقة تشرق عليكم أنوار كثيرة جدا لاحصر لها ، فكل كوكب كشف أولم يكشف يسطع نوره الآن على الأرض وتصل منه آثار إلى أجسامكم كما تصل آثار من الشمس والقمر ، وتلك الآثار لها عمل فيها . إذن هنا أنوار كثيرة لاحصر لها تسطع على أجسامكم ، وأنتم لاترونها ، واذا كان ذلك محققا فعلا فى نور محسوس فان الأنوار العقلية المشرقة العلوية الروحية تحيط بكم ولاحصر لها من مشرقات عليا وهى عوالم الملائكة ونفوسكم تتقبل منها كما تتقبل أجسامكم أنوار الشموس والكواكب والأقمار .

فلتتعرضوا لتلك الأنوار الروحية أيها المسلمون وان كانت خافية فنظيرها فى الخفاء أضواء الكواكب البعيدة مع أنها محققة ، ولن يتم ذلكم لكم إلا بنبذ الخرافات ودرس نفس هذا الوجود ونفس القرآن وليس يغنى والله ماقرأتم فى كتب أسلافكم الذين درسوا مايناسب زمانهم ولم يتوسعوا فى العوالم العلوية والسفلية توسع أهل زمانكم وان كانوا لم يقصروا فى ذلك ولحوا تلميحا إلى ماظهر فى هذا الزمان ، إذن ههنا أمران اثنان لاثالث لهما : نور محسوس ، ونور معقول ، والمعقول أصل المحسوس ، هذا جسمك يا جوهرى تشرق عليه الشمس و يشرق عليه نور الفكر ، يشاركك فى ذلك كل انسان وحيوان ، بل النبات له حظ من الادراك ،

وهذه العوالم كلها فى المجموعة الشمسية ، والمجرّة العامّة والمجرّات كلها جسم واحد متجاذب فلافضاء إذن ، وهذا الجسم المتجاذب له قوى متعدّدة مختلفة ، خلقه الله وبثّ فيه أنوار الكواكب وأنوار العقول العالية ، فهو الخالق لتلك العقول العالية ولتلك الشموس الكبيرة ، ولا عجب أن تكون أنت الساعة لك اتصال بعوالم علوية مشرقة وأخرى تزجى الفكر ، وأنت وكل حيوان ونبات تستمدّون من النورين وتسعدون بالاشراقين . الله عزّ وجل لاترونه لأنكم الآن فى حال التربية ، وهذه العوالم هى الغطاء ، فالعوالم الحسية غطاء حسىّ ، والعوالم الروحية غطاء روحىّ ، هما غطاءان لوكشفا لرأيتم الله ، ولكنهما لن يكشفا رحمة بكم واحسانا واوطافا ، لوأن الله كشف هذه الحجب ورفع الغطاء عن أعينكم الباطنية لهلكتم ولذبتم ، ولكنه لرحمته العظيمة خلق لكم شموسا ظاهرة وشموسا أجل منها باطنة ، وهى العوالم الروحية وقال لهما تعاونا فى تربية كل انسان وكل حيوان فتعاونت أضواء الشموس مع أضواء العقول على تربية العالمين .

حيرتي وفراقى لتلك الروح الجميلة

والكلام على الهواء والضياء والقوى الفكرية فى الرئة وفى الغذاء وفى المخ

هنالك وصل القطار الى محطة المرج ، ومدّة جريه نصف ساعة من الزمان ، فأفقت من غشيتى ، ورجعت إلى حسى ، وغاب عنى حالا ذلك الروح الذى تمثل لى بشرا سويا ، فساورتنى حيرة ، واعترانى همّ ، ذلك أن ما تخيلته وأنا فى القطار له قيمة علمية ، ولكن المقصود من تفسير الآية لم أصل إليه بعد ، لأنى أريد أن أفهم لماذا يذكر الله تعالى « النشأة الأخرى » بعد ذكر الزوجين الذكر والأنثى ؟ وما المناسبة بين الذكر والأنثى وبين النشأة الأخرى ؟ ثم لماذا نسمع الله يقول فى [سورة الأنعام] « كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة » ولاجرم أن جمعنا يوم القيامة يكون بالنشأة الأخرى ، فهل كون الانسان ذكرا وأنثى هو الرحمة التى جعلها الله مقدمة لتلك النشأة ؟ أم ماذا يكون ؟ فاذا رأينا الرحمة جعلت فى مقابلة ذكر الزوجين وجعل ما بعد كل منهما هو النشأة الأخرى ، فاذن علينا أن نفهم هل فى الذكورة والأنوثة مبادئ للنشأة الأخرى ، هذا هوالذى حارفيه فكرى ، هنالك نزلت من القطار ، ولكنى لم أمش فى طريق من المرج إلى مزرعتنا كما جرت عادتى لأنى اعتدت كما ذكرت فى هذا التفسير مرارا أنى أنزل من القطار وأمشى نحو ساعة حتى أصل الى الأرض وهكذا فى الرجوع طلبا لرياضة البدن ، وفرحا بنعمة العلم ، واستنشاقا للهواء النقىّ ، فانه اذا كانت أجسامنا لابدّ لها من غذاء وأهمه الفيتامين أى مادّة الحياة الكامنة فى الخضر والفاكهة والحبوب ولاسيما فى قشورها ، واذا كانت عقولنا لابدّ لها من أنوار فكرية تصل لها اذا خلت من الشواغل الحسية والمعنوية ، وهذه الأنوار الفكرية يحصل عليها كل حيوان بحسب استعداده ، وكل انسان بحسب قابليته ، هكذا الرئة لابدّ لها من هواء يدخل بالشهيق ويخرج بالزفير ، وقد ظهر اليوم أن الانسان اذا استنشق بالشهيق مقدارا كبيرا وهو فى الخلاء وعند شواطئ البحار ، وأخذ إذ ذاك يدخل النفس بلطف ويحبسه قليلا ثم يخرجه بالتدريج بلطف يدخله فى نحو ٦ ثوان أو ٧ مثلا ويبقيه فى مدة كذلك ثم يخرجه فى نحو هذه المدة بالتدريج ، ثم يبقيه خارجا كذلك ، يفعل ذلك آنا فآنا حتى يتعوّده ، ثم يزيد فى الزمن على مقدار الطاقة ادخالا واخراجا ، وحبسا للنفس داخلا وحبسا له خارجا ، فأنا هكذا كنت أفعل أثناء المشى كل مرة وأنا مع ذلك أدرس هذه الطبيعة الجميلة البهجة ذات الجمال .

أقول : فى هذا اليوم لم أمش بل ركبت مع عائلتى سيارة وسرنا إلى أن وصلنا الأرض (مزرعتنا) عند كفر الباشا من أرض بركة الحج .

منظر

منظر الأرض وتفسير الآيات فى مزارع الحقول

أخذنا نجوس خلال الأرض ، وجلنا فيها جولات ، وجلسنا هناك إلى قرب صلاة العصر ، فكان منظر الحقل جميلا أىّ جمال ، حقل أمامه الجبل شرقا ووراءه المزارع الخضرة والنخيل وأنواع الحبوب والحشائش المختلفات غربا ، وقد هبت النسمات فتذكرت الأثر الوارد : « اذا هبت الأرواح ، وفاءت الأفياء ، فاذكروا الله فانها ساعة الأوّابين » .

مناظر الأشجار المحيطة بالحقل فيها النخيل الكثير ، وهناك الأثل : أى العبل والطيور مغرّدات والحشرات مغنيات ، وأنواع الشعير والقمح والبرسيم والفول وهى متمايلات طربا وبهجة ، تهتزّ اهتزاز الوطين ، وتمشى مشـية العروس بهجة للناظرين : والريح تعبث بالسنابل وتلعب بجريد النخل وأغصان الأشجار تقلبها ذات اليمين وذات الشمال .

ولهذه الأنواع أصوات موسيقية ، ورنات غنائيـة ، وهى موسيقى حقيقية لاخيالية [ولكن أكثر الناس لايعلمون] . وللحشائش من النغمات ماليس للأشجار والنخيل والأعناب ، العوالم كلها فى طرب وبهجة وحبور ، ولكن هذا الانسان هو الذى حيل بينه و بين ذلك الطرب والحبور للجهل الفاشى فى نوع الانسان . هذه هى الخواطر التى خطرت لى أثناء جولانى فى وسط الحقول .

حضور الروح الخيالى فى الحقل معى وتفسيره لآية : وأن عليه النشأة الأخرى

وبينما أنا غارق فى هذه الأفكار فى الحقل إذ حضر الخيال الروحى الذى كان معى فى القطار . فقال : ان ماذكرناه معك فى القطار يجعل العقل الانسانى كأنه ناظر إلى ربه ، إن الأمر أصبح واضحا ، انسان عاقل تحيط به أنوار ، ويداخله فكر ، هو فى أنوار عقلية وأنوار حسية ، هى مرسلات له من الله ولكنه لايزال فى حال التربية ، وهو وان حجب بذلك عن أن يرى الله فانه اذا صفت بصيرته يرى أنه هو جزء من هذه العوالم التى أرسلهاله الله ، وهذه العوالم جميلة جمالا حسيا وجمالا معنويا ، ألاترى إلى جمال الحقول واختلاف الصور والنغمات ، ألاترى الى جمال العقول واختلاف إدراك العصفور والزنبور والنحلة وادراك الانسان ، تلك مناظر ذات جمال وبهاء وسناء ، فلئن اختلف شجر النخل وشجر العنب والرمان وأنواع الفول والقمح والشعير من حيث أشكالها ، ومن حيث نغمات الهواء المتخللة أوراقها وأغصانها فلتختلفنّ آراء الانسان والحيوان من حشرات ودواب وطيور ، اختلفت الأجسام والأصوات والادراكات ولكن الأخيرة هى الباقية أما الأصوات وأما الأجرام فهنّ كلهنّ ذاهبات وعالم الفكر هو الذى إليه تشدّ الرحال ، وبه يسعد الرجال .

وبينما أنا كذلك إذ لاحت منى التفاتة إلى نخلتين فى الحقل إحداهما ذكر والأخرى أنثى ، فأردت أن أقتلع [الكفرّى] (١) أى وعاء الطلع من النخلة ، فنعتنى السلاء التى يحملها قحف الجريد المحيط بذلك الطلع ، هنالك تذكرت مامرّ فى هذا التفسير من أن تلك الشوكات الطالعات بجانب أوراق شجر السنط لم تخلق إلا للمحافظة على تلك الورقات لضعفهنّ ضعفا كثيرا ، فهذه الشوكات تساعدها حتى تتحمل العواصف وتقلب الهواء فى الأجواء والأوقات المختلفات ، ولذلك نرى ورق السنط مع ضعفه يعيش جنبا لجنب مع خوص النخل القوىّ المتين ، وخوص النخل لايعوزه مايقويه ، أما ورق السنط فهو ضئيل ضعيف ، أما ماهنا فى النخلة فان هذا الشوك المنتظم على جانبى القحف لم يجعل إلا للمحافظة على الطلع فى ذكر النخل ، وعلى خلق التمر

---

(١) بضم الكاف والفاء وتشديد الراء .

وتربيته فى أثنائه ، إذن هـذا الشوك أغاظنى حتى لا أنه يدمى فأنا أول الشاكرين من هذه النخلة التى أتجه لأنى أستعمله فيما لم يخلق له ، على هذا الطلع ليلقح ثمر النخلة قريبا أو بعيدا ، وفى حقلة نخل قريب منه لذلك جعل الله هذه السلاء (جمع سلاءة) تمنع الأيدى العابثة فلا تمتد إليها ، هذا الخاطر مر بى أثناء هذه المحاولة ، فإذا غلام صغير فى الحقل ، وقال : إن هذا يشوكك فابعد عنه وأنا أقطعه لك ، فتقدم لينزع [الكافور] ثم يقدم وقال : إن الشوك أشعره الكسر ، ونحن نريد أن نعطيه لك سالما ، فيقول هذا الغلام ثم الدرس الذى كنت أفكر فيه ، فجاء رجل من أهل الحقل ، وقال : لايمكن قطعه إلا بسكين حادة ، فقلت فى نفسى الآن حصحص الحق ، أدرى أن هـذا الطلع لايأخذه إلا من له به حاجة ، ولاحاجة إلا بمنفعة ، والمنفعة هنا الإلقاح ، والإلقاح كثيرا ما يكون بيد الإنسان ، فيأخذ الطلع من الذكور إلى الإناث ، وهذه الحاجة النافعة يتخذ الإنسان لها عدة ، وهى آلة حديدية حادة ، بها يقطع ذلك الطلع .

هنالك قلت لايتسع الوقت للبقاء وأشكرك ، وأنا الساعة أريد الرجوع إلى المنزل بالقاهرة ، هنالك خاطبنى الروح قائلا : أنسيت الدرس الذى كنا ندرسه فى القطار ، ان له لصلة بهذا الموضوع الذى هو التفسير لهذه الآيات . فقلت : وكيف ذلك ؟ فقال : ان النخلات الذكور والاناث متصلات بنور الشمس الذى شرحناه قريبا ، فهنا شمس وهنا نخل ، ولولا النظام الدقيق فى حساب الشمس ما أثمر النخل ، هذا أوان فصل الربيع قد بقيت له أيام قليلة ، ولاجرم أن الشمس فى هذا الفصل تأخذ فى الاقتراب من بلادكم ، وبها تزدهر الأشجار والزروع ، وتتكون الثمرات ، وتزاوج الحيوان ، وظهور الأنوار ، والجمال والحسن ، والعشق والغرام وهنا ذكر ، وهنا أنثى ، وهنا سلاء شائكة حارسات لهؤلاء الذكور وهؤلاء الاناث ، الشمس بقربها أرسلت نورا ، وذلك النور له آثار بفعل الله فى نماء النبات قربا و بعدا ، وفى انتاجه أنواع الثمرات ، وهذه الشمس لولا حسابها الدقيق لم يكن شجر ولا ثمر ، لأن النماء لابدّ أن يكون بنظام ، وهذا النظام لابدّ أن يسبقه نظام فى حساب سير الشمس ، ولولم تكن الشمس جارية بحساب لم ترَ عينك اليوم هـذا الطلع فى النخلة الصغيرة التى أمامك الآن ، ولوأن الشمس قربت و بعدت بغيرنظام لم يكن شىء من هذا ، بل لم تكن أنت موجودا فى هذه الأرض ، و يقال لك : يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ، فترجعون إلى عالم الأموات إذن بين هـذا الطلع و بين نفس الشمس و بين حساب سيرها مناسبة تامة ، واذا صحّ ذلك بالنسبة لنور الشمس فليصح نظيره فى مسألة ظهور السلاء على قحوف الجريد : جمع قحف كحمل ، فهل هذه السلاء بارزات بهذه الدقة ولهذه الغاية والمنفعة والمحافظة على تلك الثمرات وطلعها من تلقاء نفسها ؟ فاذا كان بروز الثمرات من تلقاء نفسها ولم يكن بأسباب الضوء الجارى من الشمس بنظام وحساب فليكن هكذا بروز السلاء الشائكة على قحوف الجريد بغير علة ، بل نظام بلامنظم ، ولكن الأمر ليس كذلك ، إن الثمر فى ظواهر حاله تابع لمؤثر ظاهرى ، وهو ضوء الشمس قربا و بعدا بحساب ، ولكن ضوء الشمس لايعقل ولايفهم أن هذا الطلع الضعيف يعوزه سلاء تحافظ عليه فتمنعنى أنا من أخذ الطلع ، إذن هناك تلك الأرواح اللاتى ضربت لها الشموس مثلا فى الوجود ، وهن مرسلات أنوارا حكمية على كل بقعة ، فان كانت فى الانسان فهى عقـل ، أو فى الحيوان فهى فى السميات غرائز ، وان كانت فى النخلة ، أو فى أجسام الانسان والحيوان كان ذلك تنظيما واحكاما بحيث يعطى كل ذى حقّ حقه .

فهذه السلاء أيها الجوهرى التى أمامك نظمت بنور حكمى استمدّ من أرواح عاليـة كما استمدت هـذه النخلة أنوارا من الشمس قربا و بعدا ، وكما كان الحساب فى سير الشمس ظاهر الأثر فى ظهور الطلع فى إبانه هكذا كان الحساب عند تلك الأرواح العالية ظاهر الأثر فى إبداع تلك الشوكات المختصات بثمر هذه النخلات .

أيها الجوهرى : هذه الحكمة التى وضحت الآن تفسر هذه الآية تفسيرا جيلا لم يسبق له فى كتب المسلمين نظير .

انظرأيها الجوهرى : انظر، انظر فى جسمك ، ألست الآن فى آخر العقد السابع من حياتك ، انظرألست ترى الرأس مشتعلة بالمشيب ، ألست ترى هـذا الجسم قد أدبر شبابه وأقبـل هرمه ؟ قلت بلى . قال : ماذا يقول هذا الجسم بلسان حاله ؟ السلاء فى النخلة هاأنا ذا أسمعتك قولها ، فهاك أسمعك أقوال جسمك الذى أدبر شبابه وقوته ، وأقبلت أيام هرمه وضعفه . يقول جسمك اليوم وجسم كل انسى على شاكلتك : أنا لباس روحك ، تلك الروح التى تحيط بها أنوار حسية وأنوارعقلية ، تشرق عليها من عوالم الجمال والكمال ، كنت فتى وشابا وكهلا ، كل ذلك لتنمو روحك فى هذه الحياة وتجرّب هذه الدنيا وتدرسها ، ولكن هـذه الحال مقدّمات ، والمقدّمات لها نتائج ، فاذا أنا ضعفت اليوم فهذا الضعف مقدّمة للزوال ، ومتى زلت عنك كشفت روحك هذا الوجود . فقلت للروح الذى تخيلته : أنا إلى الآن لم أفهم المراد ، ولم أعرف سرّ الآية ؟ فأقول أنا أوضح ذلك :

ايضاح تفسير الآية بمسالة الذكور والاناث

هنالك أخذ الروح يسألنى : هل ترى أن الذكورة والانوثة واستقلالهما ضرورىّ فى الحيوان والنبات ؟ قلت لا . قال ولم ؟ قلت : لأن من النبات مايتوالد بغير ذكر كما ترى من الأغصان التى نأخذها من شجرات ونزرعها فتكون شجرات كأمهاتها ، وذلك كثير فى الأشجار وهكذا :

[المحار] : من أنواع الحيوان ، ان المحارة الواحدة تلد الالوف بهيئة بيض ، وهذا البيض يبقى فيها أمدا حتى يفقس ومتى فقس عاش حولها فى البحار ، وتربى وهو صغير بهيئة الذرّ كأنه مادّة تلوّن الماء (هـذا المقام واضح فى سورة مريم فاقرأه هناك) فهذه المحارة فيها الذكورة والانوثة معا ، فلاعشق ولاغرام ولاهجر ولافراق ، بل هناك ولادة بغير هذه التكاليف كلها ، فلاطلاق ولاخلع ولانفقة ولاعدّة ولا أحكام شرعية ، ولاحقوق لزوجة ، ولاحقوق لرجل ، بل كل هذا استغنى عنه المحار ، إذن هذا كله لاضرورة له فى خلق الحيوان . فقال : إذن ما الحكمة فى هذه التكاليف والغرام والهيام ، والوصـل والفراق ؟ فقلت : أنا لاأعلمها . فقال : أنا بذلك عليم . اعلم أن كل ماهوحولكم ومايحيط بكم دورس لكم ، ولاجرم أن مافى نفوسكم أقرب إليكم مما حولكم ، ومع كونه أقرب إليكم مما حولكم ترونه أبعـد عنكم ، فانكم لاتفقهون نفوسكم إلا بعد دراسة ماحولكم لتشابه العالمين ، درسنا معك السلاء والطلع ، وعرفنا أن هناك أسبابا ونتائج هكذا الأسباب هنا لها نتائج ، وذلك أن العشق والغرام والجمال والحسن ، كل ذلك جعل مقدّمات لما بعده من حصول الزوجة أوّلا والولد ثانيا ، فهناك جمال يتبعه شوق له فزواج ووصال ، وهناك قد تحصل نتيجتان : أولاهما هناء الحياة بقدر الامكان بين الزوجين ، ثانيتهما انتاج الذرّية ، إذن جمال أجسامكم فى حال الشباب له نتيجتان : احداهما قاصرة على الزوجين وهى هناء الحياة ، وثانيتهما متعدية وهى انتاج الذرّية الباقية بعد موت الأبوان ، إذن انفصال الذكر عن الأنثى فى الانسان الذى يهمنا الكلام فيـه ، وحصول الهجر والوصل ، والأحوال المختلفة ، والمسرّات والأحزان ، كل ذلك مقدّمات لنتائج والنتائج هى تعاون الزوجين فى أمور الحياة وانتاج الذرّية الباقية بعد الممات ؟ اذا صحّ ذلك فى ذكورة الانسان وأنوثته فانما ذلك جعل مقدّمة لما نحن فيه الآن .

النفوس الانسانية فى شوقها للعلوم أشبه بالشبان فى شوقهم إلى الشابات

إن هذه الأجسام الحاملة لأجسامكم اليوم تقوم بأود الروح وتحماها وتحفظها الى يوم الموت وهى فى أيام الشباب غارقة فى مهمات الحياة ، ولكنها اذا أقبلت أيام المشيب تفتح لبعض العقول أبواب الفكر والبحث ، وتشتاق شوقا على مقدار همتها إلى الاطلاع على هذه العوالم ، وكلما ارتقت فى العلم ازدادت ولوعا ، ولاتزال فى ازدياد حتى تعانى مايعانيه الشبان من الهجر والفراق ، وخير أيام الفكر أيام كبرالسن ، فتذكرت ماقاله الدكتور [شاهين باشا] رئيس الأطباء فى مصر اليوم فى خطبة خطبها فى العام السابق (سنة ١٩٣١ م) إذ قال : « إن الدم يتحوّل إلى المخ فى زمن الشيخوخة ، فلينتهز تلك الفرصة الشيوخ ، وليفكروا فى تلك السن » . أقول : ولكن ليس معنى هذا أن كل الشيوخ يقدرون على ذلك ، فان كثيرا من الشيوخ ضعفت قواهم العقلية فى زمن الشباب بالانهماك فى اللذات ، فجاءوا الى زمن الشيخوخة وهم مقلون فلايفكرون ، بل يرجعون كالأطفال .

ثم قال الروح : إن هذه العوالم المحيطة بكم غذاء لأرواحكم ، وكما أن من يجلس ليلا وهوفارغ من الهمّ يحسّ بسعادة فى منظرالنجوم وجمالها هكذا أرواحكم المحبوسة الآن اذا خلت من هذه الأجسام ورجعت الى عوالم الأرواح تحسّ بسعادة لاحدّ لها ، وليس المثل كالممثل له بل هومجرّد تنظير والا فأرواحكم تصبح اذا فارقت الجسد وعندها استعداد لعالم الجمال سعيدة سعادة مطلقة مغمورة بالجمال ، إذن انقسام الناس إلى ذكور واناث فيكون شوق وتوق وهجر ووصال ، كل ذلك ممهدلما هوأعلى ، فأنتم فى أيام حياتكم تشتاقون إلى المعرفة والعلم ، والمعرفة والعلم فى الحقيقة غذاء لأرواحكم ، تلك الأرواح المستعدّة للبقاء ، وهى تغتذى بتلك المعارف التى هى زادها وتفيد الأرواح التى هى أقلّ منها هناك علما ومعرفة ، فاذن هناك فوائدقاصرة على الروح ، وفوائد متعدية ، فهى بالعلوم تستلذ وتغتذى ، وهى بها تفيد غيرها علما ومعرفة كما يفعل ذلك الزوجان ، فهما بعد الشوق بداعى الجمال والهجر يتصلان فيكون هناك سعادة زوجية بينهما ، وذرية هما يسعدان بتربيتها ، وهكذا تسعد الأرواح بعد الموت بالاطلاع على هذه العوالم الجميلة فتتغذى بها كما تتغذى الأجسام اليوم بالحبوب والثمار وتفيد أرواحا صغيرة فوائد تكون سعادة لها أيضا كما سعدت بتربية الذرّية وأحست بلذة فى هذه الحياة ، إذن ظهرالسرّ لك الآن أيهاالجوهرى ، وبان لك واتضح أن الجمال والعشق التابع له ، والهجر والفراق وما ماثله ، كل ذلك مقدّمات لماهوأهمّ وهوأن المحارة التى لم يتميزفيها الذكر من الأنثى ليست أهلا للمعارف التى ستنالها أرواحكم بعدالموت ، فلم تعذب فى الحياة الدنيا بالهجر والخلع والطلاق والفراق ، بل حملت وولدت بلا كلفة من هذا النوع لأنه تعذيب لانتيجة له ، أما التعذيب فى الانسانية فان له ثمرة ، لأنه يعلم النفس ماهوالجمال ، وماهوالحب ، وماهى السعادة مع الاخوان ، وماهى السعادة فى منح الغيرهبات وعطايا كالذرّية . حتى اذا ارتقت النفس واشتاقت للعلوم والمعارف وأغرمت بها ، هنالك تبحث وتجدّ ، وكلما كبرت وعرفت الحقائق اشتاقت فحنت وأنت و بكت واشتكت ، حتى اذا فارقت هذا البدن المانع لها من عالمها حصل لها الهناء والفوز بحصول المطلوب والعزّ المرغوب ، فتصبح مغمورة فى جوّ من الجمال والحكمة والنور لايدركها أحد فى هذه الحياة ، وهنالك يفهم المسلمون لماذا يقول الله فى القرآن : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطرالسموات والأرض حنيفا » وذلك لأن الله لابدّ أن يكون حاضرا بعلمه وقدرته والشمس تقرب وتبعد وتشرق وتأفل بدليل أن بعدهاأورث البرد فى دياركم ، وقربها أورث بروزطلع النخل فى حقلكم

اه‍ .

ولكن الله ليس كذلك ، ألا ترى أن السلاء الطالعة فى قحف الجريد المذكور آنفا ، وهاهو ذا أمامك معتنى به ليلا ونهارا ، فإن نموّ كل نام لا يقف ليلا ولا نهارا ، أى ان النمو مستمرّ واحكامه وتدبيره وتقديره مستمرّ ليلا ونهارا ، وهذا من عالم روحى « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » فعوالم الأرواح لا تنام كما ينام الانسان ولا تغيب كما تغيب الشمس ، وعالم الأرواح أقرب إلى الحضرة العلية من عالم الحس فلذلك اعتنت بهذه السلاء فى ظهور الشمس وفى أفولها ، إذن عالم الأرواح أقرب إلى ربه (المنزّه عن كل مخلوق ، المتعالى عن كل محجوب) من عالم الأجسام ، وكل محسوس فلقربه منه وكثرة استمداده منه دام اقباله ولم يغب كما تغيب الشمس ، ولو غابت تلك القوى الحافظة للعالم لحظة لهلك كله ، ولانصدعت هذه السلاء طبعا ، فاذا كانت القوى الروحية المحيطة بكم مشرقة لا تغيب فكيف بالله عزّ وجل ! فهو إذن أكثر منها ظهورا بما لا حدّ له ، فاذا ارتقت نفوسكم فانها يوما مّا ستعرف ربها ، وهذا سرّ الحديث الوارد فى انكم سترون ربكم كما ترون الشمس ليس دونها سحاب ، وفى رواية أخرى : جاء ذكر القمر على حسب اختلاف مراتب الناس من علماء بهذه العجائب ، ومن عباد محجوبة أفكارهم فلا يدركون من كمال الله إلا قليلا كما يدرك الناس من أنوار الشمس على ما انعكس منها على القمر ثم أشرق على الأرض .

هذا هو السرّ أيها الجوهرى فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى » ففى الذكورة والانوثة تمهيد للشوق والغرام والعشق الحاصلات لكثير من الشبان والشيوخ فى هذه الدنيا ، وهى نفوس مصطفاة لا يخلو منها زمان ولا مكان ، يعيشون فى أرضكم وفيهم هذا الشوق ، واذا ماتوا تنعموا بنعيم العالم الروحى ، بل كثيرا ما يحسون فى هذه الحياة كأنهم غرقوا فى بحر لجى من جمال الأرواح ، وكأن ربهم يخاطبهم ، وكأنهم يرونه وان كانوا لا يرونه فعلا لضعف مراتبهم وللحوائل الكثيرة ، وهذه النفوس هى المنعشات للأمم جيلا فجيلا وآنا فآنا ، وهذه النفوس تقول فى هذه الحياة : لو كشف عنى الغطاء ما ازددت يقينا . فالنشأة الأخرى التى مقدّمتها الموت لها مقدمة وهو عشق العلوم ، وعشق العلوم له مقدمة وهى بهجة المناظر ومحاسنها التى تغرم بها بعض النفوس .

فاذا كانت آية الأنعام جاء فيها أن الرحمة أعقبها أن الله يجمعنا ليوم القيامة ، ففى [سورة النجم] كانت الرحمة المودعة فى انقسام الناس إلى ذكور واناث متبوعة بالنشأة الأخرى ، لأن الذكورة والانوثة مرّنت النفوس على الغرام فالوصال إلى آخر ما تقدم ، فهكذا هنا غرام وحب ثم هجر و بعد ، ثم خلوص النفس بالموت فتصل إلى السعادة الأبدية . هذا هو السرّ الذى يمكن أن ألقيه إليك الآن لتنشره فى نوع الانسان ، وكم فى القرآن من أسرار : « وفوق كل ذى علم عليم » .

كل ذلك وأنا واقف أمام شجرة النخل اذا قائل يقول لى : لقد أزف الوقت لأن موعد صاحب السيارة أن يوافينا الساعة الرابعة ، ولم يبق إلا دقائق ، فاستعددت للرجوع ، وأخذت أهلى ووصلنا إلى المكان الذى أمكن السيارة أن تقف فيه ، فتأخر ذلك السائق مدة ، وكنا لم نعطه أجرا حتى يكون ذلك حاملا له على الرجوع إلينا ، ثم حضر ، وما وصل إلينا حتى قال : أنا أعلم أنى قد أخطأت ، ولكن اتكن المغفرة . فقلت لا بأس ، ثم ركبنا السيارة ورجعنا إلى محطة المرج ، وسار بنا القطار إلى محطة القاهرة ثم المنزل ، وذلك يوم الأحد ١٥ مارس سنة ١٩٣٢ م وإلى هنا تمّ الكلام على [سورة النجم] والحمد لله رب العالمين .



تفسير سورة القمر

هى مكية

إلا ثلاث آيات وهى : أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر : فمدنية

آياتها ٥٥ — نزلت بعد الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ *
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ *
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا
أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا
الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي
بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ
النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا
إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ
غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ

أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ * أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأوّل فى تفسير البسملة .

القسم الثانى : مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك من أوّل السورة إلى قوله « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » .

القسم الثالث : توبيخ قريش ، وقياس حالهم على حال الأمم الماضية ، وأنهم سيهزمون كما هزم الأوّلون ويدخلون النار كما دخلوا ، من قوله تعالى : « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر » الى آخر السورة

القسم الأول فى تفسير البسملة

يعجب الانسان من أمر آى القرآن ، وكيف كانت الرحمة المجسمة فى الشمس والقمر والنجوم قد ذكرت فى القرآن بهيئة لم يعهدها العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، يذكر الله الشمس فيقول : [والشمس وضحاها] ويذكر النجم فيقول : [والنجم اذا هوى] ويذكر القمر فيقول عطفا على [والشمس وضحاها ، والقمر

اذا تلاها] رحمة عامة ظاهرة واضحة مجسمة ، لذلك يكرّر الرحمة فى أوّل كل سورة ليلفت نظرنا إلى رحمات مجسمة وغير مجسمة ، ومن غير المجسمة ماجاء فى هذه السورة من العبر والحكم والمواعظ والآيات البينات .
سبحانك اللهم وبحمدك جعلت الرحمة تحيط بنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا .
الله أكبر . الله أكبر : رباه : ظهرت أنوارك ولكنها غشت على عقولنا لأنها أنوار لاحدّ لها ولانهاية ، شمس وقمر ونجوم وجمال وبهاء وعجائب تتلوها عجائب ، ولكن لما كانت العقول خامدة ، والنفوس جامدة ، منحها نعما على قدر طاقتها ، وهى عبر التاريخ وبدائع السير ونظام الأمم ، فأخذ يحدّثنا بتاريخ من قبلنا ، فذكر تلك الأمم البائدة التى قرعت أسماع العرب من قوم نوح وعاد وقوم لوط وآل فرعون أخذ يحدّثهم بما يعرفون وليس مما ينفعهم أو يؤثر فيهم أن يذكر لهم أمم الصين ، أوأهل استراليا ، أو أهل أوروبا ، فهؤلاء لاعلم لهم بتلك الأمم فلم يكن هناك بدّ من تذكيرهم بما يأتون ، وإعلامهم بما يفعلون .
فسبحانك اللهم جعلت السابقين عبرة اللاحقين ، والأوّلين نبراس الآخرين ، إن ذكر هذه الأمم فتح لباب علم التاريخ ، يرشد الله المسلمين إلى الاعتبار بتاريخ كل أمة من الأمم السابقة واللاحقة شرقا وغربا ، فليس ذكر قوم نوح وعاد وثمود بقيد فى علم التاريخ كما لم يكن ذكر الإبل وخلقتها والسماء ورفعتها والجبال ونصبها ، والأرض ونظامها مقيدا لأمم الاسلام بهذه المخلوقات ، بل ان هذه أمثلة ونماذج لعلم التاريخ والاتعاظ والائتناس بحوادثه المختلفة ليعتبر الخلف بالسلف ، ويقتدى الآخرون بالأوّلين ، واللاحقون بالسابقين ، ومتى درسوا هذه الدنيا عرفوا أنها منتظمة ، وأن كل شىء موزون بميزان لابخس فيه ، وعلى ذلك النظام ستهزم الجموع الكافرة كما انهزم من قبلهم أمام جيوش الأنبياء السابقين « سيهزم الجمع ويولون الدبر » .
ونتيجة ذلك النظام كله أن يقرب الناس من ربهم متى عرفوا أن عمله متقن وأدركته عقولهم ، وذلك القرب بالعلم والمكانة لاقرب بالمكان ، والنهاية أن يكون الانسان فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهذه نهاية السعادات فى الحياة الدنيا والآخرة ، فأما فى الدنيا فان الناس جميعا فى حيرة مغمورون إلا طائفة واحدة وهى التى أدركت هذا النظام وأعجبت به ، ولن يكون فى حضرة الملك القدّوس إلا هذه الطائفة ، أما بقية الناس فانهم إما فى جنة ولايرون الله إلا على مقدار ماعرفوا ، واما فى نار وهم عنه محجوبون ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة . كتب ظهر يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٢ م — ١٥ ربيع الثانى ١٣٥١ هـ

القسم الثاني : مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقتربت الساعة وانشقّ القمر) أى سينشق يوم القيامة ، أوانه قد انشقّ كما روى عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرّتين : أخرجه البخارى ومسلم [وكيفية ذلك] أنه انشقّ فلقتين : فلقة فوق الجبل ، وفلقة دونه ، ومعنى هذا أنه يقول سبحانه : قربت القيامة ، وهاهوذا القمر انشقّ من الآن كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء البشير بقدومه ، فان انشقاق القمر دلالة على ماسيؤول إليه حال العوالم العلوية والسفلية فان مآلها الانحلال والبوار . يقول الله : انظروا أيها الناس ، انكم تظنون الكواكب والشمس والقمر لايعتريها البلى ، إن القمر يقبل الفناء ، والدليل على ذلك انشقاقه

الذى استبان لكم ليدلكم على أنه سيبيد من الوجود كما تبيد أرضكم ، والممكنات بأسرها تقبل الفناء .

يقول المؤلف : ومن عجب أن علماء الهيئة فى العلم الحديث لم يذكروا أن شيئا أشتق من الأرض إلا القمر ، ويقولون انه أثناء دورانها قديما انخزّ عنها ودار حولها ، وهذا أيضا نوع من الانشقاق ، ولكنه انشقّ من غيره ، وانشقاق القمر من الأرض دليل على أن الأرض تبدّل غير الأرض والسموات ، فاذن يكون انشقاق القمر فى القرآن من المعجزات العلمية لامن حيث أن قريشا رأوه منشقا وجبل حراء بين فلقتيه على رواية ابن مسعود فحسب ، بل ان هذا الذى حصل زمن النبوّة تذكرة باشتقاقه من الأرض وانفصاله عنها ، فكما انشقّ القمر نصفين هكذا كان هو مع الأرض سابقا وانشقت الأرض فانفصل عنها القمر ، ومعنى هذا تجزؤ المادة وفناؤها وذهابها وتبدّلها ، هذا ماتشير له الآية والافلماذا خصّ القمر بالانشقاق ؟ ولماذا لم يختر الله له الشمس أوكوكبا من الكواكب ذلك لهذه النكتة وهوأن القمرهومحل البحث الحديث ، وأن له انشقاقا عن غيره ، فانشقاقه شقين على الجبل ودونه يشير إلى ما كان له قبل ذلك من اشتقاقه من الأرض ، ويكون ذلك من دواعى العلم والكشف والبحث ، فانظر كيف جاء فى هذه السور : البحر المسجور تحت الأرض ، والقمر المنشق من الأرض ، والرق المنشور اشارة لعصر الورق وعصر المدنية والعلم ، والبيت المعمور اشارة إلى العوالم التى كشف الناس بعضها ، كل ذلك تذكرة للمسلمين النائمين الآن ، المستيقظين فى مستقبل الزمان ، فهذه كلها محرّضات على العلم مشوّقات له ، وسيقوم بهذه العلوم أبناء أمة الاسلام فى مستقبل الزمان ، انشقاق القمر فتح لباب العلم والبحث فى أصل الأرض وأصل القمر ، وكل ذلك واجب على أمة الاسلام (وان يروا آية يعرضوا) عن تأمّلها (ويقولوا سحر مستمر) مطرد ، وذلك أنهم رأوا آيات متتابعات فلم يعيروها التفاتا (وكذبوا) النبيّ ﷺ (واتبعوا أهواءهم) وهومازين لهم الشيطان من ردّ الحق الظاهر (وكل أمر مستقر) كل شيء ينتهى إلى غاية تناسبه فأمركم ينتهى إلى غاية من الخذلان والعذاب فى الآخرة ، وأمر محمد صلى الله عليه وسلم ينتهى إلى نصر فى الدنيا وجنة فى الآخرة ، وكل حركات الأفلاك ، ونظام العمران ، وأعمال الأمم ، ونظام الانسان والحيوان والنبات ، كل ذلك داخل فى هذه القاعدة ، فلكل من هذه غاية ينتهى إليها ، وهذه من جوامع الكلم وعجائب الحكم ، فقضية النبيّ ﷺ وقضية المشركين داخلتان فى هذه القاعدة العامّة ولذلك أعقبها بقوله (ولقد جاءهم من الأنباء) أى جاءهم فى القرآن من أنباء القرون الخالية وأنباء يوم القيامة (مافيه مزدجر) ازدجار من تعذيب العاصين يوم الدين وهلاك دولهم فى الدنيا ، وأبدل من [ما] قوله (حكمة بالغة) غايتها لاخلل فيها ، والملخص أن كل أمر ينتهى إلى غاية ، ومن تلك الامور المنتهية إلى غاياتها مايتلى فى كتاب الله من العذاب الذى يزجر من يعتبر ، ومن الحكمة المنتهية إلى غايتها مصداقا لما ذكر من أن كل شيء ينتهى إلى غاية تناسبه ، ومع ذلك لم يتعظوا وهوقوله (فما تغن النذر) أى فأىّ غنى تغنى النذر ، جمع نذير بمعنى المنذر ، اذا علمت أن الانذار لا يفيدهم (فتولّ عنهم) واذكر (يوم يدع الداع) أسقطت الياء اكتفاء بالكسرة والدعاء هنا بمعنى الأمر كقوله تعالى «كن فيكون» أو الداعى اسرافيل (إلى شيء نكر) فظيع تنكره النفوس لأنها لاعهد لها بمثله ، وهو أهوال يوم القيامة (خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث) أى يخرجون من قبورهم ذليلا أبصارهم من الهول ، فخاشعا حال من الواو ، وتقول خاشعا أبصارهم كما تقول يخشع أبصارهم ، وقرئ خاشعة أبصارهم ، وأما قراءة خشعا أبصارهم فهى على لغة أكلونى البراغيث كأنك قلت : يخشعن أبصارهم ، وقوله (كأنهم جراد منتشر) فى كثرتهم وتموّجهم وانتشارهم فى الأمكنة (مهطعين إلى الداع) مسرعين مادّى أعناقهم إليه مقبلين (يقول الكافرون هذا يوم عسر) صعب (كذّبت قبلهم قوم نوح) قبل قومك (فكذبوا عبدنا) نوحا عليه السلام ،

وهذا تفصيل بعد اجمال (وقالوا مجنون) أى هو مجنون (وازدجر) أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى (فدعا ربه أنى) بأنى (مغلوب) غلبنى قومى (فانتصر) فانتقم لى منهم ، وذلك بعد أن يئس منهم (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) منصب ، وهذه الجملة مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها (وفجرنا الأرض عيونا) أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة ، وفى هيئة الاعراب عند النحاة يقال أصلها فجرنا عيون الأرض فعدل عنها إلى مايفيد المبالغة (فالتقى الماء) ماء السماء وماء الأرض وقرئ الماءان (على أمر قد قدر) على أمر قد قدره الله وهوهلاك قوم نوح بالطوفان (وحملناه على ذات ألواح ودسر) هذا من فصيح الكلام وبديعه إذجعلت الصفة القائمة مقام الموصوف نائبة عنه فأدت مؤداه ، وذكرالصفة التى على هذا المنوال أبلغ من ذكرالموصوف ، فقولك قيصى مسرودة من حديد أبلغ من قولك قيصى درع ، فهكذاهنا ذات ألواح ودسر [جمع دسار ، وهوالمسمار من الدسر وهو الدفع لأنه يدفع منفذه] أبلغ من سفينة ، وقوله (تجرى بأعيننا) أى تجرى حال كونها محفوظة بنا ، لأنها اذا كانت بمرآنا فهى فى حفظنا ، وانما فعلنا ذلك (جزاء لمن كان كفر) وهونوح ، لأن النبى نعمة من الله ورحمة ، فاذن نوح نعمة مكفورة (ولقدتركناها) أى السفينة ، أوالفعلة أى جعلناها (آية) يعتبربها إذ شاع خبرها واشتهرأمرها (فهل من مدكر) معتبر (فكيف كان عذابى ونذر) جمع نذير وهو الانذار : أى فانظر يامحمد كيف كان عذابى ، وكيف كان حال انذارى لهؤلاء الذين أنذرهم نوح ؟ ألم يتم نصرى لنوح الذى أنذرهم وهلاكى لهم لكفرهم ، وذلك من الحكمة السابقة « وكل أمر مستقر » فهكذا ستكون الأمم وأحوالها ، وهكذا عواقب أمورها (ولقد يسرنا القرآن) سهلناه (للذكر) أى ليتذكر ويعتبر به (فهل من مدكر) أى متعظ بمواعظه (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر) وانذارى لهم بالعذاب قبل نزوله ، ألم يتم ، ألم يكن مهولا ؟ وكأنه يقال ماهذا العذاب فقال (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا) باردة أوشديدة الصوت (فى يوم نحس) شؤم (مستمر) أى استمر شؤمه فاستمر عليهم حتى أهلكهم (تنزع الناس) تقلعهم من أماكنهم حال كونهم (كأنهم أعجاز) أصول (نخل منقعر) منقلع من مغارسه ساقط على الأرض ، وانما شبهوا بالأعجاز لأن الريح طيرت رؤسهم وطرحت أجسادهم ، والنخل اسم جنس جمعى يذكر ويؤنث ، فلذلك جاء فى القرآن : « أعجازنخل خاوية » وجاء هنا « أعجاز نخل منقعر » ونظيرماهنا « إليه يصعد الكلم الطيب » (فكيف كان عذابى ونذر) كرره للتهويل ، ولأن لهم عذابين : أحدهما فى الدنيا ، والثانى فى الآخرة ، وجاء فى قصتهم « لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى » (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت ثمود بالنذر) بالانذارات والمواعظ التى جاء بها صالح (فقالوا أبشرا منا) من جنسنا أومن جملتنا (واحدا) منفردا (نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر) الضلال الخطأ والسعرالجنون ، ومنه ناقة مسعورة وهذه الكلمة مستعملة اليوم عند العامة فى أمتنا المصرية بهذا المعنى (ءألقى الذكر عليه من بيننا) وكيف يكون كذلك وفينا من هوأحق منه به (بل هوكذاب أشر) حمله البطر على الترفع علينا بادعائه الوحى فقال الله تعالى على لسان صالح عليه السلام (سيعلمون غدا) عند نزول العذاب بهم فى الدنيا ويوم القيامة (من الكذاب الأشر) الذى حمله أشره على الاستكبارعن الحق وطلب الباطل أصالح أم من كذبه ؟ (إنا مرسلوا الناقة) مخرجوها وباعثوها (فتنة لهم) امتحانا لهم لأنا نمتحن بالنعم وبالنقم (فارتقبهم) فانتظرهم وانظرماذا يصنعون أيشكرون أم يكفرون (واصطبر) على أذاهم (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) مقسوم بينهم ، وفيه تغليب العقلاء على غيرهم فللناقة يوم ولهم يوم (كل شرب محتضر) أى محضور يحضره صاحبه فى نوبته ، يحضرالقوم الشرب يوما وتحضرالناقة يوما كما فى آية أخرى « لها شرب ولكم شرب يوممعلوم »

ثم سئموا النعمة (فنادوا صاحبهم) قدار بن سالف أحيمر ثمود (فتعاطى) فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له (فعقر) الناقة ، أوفتعاطى السيف الخ (فكيف كان عذابى ونذر ، إنا أرسلنا عليهم) فى اليوم الرابع من عقرها (صيحة واحدة) صاح بهم جبريل (فكانوا كهشيم المحتظر) أى كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يحظر لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم ، والمعنى أنهم صاروا كيابس الشجر اذا بلى وتحطم (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصبا) أى الحصباء وهى الحجارة دون الكف ، وقد يراد بالحاصب الرامى : أى أرسلنا عليهم عذابا يحصبهم أى يرميهم بالحصباء (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) أى فى سحر ، وهو آخر الليل (نعمة من عندنا) أى انعاما منا (كذلك نجزى من شكر) نعمتنا بالايمان والطاعة (ولقد أنذرهم) لوط (بطشتنا) أخذتنا بالعذاب (فتماروا بالنذر) فشكوا بالانذارات ولم يصدقوا (ولقد راودوه عن ضيفه) أى طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه لما يقبح فعله (فطمسنا أعينهم) فسحناها وسويناها كسائر الوجه ، وذلك لما دخلوا داره عنوة ، أوطمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل فقالوا لقد رأيناهم حين دخلوا فأين ذهبوا ؟ قال تعالى (فذوقوا عذابى ونذر) أى ما أنذركم به لوط من العذاب (ولقد صبحهم بكرة) أى جاءهم وقت الصبح (عذاب مستقر) أى دائم : أى استقر فيهم حتى أفضى بهم إلى الهلاك (فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) تكرار هذه وتكرار أمثالها فى القرآن كما فى [سورة الرحمن] الآتية للايقاظ والتنبيه وهذا كثير فى كلام العرب كقوله :

قربا مربط النعامة منى ☆ لقحت حرب وائل عن حيالى

قربا مربط النعامة منى ☆ شاب رأسى وأنكرتنى عيالى

وهى طويلة على هذا النسق ، وهذا التكرار يكون فى الأمر العظيم كما هنا ، فقوله ، « ويل يومئذ للمكذبين » ، وقوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » عند النقم فى الأول ، والنعم فى الثانى من هذا القبيل وذلك لتكون العبرة حاضرة عند السامع مصورة فى الأذهان ، وكذلك تكون صور النعم غير منسية . ثم قال تعالى (ولقد جاء آل فرعون النذر) وفرعون أيضا من باب أولى (كذبوا بآياتنا كلها) وهى الآيات التسع (فأخذناهم أخذ عزيز) لا يغلب ولا يغالب (مقتدر) لا يعجزه شىء . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

القسم الثالث : توبيخ قريش وقياس حالهم على حال الأمم الماضية وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون ويدخلون النار كما دخلوا

قال تعالى (أكفاركم) يا معشر العرب (خير من أولئكم) أى أقوى وأشد من الذين أحللت بهم نقمتى مثل قوم نوح ومن بعدهم (أم لكم براءة) من العذاب (فى الزبر) أى فى الكتب أنه لن يصيبكم ما أصابهم (أم يقولون) أى كفار مكة (نحن جميع) جماعة أمرنا مجتمع (منتصر) ممتنع لا نرام ولا نضام ، أنذر الله الأمم السالفة وتم ما أنذر به هكذا هنا يقول سبحانه (سيهزم الجمع ويولون الدبر) أى الادبار فكل واحد يولى دبره ، وهذا من دلائل النبوة فانهم هزموا يوم بدر وما بعده ، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم فى مكة جيش بل كان أتباعه مشردين فى الآفاق ومعذب بعضهم . قال عمر رضى الله تعالى عنه : لما نزلت لم أعلم ماهى ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع

ويقول « سيهزم الجمع » فعلمته . أقول : وليس ذلك قاصرا على يوم بدر بل استمرّ انهزامهم (بل الساعة موعدهم) موعد عذابهم الأصلى ، وعذاب الدنيا كالمقدّمة لعذاب الآخرة (والساعة أدهى) أشدّ وأعظم داهية من الأسر والقتل يوم بدر ومابعده ، والداهية أمر فظيع لايهتدى لدوائه (وأمرّ) مذاقا من عذاب الدنيا (إن المجرمين فى ضلال) عن الحق فى الدنيا (وسعر) ونيران فى الآخرة (يوم يسحبون فى النار) يجرّون فيها (على وجوههم) ويقال لهم (ذوقوا مسّ سقر) أى ذوقوا حرّ النار وألمها ، فان مسها سبب للتألم ، وسقر علم على جهنم ، تقول سقرته النار وصقرته اذا لوحته (إنا كل شىء خلقناه بقدر) أى مقدّرا مرتبا على مقتضى الحكمة ، وهذا يقرب من قوله فيما تقدم : « وكل أمر مستقرّ » وأتبع تلك الحكمة بقصص الأمم وختمها بانذارأهل مكة ، ولما أتمّ ذلك ذكر النتيجة . فقال : ان كل شىء مرتب على مقتضى الحكمة ، فالأوّل كأنه قضية يراد الاستدلال عليها ، ولما ذكر قصصهم وانذار مشركى مكة ذكرالحكمة اشارة لسطوع البرهان وظهور النتيجة ، وهذا كقوله تعالى : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فالعوالم متشابهة ، وأحوال الأمم متشابهة ، فالمصلحون كلهم نافذة منصورون ، والمفسدون مقهورون معذبون ، ثم أعقبه بأن هذايسير عليه فقال (وما أمرنا إلا واحدة) فعلة واحدة ، وهوالايجاد بلامعالجة ومعاناة ، أو إلا كلمة واحدة (كلمح بالبصر) فى اليسر والسرعة ، ومنه أمر الساعة فهوكلمح البصر ، واذا ثبت لديكم أن كل أمر مستقرّ ، وأن كل شىء خلقناه بقدر ونظام وحكمة بما قصصناه عليكم من أمر الأمم فكيف تغفلون ولاتتعظون بعد ثبوت هذه الحكمة ؟ وهذا قوله (ولقد أهلكنا أشياعكم) أشباهكم فى الكفر كما قصصناه (فهل من مدّكر) متعظ (وكل شىء فعلوه فى الزبر) مكتوب فى كتب الحفظة (وكل صغير وكبير) من الأعمال (مستطر) مسطور فى اللوح (إن المتقين فى جنات ونهر) كسبب أى أنهار ، وانما وحده لموافقة رءوس الآى ، وهى أنهارالجنة المتقدّمة فى [سورة القتال] وقرئ بضم النون والهاء جمع نهر (فى مقعد صدق) فى مكان مرضىّ ، أوفى مجلس حقّ لالغوفيه ولاتأثيم ولا كذب لأن الله صادق فمن وصل إليه امتنع عليه الكذب فهو فى مقعد صدق (عند مليك مقتدر) مقرّبين عند من تعالى أمره فى الملك والاقتدار ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فهؤلاء هم الذين يحظون بالقرب من ربهم . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » .
اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » .
اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نحمدك على مامنحتنا من العلم ، وحبوتنا من التيسير ، وأفضت من الخير علينا وعلى المسلمين فى سائر الأقطار فى هذا الزمان الذى به أشرق نورالاسلام وازدهر ، وظهر نوره وانتشر ، وأشرقت أرض الاسلام بنور ربها ، وأظهرت أسرارا من الفرقان وعلوما من العرفان لأمة الاسلام تناسب حالها ، وتنشلها من وهدتها ، وتوقظها من غفلتها ، وترفعها من كبوتها ، وتطلقها من عقالها ، وتهديها إلى سواء الصراط .

أقصّ

أقص اليوم السبت ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣١ م قصص ما كان بيني و بين صديق العالم الذى اعتاد أن يحادثني فى هذا التفسير ، إذ حضر الليلة وأفاض علىّ من الأسئلة ، وكانني فوق طاقتي من المباحث ، ولكنى والحمد لله استعنت به سبحانه وأجبته بقدر طاقتي « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وسيظهر فى الأمم الاسلامية بعدنا أناس لهم قدم صدق وخبرة وحكمة فى كل زمان بحسبه ، فالله لا يظهر الحكم والعلوم إلا مناسبة لزمان ظهورها .

قال صديقى العالم : إنى قرأت اليوم [سورة القمر] فوجدت الله تعالى يقول فى سفينة نوح : « ولقد تركناها آية فهل من مدكر » . ويقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » وهكذا يقول فى آخر قصة فرعون وعاد ، وفى قصة ثمود ، وفى قصة قوم لوط ، ثم أعاد آية : « فهل من مدكر » عند قوله « ولقد أهلكنا أشياعكم » كرر التذكر وطلبه سبع مرات بهيئة الاستفهام المقصود به الأمر ، وهذا أبلغ فى طلبه ، والقرآن جاء لهدينا نحن ، واذا نحن أمرنا أن نفكر فى سفينة نوح وأن الله تركها لنا آية ، وفى هلاك من كذبوا من أمته ، وفى قوم فرعون وهلاكهم ، وقوم عاد وثمود ولوط وجميع الأمم التى كذبت ، وهذه كلها غائبة عنا وتذكيرنا بها نافع ، أفليس هذا يكون داعيا حثيثا بالأولى أن نفكر فيما هو محيط بنا .

الله أكبر : ان هذه السورة فتحت لنا من العلم أبوابا ، فتحت لنا أبواب العلم على مصراعيها ، جلّ الله جلّ الله ، إن كل ما فيها تاريخ قديم ، والتاريخ القديم اتبعه مابعده وامتدّ الأمر إلى زماننا هذا ، إن الله عزّ وجل هو الذى أمرنا بالاعتبار بتاريخ الفراعنة وهلاكهم بعد قوم نوح وهلاكهم ﴿ وبعبارة أصرح وأبين ﴾ ان المسلمين فى زماننا يجب عليهم أن يعتبروا بقدماء المصريين ويدرسوا تاريخهم ، وتاريخهم تقدم منه شىء فى هذا التفسير ليكون أنسا لقرائه ، وفيه عجائب دول المصريين القدماء من حيث تطوّر أحوالهم من الأحسن إلى الحسن إلى الردىء ، وقد كانت كبوتهم وزوال ملكهم تابعين لانحرافهم وسوء سلوكهم ، وهذا تقدّم فى سور كثيرة ومنها سورة غافر عند آية مؤمن آل فرعون ، وهكذا بلاد حضرموت التى تقدم وصفها فى سورة الأحقاف ، وكيف كان بها قوم عاد ، وأن آثارهم باقية ، وهناك قبر هود عليه السلام ، والمسلمون جميعا مقصرون لأنهم لم يرسلوا من يفك تلك الرموز التى فى ذلك القبر كما أخبرنى بذلك من شاهدوه هناك ، وكذلك قبر صالح عليه السلام فى تلك البلاد ، فهذه الأمم التى بقيت آثارها يجب استقصاؤها بالدرس لمعرفة علومها والانتفاع بها ، وكيف تدهورت واضمحلت حتى نجتنب نحن ماوقعت فيه تلك الأمم بالتفصيل ، أما الاجمال فلاخير فيه ، فالادكار المذكور فى الآية يستحيل أن نناله إلا بالتفصيل ، أما الاجمال فهو مقفل الأبواب معطل الحكمة ، والتفصيل هو الخير وهو العلم والحكمة .

هذه الآراء أذكرها الآن لأنى فهمتها من سابق هذا التفسير ، فان مامضى من التفسير يجعلنى أفهم هذه الآية على هذا الوجه ، وأقول : ان أمم الاسلام المستقبلة ستكون فيها جماعات مختلفات موزعات على العلوم لكل طائفة منها جماعة تدرسها ، هذا هو الذى سيكون ، وانما قلت انه سيكون لأن ذلك تكرر مرارا فى هذا التفسير والمسلمون يقرءونه ، فهم لاجرم سيقومون بهذا الأمر وهو توزيع العلوم على جماعات مستعدات للدرس الخاص ، فأنا من هذه الوجهة مطمئن على تلك الأمم الاسلامية المستقبلة ، إنما الذى أريد أن أسأل فيه اليوم [أمران : الأمر الأوّل] ما أشاهده فى مصر من أن المسلمين قد جعلوا قراءة القرآن ذات هيئة خاصة فى ولائمهم وأعراسهم وختان أبنائهم ، وكذلك اذا استهلت أطفالهم بالولادة ، أومات أحياؤهم ، فانى أراهم قد جعلوا أناسا اختصوا بالقراءة فى هذه الأحوال بأجر معين ، فالولادة والموت ووليمة العرس والختان وغيرها كل هذه يقرأ القرآن فيها أناس مختصون ، فالقراءة حرفتهم والناس يسمعونها لا سيما اذا كانت تلك

بصوت حسن ، فهل هذا من الذكر المذكور فى الآيات ؟ هذا هو الأمر الأول . أما الأمر الثانى فهو ما نسمعه عن الصوفيـة أو نقرؤه فى كتبهم من ذكر آيات أشبه برموز لبعض المعانى الدقيقة ، فهذا أيضا من الذكر المذكور فى الآية إذ يقول : « فهل من مدكر » وكيف يكون ذلك الذكر ؟ وإذا كنا مأمورين أن نتذكر آل فرعون وعاد وثمود وغيرهم من الأمم البائدة أفلا نتذكر ونتدبر أمر هؤلاء الأولياء الذين هم أقرب إلينا وكتبهم بين أيدينا ومن هم أحياء الآن وهكذا قراءة القرآن المتقدمة فى الأمر الأول فيجب علينا أن نتذكر ونتدبر فى أمر هـذه كل بحسب حالها فما كان منها ضارا اجتنبناه ، وما كان منها نافعا قبلناه ، ومما قرأته من كلام هؤلاء الصالحين ماجاء فى كتاب [درر الغواص ، على فتاوى سـيدى الخواص] تأليف الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ، فهذا الكتاب وغيره يقرؤه المسلمون ويجدون آيات لامناسبة بينها وبين المعانى التى سيقت الآية لأجلها ، فهل هذا ادكار أم هو أمر لايليق بكتاب الله ؟ فههنا يجب تمحيص الحقيقة لأن هذا الزمان زمان مبدأ ظهور الحقائق ، ومن ذلك ما يقوله الصالحون ، ومنه ماهو مشاهد فى عمل العامة فى الأمر الأول ، فالذى نشاهـده فى مصر من قراءة القرآن يجب درسه ، والذى نسمعه عن الأولياء يجب تمحيصه بقدر الامكان ، ولقد جاء فى كتاب [درر الغواص] مافحواه :

(١) أولا : ان الشيخ الشعرانى سأل الشيخ الخواص الذى كان رجلا أميا لايقرأ ولا يكتب عن الخواطر القبيحة هل تقع للخواص كما تقع للعوام ؟ فقال له . كلا . إن الخواص لا يشاركون العامة فى خواطرهم التى تطرقهم ، ووصف أكمل الخواص بأنه له النصيب الأتم من مقام العبودية لأنه منزه من أن ينحصر فى وصف دون آخر من حال أو مقام ، قال تعالى : [يا أهل يثرب لامقام لكم] . هذا كلام الخواص للشيخ الشعرانى ، ثم استمر صاحبى فى حديثه قائلا : أين الآية وأين الكلام فى وصف العارف ؟ هل معنى الآية ينطبق على ذلك ؟ والآية فى واد ووصف العارف فى واد آخر هل هكذا يكون التذكر ؟ وهل هذا تيسير القرآن للذكر ؟ وهل يكون ذكر القرآن بأمور هو براء منها ؟ فأين الثريا وأين الثرى ؟ مدينة يثرب معروفة ، والآية سيقت لأحوال العارف ، والقصة فى غزوة الأحزاب ، وفى سورة الأحزاب ، كل هذه أمور متناقضات لابد من تمحيصها حتى نفهم هذه السورة وكيف يقول الله : [ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر] . أهكذا يكون تذكر الخواص من أمتنا ! .

(٢) يقول الشعرانى : سألته رضى الله عنه عن قوله صلى الله عليه وسلم : [الجنة تشتاق إلى أربع : على ، وعمار ، وسلمان ، و بلال] ماحكمة تخصيص هذه الأربعة ؟ فأفاده الخواص بأن العلو والعمارة والسلامة من الآفات والبلاء ، وهى برد القلب من خطور زوال ذلك النعيم ، هذه المعانى الأربعة هى أركان نعيم الجنة ، وانهم لايتم نعيمهم إلا بها ، وهؤلاء الأربعة هم الموكلون بالأنهار الأربعة التى هى مظاهر العلوم والأعمال المكسوبة والموهوبة .

(٣) ثم قال : ويوضح ذلك [وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون] فأين على وعمار وسلمان و بلال .

(٤) وأين أنهار الجنة والعلوم والمعارف والأعمال المكسوبة والموهوبة ؟ وأين هؤلاء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وآية : [وان الدار الآخرة لهى الحيوان] أمور متباعدة قرنت معا .

(٥) وسأله عن حقيقة الشجرة التى أكل منها آدم عليه السلام فقال هى الأفعال القابلة لما عليه الأنبياء وكمل ورثتهم من كمال الأفعال والأخلاق ، والسر فى ذلك اظهار منة الله على العبد ، وحلمه عليه

لا

لاغير ، والكل منه وإليه ، لكن لايخفى تفاوت الناس فى الذنوب ، فربما كان ماتقرّب به عبد يتوب منه عبد آخر ، فأين الشجرة التى فى الجنة ؟ وأين أفعالنا نحن المغايرة لأخلاق الأنبياء ؟ وكيف يجعل الأكل من الشجرة نفس ذنوبنا نحن وأعمالنا ؟ هذا أمر غيرمايقول القرآن ، فهل هذا ذكر ؟ وهل هذا ينطبق عليه قوله تعالى : « فهل من مدّكر » فأين الادّكار هنا ؟ .

(٦) وسأله الشعرانى : أيصغى لمدح من يمدحه ؟ فأجاب بقوله : لاتركن قط إلى من يمدحك فان النفس تألف ذلك وأنت لاتشعر ، وكل شىء ألفته نفسك تخلفت به عن اللحوق والتخلق بآداب العبودية التى من شأنها فقرك دائما وغنى ربك دائما ، إذ لا كمال يدّعيه الانسان إلا وهو فى الحقيقة لله وهو فى ذلك منازع لأوصاف الربوبية من حيث لايشعر ، فحاله كحال فرعون والنمروذ وسواه ، حيث ادّعيا ماليس لهما من صفات ربهما ، وكان ذلك سببا لهلاكهما ، وقد وقع التوبيخ الإلهى لمن يدّعى ماليس له بقوله تعالى : « وماخلقت الجنّ والانس إلا ليعبدون » . وقال : « يامعشر الجنّ والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا » كل ذلك جاء اعلاما للعبيد أن ينتبهوا لأنفسهم ويعترفوا بالعجز والذل والمسكنة ، وأن لايتعدّوا صفات العبودية التى خلقوا لها ، والله أعلم اه — ثم قال صاحبى : فأين آية يأمرنا الله فيها بالعبادة وترك مدح المادحين ؟ أفليس هذا اتساع فى معنى الآية غير مألوف .

(٧) ثم قال : وقد سألته بلسان الافتقار عن الأحدية السارية فى الوجود ، ولشدة ظهورها مع صفاتها (ظهور الأحدية وصفاؤها قد ظهر بعض سرّها فى سابق هذا التفسير) فأجاب بقوله : [ألها] ثم سكت وقال [كم] ثم [التكاثر] ففهمت ، فأين آية [ألهاكم التكاثر] ومعنى سرّ الأحدية التى ظهرت فى كل مخلوق ، ولكن غفل عنها أكثر الناس مع أن الآية واردة فى التكاثر فى الأموال والأولاد ، ووحدة الله السارية فى الوجود المشرقة للخواص أمر آخر غير الوارد فى الآية .

(٨) ثم سأله عن سبب تنوّع طرق الأولياء وكثرتها مع ان المطلوب عند الجميع واحد لاتصح فيه القسمة ولا يقبلها . فقال : إنما تعدّدت الطرق لتعدّد القوابل والاستعدادات لأنه لايدرك الاثنان بصفة واحدة أبدا ، ومحال أن يوجد الحقّ عند واحد ويكون مفقودا عند آخر كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : «كل يوم هو فى شأن » واليوم هوالزمن الفرد الذى لايدرك ، وكذلك أشار إليه قوله تعالى : « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » فان الرحمة غير الذات والعلم صفتها ، فآية : « كل يوم هو فى شأن » واضحة فى نظام هذه العوالم ، أما تنوّع المدارك على حسب الاستعداد فذلك مسلك آخر .

(٩) ثم سأله عن خشوع الذاكرين الذى يذهب حالا بعد تمام الذكر ، لماذا يذهب سريعا ؟ فأجابه بجواب واسع أدخل فيه مسألة كرامات الأولياء ، وأن كثيرا منهم تميل نفوسهم إلى الكرامات ليرتفعوا على أبناء جنسهم ، وهذا من حب النفس ، والحق لايدرك لمحبة النفس وتكبرها وتلصصها على مراتب الأولياء وإنما يدرك تعالى به فضلا ، ومنة : « هواجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم » ، فسأله ما ملة أبينا ابراهيم ؟ قال التسليم والتفويض لله رب العالمين ثم قال له : ان ستر حالك عنك الآن خير لك ، لأن من أعطى شيئا من محبوبات النفوس فى هذه الدار نقص رأس ماله وخرج من الدنيا بخسارة ، اللهم إلا أن يعطيه الحق ابتداء من غير ميل للنفس ، فذلك مجعول عن صاحبه ، إلى أن قال : فإياك أن تميل إلى شىء تألفه النفس فان السم

معه ، ولايعين السم إلا النفس ، وانظر إلى قوله تعالى : « ولاتقربا هذه الشجرة » مع علم آدم عليه السلام بها حال تعليمه الأسماء ، فلما أراد نفوذ قضائه وقدره ألف بينه و بين من كان سببا لأكله من الشجرة وليست إلا حوّاء الخ .

قال صاحبي لى : فأين ميل النفس إلى الكرامات ؟ وأكل آدم من الشجرة ، وأين آية « هو اجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج » الخ من مسألة ميل النفس إلى الكرامات وظهورها للناس ، هذا ما أردت سؤالك عنه اليوم فأرجوالاجابة ؟ فقلت غدا ان شاء الله عسى الله أن يأتى بالفتح من عنده وهو الفتاح العليم .

***

حضر صاحبى فى الغد وأخذ يطالبنى بالاجابة على ماسبق فى المجلس السابق فقلت له : إن سؤالك أمس يرجع لأمرين : الأول قراءة القرآن المعروفة اليوم بين المسلمين فى الطرقات وفى المنازل والمقابر وفى الختان والولادة والموت وما أشبه ذلك ، وجوابه أن أقول :

أيها الأخ الذكى : لقد كنت أيام الشباب أقف وأنا مدرس بمدرسة الجيزة الأميرية على شاطئ ترعة هناك وسط المزارع الجميلة ، وأفكر فى أمر الديانات واختلافها وكثرتها ، ثم فى أمر الفرق الاسلامية وتشعبها وأقول : كيف يكون من الديانات مايحصر الفكر و يضر العقل ، ومنها مايسرع برقى الأمم ، ومن الديانات ماهوأرفعها وأصلحها ولكن أهله جاهلون فيرجعونه لطريقتهم ، و يجعلونه على حسب مألوفهم ، فما كدت أتم ذلك حتى رأيت الجواب فى الحقول ، وكأن الزرع والشجر تخاطبنى قائلات : اننا نحن ثلاثة فرق : فرقة للغذاء وفرقة للدواء وفرقة للهلاك ، فأكثرنا غذاء ، وأندرنا للهلاك بالمواد السمية ، والقليل للدواء . القمح للغذاء الخروع للدواء ، المواد السمية للهلاك ، ولكل منا مزية خاصة لفائدة شريفة ، وحذف أحدنا من الوجود نقص فى الطبيعة وخلل فى النظام .

ثم انظر إلى هذه البرك والمستنقعات : ألست ترى فيها حشرات وهوام وحشائش قذرة فى مائها الراكد ومع ذلك تكون هذه الحشائش مأوى لتلك الحشرات وتلك البرك ومافيها زينة لتلك الحشرات ومرتع وغذاء ومتاع إلى حين ، إن البرك ماؤها ضار ولكن أصله من ماء النيل السعيد المبارك ، فما مثل الديانات إلا كمثل النباتات اختلافا ، فلكل أمة عقائد ألفتها وإن كانت باطلة ، ونحل ورثتها وان كانت عاطلة ، وملل اعتنقتها وان كانت منحرفة ، وهذه العقائد كلما كثرت فيها مناهج الأخلاق كانت أقرب إلى اصلاح تلك الأمم ، وكلما كثرت الخرافات والضلالات والتوا كل كانت أقرب إلى الاهلاك والتدمير ، فالأولى أشبه بالقمح ، والثانية أشبه بالسم فى النبات ، وهذه نتائج فى النظام العام العقلى كالنتائج المرتبة على النظام النباتى ، والنظامان متناسبان المادى والعقلى .

وأقول الآن : مامثل قراءة القرآن فى الطرقات وعلى المقابر وفى حال الختان والولادة والموت وولائم العرس إلا كمثل تلك المستنقعات والبرك التى انقطع النيل عنها وتكاثرت فيها أنواع الميكرو بات والحشائش والمياه القذرة وصارت تنفع لأدنى الحشرات واطعام الميكرو بات ، واذا أكلت منها الدواب استضرت بالأكل منها وأهلكت بعضها ، فهذه فيها منافع للحشرات ولبعض الحيوانات وللانسان فانه يصطاد منها السمك و يقتات به ، ولكن سوائمه قد تعرض للخطر بالأكل من تلك الحشائش ، حتى ان الفلاحين فى بلادنا المصرية يقولون [فلان جاموسته مغشوشة] يريدون بذلك انهم يجدون بعد ذبحها فى بعض أحشائها أنواعا من الدود والحيوانات الرخوة ، كانت تهلك جثمانها فى حال حياتها ، فهؤلاء الفلاحون اذا ظلوا عاكفين على ماهم عليه والذى ألفوه فانهم يأخذون فى الانقراض والذل والخضوع ، ولكنهم اذا أصلحوا ترعهم وقناطرهم ،

وسارعوا

وسارعوا إلى ادخال ماء النيل فى مزارعهم فان الوباء يخف ، والضرر يزول ، وتصلح أرضهم للزرع ، وعقولهم إلى العلم ، ونسلهم إلى الكمال ، هكذا هذه العادات الموروثة عند بعض أمم الاسلام كأمتنا المصرية فانها اتبعت دين الاسلام الذى نزل فى جزيرة العرب ، وجعله أجدادنا ، وعملوا بقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ورفع دولهم أيام الصحابة والتابعين ، ولما زال ملك الأمويين وحل محلهم العباسيون ، وحل القرآن أمم غير عربية كالفرس والترك ، وذل الناس وخضعوا للترهات ، وتقلص ظل الدين ، وأصبح رسوما مرسومة ، وأقوالا محفوظة ، وطرائق مخصوصة ، ونزع لبها ، وحفظ قشرها : هنالك أخذ الناس يقلدون الآباء وهم يجهلون علومهم ، ويحفظون القرآن بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

فقال صاحبى : إذن أنت تقول ان قراءة القرآن على هذه الشرائط وفى تلك الأحوال المعتادة فى أمثال بلادنا المصرية غير مجردة ؟ قلت : انى قد أوضحت بضرب المثل ، وأقول أيضا : إن قراءة القرآن على هذا النمط لها نفع مّا ، فان الأموات اذا أحسوا بأن الأحياء يذكرونهم حصلت لهم مسرة بذلك ، واذا قرئ القرآن لأجلهم زادت مسراتهم ، هذا حسن ولكن يظهر لى أن هذه الأمة نسيت أصل دينها ، دينها إنما نزل لتذكر الأحياء وتعليمهم ، وترقيهم واصلاح شئونهم لا إلى الأموات ، وغاية الأمر أنهم لما ماتت نفوس الأحياء حوّلوا القرآن وقراءته للأموات ، فقد فعلوا فى أنفسهم ماحكاه لى أحد نظار المكاتب المصرية قبل الاستقلال الداخلى لبلادنا المصرية فى أيامنا هذه ، إذ دخل مفتش انجليزى المدرسة الأوّلية ، وأخذ يسأل هل عمل ناظر المدرسة بتعليماته ؟ وماهى تعليماته ، انهم فى ألعابهم يمثلون الميت محمولا على النعش وهم يضحكون و يفعلون قدّام نعشه ووراءه مثل مايفعله الفقهاء من الترتيل والأقوال المعلومة تدريبا لهم على الاستخذاء والاستجداء والذل والمهانة ، واتباع الجنازات ، وتعليما لهم أن يكون مايحفظونه من القرآن وسيلة لجلب الرزق من هذه الناحية إحياء للذل والجهل وامانة للنخوة والعلم ، فهذا تدريب لهم فى حال الصغر منه يضحكون لينشطوا فى دروسهم ، حتى اذا كبروا لم يعوزهم كبير عناء فى الاستباق الى اتباع النعش ، وتحصيل أجور المشى فى تشييع الأموات إلى قبورها ، ومقاضاة الأحياء فى أجورها ، وهذا قصد جميع المستعمرين ، والمستعمرون على قسمين قسم هذا شأنه وهو ظاهر فيما تقدم ، وقسم آخر استعماره خفىّ ، وهو استعمار الجهل الذى حاق بالأمم الاسلامية دهورا ، وأناخ بها قرونا ، فأذل الأبناء وأضرّ البلاد ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وهذه الطوائف بقيت فى مصر مثلا جعلها الله لنا تذكرة كما جعل اللغة الهيروغليفية عند الأقباط بمصر فى أديرتهم ومحالّ عباداتهم ، يقرءونها تعبدا لأجل دينهم ، وهم منهمكون فيها حتى اذا جاء [شامبليون] العالم الفرنسى وحلّ هذه اللغة وألغازها ، وأعانه على ذلك هؤلاء العباد (بتشديد الباء) فنشرها فى العالم كله ، وانتفعت نفس مصر بهذا العمل ، هكذا هذه العادات الموروثة وقراءة القرآن على هذا النمط انما أبقاها الله إلى أيامنا هذه لنفعل مافعلته بلادنا المصرية إذ ردمت المستنقعات ، ورويت البلاد بماء النيل ، وحوّلت تلك البرك إما إلى مزارع نضرة يسقيها ماء النيل ، واما إلى بيوت وحدائق وجنات وأعناب وفواكه ، فيحوّل المسلمون بعدنا تلك المقارئ وعاداتها إلى أن يقيموا فى تلك الأوقات وعاظا فضلاء ، مدرّبين على إلقاء المواعظ الحسنة ، فيقفون وسط الجموع فى ولائم أفراحهم ، وختان أطفالهم ، وأيام الولادة والوفاة ، و يلقون لهم المواعظ مستشهدين بالقرآن الذى ألفوا سماعه فذلك خير وأبقى ، وذلك كما حوّل أهل بلادنا البرك إلى مزارع وحوّل شامبليون الفرنسى اللغة الهيروغليفية المحفوظة فى هياكل العبادات إلى لغة تحلّ بها الرموز وتظهر بها الكنوز العلمية ، والأسرار الحكمية ، المودعة فى النواويس المخبوءة فى المقابر والبرابى والاهرامات ، وفى صناديق الأموات وعلى حيطانها ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال صاحبي : الله أكبر ، إنى رأيت اليهود والنصارى يفعلون ذلك فى محافلهم ومجتمعاتهم ، فيقوم خطيب واعظ يذكرهم بمعانى التوراة والانجيل . فقلت : إن هذه أمم قد ترقت فى العلم قبلنا فى هذه الأيام ففعلوا ذلك بعقولهم ، وقد كانوا فى غفلة مثلنا ولذلك ارتقوا عنا وان كان دينهم منسوخا ، ونحن بعون الله سنرتقى سريعا ، ويكون ارتقاؤنا أسرع من ارتقائهم ، لأن ديننا أرفع الأديان ، وهو الناسخ لها إلى آخر الزمان « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

فقال صاحبي : إن هذا المقام جميل وبديع ، وهذا التشبيه الذى بنيت عليه الجواب بديع قد أظهر الموضوع وجلاه فأصبح واضح المحيا جميل المظهر بديع الخبر ، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة ، إنه هو السميع المجيب وأرجو الشروع فى الاجابة على الأمر الثانى وهى الحكم الملقاة على ألسنة الصالحين والأولياء . فقلت : قد تقدم الكلام على ذلك فى هذا التفسير فى [سورة يونس] عند آية : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون » الخ فارجع إليه هناك إن شئت .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : إنا كل شيء خلقناه بقدر

القضاء والقدر (١)

لهج الناس فى كل زمان ومكان بذكر القضاء والقدر ويقولون ان الله يقول : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » واذا كان كذلك فلم العذاب ولم العقاب والعتاب ؟ مع انه رحمن رحيم ، فأين الرحمة للمعذبين ؟ وأين السعادة للمظلومين ؟ وأين هم فى عذاب الجحيم ؟ .

هذه حال الانسان على أى ملة كان ، وأىّ دين فى مشارق الأرض ومغاربها ، حيرة لا حدّ لمداها ، وأسئلة لا جواب عليها إلا من أناس صفت نفوسهم وعلت عقولهم ، فيكونون فى نوع الانسان أشبه بالمين ، هذه صورة منطبقة على أهل هذه الأرض أجمعين ، فهاك أيها الذكىّ فاستمع ما ألقيه الساعة إليك بقلب صاف ونفس واعية وتدبر فانه لهذا الداء دواء ، ولمرض الحيرة فى القلب شفاء ، وكن من المستبصرين .

لأضرب لك أوّلا مثلا برجل مهندس عبقرىّ فى الهندسة ، عزم على أن يبنى بيتا ، وهو بأنواع البيوت عليم ، ففكر فى صورها بعقله وانتزع منها صورة صوّرها فى نفسه واصطفاها لسكنه ، ثم رسم ما اختاره وبناه وشاده على أحسن منوال وأجل مثال ، وفى البيت فرش مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابىّ مبثوثة ، وعلى حيطانه أنواع الصور المختلفة الأشكال ، البديعة الجمال ، ويحيط به بستان تقرّ به عيون الناظرين ، ويسرّ برآه جمهور الزائرين ، فدخل البيت زائرون منهم العميان ومنهم المبصرون ، ولما كان هذا المهندس كريم الشيم ترك للزائرين الحرّية أن يدوروا فى البيت كما يشاءون ، ويتفرّجوا على فرشه ونمارقه وأشجاره وهم آمنون ، فانطلق أحد العميان فى المنزل ، فاصطدم فى أرض الحجرات بالأرائك ، نخرّ على الأرض كالصريع ، وما كاد يقف حتى لطمته الألواح المعلقات فأدمت أنفه ، وما كاد يمسحه أو يغسله وقد مشى خطوات حتى سقطت رجله فى المرحاض فقعد حزينا كئيبا وأخذ يقول : إن رب هذا البيت رجل عظيم ورحيم ، فكيف خاب ظنى فيه ؟ فأين الهندسة والنظام ؟ وأين الكرم والرحمة للزائرين ؟ ولم يزل كذلك حتى جاءه رجل مبصر فأخذ يشرح له دقائق البيت ومافيه من الجمال وحسن الاتقان ، ففرح أشدّ الفرح

(١) هذا المقال نشر فى [مجلة المعرفة] بقلم المؤلف .

وقال

وقال هذا هوالنظام ، وهذه هي الرحمة والاحسان . هذا أيها الذكيّ هوالمثل الذي ضربته لبيان هذا المقام .
إن [علم المهندس] بنظام البيوت واصطفاءه منها واحدا هو أجاها ضرب مثل للقضاء ، فالقضاء راجع لما ثبت في العلم القديم للمكونات ، وابراز البيت على ماقدّره المهندس في نفسه على أحسن منوال ضرب مثل للقدر لأنه راجع لظهور المخلوقات على ماسبق به العلم القديم .

[العميان] ضرب مثل لجميع الجهلاء على أيّ دين كانوا ، ولطائفة الملحدين والمتعلمين تعليما ناقصا في مدارس الشرق والغرب أجمعين [والمبصرون] ضرب مثل لأناس جادت قرائحهم ، وزكت نفوسهم ، واشتد شوقهم للعلم والبحث فلم يكونوا كأولئك العميان يهرفون بما لا يعرفون ، فدرسوا هذه الدنيا دراسة متقنة من الرياضيات والفلك والطبيعيات ، وأدركوا بصفاء عقولهم جمالها وبهاءها ، ثم رجعوا إلى إخوانهم وأخذوا يخاطبونهم بما يفهمون ، ويكلمونهم بما يعقلون ، وسعدوا سعادة لاحدّ لمداها وكانوا من الفائزين ، وهؤلاء يقال لهم : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي »
فاذا سمعوهم يتحدثون في القضاء والقدر يخاطبونهم قائلين : أيها الأعزاء : ليس لامرئ أن يقصر في عمله محتجا بالقضاء ، فتلك حجة الكسالى الغافلين ، فاذا ما أتمه على حقيقته واجتاحته الجوائح فهنالك يقول : القضاء سلوة المنكوبين وراحة البائسين ، إن هذه المسألة ليست بنت اليوم ، ألم تروا كيف يقول الله حكاية عن كفار العرب أيام النبوّة : « وقال الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » فردّ الله عليهم مهددا بالوعيد فقال : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا باسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظنّ وان أنتم إلا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة فلوشاء لهداكم أجمعين »
ونقول : كما قامت حجة المهندس رب البيت على الأعمى ، هكذا تقوم حجة الله على من يخوضون في القضاء والقدر وهم جاهلون ، إن الأمم التي فتحت على نفسها باب القضاء والقدر هي التي قد استعدّت للفناء وباءت بالوبال ، ونسيت عقولها ، وعدّتها حملا ثقيلا عليها ، لأنهم على الشهوات عاكفون ، وفي غمرة الجهالة ساهون ، وكيف يفتحون هذا الباب وهم يجهلون ؟ وأنى للعميان أن يدركوا محاسن الجمال في الفتيات والفتيان ؟ إن المسلم الذي شغله القضاء والقدر وهو بعد لم يدرس نظام الدنيا وعلومها لحريّ به أن يبوء بالخسران ، فهذه الطائفة في الدين أشبه بأولئك الذين يجلسون في أماكن الشرب العامة بلادنا المصرية ، ويدور كلامهم على سياسة الدول وأسرارها وهم يجهلون سياسة منازلهم وأمتهم ، فهم في ذلك مغرورون .
إن الناس ثلاث طبقات : عامة مصدقون ، وحكماء محققون ، ومتوسطون بين هذين مذبذبون متحيرون فالفريقان الأولان مطمئنون ، والفريق الثالث جعلت حيرته مهمازا يسوقه إلى البحث ، فاذا قصر فهو في ضلال مبين ، وكيف يخوض في القضاء والقدر من يجهل تشريح جسمه وبدائع تركيبه ، وأن في كل عين من عينيه سبع طبقات وثلاث رطوبات ، ومن الطبقات السبع طبقة تسمى الشبكية ، وهي لاتزيد في سمكها على سمك ورقة الكتابة ، وهذه وحدها فيها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة ، وهذه كلها مبينة بالتصوير الشمسي واضحة ، وبهذه الملايين يكون الاحساس والنظر . بعد كتابة ماتقدّم في هذا المقال وجه إليّ أحد الأصدقاء اعتراضا جاء فيه مايأتي :

إن هناك فرقا بين المثل والممثل له فان المهندس ربّ البيت ليس مسئولا عن العمى فليس من حق الأعمى الذي حصل له الألم بشج رأسه أن يقول له لم كنت أعمى ؟ لأن المهندس لاسلطان له على عين الأعمى ولكن الممثل له غير ذلك ، فان الذي أصبح متشككا متحيرا هو نفسه من صنع الله ، واذن فالاشكال باق ، والمسألة على حالها ، والمثال لايجدينا نفعا ، فأمّن الحاضرون على كلامه . فقلت : لا اشكال

لا اشكال ، فقال الحاضرون : أين أين البرهان ؟ فقلت : هناك أسرتان : أسرة كبرى وهي نوع الانسان ، وأسرة صغرى وهي المعروفة ، ألستم ترون في الأسرة الصغرى أن صاحب المنزل هوالذي يديره ، وأن الخدم لا اعتراض لهم عليه في الغالب ، وأن أطفاله لايفقهون شيئا مما يفعل أبوهم إلا بالتدريج ؟ قالوا نعم . قلت : فهل وجود الأطفال مع جهلهم المطبق بنظام المنزل يعتبر عند العقلاء خللا وظلما ؟ قالوا . كلا . بل الأطفال نعمة وعدم وجودهم يعتبر نقمة . فقلت : إن العامة في العالم الانساني يمثل لهم بالخدم ، لأنهم يعملون ولا يفكرون إلا قليلا ، وأما رب البيت فهوضرب مثل لصانع العالم ، وأما الأطفال فيمثل لهم بالطبقة الوسطى من المتعلمين الذين ارتقوا عن العامة قليلا وفكروا في نظام هذه الدنيا ، فهؤلاء أطفال الانسانية ، والأطفال خلقوا ليجلسوا محل آبائهم وهؤلاء هم المتعلمون تعلما ناقصا ، فهؤلاء اذا أحسوا بحيرة فهذه الحيرة نعمة لا نقمة لأنها تدفعهم إلى استيعاب العلوم ليصيروا حكماء فاذا كسلوا وناموا كما هي الحال عند كثير من المتعلمين الحاليين فانهم لاجرم يحيون حياة كلها اضطراب ، ويرجعون القهقرى ، وتكون الشهوات سلوتهم الوحيدة ، وهذا هوالسر في تأخر بعض أمم الشرق التي كثر العلم فيها ولكن لا استقلال لها لأن الرجال القائمين بأمرها يبنون حياتهم على أساس على غير مكين ، فهل وجود أطفال الأمم خلل في النظام ؟ قالوا . كلا . لأنهم يبحثون عن الحقائق كأطفالنا . قلت : إذن العميان في مثل المهندس رب البيت ضرب مثل لهؤلاء باعتبار نقصهم ، وخلق الناقص المستعد للكمال حالا أوما لا عدل وحكمة وكمال ، فقالوا نعم ، فقلت الحمد لله إذعرفتم الحقيقة . انتهى

هذا ما كتبته في [مجلة المعرفة] تفسيرا لقوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وان أردت أيها الذكي الزيادة فاقرأ ما كتبته في [سورة الفرقان] عند آية : « وخلق كل شيء فقدّره تقديرا » والى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر

يقول تعالى خلقنا كل شيء مقدرا مرتبا منظما على مقتضى الحكمة ، وقد كان مكتوبا قبل ذلك في اللوح المحفوظ معلوما عندنا ، فتى أردنا أمرا ما من أمورنا التي قررناها في علمنا ، وقدّرناها في لوحنا المحفوظ فاننا نفعله فعلة واحدة ، ونوجده بلامعالجة ولامعاناة ، فقدرنا سابق ، وقضاؤنا لاحق ، ولا قضاء إلا وهو مرتب على القدر السابق ، وقولنا [كن] هو القضاء . واعلم أن في أمم الاسلام السابقة قوما يقال لهم القدرية ، وهؤلاء يقولون : « إن الله لايعلم الأشياء قبل وقوعها ، وكل مافي الوجود مستأنف لم يعلمه الله فيما مضى ، ولكنه يعلمها بعد وقوعها لاغير » فهم سموا قدرية لانكارهم القدر ، وقد قال أصحاب المقالات من المتكلمين : إن هذه الفئة قد انقرضت ، ثم قالت طائفة بعدهم : الخير من الله والشر من غير الله ، وهؤلاء كالمجوس الذين ينسبون الخير إلى [يزدان] والشر إلى [اهرمن] والخير يرجع إلى النور ، والشر إلى الظلمة .

جمال هذا المقال

اعلم أن الله عزّ وجل علم قبل خلقنا أننا لايتسنى لنا الوقوف على حقيقة التكوين ولابدائع القدرة ، جعلنا نحن اشبه بمثل مضروب لذلك ، ألاترى رعاك الله أن هنا [ثلاث مراتب : المرتبة الأولى] العالم كله [المرتبة الثانية] الانسان الواحد [المرتبة الثالثة] القوى الذهنية في الانسان .

هذه

هذه هى المراتب الثلاث فى الوجود ، فالرتبة الأولى والمرتبة الثانية من فعل الله عزّ وجل ، أما المرتبة الثالثة فهى من فعله بواسطة أنفسنا .

جلّ الله ، الله أكبر : المرتبة الأولى العالم كله من العرش إلى الفرش هيكل واحد ، وهذا الهيكل نشاهد فيه أجسامنا وصورا شتى لاقبل لنا بحصرها ، وهذه الكواكب التى لايحصرها العدّ ، والمجرّات والسدم التى أصبحت تعدّ بالملايين ، وكل مجرّة وكل سديم يحوى من الشموس وماهو فى حكم الشموس مايعدّ بالملايين ، وتلك الشموس إما كشمسنا أوأكبر منها أوأصغر ، وكل هذه نشاهد لها حركات منتظمات ، وهكذا كل ما على أرضنا ، ومافى جوّنا ، ومافى بحارنا من المخلوقات كلهنّ ذوات أفعال منتظمات مقدّرات منظمات باعتبار خلقها ، ولاجرم أن هذه الأفعال والصفات والأصباغ إنما كانت بفعل عقل وحكمة فلنسمّ ذلك عقلا عاما ، وهذا العقل العام لايمكن انكاره ، لأنا نشاهد آثاره المنظمة وأفعاله الجليلة .

أما المرتبة الثانية فهى الأجسام الحيوانية والنباتية ، وأخص ذلك كله جسم الانسان ، فله أفعال إرادية وله جسم كما أن العالم كله جسم وروح .

أما المرتبة الثالثة وهى قوانا العقلية التى تحت تصرّفنا نحن فانها تصوّر لنا ماشاهدناه أوعلمناه .

ياعجبا يار بنا وألف عجب ! لاتكاد نفسى تتوجه للمجرّات ، ولا للشموس ، ولا لحبيب ، ولا لعدوّ حتى يحضر فيها كلمح البصر ، فلندرس هذه القوى التى فينا فانها كافية لنا فى فهم لغزالوجود ، وأنا أحسّ بصور لاعدد لها ، صور تضارع صور هذا العالم المشاهد ، فأرى الشمس فى مخيلتى مثل مارأتها عينى ، وهكذا الأرض والسماء ، ومتى تصوّرت صورة حسنة أوقبيحة أومؤذية أونافعة ظهرت فى نفسى آثارها ، وقد أتصوّر انسانا يؤذينى فأشعر فى الحال بغم وتجديد عداوة وحقد وضغن ، وقد يتصوّر المرء صورة ذات جمال فتهيج شهوته ، إذن الصور الخيالية الحادثة فى أذهاننا تبعث تارة على الشهوة وتارة على الغضب ، وهذان عالمان لامنبع لهما إلا خيالنا ، وهناك عوالم أخرى فى الذهن ، ولكنى من جهة أخرى أحسّ فى نفسى بعالم آخر أرقى من هذه العوالم ينهى النفس ويقول لها : اطردى صور الأعداء ، واطردى صور الشهوات ، ويتحكم فى هذه الصور ويقرب ويبعد .

إن فى الذهن لصورا كثيرة من فريق الغضب والشهوة والجمال والشجاعة وأضرابها ، وهذه الصور خاضعة لتأثير مؤثر نسميه القوّة المفكرة أوالعقل وهكذا ، إذن هنا أمران : أمر هو كالصورة الجسمية ، وأمر هو كالروح ، فالذى هو كالصورة هى الخيالات ، والأمر الذى هو كالروح هو الفكر . ثم ننظر فنرى هذه القوى الذهنية لها السلطان المطلق على الحواس ، ومن الحواس البصر ، والبصر يرى الصور على الشبكية فالشبكية هى التى تقيد الصورة وتوصلها إلى القوّة الباصرة فى الدماغ فيراها الانسان ، وما الذى رآه ؟ هو لم يرَ إلا صورة مرسومة دلت على صورة فى الخارج ، فالمرئىّ حاصل داخل العين ، وهذه الصورة أقرب إلى الروحانية ، وهى دالة على الصورة الجسمية الخارجية : أى ان مافى النفس مطابق لمافى الخارج ، إذن المعلوم ماملكته النفس فيها ومافى الخارج مطابق له ، إذن البصر فى لمحة يرى صورة أقرب إلى الروحية دالة على مايطابقها ، وهى الصورة الخارجية فى لحظة صغيرة من الزمان ، فلننظر فى سير هذه الصورة فنراها أصبحت فى المخيلة ، وصارت إحدى الصور التى وصفناها بأنها صورة مؤذية أوسارّة أوشهوية أوغضبية ، ولكنها بعد أن كانت أشبه بالروح وهى فى العين أصبحت الآن فى الخيال كالجسم ، وأصبحت القوّة المفكرة كالروح .

وهذا الجسم وهذه الروح اخترعتهما أرواحنا بعناية ربها ، اخترعتهما من العدم ، ليس عند روحى مادّة لتصوير صورها ، ولا مادّة ألطف لتصوير أفكارها ، هكذا فعل الله فى عالمه الكبير ، ولايعزب عن ذهنك

ماقررناه غير مرة وبيناه فى [سورة النور] أن هذا العالم لامادة فيه . كلا . إنما العالم حركات فى أمر يشبه خيالنا سميناه الأثير ، وماهو الأثير؟ هوخيال الكون ، خيال الفضاء ، وهذا الخيال قوى متين أمتن من المادة ، والحركات فيه تحدث نقطا كهربائية ، والنقط الكهربائية باختلافها كما وكيفا تتكاثف بنسب مختلفة لاحصر لها فتظهر لحواسنا على هذه الصور المشاهدة ، والا فالحقيقة أن هذه العوالم ماهى إلانور مضغوط مكبوس تبدى لعيوننا على هذا المنوال ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ العالم حركات لاغير ، وهذه نظرية [انشتين] والحركات تنقلب نورا ، وهذا النور هو هذه الدنيا ، وبتنوع النور يكون جمال لاحد له ذو بهجة ، وهذه الصور الحادثات فى العوالم منها ماينفعنا ومنها مايضرنا على قياس الصور الذهنية . وملخص هذا المقام مايأتى :

(١) كما أن الصور الذهنية لامادة لها هكذا الصور التى فى خيال الفضاء .

(٢) وكما أن الفكر ماظهر إلا من أرواحنا بلاواسطة هكذا الأرواح منبعثة من العناية الإلهية خلقا أوليا ، ونظيره فى ذلك أفكارنا .

(٣) وكما أن الصور فى الأولى منها مايضرنا ومنها ماينفعنا ، هكذا الصور الظاهرة فى خيال العالم وهو هذا الفضاء .

(٤) وكما أننا نحن نتصرف فى الصور الخيالية بواسطة عقولنا ، هكذا نحن نتصرف فى عوالم المادة من أنواع مايعطينا منفعة ومايورثنا مضرة كالنحل والزنابير .

(٥) وكما أن فكرنا له الحرية المطلقة فى اصلاح الصور الحاصلة فى الذهن أومحوها واحداث غيرها محلها ، كذلك نحن نفعل فى أعمالنا المعتادة فى الأرض .

(٦) تشابه العالمان : عالم الأذهان ، وعالم العيان .

(٧) ومثل مارأينا فى هذين العالمين يحصل فى العالم العام .

(٨) فنى هذه العوالم نفوس وعقول نسبتها إلى هذه العوالم المادية كنسبة أفكارنا إلى صورنا الخيالية وكنسبة عقولنا وقوانا المتصرفة إلى أعضائنا العاملة كاليدين والرجلين والحواس .

(٩) وكما أن نفوسنا وأفكارنا تتصرف فى صور الخيال التى لانهاية لها ، وفى صور المادة التى لاحد لها فيما حولنا ، هكذا تلك النفوس والأرواح العالية تفعل بنظامها فى هذه العوالم العلوية والسفلية بقوانين منظمة مترتبة بقدر وحكمة ويمتد من تلك الحكمة فروع تصل إلى عقولنا فتهديها إلى صراطها المستقيم .

(١٠) المادة كلها أنوار بل حركات مضغوطات ومكبوسات ، فأجسامنا وأجسام ماحولنا ماهى إلا أنوار ذات جمال حجبنا عنه ، وهذه الأنوار حركات فى الأثير كما أن الصور المرسومات فى أذهاننا أيضا حركات أوأنوار فى الأثير ، فنحن نور يعيش فى نور .

(١١) خلاصة الخلاصة أن هذا الموضوع كله توطئة لفهم قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » والمقصود الأصلى سرعة الايجاد بعد ارادة الفعل ، وأدى ذلك إلى البحث فى أمر الصور الذهنية ، فالصور الجسمية ، فالأرواح والأجسام ، فالملائكة والعوالم كلها ، وفى غضون ذلك برزت صور من علم الأخلاق ومحاربة القوة العاقلة قوتى الغضب والشهوة ، وتنظيم صور لانهاية لها كما ينظم العقل العام صورا لانهاية لها فى العوالم كلها ، وبجهادنا للخلوص من علائق المادة نصل إلى النور الأسمى ، والحمد لله رب العالمين وهوحسبنا ونعم الوكيل . انتهى صباح يوم الخميس ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

نور على نور

حضر صاحبي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هـذا التفسير فقال : إن هذا المقال حسن ، فقد كان قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » وحصر التمثيل بلمح البصر في الآية وتقريب المعاني البعيدة بما نألفه سببا أثار هـذه العجائب ، وكان لمح البصر ومايرتب عليه من صور ذهنية وأخرى خارجية مخرجا لما استكن من العلم ، وموجبا الارتقاء في الأسباب طبقا عن طبق حتى وصلنا إلى مستوى يسمع فيه الأنبياء والملائكة صرير الأقلام المسطرات مقادير العوالم في الألواح المحفوظ ، ولكن ألا تذكر أن هذا المقام له ارتباط وثيق وائتلاف ، بل تكميل لما تقدّم في [سورة القتال] عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » فقد ذكرت هناك رأى أفلاطون وفيه الكلام على المثل المسماة مثلا أفلاطونية ، وأن هذه المثل نبذها أرسطاطاليس بعده وقال إن العلم لا يعتمد إلا على ثابت ولا ثابت إلا المادّة وصورتها ، وأن الرواقيين الذين جاءوا بعده وكان رئيسهم [زينون] في القرن الثالث قبل الميلاد ردّوا عليه كما ردّ هوعلى أستاذه وقالوا : أنت لم تبين لنا كيف يكون ارتباط هـذه المادّة بصانع العالم الذي أنت توقن به ، وما المناسبة بينهما ؟ ثم انك تقول : ان المادّة مجرّد امكان محض ، وتقول انها تشتاق للصورة ، وهذا كلام لا دليل عليه لأنها اذا كانت مجرّد امكان فأين عشقها للصورة الذي تدّعيه ، وهل هي تعقل ؟ .

فلما رأى ذلك الرواقيون و بعدهم العلماء الذين جاءوا بعد الميلاد وهم الفرع الاسكندرى ، والفرع الشامى والفرع اللاتيني نظروا في آراء الحكيمين ، فقوم منهم أكبوا على العلوم الطبيعية كالطب ، وقوم أكبوا على الرياضية ، وهؤلاء أكثرهم من الرواقيين ، ثم ان هذه الفروع الثلاثة بعد الميلاد وفقوا بين الآراء واستخلصوا خلاصة ، واليهم ينسب كل ماوصل الى علماء الاسلام كابن سينا والفارابي والصوفية ، فهذه الحيرة التي فيها وقع القوم بعد الحكيمين سببها أنهما لم يوفقا لانتهاج خطة بها يصلان إلى الطريق التي بها يعرفون كيف توجد هذه العوالم من إله لا صلة بينها وبينه ، فلا أفلاطون قدر أن يبين ، ولا أرسطاطاليس كذلك ، وهما السبب في اختلاف الأحزاب فيما بعد ذلك . وقد نقلت من كلام [الاستاذ سنتلانه] المكتوب بخطه في كتابه [تاريخ الفلسفة العربية] أن حكماء أوروبا لم يبرعوا في الفلسفة ولم ينالوا من العلم إلا ما كان من قبيل العلوم الجزئية كالطبيعيات والرياضيات ، فاخترعوا وزرعوا وطاروا وحاربوا ، أما العالم الأعلى وعجائب النفس وأصل التكوين التي لأجلها وضعت الفلسفة ، والتي هي المقصود الأصلي لنوع الانسان من أبحاثه فهم فيها ليسوا بالنسبة لسقراط وأفلاطون إلا كنسبة البقة إلى الفيل ، وانهم لو عرفوا ذلك مثل هذين الحكيمين لم يكونوا إلا ملائكة .

هذا كله تقدّم في هذا التفسير في مواضع كثيرة ، وأنت قد رفعت صوتك عاليا وقلت : إلى نوع الانسان كله شرقا وغربا : أيها الناس اذا كان [أفلاطون وسقراط] قد ضربا مثلين لأصل العوالم ، واختلاف الأحزاب من بعدهم ، واذا كان الاستاذ [كانت] الألماني قد خالف طريقهما لما رآها وعرة المسالك ، صعبة المرتقى ، بعيدة المنال ، مربكة العقول ، عرج على أن يصل الانسان لصانع العالم من طريق علم الأخلاق وأبان أنه اذا لم يكن هناك إله يكون المجرم كالمحسن ، فأثبت الإله من هذه الجهة الضعيفة ، وقد نقلت أنت ذلك عن مترجم [كتاب الأخلاق] لأرسطاطاليس من اليونانية إلى العربية ، وذكرت أنت أن هذا المترجم الفرنسي (كما تقدم في سورة حم فصلت وهي حم السجدة عند آية : إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا الخ جعل أفلاطون في الدرجة العليا والاستاذ [كانت] في الدرجة الوسطى ، وأرسطاطاليس في أدنى الدرجات ، كل هذا ذكرته أنت وأثبته في غير ما موضع .

ههنا رفعت أنت صوتك عاليا وقلت فى [سورة القتال] فى رسالة مرآة الفلسفة مامعناه ملخصا موضحا مشروحا بعبارة أوسع .

أيتها الانسانية : اسمعى اسمعى : إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم تكن الأمم فى زمانهما لتعقل الحقيقة واضحة ، فأعطيا العلم للناس على مقدار استعدادهم ، وأعطى كل منهما صورة للناس يظن أنها تقبل عندهم ومضى ٢٥ قرنا انتقلت فيها العقول وارتقت الأفكار فاستعدت لقبول الحقيقة .

أيتها الأمم . أيتها الأمم . اسمعى اسمعى : إن أفلاطون لم يقل المثل الأفلاطونية وهو نائم أوساه . كلا . انه لما رأى أن المعقولات هى الفعالة والمؤثرات وماعداها لاحراك له قال مقالته ووضع قاعدته ، ولكن أنا أنبئكم بالحقيقة ، الحقيقة هى أننا لايتسنى لنا معرفة العوالم الغائبة عنا إلا بما نشاهده فى أنفسنا ، وسبب ذلك أن أنفسنا أكمل هذا العالم ، هى أرقاه لأنها جمعت العوالم الجسمية والعوالم الروحية ، ولنا صور ذهنية وهذه الصور نحس بها ، هى موجودة ، نحن لاننكرها ، وهذه الصور لم تكن لها مادة تخلق منها ، ولا وجود لها إلا من أنفسنا ، فلا واسطة بينها و بين نفوسنا ، أفلا نقول هكذا فى العوالم ، إن العوالم حركات فى ضمير الكون وخيال الفضاء ، كأن صورنا الذهنية حركات فى خيالنا ، فهينا انحل الاشكال ، وفك العقال .

هذا معنى ماتقدم فى غير ما موضع لاسيما [سورة القتال] فهل لك أن تفيض فى هذا الموضوع هنا ليتم المقام و ينتظم شمله ؟ فقلت له : حياك الله أيها الأخ و بياك : ألم تر ما كتبته الآن ، ألم أذكر لك عشر جمل هى خلاصة ماذكرته فى هذا المقال هنا زيادة عما سبق . فقال بلى ولكنى أريد زيادة تحقيق ، نعم انك فى [سورة القتال] لم تذكر إلا الصور الذهنية الخيالية ، وهنا ذكرت الخيالية والفكرية وشرحتهما ، فلتفصل لى المقال بعبارة أوضح وقول أبين ، فقلت : إن كل ما نزاوله من أفعالنا ، ونصنعه فى مدننا وحقولنا وليلنا ونهارنا لايصدر إلا عما قررناه فى نفوسنا .

الله أكبر : لامعنى للانسانية إلا الفكر ، لوسلب الانسان العقل لسميناه مجنونا ، فيصبح ذا غريزة كالحيوان فيأكل و يشرب و يتناسل ، وهوصنوالحيوان لافكر عنده ولاتمييز .

الله أكبر : الأرض وماعليها لاتساوى شيئا مذكورا فى نظرنا لولا ادراكنا لها ، إذن الادراك والتعقل هما أصل كل شيء عندنا ، اذا عقلنا فهناك الوجود ، واذا لم نعقل فهناك العدم ، جرد المرء من شهوة الطعام إذن لايعبأ به ، جرده من شهوة الغضب إذن لايحارب العدو ، جرده من العقل لايدرى شيئا ، فالادراك هوالأصل ، وماعداه تبع ، فالوجود كله لامعنى له إلا إذا أدركناه ، نحن علماء بالادراك ، نحن جهلاء بعدمه العالم موجود عندنا لأنا أدركناه ، غيرموجود اذا لم ندركه ، لاوجود للألوان اذا لم تكن عيون ، أوكان الانسان أعمى ، لاوجود للأصوات اذا كان الانسان أصم ، لاوجود لهما اذا كان أصم أعمى ، لاوجود لهذا العالم لمن لم يحس بالحواس ، بعض الموسوسين ، والمرضى بالأمراض العصبية ، ومرض [الهيستريا] يسمعون أصواتا و يرون صورا لاوجود لها ولكنها تفعل فعلها فيهم وتضرهم ضررا بليغا و يموتون ، وأنا شاهدت بعضهم ، و بعضهم يرى صورا فى الظلام ، ومن شدة خوفه يرى صورا تزعجه وهومستيقظ ولايشك فى وجودها ، يحلم الانسان بصور وأشكال ، وجمال وقبح ، وصديق وعدو ، وحقل وجبل ، وهى عنده حقائق لامراء فيها ، ولها فى ذهنه آثار ، ولها فى نفس حياته فى اليقظة بعض الآثار ، فبعضها يورث الفرح و بعضها يورث الحزن الخ دلالة على أن لها وجودا ، والشمس قدرالمنخل باعتبار ماوصل إلينا بالعين لابحسب الواقع ، إذن الوجود كله الذى أدركناه يرجع إلى ماوصل إلينا فى أنفسنا وماتقبلته وتصورته لاغير وان خالف الحقيقة ، فانا اذا أثبتنا المنفى لما أدركناه ، ونفينا المثبت لما لم ندركه ، نحن فى نومنا نوقن بما ليس بموجود لما

أدركناه

أدركناه ونذعن بعدم ماهو موجود تبعا لما تصوّرناه ، فالعبرة بأنفسنا لاغير ، ففيها سعادتنا وفيها شقاؤنا ، وإذا تبدّى لنفس مايسعدها فهي سعيدة ، وإذا تبدّى لها مايشقيها فهي شقية ، والعالم الخارجيّ أمر آخر غير نفسي فهو صالح للأمرين ، ولو أن الانسان عاش أمدا وأبدا ، وحياته كحياة النائم الذي يرى أنه في روضات الجنات ، فهذا النائم سعيد سعادة حقيقية ، وإن كان كل مارآه لاحقيقة له ، وإن رأى حيات وعقارب وسعيرا وزمهريرا ودام إلى الأبد فهو الشقيّ شقاء أبديا ، فنفوسنا لايسعدها إلا ماأدركت ، ولا يشقيها إلا مالديها مما هو مؤلم ، فالنفوس إذن أصل الموجود عندنا ، أليس هذا أيها الأخ الذكيّ هو السرّ الذي وصل إليه قول [أفلاطون] في أن أصل العالم هو العالم العقلي ، فاذا كان ذلك هو دأب نفوسنا وهي فروع لنفوس أكبر تدبر هـذا العالم أفلا نقول : ان النفوس التي اشتقت منها نفوسنا هي على هذا النمط ، فهي أصل لوجود العوالم ، والمدار على تلك النفوس لاعلى ماتفرّع منها من العوالم ، وماهذه العوالم إلا صور لما في تلك النفوس العالية لأن المدار عليها كما أن المدار في الوجود وعدم الوجود إنما هي عقولنا وإرادتنا وهي الحقيقة عندنا لاغير ، فان كان في المنام فالحقيقة مانراه ، وإن كان في اليقظة فالحقيقة مانشاهده ، وأصل الوجود هو الأثير والحركات فيه ، واختلفت المناظر باختلاف أحوال الناظر فيها ، وإذا كانت عقولنا ونفوسنا هذا دأبها فلنقل هكذا دأب العقول التي اشتقت عقولنا منها ، وتلك العقول الأولى منزلتها من صانع العالم منزلة أفكارنا من أنفسنا وإن كان هذا مجرّد تشبيه لاغير وليس موضحا للحقيقة ، والتشبيه ماهو إلاضرب مثل لاغير ، وهذا الذي عوّلنا عليه إيضاح وتبيان للسرّ الذي ذكره أفلاطون ، وبهذا الايضاح سيزول اشكال الأمم في أصل وجود العوالم العلوية والسفلية ، والله هو الوليّ الحميد .

مسامرتان

ولأذكر لك هنا مسامرتين : الأولى عن الامام الغزالي . الثانية عن [باسمرك]

يقول الامام الغزالي : لو أنك خبأت كنزا ثمينا وفيه أموال عظيمة فانك تجد نفسك به فرحا مغتبطا ، ولو أن امرأ سرق ذلك الكنز وأنت لم تعلم به سنين عديدة لم يؤثر ذلك في فرحك بل فرحك به دائم مادمت معتقدا وجوده وأنه ملكك . انتهت المسامرة الأولى .

المسامرة الثانية

ماجاء في كتاب [مختارات الترجمة] باللغة الانجليزية تحت عنوان « لفافة التبغ التي تمتع بها باسمرك من غير أن يدخنها » وذلك أنه كان في [كونيكارتز] وقد حمى وطيس الحرب واشتدّ الكرب ، وشمرت الحرب عن ساقها ، وعمّ ضررها ، ولم يبق لديه إذ ذاك لفافة تبغ واحدة ، قال هو بنفسه مايأتي :

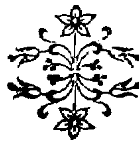
« إن قيمة لفافة التبغ لاتعرف اذا لم يكن لديك سواها وكانت آخر ما تملك من هـذا القبيل ، ولم يكن هنالك سبيل لنيل غيرها ، وفي [كونيكارتز] لم تكن عندى إلا لفافة تبغ واحدة ، فحفظتها في أمتعتي ، وحافظت عليها حفظ البخيل على كنز ماله مدة الحرب كلها ، وقد قرّرت في نفسي أن العقل يقضي ببقائها وليس من الحكمة تدخينها ، ولقد كنت أحسّ بأجل السعادات ، وأبهى المسرّات ، وأعزّ الساعات ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها حينما أتمتع بالنظر إليها وأشاهدها وهي قرّة عين لي ببقائها ، ولكن وا أسفاه قد وقع ماليس لي في الحسبان ، ذلك أن فارسا قطعت يداه أثناء الحرب أخـذ يهمس ملتمسا مايسلي نفسه

المسكينة وينعش فؤاده الحزين ، فأخذت أفتش فى حقيبتى ، فوجدت فيها النقود الذهبية ، ولكنها لا تغنيه شيئا مذكورا ، ولاتنعش قواه المنهوكة : فقلت له اجلس أنا أعطيك لفافة التبغ العزيزة لدىّ ، والتى هى سلوتى مدّة الحرب ، فأشعلت النار فيها ، ووضعت فها بين شفتيه الواهتين ، هنالك تبسم ذلك المسكين فرحا مسرورا شاكرا ، أنا لم أتمتع بلفافة تبغ مدة حياتى كهذه اللفافة التى تمتعت بها ولم أدخنها . انتهى

هاتان المسامرتان أيها الأخ الذكىّ تلقيان شعاعا على موضوعنا ، شرح الله صدرك للحكمة وأنار بصيرتك بالعلم ، وزين صدرك بالايقان ، ومامثل هاتين المسامرتين إلا كمثل نور المصباح يلقى شعاعه على أصل الموضوع الذى أختمه بما يقوله الفلاسفة : « إن الانسان يمشى على الحائط فيقع وما أوقعه إلا وهمه ، وهو يمشى على الأرض فى أقلّ من عرض الحائط » ، فالصور الذهنية مبدأ الشقاء والسعادة ، فكأن الفكر أصل أعمالنا ، والعالم الملكى الأعلى أصل عوالمنا ، فأصل الوجود للعقول وجميع العوالم إن هى إلا تابعات ، والعوالم كلها أشبه بشجرة ، وهذه الشجرة فيها زهرات كثيرات ، والزهرات هى الأبصار التى ضرب بها المثل فى القدر فقال : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » فلمح البصر كترتع الأزهار على الأغصان ، ووراء الزهرات الثمرات ، كما أن وراء العين العقول والنفوس الأرضية والسماوية وترتيب القضاء والقدر ، أفلا تعجب من سرّ القرآن ! .

فقال صديقى : إن هذا البيان عجب ! ولم أسمع مثل هـذا السرّ فى هذا التفسير . فقلت الحمد لله رب العالمين . انتهت اللطيفة الثالثة فى (١٠) جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هجرية — (١١) سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية . انتهى تفسير [سورة القمر]

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثالث والعشرون من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الرابع والعشرون ، وأوّله تفسير سورة الرحمن)



(الخطأ)

(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبيه . وهذا جـدول مما عثرنا عليـه من ذلك وهاهوذا :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧	٧	تخطاتم	تخبطتم
١٠	٣٥	حقفو	الحقوق
١٤	٢٣	السمان	السماق
١٤	٣٥	التمره	الثمره
١٥	١	زبيريه	زبيريه
١٥	٨	التمره	الثمره
١٥	١٤	زبيريه	زبيريه
١٥	١٨	ملترقه	ملتزقه
١٥	١٨	شحمنهاحبوب	شحمتهاحبوب
١٧	٩	التمره	الثمره
١٧	١٢	للتمره ـ للشمره	التمره ـ الثمره
١٧	١٤	للتمره	للثمره
١٧	٢١	الـكائفات	الـكائنات
١٧	٢٢	التمره	الثمره
١٧	٢٧	ومامى	وامامى
١٩	١٦	وراضى	وأراضى
٢٤	١٤	فالعلوم	يفيدان العلوم
٣٤	١٤	العصبان	العيدان
٣٥	٣	١٤	٢٦
٣٥	٤	٢٦	١٤
٣٧	٩	من	فى
٣٨	١	واذا	واذ
٣٩	٣٠	ولعرفه	ولمعرفة
٤٦	٥	جـاعة ـ جاعه	فوج ـ فوج
٥٧	١	قوادم	خوادم
٥٨	٢٨	ان كما يفـعل تسبيح المخلوقات باللفظ ونحـن لانسمع	ان تسـبيح المخلوقات باللفظ كما يسبح العقلاء ونحن لانسمع
٦٣	١٢	قدرى	ندى
٦٤	٢٠	الاوربار	الاوبار
٦٥	٢٥	حكيت	حاكيت
٦٧	٢١	فوعدته	قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته
٦٨	١٦	ومن نيته	وفى نيته
٧٠	١	وايما	وانما
٧١	١٦	عزمت على تركه فعزمنا	فعزمت على تركه فسمعت
٧٢	٨	لما	بل لما
٨٣	١٠	على غيره	لغيره
٨٤	٩	لوجه	الوجه
٨٧	١٣	مفتايا	مفتايا
٨٨	٦	متى	حتى
٩٧	١٧	يستجبرون	يستجيرون
١٠٨	٢	الغنى	الفتى
١٠٩	١	بدواه	بدواة
١١٢	٥	خبير	خبير
١٢١	٦	يزينها	يزين
١٢٦	٢٤	فى انحاء	فى انحاء جسمه
١٢٨	١	درجته	درجة
١٣٠	٢٦	والاعضاء الرئيسيه	....
١٣٠	٣٤	لاتبرز بطونهم	تبرز بطونهم
١٣١	٢٨	نعتبر	ان نعتبر
١٣٣	١٨	معنى	معنى هذا
١٤٦	٢٢	١٢	١٢٨
١٤٨	٥	مضاريب	....
١٤٩	٦	١٣	١٦
١٥٥	١٠	ألف متر	ألف كيلومتر

صفحه	سطر	خطأ	صواب
١٥٦	٦	و بكون	و يكون
١٥٨	١	خراجا حول السن المريض	خراج حول السن المريضة
١٥٩	٢٨	لأرق	الارق
١٦١	٣٥	في كتابي	وفي كتابي
١٦٢	١٤	تريك	تريك
١٦٢	١٨	والمقياس	والمقدار
١٦٢	٢٥	الدولة	...
١٦٥	٩	هكذا	جعل
١٦٥	٩	جعل	..
١٧٠	١١	والافتناء	والاقتناء
١٨٠	١٢	بالمعروف	المعروف
١٨١	١٩	ولكنه	....
١٨٣	٢٢	ولباس	وريشا ولباس
١٨٤	٧	متاحبات	متحابات
١٩٥	١٢	نقبل	تقبل
١٩٦	٢٣	وحل	وجل
١٩٩	٢١	النور	الثور
٢٠١	٢١	ونعيم	ونعيما
٢٠٣	٢٩	التمر	الثمر
٢٠٤	٧	الزهرات	....
٢٠٥	٤	الذكر والانثى	الذكر والانثى منه
٢٠٥	١٧	الجلبات	والجلبان
٢١٠	٥	بقتر	يقدر
٢١٣	٨	قبل	مثل
٢١٤	١٤	ايزدن	ايزوف
٢٢١	٢٨	مائتي	مائتين
٢٢٨	٣٣	لتجليبها	لتجليها
٢٣٥	١	في سورة	بسورة

(تمت)

فهرس

الجزء الثالث والعشرون

من كتاب

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صفحة

صفحة

لايعذبهم إلا تحلة القسم ، وأن آباءهم سيشفعون لهم عند الله يوم القيامة ، فهذا كله قد حصل فعلا عند المسلمين فكسلوا بعدما جهلوا المقصود من معنى شفاعة الشافعين ، فحروف [ا ل م] تشير إلى المسلمين الحاليين أن أفيقوا من غفلتكم والا حلّ بكم ماحلّ باليهود إذ ذاك ، إذن [ا ل م] فى أوّل [سورة البقرة] مفتاح لخزائن علوم كثيرة ، لأن القرآن مبتدأ بالبسملة وفيها الرحمة ، وهى مقدّمة للفاتحة ، والفاتحة مقدّمة للقرآن ، والقرآن فى أوّله [ا ل م] و [ا ل م] فى أوّل البقرة فتحت بها خزائن علوم الصبر على مكاره القتال ، وعن الشهوات فى آية : « ألم تَرَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » الخ فههنا صبر عن شرب الماء وصبر على الحرب ، والخزانة الثالثة فى سورة آل عمران وهى ترك الأمانى والأباطيل كما تقدّم ، وهناك خزانة رابعة ، وهى أن يعرف المسلمون تواريخ الأمم التى سكنوا ديارها « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » ولقد قرأ المسلمون ذلك ولكن لم يقوموا بدراسة تلك الأمم لحلّ بهم ماحلّ بالفرس والروم اللتين سكن المسلمون ديارهم ، وهناك خزائن من العلم أخرى ، ومنها خزائن علوم السموات والأرض المذكورات فى هذه السورة إذ يقول الله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم »

٢٤ وههنا ورد اعتراض على المؤلف ، وهوأن هذا القول لم يسبقك به أحد ، فانه يؤخذ من كلامك أن المفسر يجب عليه أن يعرف علم الفلك والطبيعة ونحوهما ، وهاهوذا صاحب الاتقان قد ذكر (١٥) علما ليس منها ماذكرته أنت ، إذن أنت مبتدع [وجوابه] أن قول الله كفعله ، وهوقد أبدع السموات والأرضين ، وجعل كل عالم كأنه زهر لما قبله من الأثير والمجرّات والسيارات والأشجار والأزهار ، فهذا الانسان له زهر وزهره هى الحكم التى تلقى على قلبه ، لأنه قد اختص بأنه دائما بين خطتى الخير والشرّ وعقله يحكم ويعمل بحكمة ، فتكون علومه ثمرات جدّه ، وهذه هى علم الموهبة الذى فى كلام [صاحب الاتقان] وقال به ابن أبى الدنيا الخ فالمتقدّمون سهلوا لنا سبل العلوم اللفظية ، ولكنهم تركوا لنا العلوم التى تورث الموهبة المذكورة ، إذن هذه العلوم تفيدنا الموهبة التى ذكروها ، فأما التفسير بالرأى والهوى فثل تفسير الروافض : إذ يفسرون البحرين فى آية : « مرج البحرين » بعلىّ وفاطمة الخ . ثم ان هذه العلوم التى تشير لها هذه الحروف كلها فروض كفايات ، واكتفاء المسلمين بقولهم : « الله أعلم بمراده » ينافى قول الله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ، فعجبا للمسلمين كيف ناموا عن دراسة أمم الفرس والروم وغيرهم بعد أن سكنوا ديارهم ، ومن أعجب العجب أن ملوك الاسلام استفادوا من هذه الحروف وأسرارها ، فهذا [محمود خان الغزنوى] لما أرسل خطاب تهديد إلى الخليفة العباسى أجابه الخليفة يقول [ا ل م] ولم يزد على ذلك ، فحار أهل الديوان فى ذلك ، فقال القهستانى أنتم هدّدتموه بالفيلة وهو يقول [ا ل م] مشيرا إلى : « ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل » الخ هنالك ارعوى [محمود خان الغزنوى] وتأدّب مع الخليفة ، واذا كان لفعل الله زهرات كما تقدّم من أن كل عالم كأنه زهر لعالم قبله ، هكذا نقول ان قول الله له زهرات كفعله ، وزهرات القرآن هذه الحروف التى بها تفتح خزائن القرآن وقد فتحت فعلا والحمد لله .

٢٦ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » وذكر مسامرة بينى وبين صديق لى أذكرنى بما شرحته من عجائب العين وغيرها فيما تقدم ، وتبيان أننا فى هذه الدنيا محبوسون عن منظر هذا الجمال الباهر ، لأننا لوأدركناه لزال عنا كل حزن ، ولكن

الجمال

صفحة

الجمال نعرفه شيئا فشيئا ، وذلك بالدرس وحده ، فلندرس الدنيا ولنخص بالدرس أجسامنا ، ولنذكر الآن عجائب العين التى بها نرى السماء .

٢٨ العين ومنفعتها ، وأن الناس يستعملونها ولايعقلونها ، و بيان كيف ركبت طبقات العين ، وكيف جعلت تلك الطبقات بهيئة موسيقية عجيبة جدا ، وكيف عرفنا الصور والأحجام بهذه الآلة ، نحن لا نعرف آلة إلا بتفصيل أجزائها ، وأجزاء العين نعرفها بدراسة عين البقرة من عندالقصاب (الجزار) ومتى نظرناها عرفنا أنها كرة فيها حبل أبيض خارج من خلفها فى داخل العين يوصل الى المخ ، ثم لندرس الطبقات طبقة طبقة .

٢٩ وههنا (شكل ١) قطعة من العين الانسانية وفيها وضحت ١٥ قطعة من داخل العين مثل الصلبة والقرنية والملتحمة وغطاء المشيمة ، وآخرها الرطوبة الزجاجية .

٣٠ ثم (شكل ٢) فيه أجزاء العين مفصلة ، ولكن شرحها قد تقدم فى [سورة المؤمنون] فلم يذكر هنا وهومعلوم ، جمال العين و بهجتها وعجائب اتقانها ، وذكرأهمّ أجزاء العين وهى القرنية : الرطوبة البيضية ، البلورية ، الزجاجية ، الشبكية ، وهذه تفهم بشكل (٣)

٣١ وهى تجربة تبين منفعة أجزاء معلومة من العين ، فترى المصباح يمثل ضوء الشمس مثلا ، واللوح الأبيض المثقوب يمثل القزحية ، والزجاجة المائية تمثل البلورية ، واللوح نمرة ٤ القابل للصورة يمثل الشبكية وبهذا ظهرت قيمة القزحية فهى المساعدة لتمام الصورة على الشبكية ، الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام الزجاجية المملوءة ماء ، إن الزجاجة المتقدمة يعرفها الخاص والعام وهى تمثل البلورية ، ولكن العلم يعوزه ماهو أعظم من ذلك وهى أجسام زجاجية مضلعة (شكل ٤) قطعة من بلورتين محدبتين وجزء من منشورين .

٣٢ تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة : سير الضوء فى منشورين قاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر فصار أبيض فى الوسط ، والأشعة الزرقاء أسرعت فاجتمعت أوّلا ، والحمراء اجتمعت بعد ذلك ، واذا وضعنا بلورتين معا كما وصفنا رأينا نفس هذا السير فى الضوء ، إن للقزحية إذن فائدتين : أوّلا لها الفضل فى ظهور الصورة على الشبكية ، ثانيا انها تحفظ الضوء من أن يكون أزرق أوأحمر برتقاليا عند حافته ، فان ذلك نقص يعوق النظر ، ولقد احتال العلماء بوضع ستارة حلقية فى الآلة البصرية [التلسكوب] فمنعت هذا العائق ، وهكذا فعل القزحية فهما سواء فى ذلك .

وظائف القزحية والبلورية والشبكية : فالأولى لحفظ الصورة واضحة ، والثانية ترسلها ، والثالثة توصلها إلى الدماغ ، والشبكية عشرطبقات مفصلات فى (شكل ٦)

٣٣ وآخر طبقة منها فيهاثلاث ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة ، وصورة هذين النوعين فى صفحة ٣٤ (شكل ٧)

٣٦ يقول المؤلف : إن كثيرا من الشبان سيعشقون هذه العجائب ، تأثير الضوء فى النبات والحيوان والجماد المبحث الثانى من اللطيفة الثانية فى عجائب السماء والكواكب ، وههنا الكلام الاجمالى على السيارات وعلى الشموس الكبيرة والمجرّات ، والشمس تبعد عن سطح المجرّة ٥٠,٠٠٠ خمسين ألف سنة نورية ، وهى تسير مع شموس أخرى بسرعة مليون ميل فى اليوم .

٣٨ وظهر ١٩ نجما جديدا من سنة ١٣٤ ق م إلى الآن ، إن النجم الصغير المسمى [درواس] يبعد عنها

صفحة

١٢ ألف سنة نورية ، وضوءه أكثر من ضوء شمسنا ٦٠٠ ألف مرّة ، وبعض النجوم ضوءها ألمع من ضوء شمسنا من ١٥ ألف إلى ٦٠ ألف مرّة ، ونجم القطب اشراقه أكثر من اشراق شمسنا ١٠٠ مرّة وهكذا نجوم أخرى تقلّ عنه ، شمس الشموس هو [العيوق] وهو الذى يقال ان نجوم المجرّة كلها البالغة ٣٠ ألف مليون نجم تدور حوله ، وهو أكبر من الشمس مليونى مرّة و٤٢٠ ألف مرّة ، واشراقه أكثر منها نحو ٥٠ ألف مرّة . قطر المجرّة ٣٠٠ ألف سنة نورية ، وقطر بعض السدم ٢٠ ألف سنة نورية ، وأخفى السدم يبعد عنا عشرة ملايين سنة نورية .

٤٠ تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات ، يقول المسلم فى الرفع « ربنا لك الحمد ملء السموات » الخ وهل معنى هذا الامتلاء إلا بأن يمتلئ القلب بالاعجاب بذلك الجمال ! فيكون الحمد إذ ذاك عن حب باعث له ، وقول المصلى فى سجوده « سجد وجهى الخ » جاء فيه ذكر السمع والبصر ، وههنا يسجد ويقترب ، لأن الدقة واضحة فى السمع والبصر ، والنظر للسماء مقدّمة للنظر فى النفس ، فالمسلم مبتدئ فى الرفع ومنته فى السجود لشدّة اقترابه بمعرفة دقة صنع نفسه ، ليس المدار على عظمة المصنوع بل المدار على دقته .

٤١ تسبيح المخلوقات وشرح الكلام فى القزحية وأنها تضبط النور ، وهكذا ذكر ألوان الآساد وغيرها ، وأنها وضعت لحكمة حفظها ، وهذا هو المقصود الحقيق من التسبيح ، فكل شىء يسبح بهذا الاعتبار ، والناس يجهلون هذه الدقائق ، فهم لايفقهون تسبيح المخلوقات والله حليم عليهم .

سرّ من أسرار حكم العين وقزحيتها .

٤٢ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « والأرض مددناها » الخ وفيها مقالتان : المقالة الأولى فى قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » النبات إما وحيد الخلية ، واما كثير الخلايا ، والخلية لها جدار صلب شفاف فى داخله مادّة لزجة لها صفات الحياة الست مثل القدرة على تمثيل الغذاء الخ وفى داخل هذه الخلية نواة قد تكون فى داخلها (نوية) وهذه الخلية تنقسم انقساما مباشرا فى النباتات الدنيئة ، وانقساما غير مباشر فى النباتات المرتقية ، ههنا شكل ٨ وشكل ٩

٤٥ شكل ١٠ فيه نوع الخلايا وهى هنا ستة أنواع : مثل الخلايا المرتسيمية الخ ، ثم ان النبات ذا الخلية الواحدة تقدّم فى سورة حم فصلت ، وأما المركب من خلايا كثيرة فهو إما ذوفلقة واحدة ، واما ذوفلقتين ، فالأوّل مثل البصل والثوم والكرّاث البلدى والصبار والنخل والقمح والارز والذرة الشامى وقصب السكر الخ — وذوالفلقتين مثل الكرنب والقنبيط والفجل والتفاح والطماطم الخ .

٤٧ شرح الساق فى النبات ذى الفلقتين مثل [الكيوتين] ومثل البشرة تحته ، وهكذا إلى سبع طبقات ، وآخرها أشعة نخاعية (انظر شكل ١١) و (شكل ١٢) و (شكل ١٣) و (شكل ١٤) و (شكل ١٥)

٤٩ امتحان الساق فى ذى الفلقتين يظهر فى الحلبة والملوخية بسهولة ، شرح ساق النبات ذى الفلقة الواحدة وفهم (شكل ١٦ و ١٧ و ١٨) : الفرق بين نموّ الساقين أن أحدهما يزداد فى السمك عاما بعد عام وهو ذوالفلقتين وبالعكس ما كان ذا فلقة واحدة كالنخل

٥١ وهنا (شكل ١٩) فيه الحلقات السنوية .

٥٢ شكل الخشب فى أشجار مختلفة (شكل ٢٠) و (شكل ٢١) لبيان الجذور ، وأشكال ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ لأصل النباتات الحزازية .

شكل

صفحة

صفحة

وهناك

صفحة

وهناك يساوى مربع الوتر مربعى الضلعين الآخرين ، وهذه من عجائب نفوسنا ، وههنا الكلام على النسبتين العددية والهندسية ، وكيف أمكن أن يجعل من كل منهما وفق بحيث يكون جمع أوضرب أى صف أفقى أورأسى أوقطرى مساويا لباقى الصفوف الرأسية والأفقية والقطرية ، وهذا غاية العجب وكل هذا من عجائب نفوسنا ، وهكذا يستبين العدد الكامل والناقص والزائد والأعداد المتحابة ، وذلك كله باعتبار مضاريب الأعداد ، فان ساوت المضاريب نفس العدد فهوكامل ، وان زادت فهو زائد ، أونقصت فهوناقص ، وان ساوت مضاريب عدد عددا آخر وكانت مضاريب ذلك العدد مع العدد الأوّل كذلك سمى العددين متحابين .

١٤٨ إن أمر نفوسنا عجب ! انها عرفت أن من الكسور مالانهاية له ، ومنها ماله نهاية ، والأوّل كسردائر مركب أو بسيط ، والثانى ليس بدائر ، وسير الكواكب كالكسر الدائر المركب ، وعدم نهاية أجزاء المادّة كالكسر الدائر ، وكذلك عدم تناهى العوالم ، وههنا تعجب المؤلف من المثلثين المتقدّمين ونظامهما العجيب ، ويقابل ذلك كله التشريح ونظام الأمم .

١٥٠ الفصل الثانى فى حدائق العلوم التى تفيأ الناس ظلالها من علم الفلك والطبيعة ، وظهورغاية الدهش من حساب الأحجار الساقطة فى نظام سرعتها ! وكيف دخل فيها الجذروالتربيع الخ وهكذا نظام أوراق النبات .

١٥٢ (شكل ٢٧) و (شكل ٢٨) يمثلان نظام أوراق أمثال شجرالتفاح الذى يرجع إلى كسر بسطه عدد (٢) ومقامه عدد (٥) والأوّل للأشكال الحلزونية فى الدائرة الواحدة ، والثانى لعدد أوراقها ، وكيف كانت الورقات الخمس فى الدائرة بينها مسافات متساوية ٧٢ درجه من محيط الساق وهو دائرة تامة

١٥٣ الفصل الثالث فى أن الأمم وان استظلت بظلال تلك العلوم فى حياتها لم تجن ثمراتها .

١٥٤ الانسان لم يدرس حقائق السياسه كما درس أحوال الحياة .

لطيفة فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

١٥٥ [الشذرة الأولى] فى كريات الدم الحمراء [الشذرة الثانية] فى بعض المنافع الطبية والمحافظة على الأسنان وتنظيفها ونحوذلك ، وأن الأسنان الذهبية قاتلة لنوع الانسان ، وأن الأسنان لابدّ من تسويكها ، واللثة لابدّ من تنظيفها بالأصبع لا بالسواك .

١٦٠ الشذرة الثالثة فى أمر النفس وعجائبها ، وبيان أن الحقول هى الكلية الأولى لعلم النفس ، ذلك أنى كنت أفكر فى أمر النفس وأنا فى الحقل ، ولم يكن أمامى إلا السماء من فوق والأرض من أسفل والناس حولى ، فهى هكذا : عالم علوى ، وعالم سفلى ، ونفس الانسان ، وجميع المخلوقات على الأرض ملحق بها ، ثم قرأت علوم الأزهر ونظرت فى كتب الفلاسفة المتقدّمين ، ثم فلاسفة أوروبا ، فوجدت المتقدّمين جعلوا العلوم هكذا : رياضيات ، طبيعيات ، إلهيات ، والطبيعيات هى سماع الكيان والسماء والعالم ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، والمعادن ، والنبات ، والحيوان ، والانسان . ثم هم يقولون إن للنفس ثلاث قوى ، ثم يأتون بعد ذلك بالعلم الأعلى وهوخمسة علوم ، وهذه كلها مع الرياضات ومع تهذيب الشخص ونظام الأسرة ونظام الأمة تبلغ ١٧ علما ، ولها فروع كثيرة ، وجاء [بيكون] فقال أنا أجعل مبدأ التقسيم نفس الانسان مخالفا مذهب المتقدّمين ، فاعتبر القوّة المخيلة والمفكرة والحافظة وجعل نظام الطبيعة ونفس الانسان والذات العلية للقوّة العاقلة ، ونحوالشعر للقوّة المخيلة ، ونحوالتاريخ

صفحة

الفلك

(تمت الفهرست)